الكاتب الأكثر مبيعًا بحسب نيويورك تايمز

مكتبة ياسمين

جو هيل

بالاشتراك مع

ستيفن كينج

بأقصى سرعة

عصير الكتب

ترجمة: شيرين هنائي

بأقصى سرعة

في قصة "العشب الطويل"، القصة المكتوبة بالمشاركة مع ستيفن كينج، يهرع أخ وأخت لاستجابة استغاثة، فيكتشفان شيئًا شنيعًا. في قصة "إله الغابة فو" نقرأ عن باب صغير يُفضي إلى عالم القصص الخيالية العجيب، ويصبح هذا العالم مرتعًا داميًا لعصابة صيادين.

أمين مكتبة في حداد، يقود مكتبة متنقلة عتيقة ليوصل الإصدارات الجديدة إلى الموتى، في قصة "مرتجعات متأخرة". وفي قصة "جوار مياه بحيرة تشامبلين الفضية" التي تحولت إلى حلقة من مسلسل Creepshow، يتعثر صديقان شابّان في جثة ديناصور مائي عند حافة البحيرة، وهو اكتشاف يجبرهما على مواجهة موت لا مفر منه.

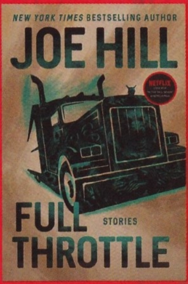

أما في قصة "بأقصى سرعة" المكتوبة بالمشاركة مع ستيفن كينج أيضًا، نقرأ عن مواجهة وسط قيظ صحراء نيفادا. سائق شاحنة غامض يجد نفسه طرفًا في رقصة مشؤومة مع مجموعة من راكبي الدراجات البخارية الخارجين عن القانون. قصة "بأقصى سرعة" تحفر في عمق الأسرار التي تُخبئها نفوسنا الضعيفة، فتُخرِج أفظع مخاوفنا، وتُظهر موهبة الكاتب الاستثنائية.

غلاف: عبد الرحمن الصواف

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

عصير الكتب
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

بأقصى سرعة

مكتبة ياسمين

اشترك معنا امسح QR

اضغط الصفحة اتبع الرابط

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

- العنوان الأصلي: Full throttle
- العنوان العربي: بأقصى سرعة
- طُبِع بواسطة:
William Morrow an imprint of Harper Collins

- حُقوق النشر:
copyright © 2019 by Joe Hill
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: شيرين هنائي
- تحرير: مصطفى رزق
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- رقم الإيداع: 2023/26674م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-345-1

لأجل الحالِم رايان كينج... أحبك.

المحتويات

تقديم

مَن أبوك؟ 9

بأقصى سرعة

مع ستيفن كينج 25

دوَّارة الملاهي الخبيثة 61

محطَّة وُلفيرتون 91

جوار مياه بحيرة تشامبلين الفضية 111

فون 135

العائدون 175

كل ما يهمني؛ أنت 221

بصمة إبهام 253

شيطان السُّلَّم 277

تويتات من سيرك الموتى 309

الأمهات 343

وسط الحشائش العالية (مع ستيفن كينج) 383

ملاحظات عن القصص 423

تقديم

من أبوك؟

يزورني وحش جديد كل ليلة...

كان لديَّ هذا الكتاب الذي أحبُّ؛ «*أحضِروا الأشقياء*». كتاب ضخم مكتنز ذو غلاف ورقي، يضمُّ مجموعة قصص مصوَّرة، وكما لا بُدَّ أنك خمَّنت من اسمه، لا يتناول سِيَر الأبطال، بل هو مختارات من القصص عن أكثر الشخصيات الضالَّة ضلالًا، عن مختلِّين نفسيين منحطِّين يحملون ألقابًا مثل «الفاحِش»، ووجوهًا تليق بتلك الألقاب.

اعتاد أبي أن يقرأ لي من الكتاب كل ليلة. لم يكن لديه خيار؛ كان بيننا نوع من اتفاقيات «شهرزاد». لو لم يقرأ لي، ما كنت لأمكث في الفراش، وسأنزلق من تحت غطائي المنقوش برسوم شخصيات فيلم «الإمبراطورية تردُّ الضربة»[1]، ثمَّ أجول في أرجاء المنزل مرتديًا منامة الرجل العنكبوت، وإبهامي في فمي، وغطائي الخفيف فوق كتفي. كنت لأجول طيلة الليل لو

(1) الفيلم الخامس من سلسلة أفلام حرب النجوم.

ناسب هذا مزاجي. وَجَبَ على أبي الاستمرار في القراءة حتَّى تكاد عيناي تنغلقان من تلقاء نفسيهما، وقتها يمكنه بالكاد الخروج لحظات للتدخين ثمَّ العودة فورًا.

(تصرُّ أمي أنني كنت أعاني أرقًا في طفولتي بسبب صدمة نفسية؛ تلقَّيت حمولة جاروف من الثلج في وجهي، وأمضيت ليلة في المستشفى. في تلك الفترة الزمنية التي راجت فيها مصابيح اللافا[1]، والأبسطة الشعثاء، والتدخين على متن الطائرات، لم يكن مسموحًا للأبوين بالمبيت مع أطفالهم المصابين في المستشفى. تقول القصَّة إنني استيقظت عند منتصف الليل فوجدت نفسي وحيدًا ولم يكن والداي معي، فحاولت الفرار. أمسكت بي الممرِّضات وأنا أجول في الرواق عاري المؤخِّرة، وأعادوني إلى المهد وربطوا فوقي شبكة تمنعني من القيام. صرخت حتَّى كَلَّ صوتي. القصَّة مخيفة ذات طابع قوطي رائع، وأعتقد أننا كُنَّا مضطرِّين إلى تصديقها. آمل فقط أن المهد لم يكن أسود، صدئًا، وأن واحدة من الممرِّضات لم تهمس لي: «كل هذا لمصلحتك يا داميان![2]».

أحببت أيضًا مَن هم دون البشر في كتاب «أحضِروا الأشقياء»، وهم مخلوقات مخبولة تصرخ في جنون آمرة بما لا يُعقَل، ويسخَطون عندما لا يلبِّي أحد طلباتهم. يأكلون بأيديهم، ويتوقون إلى عضِّ أعدائهم. بالطبع راقوني؛ كنت في السادسة وبيننا أمور كثيرة مشتركة.

قرأ لي أبي هذه القصص، تتحرَّك إصبعه من كادر مرسوم إلى آخر لأستطيع متابعة الأحداث. لو سألتني كيف هو صوت كابتن أمريكا، لأجبتك أن صوته هو صوت أبي. كذا كان صوت دورمامو الرهيب، وسو ريتشاردز في قصَّة المرأة الخفية.. صوتها صوت أبي وهو يمثل بصوتٍ أنثوي.

كلهم كانوا أبي. كل واحد منهم.

***

(1) Lava lamps مصابيح مكونة من وعاء زجاجي يحتوي خليطًا من الشموع السائلة بألوان مختلفة تسبح في سائل شفاف. يسخن المصباح عند قاعدة الوعاء فيسيل الشمع مؤقتًا ويطفو عند أعلى الوعاء، ثمَّ يبرد فينزل إلى القاع ليسخن مرَّة أخرى وهكذا، ممَّا يعطي شكلًا جماليًّا متحركًا.

(2) يقصد شخصية داميان، ابن الشيطان من فيلم «النذير».

كل ابن ينتمي إلى مجموعة من مجموعتين..

هناك الابن الذي ينظر إلى أبيه ويقول لنفسه: *أكره ابن العاهرة هذا، أقسم بالله إنني لن أشبهه في شيء.*

وهناك الابن الذي يحلم بأن يكون مثل أبيه، في طيبته وحُريته واتساقه مع ذاته. طفل كهذا لن يخشى أن يتشبَّه بأفعال أبيه وأقواله. هو فقط يخشى ألا يرتقي إلى مكانته.

أعتقد أن الأول هو الطفل الذي ضلَّ في ظل أبيه. قبل كل شيء، هناك مَن ينظر إلى أبيه ثمَّ يقرِّر أن يهرب بأسرع ما يمكنه إلى الاتجاه المعاكس. كم هي المسافة التي تحتاج إليها بينك وبين أبيك حتَّى تتحرَّر من ظله؟

ومع ذلك، وفي كل منعطف في الحياة، يجد صاحبنا أباه خلفه بالضبط، في موعده الغرامي الأول، في زفافه، في مقابلة العمل. يجب أن يقارن كل تصرُّف يتصرَّفه بنموذج أبيه كي يفعل العكس. بهذه الطريقة تتوتَّر العلاقات أكثر حتَّى لو لم يتحدَّث الابن والأب لسنوات.

كل هذا الفرار، ولا يصل صاحبنا إلى أي مكان.

الطفل الثاني يسمع مقولة الشاعر چون دون «نحن بالكاد ظلال آبائنا الممدودة وقت الظهيرة»، فيومئ ويغمغم: *اللعنة! أليست هذه هي الحقيقة؟* هو محظوظ.. محظوظ إلى درجة مريعة غبية ظالمة. هو حرٌّ ليصبح مثل أبيه. الحقيقة أن الأب لا يلقي ظلالًا على الإطلاق، بل هو مصدر النور، وسيلة لتسهيل رؤية ما أمامنا بوضوح والعثور على طريق المرء الخاص.

أحاول أن أتذكَّر كم كنت محظوظًا.

***

هذه الأيام نحن واثقون أنه لو أعجبنا فيلم، فيمكننا مشاهدته مرَّة أخرى. تشاهده على منصة «نتفلكس» أو تشتريه من متجر «آي تيونز»، وستحصل عليه ضمن مجموعة على أسطوانة مدمجة.

لكن حتَّى الثمانينيات، لو شاهدت فيلمًا في السينما، لن تراه مرَّة أخرى على الأرجح إلا لو عُرِض على شاشة التلفاز. لا يمكنك أن تعيد مشاهدة الأفلام إلا من خلال ذاكرتك في نسخة خائنة واهية، لكنها لا تخلو تمامًا من المزايا. الكثير من الأفلام تبدو أفضل حين تشاهدها من خلال ذاكرتك الغائمة.

حين كنت في العاشرة اشترى أبي جهاز مُشغِّل أقراص ليزريَّة، وهو سَلَف مُشغِّل الأقراص المُدمجة الحالي. ابتاع أيضًا ثلاثة أفلام: «الفك المفترس»، «لقاءات لصيقة من النوع الثالث»، «الثنائي». جاءت الأفلام مُحمَّلة على أقراص ضخمة لامعة، كل منها يحوي عشرين دقيقة من الأفلام على كل جهة. حين تنتهي أول عشرين دقيقة، يقوم أبي ويقلب القرص.

ظللنا طيلة الصيف نشاهد الأفلام الثلاثة ونعيدها مرارًا. اختلطت الأقراص، فكنا نشاهد لمدَّة عشرين دقيقة ريتشارد دريفوس يتعثَّر صاعدًا التلال الترابية ليلحق بأضواء الكائنات الفضائية في السماء، ثمَّ نشاهد عشرين دقيقة أخرى لروبرت شو يصارع القرش فيقضمه الأخير. مع الوقت، تداخلت الأفلام معًا وصنعت نسيجًا قصصيًّا واحدًا يجاهد فيه رجال للهرب من كائن مفترس وهم ينظرون إلى السماء في انتظار الغوث.

حين ذهبتُ إلى السباحة في هذا الصيف، غُصت تحت سطح البحيرة وفتحت عينيَّ، وكنت واثقًا أنني سأرى كائنًا أبيض ضخمًا يندفع نحوي من وسط الظلام. أكثر من مرَّة أسمع نفسي أصرخ تحت الماء. حين أكون في حجرتي، أتوقَّع أن تتحرَّك دُماي بقوة ما ورائية، مصدرها الطاقة المُشعَّة من الأطباق الطائرة.

وفي كل مرَّة أذهب فيها إلى الغطس مع أبي، نشاهد فيلم الثنائي، إخراج الشاب الذي بالكاد تجاوز العشرين؛ ستيڤن سبيلبرج. يدور فيلم الثنائي حول رجل متديِّن (دينيس ويڤر) يقود سيارة بليموث عبر صحراء كاليفورنيا، يتعقَّبه رجل مجهول غير مرئي يقود شاحنة «بيتربيلت» هادرة. كان -ولا يزال- صورة مُشمسة من أعمال هيتشكوك، وإظهارًا لإمكانات سبيلبرج اللانهائية.

حين كنت أرافق أبي في سيارته، كُنَّا نحب أن نتظاهر بأن الشاحنة خلفنا. عندما تصدمنا الشاحنة الخيالية من الخلف، يضغط أبي دوَّاسة الوقود ويتظاهر أننا صُدمنا أو انحرفنا عن الطريق، فأميل بقوة إلى الأمام وأصرخ. لم أكن أربط حزام الأمان بالطبع. أكان هذا في عام 1982، أم 1983؟

كنا نضع ست علب بيرة بين مقعدينا، وعندما ينهي أبي علبة، يلقيها من النافذة مع عُقب سيجارته.

تصدمنا الشاحنة مرارًا، فيصرخ أبي، ويطوِّح السيارة على الطريق يمينًا ويسارًا كأننا مُتنا. ربما يقود دقيقة كاملة ولسانه خارج فمه، ونظارته مائلة على أنفه ليؤكد أن الشاحنة سحقته. دائمًا كُنَّا نموت على الطريق معًا، الأب والابن وروح الشاحنة غير المقدَّسة.

***

قرأ لي أبي عن «العفريت الأخضر»، لكن أمي كانت تقرأ لي روايات «نارنيا». صوتها كان -وما زال- هادئًا كأول زخَّة ثلج في السنة. تقرأ عن الخيانة والذبح بنفس الصبر والإيمان الذي تقرأ به عن القيامة والخلاص. ليست امرأة متدينة، لكن سماع صوتها إذ تقرأ يُشعرك كأنك في كاتدرائية قوطية، محاط بالضوء والرحابة.

أتذكَّر موت أصلان[1]، والفئران تقرض الحبال التي تُقيِّد جثته. أمدَّني هذا المشهد بحِس الكرامة. يمكن أن تعيش حياة كريمة وأنت مجرَّد فأر يقرض حبلًا. فأرٌ قارضٌ واحدٌ غير كافٍ، لكن إن كُنَّا جماعة تقرض، فقد نحرِّر مَن ينقذنا ممَّا هو أسوأ. ربما ينقذنا من أنفسنا.

أومن كذلك أن الكتب كالخزانات المسحورة، تُدخل إلى حيِّزها الضيق لتخرج إلى عالم سرِّي رحب، عالم أكثر رعبًا وإبهارًا من عالمك.

***

لم يقرأ أبواي القصص فقط، بل كتباها أيضًا، وهما ماهران في كتابتها. برع أبي في الكتابة حتَّى ظهر على غلاف مجلة تايمز.. مرَّتين! يقولون عنه إنه بُعبُع أمريكا. في هذا الوقت كان ألفريد هيتشكوك قد مات، وعلى أحدهم أن يأخذ مكانه في إرعاب الناس. لم يمانع أبي في هذا. بُعبُع أمريكا وظيفة مُربحة.

تحمَّس المخرجون لأفكار أبي، وتقدَّم المنتجون بالأموال، فتحوَّلت أغلب الروايات إلى أفلام. صادَق أبي مخرج أفلام مُستقل يُدعى چورچ أ. روميرو. روميرو هو المخرج المُتمرِّد الذي خلق عوالم الزومبي في فيلمه «ليلة الموتى الأحياء»، لكنه نسي نوعًا أن يسجِّل حقوق الفكرة، لذا لم تحقِّق له الثراء

(1) شخصية الأسد في روايات نارينيا.

المتوقَّع. سيظل صناع فيلم ليلة الموتى الأحياء مدينين لبراعة روميرو في الإخراج، وفشله في حفظ حقوقه الفكرية.

أحب أبي وروميرو نفس نوعية القصص المصوَّرة، تلك المقزِّزة الدامية المنشور قبل الخمسينيات، قبل أن يمنعوا نشرها ويحيلون حياة الأطفال إلى جحيم ممل مرَّة أخرى. أذكر من تلك المجموعات القصصية: «حكايات القبو»، «خزانة الرعب»، «مصيدة الخوف».

قرَّر أبي وروميرو أن يصنعا فيلمًا معًا، فيلم رعب يشبه تلك القصص المصوَّرة. لعب أبي في الفيلم دور الرجل الذي أصيب بعدوى غريبة وتحوَّل إلى نبات. صوروا الفيلم في مدينة «بيتسبرج»، وأعتقد أن أبي لم يحب أن يكون هناك وحده، فأخذني معه وحشرني في الفيلم أيضًا. لعبت دور الطفل الذي قتل أباه بدُمية ڤودو سحرية بعدما حرمه أبوه من قصصه المصوَّرة. لعب دور أبي توم أتكينز، الذي كان في الحقيقة ودودًا سهل الاستدراج للقتل.

امتلأ الفيلم بالمشاهد المقزِّزة: رؤوس مقطوعة، جثث منتفخة بالصراصير تنشطر إلى نصفين، موتى زاحفون خارجين من المستنقع. وظَّف روميرو الفنان توم ساڤيني المختص في مكياج الجثث، وهو الساحر نفسه الذي صنع الزومبي في فيلم «ليلة الموتى الأحياء».

كان ساڤيني يرتدي دومًا سترة قيادة دراجات بخارية سوداء من الجلد، وحذاءين عاليي الرقبة. لديه لحية مستديرة تحيط بفمه مثل الماعز الشيطاني، وحاجبان مائلان مثل حاجبَيْ سبوك[1]، وفي مقطورته رفٌّ كامل يحوي كتب تشريح. شغل وظيفتين في فيلم «فيلم رعب»: تصميم المؤثِّرات الخاصَّة، ومُجالستي.

قضيت أسبوعًا كاملًا في مقصورته أشاهده وهو يلوِّن الجروح وينحت المخالب. كان أول نجم في حياتي. كل ما يقول يدهشني، وكل ما يتفوه به حقيقي. ذهب إلى الحرب في ڤايتنام، وأخبرني أنه فخور بما أنجز فيها: أنه لم يُقتَل. يؤمن بأن إعادة تمثيل المذابح في الأفلام علاجه النفسي مدفوع الأجر.

شاهدته يحوِّل أبي إلى كائن من المستنقعات، فثبَّت الطحالب على حاجبيه، وألصق فرشاة متشعِّثة إلى يديه، ودسَّ قطعة من النجيل الصناعي

---

(1) إحدى شخصيات سلسلة أفلام ستار تريك (رحلة النجوم).

في فمه. لنصف أسبوع لم يكن لديَّ أب، بل حديقة ذات عينين. على ما أتذكَّر، كان يفوح برائحة التربة تحت كومة أوراق شجر جافة في الخريف، لكن على الأرجح مصدر الرائحة خيالي.

المفترض أن يمثِّل توم أتكينز أنه يصفعني، ورسم سافيني كدمة على خدِّي لها شكل الكف. استمر التصوير حتَّى ساعات الليل الأخيرة، وكنت أتضوَّر جوعًا بحلول وقت مغادرة موقع التصوير. اصطحبني أبي إلى مطعم «مكدونالدز» قريب. كنت متعبًا للغاية، وأتقافز وأنا أصيح طالبًا مخفوق الحليب بالشوكولاتة، فقد وعدني أبي بمخفوق حليب! في لحظة، أدرك أبي أن كل موظفي المطعم يحدِّقون إلينا بأعين خائفة مُتهمة. كان رسم الكدمة لا يزال على خدِّي، ونحن بالخارج في الواحدة صباحًا ليشتري لي أبي مخفوق الحليب لـ.. لأي غرض؟ رشوة كي لا أبلغ عنه أنه يرعبني؟ خرج من المطعم قبل أن يطلب أحد خدمة حماية الأطفال، ولم نتناول أي شيء من مكدونالدز حتَّى غادرنا بيتسبرج.

بحلول وقت عودتنا إلى البيت عرفت شيئين؛ أولهما أنه ليس لديَّ مستقبل حقيقي كممثِّل، ولا أبي (معذرة يا أبي)، وثانيهما أنني إن لم أكن قادرًا على التمثيل، فقد وجدت لحياتي مغزًى. لقد راقبت سافيني يعمل لمدَّة سبعة أيام، يذبح الناس بفنِّه ويبتكر وحوشًا لا تُنسى، وكان هذا ما وددت فعله أيضًا.

وهذا ما انتهيت إلى فعله.

يقودني هذا إلى ما أردت قوله في هذا التقديم؛ للابن أبوان فقط، لكن إن كنت محظوظًا قد تحصل مثلي على عدَّة آباء وأمهات. عندما يسأل أحدهم كاتبًا: مَن أبوك؟ فيكون الرد الأمين الوحيد هو: الأمر مُعقَّد.

***

في المدرسة الثانوية عرفت مَن يقرؤون المجلات الرياضية المصورة من الغلاف للغلاف، ومَن يحفظون كلمات أغاني فريق رولينج ستونز عن ظهر قلب. بالنسبة لي فأنا أقرأ إصدارات أربعة أعوام من مجلة «فانجوريا». فانجوريا -فانجو بالنسبة لقرَّائها- مجلة لنوعيات أفلام معينة مثل فيلم «الشيء» لجون كاربنتر، و«الصدمة» للويس جرافين، وبضعة أفلام أخرى تحمل اسم ستيفن كينج. كل عدد من فانجو بداخلة مطويَّات مثل مجلة بلاي

بوي، لكن بدلًا عن صور الفتيات ذوات السيقان المنفرجة، صور مختلِّين يشجُّون الرؤوس بفؤوسهم.

فانجو كانت دليلي للمناظرات الاجتماعية السياسية في الثمانينيات، التي تطرح أسئلة مثل: هل فريدي كروجر[1] مضحك أكثر من اللازم؟ أي فيلم هو الأكثر إثارة للتقزُّز عبر التاريخ؟ والسؤال الأهم: هل سيكون ما هو أفضل وأكثر دموية من تحوُّل المذؤوب في فيلم «مذؤوب أمريكي في لندن»؟ (إجابة أول سؤالين مفتوحة للتخمين، أما إجابة السؤال الثالث فهي ببساطة: لا).

مستحيل أن يخيفني أي شيء، لكن فيلم مذؤوب أمريكي فعل شيئًا قريبًا من هذا؛ أثار بداخلي امتنانًا عظيمًا. بدا لي كأن الفيلم وضع مخلبه المُشعر على الفكرة القابعة تحت سطح كل أفلام الرعب الحقيقية. بالتحديد فكرة أن يكون الإنسان سائحًا في بلد بارد مُعادٍ عتيق. ككل السائحين، نأمل في بضع ضحكات، وشيء من المغامرة، ودحرجة على أكوام التبن. لكن من السهل أن نضلَّ الطريق. اليوم ينتهي سريعًا، والشوارع مُحيرة، وهناك مخلوقات ذات أنياب في الظلام. كي ننجو، علينا أن نبرز نحن أيضًا أنيابنا.

في الوقت الذي كنت أتابع فيه فانجوريا، بدأتُ الكتابة يوميًّا. بدت لي الكتابة أمرًا عاديًّا للغاية، فقبل كل شيء، كنت أرى -بعد عودتي من المدرسة- أمي تجلس خلف جهاز الكتابة الإلكتروني الأحمر، وأبي منحنيًا نحو شاشة مُعالِج النصوص، وهو أكثر جهاز حداثي جلبه إلى البيت منذ مُشغل الأقراص الليزرية. شاشة الجهاز هي أكثر الشاشات السوداء حُلكة، والكتابة خضراء بلون الإشعاع السام في أفلام الخيال العلمي.

يدور بيننا على العشاء حديث عن الخيال والشخصيات الروائية والأماكن والحبكات والسيناريو، فخلُصت إلى الاستنتاج الوحيد المنطقي؛ لو جلست مع نفسك ساعتين في اليوم واختلقت أحداثًا، فعاجلًا أو آجلًا سيدفعون لك مقابل جهودك هذه، وهذا ما اكتشفت أنه الحقيقة.

لو كتبت في محرِّك بحث جوجل «كيف أكتب كتابًا؟»، ستجد مليون إجابة، لكن هذه هي الحقيقة القذرة: المسألة مسألة حساب. ليس حسابًا مُعقدًا، بل هو أقرب لحساب المرحلة الابتدائية. اكتب ثلاث صفحات يوميًّا. بعد مئة يوم

---

(1) شخصية السفاح المرعبة في فيلم كابوس شارع إلم.

ستحصل على ثلاثمائة صفحة، تكتب في آخرها «النهاية»، وتكون قد أنهيت كتابًا.

كتبت أول رواية في عمر الرابعة عشرة وسمَّيتها «أكلات منتصف الليل»، وتدور أحداثها حول أكاديمية خاصَّة، تُقطِّع فيها طاهيات المطعم العجائز جثث الطلبة وتُطعمها للتلاميذ الجدد على الغداء. يقولون إن المرء هو نتاج ما يأكل.. أنا آكل مجلة فانجو وأكتب ما هو أقرب إلى أفلام الرعب المعوي.

لا أعتقد أن أحدًا قد نجح في قراءة روايتي حتَّى نهايتها، ربما باستثناء أمي. كما قلت سابقًا، كتابة الكتب مجرَّد حساب، لكن كتابة كتاب جيد أمر مختلف تمامًا.

***

أردت أن أتعلَّم حِرفتي، وهناك كاتبان عبقريان يعيشان تحت السقف نفسه، ولن أذكر الروائيين الذين يدخلون ويخرجون من بابنا كل يوم. أفضل مدرسة مجهولة للكتابة تقع في 47 غرب برودواي، بانجور، ولاية «مَين»، لكني لم أفلح في تعلُّم شيء، هذا لسببين وجيهين: كنت مستمعًا سيئًا وتلميذًا أسوأ. آليس -التائهة في بلاد العجائب- تُسدي إلى نفسها النصائح طيلة الوقت، ونادرًا ما تأخذ بها. سمعت الكثير من النصائح وأنا طفل، ولم أتبع أيًّا منها.

البعض يتعلَّمون بالرؤية، والبعض يجمعون الكثير من المعلومات المفيدة من المحاضرات والنقاشات. بالنسبة لي، كل ما عرفته عن كتابة القصص عرفته من الكتب. لا يتحرَّك مخي بالسرعة اللازمة لمتابعة النقاشات، لكن الكلمات في الصفحات تنتظرني. الكتب تصبر على بَطيئي التعلُّم، لكن باقي العالم لا يصبر.

عرف أبواي أنني أحب الكتابة وأمِلا في أن يرياني ناجحًا، وفهما أن الشرح بالنسبة لي مثل الحديث للكلاب. كلبنا مارلو يفهم بضع كلمات مهمة مثل: امشِ، كُل، لكن هذا هو كل شيء. لا أستطيع أن أقول إنني متطوِّر أكثر منه بكثير، لذا، اشترى لي أبواي كتبًا.

اشترت لي أمي كتابًا عن فن الكتابة، بقلم الكاتب راي برادبِري. امتلأ الكتاب بمقترحات عن كيفية تحرير الإبداع، لكن ما لفت نظري هو الطريقة

التي كُتب بها الكتاب. كلمات برادبِري تسطع كألعاب نارية في سماء ليل يوليو. اكتشاف برادبِري يشبه تلك اللحظة من رواية «ساحر أوز»، حين خطت دوروثي من داخل الحظيرة إلى العالم فوق قوس قزح.. الأمر يشبه الخروج من حجرة بالأبيض والأسود إلى أرض كل شيء فيها متعدِّد الألوان.

الآن أجد عبارات برادبِري مُتخمة بعض الشيء (لا يجب أن تكون كل عبارة مهرج يركب درَّاجة ذات عجلة واحدة يقطع بها حبلًا ممدودًا). لكن في سن الرابعة عشرة كنت أحتاج إلى مَن يُريني قوة العبارات الخيالية جيدة الصياغة. بعدما انتهيت من هذا الكتاب، لم أقرأ سوى لبرادبِري لفترة، فقرأت «نبيذ الهندباء»، «و451 فهرنهايت»، ورائعته «شيء شرير من هذا الطريق يأتي». كم أحببت كرنفال «دارك» المتلاعب بالواقع، خصوصًا دوَّارة الملاهي في المنتصف التي يدور فيها الأطفال فيتحوَّلون إلى عجائز.

ثمَّ هناك قصص برادبِري القصيرة -الكل يعرفها- التي يمكن قراءتها في دقائق ولا يمكن نسيانها. هناك قصة «هزيم الرعد» عن مجموعة صيادين دفعوا كثيرًا مقابل فرصة صيد ديناصور. ماذا عن قصة « قرن الضباب» عن مخلوق يعيش في فترة ممَّا قبل التاريخ ويقع في حب فنار؟ هذه الإبداعات مدهشة سلسلة، فأعود إلى كتابه عن فن الكتابة مرارًا لأعرف كيف فعلها. الحقيقة أن لديه تمرينات محدَّدة عملية لتلميذه الكاتب. هناك تمرين يتطلَّب إعداد قائمة أسماء لتوليد أفكار للقصص. ما زلت أستخدم تنويعًا على هذا التمرين حتَّى الآن (طوَّرته إلى لعبة خاصَّة بي أسميتها «رمية المصعد»).

اشترى لي أبي كتابًا للورانس بلوك اسمه «الكذب للترفيه وتحقيق المكاسب»، وهو كتاب يجمع مقالات بلوك لمجلة «مُلخص الكاتب». لا يزال الكتاب لديَّ، لكنني قد أسقطت نسختي في مغطس الحمام، فانتفخت وتشوَّهت، وتلطَّخ الحبر الذي كنت أحدد به العبارات التي راقتني، لكن بالنسبة لي ما زال الكتاب قيِّمًا مثله كمثل نسخة موقَّعة من أول طبعة لكتابٍ لفولكنر.

ما تعلَّمته من بلوك أن الكتابة حرفة كأي حرفة أخرى.. مثل النجارة. لتفسِّر سرَّ الصنعة، ركِّز على التفاصيل مثل: ما هي أهم جملة افتتاحية؟ كيف تعرف أنك أفرطت في إضافة التفاصيل؟ لماذا تؤثِّر بعض النهايات الصادمة، بينما البعض الآخر لا تأثير له؟ و -هذا مذهل بالنسبة لي- ما فوائد الكتابة تحت اسم مستعار؟

الأسماء المستعارة مألوفة عند بلوك، فلديه سلة كاملة منها يستخدم منها ما يخلق منه هويات مختلفة لقطع أدبية بعينها. لاحظ بيرنارد مالاموند أن أصعب ما يخلق الكاتب شخصيته. بمجرَّد أن تبتكر نفسك، ستتدفَّق القصص تلقائيًّا من شخصيتك. أحببت أن بلوك يرتدي وجهًا جديدًا كلما أراد أن يكتب بصفته شخصًا آخر، شخصًا من بنات أفكاره هو نفسه.

قال أبي: «هذا صحيح. اقرأ رواية «رجال كهؤلاء خطرين» التي كتبها بلوك تحت اسم بول كاڤانا. هذا الكتاب أقرب إلى سرقة في حارة منه إلى رواية».

«رجال كهؤلاء خطرين» هي قصة جندي سابق ارتكب فظائع في الحرب وعاد إلى وطنه ليرتكب فظائع أعظم. رغم مرور عقود على قراءتي لها، أرى أن حُكم أبي عليها كان قاسيًا بعض الشيء. عبارات برادبِري تتألَّق كصواريخ احتفالية في ليل صيفي، أما عبارات كاڤانا طلقات نارية. لاري بلوك يبدو لطيفًا، أما كاڤانا فليس كذلك.

في هذا الوقت بدأت أتساءل، مَن قد أكون إن لم أكن أنا؟

***

كتبت ثلاث روايات أخرى في فترة دراستي الثانوية، بينها خيط فني واحد: أن كلها مقرفة. حتَّى وقتها كنت أعرف أن هذا طبيعي. العباقرة شخصيات مأسوية، تتألَّق لعامين ثمَّ تذوي حين تبلغ العشرين. يجب على الجميع أن يصلوا إلى مرادهم بالطريقة الطبيعية الصعبة، ينقلون مجرفة من التراب في كل مرَّة حتَّى يكتمل البناء. العمل البطيء الصعب يكافئ المرء ببناء عضلات عقله ومشاعره، وربما يثبت أساسًا أقوى يُبنى عليه المستقبل العملي. وقتما تواجهك الانتكاسات، تكون مستعدًّا لها؛ لقد واجهتها من قبل.

طبيعي أيضًا أن أفكر في نشر أعمالي وقت دراستي في الجامعة، لكنني كنت خائفًا من وضع اسمي على الأعمال المُرسلة. حتَّى الآن لم أكتب شيئًا يستحق القراءة، فكيف أعرف أنني قد كتبتُ شيئًا جيدًا حقًّا؟ خشيت أن أرسل كتابًا رديئًا فينشرونه رغبة منهم في جني أرباح من اسم أبي. لم أشعر بالأمان وقبض عليَّ القلق، فرغبت في أن أتأكد بنفسي أن رواياتي ستباع للأسباب الصحيحة.

لذا، قرَّرت ألا أستخدم اسم عائلتي، وكتبت باسم چو هيل. لماذا هيل؟ هو اختصار لاسمي الأوسط «هيلستروم- Hillström»، ولم أكن بالطبع أكتب علامة التشكيل فوق حرف O، فهي من أسخف علامات النطق في الإنجليزية. لذا انتهزت الفرصة وحذفت هذا المقطع من اسمي بالكامل.

فكرت كذلك في تحاشي كتابة قصص الرعب؛ محاولة للبحث عمَّا يعبر عنِّي أكثر. كتبت مجموعة فوضوية -على طريقة أهل نيويورك- عن الطلاق وتربية الأطفال العنيدين، وأزمة منتصف العمر. تناثرت العبارات الجيدة هنا وهناك عن تلك القصص، لكن لم يقبل أحد بنشرها. لم يكن لديَّ المزيد لأكتبه عن الطلاق -أنا لم أتزوَّج قط- ولا عن تربية الأبناء العنيدين، فكل خبرتي معهم أنني كنت طفلًا عنيدًا، وبالطبع لم أكن مؤهلًا للكتابة عن أزمة منتصف العمر تحديدًا.

بعيدًا عن كل هذا، فالصعوبة الأكبر في كتابة روايات على طريقة أهل نيويورك أنني لم أحب قط قصص النيويوركيين! في وقت فراغي كنت أقرأ كتب نيل جايمان وآلان مور المصوَّرة، لا قصصًا مملة عن الطبقة المتوسِّطة بقلم أبدايك أو تشيڤير.

في لحظة ما -بعد مائتي خطاب رفض- وصلت إلى لحظة تنوير صُغرى. صحيح أنني لو كتبت باسم چوزيف كينج، سيكون غريبًا أن أكتب قصص الرعب. سأبدو كأنني أجذب مشروب أبي بكلتا يديَّ. لكن چو هيل هو مجرَّد چو آخر، لا يعرف أحد والده أو والدته. يمكنه أن يكون ما يرغب، وما أراده چو هو أن يكون مثل توم ساڤيني لكن على الورق.

سيحصل على الحياة التي تعامل معها وهضمها، وإن كان سيكتب، ستكون هي حبره.

وحبري أنا أحمر قانٍ.

عندما سمحت لنفسي بكتابة قصص غريبة ما ورائية، اختفت كل مشكلاتي في يوم ليلة، وقبل أن تتفوه بعبارة «الكاتب الأكثر مبيعًا»، كنت أنا.. ها ها.. أنا أمزح فقط. لديَّ الكثير لأكتبه بعد. تخلَّصت من أول أربع روايات ولم أتحسَّن. كتبت «ملائكة من ورق» تقليدًا لروايات الدرجة الثالثة للكاتب كورماك مَكارثي. وكتبت رواية خيالية لليافعين بعنوان «طائرات دكتور لورديس الورقية الشريرة» (اللعنة، يا له من اسم عظيم!)، وكتبت

«الورد البري»، وهي محاكاة مشتتة فاشلة لكتابة رواية تشويقية مثل روايات چون مَكدونالد، وتدور حول مراهقين ينطلقون للقتل في إجازة الصيف.

آخر تلك الكتابات كانت رواية من عوالم تولكين اسمها «شجرة الخوف»، أمضيت ثلاثة أعوام في كتابها وأصبحت من الروايات الأكثر مبيعًا في أحلام يقظتي. في الواقع، رفضني كل ناشر في نيويورك، وطردني كل ناشر في لندن، وكضربة أخيرة، أحبطني كل ناشر في كندا، وهذه تذكِرة لنا جميعًا، أنك مهما تتنازل، فالقاع لا يزال بعيدًا.

(لا تغضبي يا كندا، لا أعني شيئًا)

بينما استمررت في كتابة رواياتي السخيفة، كتبت أيضًا قصصًا قصيرة. بعد كل تلك السنوات، بدأت الأمور تتحسَّن: كتبت قصَّة عن صداقة بين مراهق ذي صحيفة جُنح، ومُجسَّم قابل للنفخ على هيئة طفل، وتدور الأحداث في أجواء من الواقعية السحرية ذات الطابع اليهودي، رغم أنني لست يهوديًّا، وكُتب عن قصَّة أخرى لي في مجلة الأدب. لا يعني هذا شيئًا للقرَّاء، لكن بالنسبة لي ذكر قصَّتي في مجلة الأدب (التي تبيع ألفي نسخة على أقصى تقدير) بمنزلة فتح عبوة شوكولاتة والعثور على تذكرة ذهبية فيها. تلا ذلك مجموعة أخرى من القصص القصيرة الجيدة. كتبت قصَّة عن مراهق تحوَّل -على طريقة كافكا- إلى تمساح عملاق، لكنه اكتشف أنه يفضِّل هذا على أن يكون إنسانًا. قصَّة أخرى عن هاتف عتيق غير موصول بشبكة الهاتف، يستقبل مكالمات من الموتى. قصَّة تالية عن أبناء إبراهام ڤان هيلسينج المُثقلين بالأحمال.

سرعان ما فزت بجائزتين أدبيتين صغيرتين، بل وطُلب منِّي أن أكتب قصَّة بطلها سبايدر مان لتُنشر في قصص مارڤل المصوَّرة.

ليس هذا إنجازًا كبيرًا، لكنه كان كافيًا لي. في عام 2004، وبعدما تأكدت أن رواية «شجرة الخوف» لن تُنشر، عرفت أنني لا أملك موهبة الكتابة الروائية. لقد فعلت كل ما في وسعي وجربت، وفشلت.

لكن هذا جيد. أكثر من جيد. لقد كتبت قصَّة لسبايدر مان، وإن كنت قد فشلت في كتابة الروايات، فأنا ماهر في كتابة قصص قصيرة مُرضية. لن أرقى أبدًا إلى مستوى أبي، لكن يمكنني الاستمرار في كتابة القصص المصورة، وبعض قصصي المُفضلة كانت من هذا النوع.

جمعت عددًا كافيًا من القصص لنشرها في مجموعة. اثنتي عشرة قصَّة، وقرَّرت طرحها ومعرفة إن كان أحد سيهتمُّ لنشرها. لم أندهش حين رفضها كبار الناشرين الذين يفضِّلون الروايات على القصص القصيرة، فعرضتها على ناشرين أصغر. في ديسمبر 2004 اتصل بي بيتر كروثر، الرجل المحترم خلف دار نشر PS، وهي دار صغيرة شرق إنجلترا. يكتب بيتر قصصًا غريبة أيضًا، وأبهرته قصَّتي «فن شعبي» عن المجسَّم القابل للنفخ. عرض عليَّ نشر طبعة محدودة من مجموعتي «أشباح القرن العشرين»، وهو جَميل لن أستطيع ردّه. لم يكن بيتر وحده من ساعد الكتاب الجدد، بل آخرين مثل ريتشارد تشيزمار، بيل شافير. أولئك ناشرون لم يكن همهم نشر ما يجلب لهم الأرباح، بل نشر ما يروقهم بالفعل.

(إحم.. هذه فرصة لإلقاء نظرة على الموقع الإلكتروني لـ:

PS Publications, Cemetery Dance Publications, Subterranean Press.

ولتُجرب شراء أحد منشوراتهم كدعم منك. ستسعد مكتبتك بهذا).

طلب منِّي بيتر أن أكتب المزيد من القصص القصيرة للكتاب ليكون فيه بعض الحصريات التي لم تُنشر. وافقت، وبدأت الكتابة عن رجل اشترى شبحًا عن طريق الإنترنت. بشكل ما لم أستطع السيطرة على القصَّة وطالت الأحداث لتملأ 335 صفحة، واكتشفت أنني كتبت رواية! سمَّيتها «صندوق على شكل قلب».

لكنها بدت كروايات ستيفن كينج. صدقًا، لقد انبهرت بها.

***

كنت دائمًا من المتأخِّرين؛ صدر لي أول كتاب «أشباح القرن العشرين» في عمر الثالثة والثلاثين. أنا الآن في السادسة والأربعين، وسأكون في السابعة والأربعين بحلول موعد نشر هذا الكتاب. الأيام تجري بأقصى سرعة يا رجل، وتتركك مبهور الأنفاس.

كنت أخشى أن يكتشف الناس أنني ابن ستيفن كينج، لذا تخفَّيت خلف قناع وتظاهرت أنني شخص آخر. لكن القصص دائمًا تُفشي الحقيقة، الـ [illegible] الحقيقية. القصص الجيدة تفعل هذا. القصص التي كتبتها كانت

نتاج حمضهم النووي الإبداعي: برادبِري، بلوك، ساڤيني، روميرو، سبيلبرج، فانجو، ستان لي، سي إس لويس، وبالطبع تابيثا وستيفن كينج.

المبدع التعيس يجد نفسه مخفيًّا في ظل الآخرين الأعظم، ويستاء لهذا. لكن إن كنت محظوظًا -وكما قلت، لقد نلت أكثر من نصيبي من الحظ، وأتمنَّى أن يديمه الرب عليَّ- فالعظماء ينيرون لك الطريق.

ومَن يعرف؟ ربما تواتيك الفرصة في يوم للعمل مع واحد من أبطالك. جاءتني فرصة كتابة قصَّتين مع أبي، واستمتعت بهذا. أتمنَّى أن تعجباك، هما في هذا الكتاب.

عشت سنوات خلف القناع، لكني أتنفَّس بشكل أفضل الآن بعدما خلعته.

هذا يكفي الآن، لدينا طريق نقطعه. هيا بنا، لننطلق!

أحضِروا الأشقياء!

چو هيل

إيكستر، نيوهامبشير

سبتمبر 2018

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

بأقصى سرعة

مع ستيفن كينج

ركبوا درَّاجاتهم البخارية عبر الصحراء مبتعدين غربًا عن المذبحة، ولم يتوقَّفوا حتَّى ابتعدوا أكثر من مائتي ميل. في النهاية، وصلوا إلى مطعمٍ مطليٍّ من الخارج بالجص الأبيض، وأمامه مضخاتٍ وقود. رجَّت أصوات درَّاجاتهم البخارية زجاج نوافذ المطعم الضخمة. شقُّوا صفوف الشاحنات الواقفة عند الجهة الغربية من المبنى، ثمَّ أنزلوا سنَّادات درَّاجاتهم وأوقفوا محرِّكاتها.

قادهم ريس آدمسون طيلة الطريق، تتقدَّم درَّاجته «الهارلي» عن درَّاجاتهم بربع ميل. اعتاد ريس أن يركب متقدِّمًا الجميع منذ عاد إليهم بعد عامين قضاهما وسط الرمال. تجري درَّاجته أمامهم كأنه يتحدَّاهم أن يلحقوا بها، أو أنه ببساطة يستمتع بتخلُّفهم وراءه. لم يشأ أن يتوقَّف هنا، لكن ڤينس أجبره.

عندما ظهر المطعم لأعينهم، أدار ڤينس مقبض الوقود وانطلق خلف ريس حتَّى تجاوزه، ثمَّ أشار بيده اليسرى نحو (العشيرة) إشارة يعرفونها جيدًا

بمعنى: *اتبعوني خارج الطريق السريع*. تبعت العشيرة إشارة ڤينس كما اعتادوا دائمًا.

سبب آخر يكرهه ريس لأجله؛ الفتى يضع أغلب العشيرة في جيبه.

ريس أول مَن أوقف درَّاجته في الساحة، وآخر مَن نزل عنها. وقف ودرَّاجته بين ساقيه، وخلع قفَّازيه الجلديين ببطء وهو يحدِّق إلى الآخرين من خلف عدستي نظارته العاكستين.

قال ليمي تشابمان لڤينس وهو يومئ تجاه ريس: «يجب أن تتحدَّث مع صبيِّك».

ردَّ ڤينس: «ليس هنا».

يمكن للحديث أن ينتظر حتَّى يعودوا إلى ڤيجاس؛ أراد أن يضع الطريق خلفه ويتمدَّد في الظلام حينًا. احتاج إلى وقت حتَّى تنفك العقدة المُمرِضة في معدته. ربما أراد قبل كل شيء أن يغتسل. لم يُصبه شيء من الدماء، لكنه يشعر أنه ملوث ولن يرتاح حتَّى يغتسل من قذارة الصباح.

خطا نحو المطعم، لكن ليمي قبض على ذراعه قبل أن يبتعد أكثر وقال: «بل هنا».

نظر ڤينس إلى اليد التي تطبق عليه، لكن ليمي لم يطلق سراحه؛ ليمي على عكس كل الرجال، لا يخشاه. ثمَّ نظر ڤينس إلى الصبي الذي لم يعد صبيًّا منذ سنوات طويلة. كان ريس يفتح الصندوق خلف إطار درَّاجته الخلفي، يبحث عن شيء وسط عتاده.

- فيم سنتحدَّث؟ لقد مات كلارك، وضاع ماله. لا يوجد شيء نفعله.
- يجب أن تتأكد إن كان ريس يشعر بنفس ما تشعر به. أنت تفترض دائمًا أنكما تقرآن الصفحة نفسها رغم أنه هذه الأيام يقضي خمسًا وأربعين دقيقة من كل ساعة حانقًا عليك. أقول لك شيئًا آخر يا زعيم... جلب ريس بعض أولئك الرجال وحمَّسهم. أخبرهم عن ثرائهم بعدما ينهي اتفاقه مع كلارك. ربما لن يكون هو الوحيد الذي سيرغب في معرفة ماذا سيحدث.

سدَّد نظرة ذات معنى نحو الرجال الآخرين. لاحظ ڤينس لأول مرَّة أنهم لا يتجهون نحو المطعم، وإنما يقفون جوار درَّاجاتهم، يرمقونه وريس بنظرات غريبة، ينتظرون حدوث شيء.

لم يُرِد ڤينس أن يتكلَّم، فقد ضاعت منه الكلمات. النقاش مع ريس أشبه بتقاذف كرة ثقيلة بينهما، الكثير من العناء الذي لا طاقة له به، بلا نتيجة في النهاية، ورغم كل ما يفرُّون منه.

قرَّر أن يتحدَّث إليه على كل حال؛ ليمي دائمًا مُحق فيما يتعلَّق بسلامة العشيرة. ظل ليمي خلف ڤينس مباشرة منذ تقابلا في ميكونج دلتا[1] حين جُنَّ العالم بأسره. كانا يزحفان معًا تحت الأسلاك الشائكة ويدفنان الألغام. لم يتغيَّر شيء منذ أربعين عامًا.

ترك ڤينس درَّاجته واتجه نحو ريس الذي كان يقف بين درَّاجته الهارلي وشاحنة نقل نفط. وجد ريس ما كان يبحث عنه في الصندوق عند إطار درَّاجته الخلفي؛ قارورة مملوءة بما يشبه الشاي المثلَّج، إلا أنه لم يكن كذلك. اعتاد ريس أن يشرب مبكرًا، وهو شيء آخر كرهه ڤينس. جرع ريس جرعة، ثمَّ مسح شفتيه ومدَّ يده بالقارورة نحو ڤينس، فهز الأخير رأسه رفضًا وقال: «أخبِرني».

ردَّ ريس: «لو كنت اخترت الطريق رقم 6، لوصلنا إلى شو لو[2] في خلال ثلاث ساعات. على افتراض أن دراجتك اللعبة ستستطيع المواكبة».

- ماذا في شو لو؟
- أخت كلارك.
- ولماذا سنحتاج إلى مقابلتها؟
- لأجل المال. في حال لم تلحظ، لقد نُصِبَ علينا في ستين ألفًا.
- وتظن أنها في حوزة أخته؟
- اعتبرها مكانًا نبدأ به البحث.
- لنتكلَّم في هذا الأمر حين نصل إلى ڤيجاس، ولنرَ خياراتنا هناك.

---

(1) مقاطعة في فايتنام.

(2) مدينة في أريزونا.

- ماذا لو تحقَّقنا من خياراتنا هنا؟ هل رأيت كلارك يغلق سمَّاعة الهاتف حين دخلنا؟ سمعت شيئًا ممَّا كان يقول عبر الباب المغلق. أظنه كان يحاول التواصل مع أخته، لكنه لم يجدها فترك لها رسالة ما. الآن، لماذا تظنه كان يحاول جاهدًا الاتصال بالمسكينة حين رآنا نقترب من المدخل؟

نظرية ڤينس أنه كان يريد توديع أخته، لكنه لم يقل هذا لريس، وقال: «وما دخلها بما نفعل؟ ماذا تعمل؟».

- عاهرة.

- أيا يسوع.. يا لها من عائلة.

قال ريس: «انظر مَن يتكلَّم».

سأله ڤينس: «ماذا تقصد؟».

لم تضايقه عبارة ريس بما تحويه من إهانة مخفية أكثر ممَّا ضايقته نظارته ذات العدسات العاكسة التي تُظهر صورة ڤينس نفسه، ببشرته المحترقة من أثر الشمس، ولحيته الشعثاء المختلطة بالشعر الأشيب.

نظر ريس إلى الطريق مرَّة أخرى، وحين تكلَّم لم يُجِب السؤال.

- ستون ألفًا ضاعوا في الهواء، وما زلت قادرًا على التجاهل.

- أنا لم أتجاهل شيئًا. هذا ما حدث، اختفى المال في الهواء.

تقابل ريس ودين كلارك في الفلوچة، أو ربما تكريت[1]. كلارك طبيب تخصص في علاج الألم، وعلاجه يتلخَّص في جرعة مخدرات وموسيقى أغاني ويكليف چين. أما ريس، فتخصص في قيادة العربات العسكرية «هومڤي» دون أن يُقتل. ظل الاثنان أصدقاء في خلال الحرب، ومنذ نصف عام تقريبًا، عاد كلارك إلى ريس بفكرة إنشاء معمل تحضير «ميث»[2] في بلدة «سيمث ليك». رأى أن ستين ألف دولار كافية كبداية، وأنه سيكسب من مشروعه شهريًّا أضعاف هذا المبلغ.

---

(1) الفلوجة وتيكريت مدينتان في العراق (المترجمة)

(2) مخدر الميثامفيتامين (المترجمة)

قال كلارك عبارته المميزة: «رائق كالزجاج! ليس مثل الخراء الأخضر الذين ينتجونه».

ثمَّ رفع يده فوق رأسه معبِّرًا عن تلال النقود التي سيجنونها وأضاف: «السماء حدودنا. صبَّح!».

صبَّح؟ كان عليه التراجع عن هذا المشروع بمجرَّد أن سمع من كلارك هذه الكلمة. في لحظة سماعها بالضبط.

لكنه لم يفعل، بل أنه ساعد كلارك بعشرين ألفًا من ماله الخاص رغم شكوكه. كلارك متكاسل المظهر، يشبه كورت كوبين[1]. شعره أشقر طويل، ويرتدي قميصًا مفتوحًا فوق تيشيرت. يكرِّر دائمًا كلمة «صبَّح»، ويدعو أي شخص بـ «يا رجل»، ويتحدَّث عن قدرة المخدرات على قمع سلطة العقل الغاشمة. أيًّا كان ما يعنيه، فقد فاجأ ريس وسحره بهداياه الثقافية؛ مسرحيات سارتر، شرائط مُسجَّل عليها قصائد شعرية متنوِّعة، وموسيقى «الريجي».

ڤينس لم يكره كلارك لعقله المليء بالهراء الروحاني والتنويري الذي يخرج من فمه بلغة هجينة بين الخنوثة والإيبونيَّة[2].

ما أقلق ڤينيس عندما تقابلا أن أنفاس كلارك كانت تفوح بالميث، وأسنانه تتساقط ولثته مبقعة. لا يمانع ڤينس جني الأموال من هذا الطريق، لكنه لا يثق بمَن يسير فيها بنفسه.

ومع ذلك، شارك بالمال، فقد أراد أن يساعد في شيء يشغل ريس بعد تسريحه من الجيش. بعد وقت، أقنع ڤينس نفسه باحتمالية نجاح المشروع وهو يستمع إلى ريس وكلارك يناقشان التفاصيل.

بدا ريس -لوهلة- مطمئنًا مستقرًّا، واشترى سيارة «موستانج» مستعملة لحبيبته احتفالًا بعائد استثماره الضخم المُتوقَّع. لكن معمل الميث احترق. صبَّح! وصار المكان كله كومة رماد في خلال دقائق في أول يوم تشغيل. هرب العاملون من النوافذ، ووقفوا حوله غارقين في الرماد حتَّى وصلت سيارة الإطفاء.

أغلبهم الآن في السجن.

---

(1) مغنٍ وعازف أمريكي. (المترجمة)

(2) اللهجة الأفروأمريكية التي تقترب من أن تكون لغة مستقلة أحيانًا. (المترجمة)

عرف ريس بأمر الحريق من بوبي ستون صديقهم من أيام العراق، لا من كلارك. كان ستون قد ذهب إلى سميث ليك ليشتري شيئًا من المخدر الرائق كالزجاج حين رأى الدخان وأضواء سيارات الإطفاء. حاول ريس الاتصال بكلارك عبر الهاتف لكنه فشل. كرَّر المحاولات حتَّى المساء بلا جدوى. بحلول الساعة الحادية عشرة، خرجت العشيرة إلى الطريق السريع متجهين شرقًا بحثًا عنه.

وجدوا دين كلارك في كوخ فوق التلال، يتهيَّأ للهرب. قال لهم إنه كان ذاهبًا للقاء ريس ليخبره بما حدث فيرتِّبا خطة أخرى. قال إنه سيعوضهم جميعًا. قال إن المال قد ضاع الآن لكنْ لديه خطط احتياطية. قال إنه آسف للغاية. بعض ما قال كان كذبًا، وبعضه حقيقة، خصوصًا ذلك الجزء الخاص بأسفه. لم يندهش ڤينس حين أجهش كلارك بالبكاء. ما أدهشه -وأدهشهم جميعًا- حبيبة كلارك المختبئة في دورة المياه مرتدية سروالًا تحتيًّا منقوشًا بالورود وقميصًا مطبوعًا. بدا أنها تناولت جرعة كبيرة من الميث، وتمسك مسدسًا صغيرًا في يدها. كانت تُنصت لحديثهم حين سأل روي كلويس إن كانت في الكوخ. لو عاهرة كلارك هناك وأطلقت الرصاص علينا جميعًا ستخصم مائتي ألف دولار من دينه على الفور.

دخل روي كلويس دورة المياه ليَبُول، ففتح سحَّاب سرواله مُخرجًا قضيبه، وظنت الفتاة أنه يخرجه لسبب آخر، وأطلقت عليه النار. خابت طلقتها الأولى، وأصابت الثانية السقف لأن روي ضربها بسكينه الضخم، ففتح فتحة في جسدها قانية أخرجته من الواقع إلى حدود حلم مفزع.

قال ريس: «أنا واثق أنه فقد بعض المال، ربما فقد نصف ما زودناه به. لكن إن كنت تظن أن دين كلارك وضع الستين ألفًا في سلة واحدة، فأنا لن أستطيع مساعدتك».

- ربما دسَّ بعض المال في مكان ما، لا أقول إنك مخطئ، لكنني لا أعرف لماذا قد يكون المال مع أخته. ربما يكون في برطمان أو مدفونًا في حديقته الخلفية. لن أحيل حياة عاهرة بائسة إلى جحيم لمجرَّد التسلية. إذا تأكدنا أن أثر المال قد ظهر عليها، فهذا أمر آخر.
- أمضيت ستة أشهر أدبر لهذا الاتفاق، ولست الوحيد الذي نُصِب عليه.
- لنناقش كيفية حل هذه المشكلة في ڤيجاس.

- النقاش لن يصحح أي شيء. ركوب درَّاجاتنا بحثًا عن حقنا هو الحل. أخته في شو لو اليوم، ولو اكتشفت أننا طلينا الكوخ بدماء أخيها وعشيقته..

قال ڤينس: «أخفِض صوتك!».

راقبهما ليمي عاقدًا ذراعيه وهو يقف على بعد بضعة أقدام عن يسار ڤينس، لكنه كان مستعدًّا لفض أي نزاع قد ينشب بينهما. وقف الآخرون في مجموعات من رجلين أو ثلاثة، مرهقون، ملطَّخون بغبار الطريق، يرتدون سترات جلدية أو من الچينز تحمل شعار العشيرة: «عش على الطريق.. مُت على الطريق». لطالما كانوا عشيرة رغم أن أحدًا منهم لم يكن هنديًّا[1] إلا بيتشز الذي يدعي أنه من عشيرة هنود الشيروكي، لكنه أحيانًا -وحسب مزاجه- يزعم أنه نصف إسباني، أو نصف إنكي[2]. يمكن أن يزعم أنه نصف إسكيمو ونصف ڤايكينج لو أراد، لن يضيف هذا شيئًا إلا إلى مخزون تخلُّفه.

يقول ڤينس لابنه ريس: «لقد ضاع المال. وضاعت ستة أشهر كذلك. *ألا ترى هذا؟*».

وقف ابنه مكانه، يضغط عضلات فكيه في صمت. مفاصل كفه بيضاء، تقبض على قنينته. نظر ڤينس إليه، وتذكَّر ريس في عمر السادسة، بوجه مُترَّب مثل وجهه الآن، يدور حول مدخل المنزل على درَّاجته الخضراء، يُطلق أصوات محرِّكات من حلقه. ضحك ڤينس وماري ملء شدقيهما على تعبير الجدية على وجه ابنهما، محارب الطريق الذي يرتاد حضانة الأطفال. لا يستطيع أن يرى ما يُضحك الآن، ليس وقد شجَّ ريس رأس رجل بالمجرفة قبل ساعتين. ريس سريع الحركة، وكان أول مَن لحق بكلارك حين حاول الهرب في خلال الارتباك الذي حدث بعدما أطلقت الفتاة الرصاص. ربما لم يقصد قتله، فقد ضربه ريس مرَّة واحدة.

فتح ڤينس فمه ليقول شيئًا، لكنه لم يجد في جعبته ما يقال. استدار مبتعدًا نحو المطعم، ولم يصعد أكثر من ثلاث درجات حتَّى سمع صوت

---

(1) يطلق لفظ العشيرة أو القبيلة في الولايات المتحدة على عشائر الهنود الحمر. (المترجمة)

(2) ينحدر من سلالة الإنكا، أمريكا الجنوبية. (المترجمة)

زجاجة تنفجر خلفه. التفت ليجد أن ريس قد رمى قنينته نحو شاحنة النفط، حيث كان يقف ڤينس منذ ثوانٍ. ربما ألقاها نحو ظله إذَنْ.

تساقطت شظايا الزجاج والويسكي عن جانب الشاحنة، ولمح ڤينس المكتوب على جانبها فأجفل. للحظة تخيَّل أن المكتوب «مذبحة».

ما يعرفه ڤينس عن فرويد يتلخَّص في أقل من عشرين كلمة: لحية قصيرة بيضاء، سيجار، يعتقد بأن الأولاد يريدون مضاجعة آبائهم. لكنك لا تحتاج إلى معرفة الكثير عن علم النفس لتستنتج ما يفعله الشعور بالذنب في العقل الباطن. كاد ڤينس ليضحك لولا ما رآه تاليًا.

سائق الشاحنة يجلس فيها، وذراعه تتدلى من النافذة، يمسك بين إصبعيه سيجارة. على ذراعه وشم عبارة «الموت قبل العار»، ممَّا قد يُرجِّح أنه جندي سابق، وهو شيء لاحظه ڤينس بشكل عابر وتجاهله ربما ليفكِّر فيه لاحقًا أو لا. ما شغله هو ما سمعه الرجل من حديثهم. حسب المسافة وفكر إن كان هناك ضرورة لإنزال السائق من شاحنته واستجوابه.

كان ڤينس منغمسًا في التفكير حين رمى السائق سيجارته في ساحة الانتظار ثمَّ أرخى مكابح الهواء، فتجشَّأت ماسورة العادم دخانًا أسود، وتحرَّكت الشاحنة إلى الأمام تسحق إطاراتها الحصى، فأطلق ڤينس زفرة راحة. شكَّ إن كان السائق قد سمع شيئًا، لكن ماذا لو سمع؟ لن يريد أي عاقل أن يتورَّط فيما هم فيه. لا بُدَّ أن الرجل قد استنتج أنهم عرفوا أن حديثهم قد وصل إليه، فقرَّر أن يفعل الصالح له.

ما إن وصلت الشاحنة إلى بداية الطريق، حتَّى استدار ڤينس مرَّة أخرى نحو المطعم، وكان هذا قبل ساعة من رؤيته للشاحنة مرَّة أخرى.

***

ذهب ڤينس إلى الحمَّام. مثانته تؤلمه، فقد سافر ثلاثين ميلًا دون إفراغها. عاد من رحلته القصيرة فوجد الرجال يجلسون في كابينتين، صامتين، لا يصدر عنهم أي صوت تقريبًا إلا صوت أدوات المائدة تقرع الأطباق. بيتشز فقط من كان يتكلَّم، وكان يحدث نفسه. تحدَّث بيتشز همسًا، ثمَّ أجفل كأنما هو محاطٌ بهاموش، وهي حركة عصبية لديه.

باقي الرجال يسكنون دواخلهم، لا يرون بعضهم، يحدِّقون إلى ما لا يعلمه سوى الله. ربما يرى بعضهم دورة المياه التي مزَّق فيها روي كلويس أوصال الفتاة. بعضهم يتذكَّر كلارك، ممدَّدًا على التراب وراء الباب الخلفي، مؤخِّرته إلى أعلى، وسرواله مليء بالغائط، ومجرفة تشقُّ رأسه ومقبضها يشير نحو السماء. ثمَّ إن هناك بعضهم يفكر فيمَ إن كانوا سيصلون إلى بيوتهم قبل موعد المسلسل، أو ما إذا كانت ستفوز بطاقات اليانصيب التي اشتروها أمس.

كان كل شيء يختلف في رحلتهم لرؤية كلارك. توقَّفت العشيرة في مطعم مثل هذا، ورغم أن الأجواء لم تكن مرحة، لكن الثرثرة والحديث لم يتوقَّفا وهم يشربون القهوة ويأكلون الدوناتس. جلس دوك في واحدة من الكبائن يحل الكلمات المتقاطعة، والآخرون حوله ينظرون إلى ما يفعل من فوق كتفه، ويفخرون بالجلوس مع رجل بهذا القدر من الثقافة. سُجِن دوك من قبل، مثل الآخرين، وله سنٌّ ذهبية بديلة لسنِّه الأصلية التي أسقطتها ضربة عصا شرطي قبل سنوات. لكنه يرتدي نظارة ثنائية البؤرة، وله ملامح أرستقراطية، ويطالع الصحف، ويعرف معلومات مثل عاصمة كينيا، والأطراف المتناحِرة في حرب الوردتين[1].

نظر روي كلويس نظرة جانبية إلى رقعة الكلمات المتقاطعة وقال:

- كل ما أريد هو كلمات متقاطعة حول تصليح الدراجات أو فنون المضاجعة. شيء مثل: كلمة من خمسة أحرُف تخصُّ شيئًا أفعله مع أمك يا دوك. يمكنني إجابة سؤال كهذا.

يعقد دوك حاجبيه ويقول:

- كنت لأجيب «صدّ»، لكنها كلمة من حرفين. ما رأيك في «صفاقة»؟

سأل روي وهو يحكُّ رأسه:

- صفاقة؟

- هذا صحيح. أنت صفيق معها. هذا معناه أنها تريد أن تبصق في وجهك كلما رأتك.

---

(1) حرب أهلية دارت على مدار ثلاثة عقود بين عائلتي لانكستر وعائلة يورك حول الأحق بعرش إنجلترا. (المترجمة)

- أجل.. هذا ما يضايقني فيها، لأنني حاولت كثيرًا تعليمها البلع بينما «أصافقها».

كاد الرجال يسقطون عن مقاعدهم ضحكًا.

الآن، يخترق ڤينس الجمع محمرَّ الأعين، ثمَّ يتخذ مقعدًا جوار ليمي ويسأل: «ماذا نفعل بشأن هذه الورطة حين نصل إلى ڤيجاس؟».

أجاب ليمي: « نهرب. لا نخبر أي شخص بوجهتنا، ولا نعود أبدًا».

ضحك ڤينس، لكن ليمي لم يضحك. رفع كوب قهوته إلى منتصف المسافة نحو فمه، ولم يشرب. نظر إلى الكوب لثوانٍ، ثمَّ وضعه على الطاولة.

سأله ڤينس: «هل من خطب؟».

- الخطب ليس في القهوة.

- أنت لا تقول لي إنك جادٌّ بشأن الهرب، أليس كذلك؟

- لن نكون وحدنا مَن يفر يا صديقي. ألا تذكر ما فعل روي بالفتاة في الحمام؟

قال ڤينس بصوت خافت محاذرًا أن يسمعه أحد: «لقد كادت تقتله».

- هي لم تجاوز عمر السابعة عشرة.

لم يرد ڤينس، ولم يكن متوقِّعًا منه إجابة. نظر ليمي إليه بجانب عينه وقال: «اسمع. لقد قتلت أخي وأنا أقود شاحنة ثملًا، وحين أفقت شممت دمه يغطِّي جسدي. حاولت قتل نفسي لأجل ما فعلت، لكن الإخوة ذوي الأردية السوداء[1] لم يساعدوني. كل ما أذكر عن الحرب رائحة قدمَيَّ حين أُصاب بالقُرَح، كأنني أحمل مرحاضًا في حذائي. لقد دخلت السجن مثلك، ولم يكن الهول هناك فيما فعلت أو رأيتهم يفعلون.. الهول هو رائحة المساجين؛ رائحة آباطهم وأدبارهم. كل هذا كان رهيبًا، لكنه لا يقارن بخراء تشارلي مانسون الذي نخوض فيه ونحاول الهرب منه. لا أطيق الرائحة، كأنني محبوس في خزانة تغوَّط فيها أحدهم. لا يوجد هواء، والهواء الموجود فيها لا ينفع في شيء».

توقَّف عن الحديث، ثمَّ استدار بمقعده ليواجه ڤينس، وأردف: «أتعرف ما كنت أفكر فيه منذ ابتعدنا؟ انتقل لون ريفوس لـ «دينڤر» وافتتح ورشة،

---

(1) جيش شيوعي في فيتام-جبهة التحرير الشعبي. (المترجمة)

وأرسل إليَّ بطاقة تحمل صورة جبال «فلاتيرون». أتساءل إن كان يحتاج إلى عجوز مثلي ليساعده. أعتقد أنني أستطيع التعوُّد على رائحة أشجار الصنوبر».

صمت مرَّة أخرى، ثمَّ نقل عينيه لينظر إلى الرجال الآخرين في الكابينة وأضاف: «مَن لم يذهب ليأخذ حقه، سيبحث عنه، ولن ينتهي أمر مشروع الميث هذا قريبًا. هذه فقط البداية. كشك تحصيل الرسوم عند الطريق الرئيسي يبيع من هذا الميث. الفتاة التي قتلها روي تتعاطاه، وروي نفسه يتعاطاه، ولهذا قد ضربها بسكينه أربعين مرَّة لعينة. من يحمل سكينًا كهذا ما لم يكن «مضروبًا» بالميث؟».

قال ڤينس: «لا تقلِّبني على روي. لكم أود لو أدس «الولد الصغير»[1] في مؤخِّرته وأشاهد أضواءه تخرج من عينيه».

وجاء دور ليمي ليضحك، فنكات استخدامات «الولد الصغير» من أكثر النكات التي تضحكهم. قال ڤينس: «هيا.. أخبِرنا ما كنت تفكر فيه آخر ساعة».

- كيف عرفت بهذا؟

- أتتخيَّل أنني لا أعرف ما يعنيه أن تجلس منتصبًا على مقعد دراجتك؟

نخر ليمي ثمَّ قال: «عاجلًا أو آجلًا، ستعتقل الشرطة روي أو واحدًا من أولئك المعتوهين، وسيسحبون الجميع معهم، لأن روي والمعتوهين أغبى من أن يُخفوا ما سرقوه من مسرح الجريمة. ليس منهم من هو بالذكاء الكافي ليكُفَّ عن الحديث عمَّا فعلوه مع عشيقاتهم. هذا هو كل ما أريد أن أقول».

حكَّ ڤينس جانب لحيته بكفه وهو يقول: «أنت تتحدَّث عن النصف الذي سيهرب، والنصف الذي لن يفعل. هلا أخبرتني إلى نصف ينتمي ريس؟».

أدار ليمي رأسه وتجهَّم، ثمَّ قال: «هل تحتاج إلى سؤال؟».

***

(1) اسم تدليل القنبلة النووية التي ألقيت على هيروشيما في الحرب العالمية الثانية. (المترجمة)

الشاحنة التي كانت في ساحة الانتظار، والتي تحمل اسم لافلين على جانبها، تسير على الطريق السريع. كان هذا حين قابلوها في الثالثة عصرًا.

ينعطف الطريق الصاعد كثيرًا، ومع كل تلك المنعطفات، لا توجد فرصة لتجاوز ما أمامك من عربات. بعدما غادروا المطعم، زاد ريس من سرعته ليتقدَّم العشيرة مرَّة أخرى، بل أنه أحيانًا كان يختفي عن أنظار ڤينس، لكن عندما قابلوا الشاحنة، كان ابنه أمام الموكب مباشرة.

قطع تسعتهم الطريق وأغشتهم عوادم الشاحنة. دمعت عينا ڤينس وآلمته فصاح: *سحقًا! شاحنة لعينة!* أومأ ليمي. ضاق صدر ڤينس واغرورقت عيناه. صاح مرَّة أخرى: «أبعِد شاحنتك ذات المؤخِّرة السمينة عن الطريق!».

مقابلة الشاحنة هنا مفاجأة. لم يكونوا قد ابتعدوا عن المطعم أكثر من عشرين ميلًا، ولا بُدَّ أن الشاحنة التي تحمل اسم لافلين قد توقَّفت في مكان ما لفترة، لكن أين توقَّفت؟ لا يوجد سوى المطعم في هذا المكان. على الأرجح أنه أوقف شاحنته تحت ظلال لافتة إعلانية ليغفو، أو توقَّف لتغيير إطار مثقوب. ماذا يهم؟ لا شيء. تعجَّب ڤينس أن أمر الشاحنة يشغله أساسًا.

بعد المنعطف التالي، أمال ريس درَّاجته «سوفتيل ديوس» نحو الحارة المجاورة في الاتجاه المعاكس، ثمَّ زاد سرعته من ثلاثين إلى سبعين ميلًا في الساعة حتَّى تجاوز الشاحنة، ثمَّ عاد إلى الحارة اليُمنى سريعًا قبل أن تعبر السيارة «الليكزُس» الصفراء جواره من الحارة اليسرى. ضغطت قائدة الليكزُس النفير، لكن صوته ضاع على الفور وسط عويل نفير الشاحنة الهوائي.

لمح ڤينس السيارة الليكزُس آتية من الاتجاه المقابل، وكاد يقسم إن ابنه ريس سيغوص فيها. احتاج قلبه إلى لحظات لينزل من حلقه إلى صدره.

صاح ڤينس في ليمي: «مختل حقير!».

هتف ليمي بعدما مات صوت عويل الشاحنة: «أتقصد سائق الشاحنة؟ أم ريس؟».

- الاثنان!

مالت الشاحنة عند المنعطف التالي، يبدو أن السائق ثاب إلى رشده، أو نظر إلى مرآته ورأى باقي العشيرة خلفه. أخرج ذراعه من النافذة -ذراعه

ذات العروق النافرة، المُسمرَّة من الشمس، المنتهية بمفاصل أصابع ضخمة- ولوَّح لهم.

على الفور انطلق روي واثنان آخران ليتجاوزوها، ومن خلفهم الباقون في ثنائيات. قللت الشاحنة سرعتها إلى ثلاثين ميلًا في الساعة. تجاوزها ڤينس وليمي بعدما عبر الجميع. ألقى ليمي نظرة إلى السائق في أثناء مروره، لكنه لم يستطع أن يرى سوى اليد المُسمرَّة المتدلية من النافذة. بعد خمس دقائق، ابتعدت الشاحنة واختفت خلفهم، وغاب عنهم صوتها تمامًا.

تبعوا الطريق الموازي للصحراء المفتوحة، يمرُّون من جوار نبتات المريمية وصبَّار الساجوارو المصفرِّ. يقودون درَّاجاتهم تحت الشمس، تتبعهم ظلالهم الطويلة. تجري بعض المنازل والشاحنات من حولهم وهم ينطلقون نحو المدينة بأعذارهم الواهية. امتدت قافلة الدرَّاجات نحو نصف ميل، في نهايتها ليمي وڤينس. قبل المدينة بقليل، رأى ڤينس العشيرة تجتمع عند جانب الطريق، قبل التقاطع مباشرة.

غربًا، قبل التقاطع، ينتهي الطريق الذي كانوا يسيرون فيه بلافتة على شكلٍ مُعيَّن مكتوب عليها «أعمال إصلاحات على امتداد عشرين ميل- تهيَّأ للتوقُّف». على بُعد يرى ڤينس شاحنات قلَّابة وكاشِطة طُرق، ورجال يعملون وسط سُحب من الغبار الأحمر.

لم يكن يعرف أن هناك أعمالَ طرق هنا، فهو لم يأتِ من هذا الاتجاه؛ كان اقتراح ريس أن يعودوا عبر الطرق الخلفية، ولم يعترض ڤينس. القيادة بعيدًا عن الطريق السريع الخطر أكثر أمانًا لهم، لكن لم يكن هذا هو السبب الذي اختاره ريس لأجله.

قال ڤينس وهو يبطئ ويُدلِّي ساقه: «ماذا؟».

أشار ريس نحو الطريق 6، بعيدًا عن أعمال الطريق، وقال: «لنتجه جنوبًا عبر الطريق 6، ثمَّ نتخذ الطريق I-40 من هناك».

قال ڤينس: «من شو لو.. لماذا لم يفاجئني هذا الاختيار؟».

تكلَّم روي كلويس تاليًا وهو يشير بإبهامه نحو الشاحنات القلابة.

- هذا أفضل من القيادة عشرين ميلًا وسط الغبار والمنحدرات. شكرًا، أفضِّل الطريق الممهَّد واحتمالية العثور على ستين ألف دولار في شو لو. هذه هي حِسبتي.

سأل ليمي روي: «هل الأمر مؤلم؟ سمعت أن التفكير مؤلم لأول مرَّة، مثل فقد العذرية بالضبط».

هتف روي: «سحقًا لك يا ليمي».

قال ڤينس: «لو أردت معرفة حساباتك سأسألك عنها».

قال ريس بصوت هادئ ونبرة مُتعقِّلة: «لنذهب إلى شو لو، ولستما مضطرَّيْن إلى المكوث بالقرب منا. لن يلومكما أحد إن لم تذهبا معنا أو لو اخترتما طريقًا آخر».

وكان هذا هو الرأي القاطع.

نقل ڤينس نظرة من وجه إلى وجه. نظر الشباب إلى عينيه، أما العدد الأكبر ممَّن رافقوه على الطرق لعِقد، فأبعدوا أعينهم عنه. قال ڤينس ساخرًا: «أنا مسرور أن أحدًا لن يلومني، لقد كنت قلقًا».

باغتته ذكرى.. كان يركب سيارته الــ «بونتياك- GTO» مع ابنه ليلًا. وقتها كان يحاول أن يستقيم ويؤسس عائلة مع ماري. ضاعت تفاصيل الرحلة من عقله الآن، فلم يعد يتذكَّر وجهتهما أو مكان انطلاقهما. ما يتذكَّر أنه كان ينظر إلى المرآة أمامه، ويرى ابنه ذا الأعوام العشرة متربًا متجهِّمًا. توقَّفا عند بائع شطائر الهامبرجر لكن الولد لم ينزل وقال إنه ليس جائعًا. لن يرضى الصبي إلا بالمثلجات، ولم يكُفَّ عن الشكوى حين ابتاع له أبوه مثلجات بطعم الليمون بدلًا عن العنب. لم يأكلها، وتركها تذوب على الأريكة الجلدية. بعدما ابتعدوا عشرين ميلًا عن بائع الشطائر، أعلن ريس أنه جائع.

نظر ڤينس إليه عبر المرآة وقال له: «أتعرف؟ أبوتي لك لا تجبرني على محبتك».

حدَّق الولد إليه، وارتعش ذقنه وهو يحاول كبح بكائه، عازمًا على ألا يشيح بنظره، ويرد نظرات أبيه بنظرات كارهة. لماذا قال ڤينس هذا؟ خطر على باله أنه لو كان يستطيع التحدُّث إلى ابنه بطريقة أفضل، ما كان ليُسرَّح من الجيش تسريحًا غير مُشرِّف لتخلِّيه عن كتيبته بينما الشهداء يتساقطون، ويفرَّ بالسيارة الهامڤي، وما كان ليقابل دين كلارك ولا ليعرف ما هو معمل الميث، وما كان الولد ليرغب في تقدُّم العشيرة طيلة الوقت بسرعة سبعين ميلًا في الساعة بينما لا يستطيعون هم تجاوز ستين ميلًا. الولد يحاول دومًا

أن يتجاوزه، ويحافظ على أكبر مسافة بينهما. لطالما كان يحاول هذا طيلة حياته.

نظر ڤينس إلى الطريق الذي جاؤوا منه، ولمح الشاحنة مرَّة أخرى. يراها عبر تموُّجات الهواء الحار فتبدو كسراب، بمدخنتيها العاليتين وشبكتها الفضية. الشاحنة لافلين، أو المذبحة لو كنت تفضِّل التفسيرات الفرويدية للكلمات المكتوبة. عقد ڤينس حاجبيه وتشتَّت للحظة متسائلًا كيف لحقت بهم الشاحنة التي كانت تبعد عنهم أكثر من ساعة.

تحدَّث دوك في خجل، كأنما يعتذر: «ربما هو الصواب ما تريد فعله يا زعيم. يمكننا بالطبع قطع عشرين ميلًا في طريق غير ممهَّد وسط الغبار».

قال ڤينس: «لا أريد أن يصيب الوسخ أحدكم».

تحرَّك من جانب الطريق، ولفَّ مقبض الوقود متجهًا نحو اليسار إلى الطريق 6 المؤدِّي إلى شو لو.

استطاع أن يسمع عبر المسافة صوت الشاحنة تغيِّر سرعتها، ويهدر محرِّكها ويعوي وهو يدفع السيارة عبر المساحات الشاسعة.

***

البلدة عبارة عن أحجار صفراء وحمراء، ولم يلمحوا أحدًا عبر الطريق الضيق ذي الحارتين. لا توجد حارة تخطٍّ، فاصطفُّوا خلف بعضهم وانطلقوا نحو مدخل الأخدود، متبعين الطريق النازل. عن يسارهم سور الطريق المحطَّم، وعن يمينهم حائط صخري عارٍ. تقدَّم ڤينس العشيرة مع ليمي لدقائق، ثمَّ تراجع ليمي وتقدَّم ريس إلى جواره. قاد الابن والأب درَّاجتيهما جنبًا إلى جنب، يتلاعب الهواء بشعر ريس الأسود ويضرب به حاجبيه، وتنعكس أشعَّة الشمس الحارقة على عدسات نظارته.

حدَّق إليه ڤينس بجانبَيْ عينيه. ريس رشيق ذو جسد عضلي، يعتلي درَّاجته بشيء من العدائية، يقودها عبر المنعطفات بخشونة، ويميل بها حتَّى تكاد تحتكُّ بالطريق. حسده ڤينس على طبيعة جسده القوي، وعلى قدرته على جعل ركوب الدرَّاجة عملًا جادًّا، بينما اعتبره ڤينس منفذًا يبعده عن العمل الجادِّ. تساءل إن كان ريس حقًّا راضيًا عن نفسه.

سمع ڤينس هزيم محرِّك من خلفه، فنظر من فوق كتفه ليرى الشاحنة تقترب منهم، كأسدٍ يندفع نحو قطيع غزلان غافل. تقطع العشيرة الطريق بسرعة خمسة وأربعين ميلًا في الساعة، بينما تتقدَّم الشاحنة منهم بسرعة ستين ميلًا. استوعب ڤينس أن الشاحنة لافلين لن تقلل سرعتها. ارتطمت لافلين بنهاية القافلة ودوى صوت ارتطام المعدن بالمعدن.

تطايرت الدرَّاجات. قُذِفت واحدة نحو الحائط الصخري، وسقط عنها راكبها چون كيدر المعروف ببيبي چون، وارتطمت بالصخور، ثمَّ ارتدت واختفت تحت عجلات لافلين. أما الدرَّاجة الثانية (دوك.. لا! ليس دوك) دُفِعت نحو الحارة اليسرى. لمح ڤينس وجه دوك الشاحب الذاهل، وفمه المفتوح، تلمع فيه السنة الذهبية في فخر. فقد دوك السيطرة على الدرَّاجة وطار عبر السور إلى الفراغ، تبعته درَّاجته وقد انفتح صندوقها وتطايرت منه ملابسه. مضغت الشاحنة ما تبقى من الدراجات المحطمة، شبكتها الأمامية تبدو كفمٍ فضي مفتوح.

مال ريس وڤينس معًا عند المنعطف، تاركين كل هذا خلفهما. اندفعت الدماء إلى قلب ڤينس، وللحظات شعر بألم خطير في صدره. جاهد كي يتنفَّس. بمجرَّد أن اختفى الهول عن عينيه، صار من الصعب تصديق أنه قد وقع. صعب أن يصدِّق أن الدراجات المحطمة لم تنجُ من الشاحنة. لم يكن قد أنهى أفكاره بعد حين رأى دوك على جانب الطريق أمامهما ودرَّاجته فوقه، تهبط ملابسه من أعلى، تجرفها الريح كبالونات. هبطت سترة دوك الچينز أخيرًا، ولمح العبارة على ظهرها: «عندما أصل إلى الجنة سيدعوني أدخل، لأنني قد أنهيت خدمتي في الجحيم»، ومن خلفها رسم لخريطة ڤايتنام. سقطت الملابس وصاحب الملابس وركوبة صاحب الملابس من الطريق خلفهما، والذي جعله المنعطف في مستوى أعلى. سقط دوك من ارتفاع سبعين قدمًا إلى الطريق السريع بالأسفل.

أدار ڤينس المقود متجاوزًا الحطام وهو يدلِّي قدمه، يكشط بحذائه الأسفلت. صديقه منذ عشرين عامًا؛ دوك ريچيس أصبح مرادفًا من ثلاثة أحرُف لكلمة «دهن»: شحم. وجهه إلى أسفل، أسنانه محطَّمة، تلمع وسط كتلة دماء جوار أذنه اليسرى، ووسطها سنُّه الذهبية. اخترقت عظام ساقيه بنطاله الچينز، وانتصبت خارجة من وسط بركة حمراء. رأى ڤينس كل هذا

في لحظة، ثمَّ تمنَّى أن يمحو ما رأى. انقلبت معدته وتقلَّصت حنجرته، وحين ابتلع لعابه شعر بمذاق حمضي حارق.

دار ريس حول الجهة الأخرى من الحطام. نظر بجانب عينيه إلى ڤينس، ورغم أن الأخير لا يستطيع رؤية عينيه من خلف النظارة، لمح وجهه الجامد منكوبًا. وجه طفل تسلَّل إلى غرفة والديه وهما يشاهدان فيلم رعب دموي.

نظر ڤينس إلى خلفه مرَّة أخرى ورأى باقي العشيرة عند المنعطف. سبعة فقط، تطاردهم الشاحنة بأقصى سرعتها، حتَّى إن الحاوية التي تجرُّها قد مالت بشدَّة نحو الأسفلت، ينبعث من إطاراتها الدخان. اعتدلت الشاحنة ثمَّ اكتسبت سرعة فضربت إليس هاربيسون. طار إليس في الهواء فكاد يبدو مضحكًا هو يحرِّك ذراعيه أمام السماء. بدا مضحكًا حتَّى هبط إلى الأرض وسحقته الشاحنة. تدحرجت درَّاجته حتَّى قذفتها العربة ذات الإطارات الثمانية عشر إلى جانب الطريق.

لمح ڤينس دين كاريو إذ لحقته الشاحنة ودفعت إطار درَّاجته الخلفي، فانقلب دين بدرَّاجته وسقط أرضًا، يتدحرج على الطريق بسرعة خمسين ميلًا في الساعة، يكحت الأسفلت جلده، يرتطم رأسه بالأرض مرَّات ومرَّات تاركًا بقعًا دامية على خطوط الطريق البيضاء.

التهمت الشاحنة درَّاجة دين، وعَلا صوت التكسير والتحطم، ثمَّ اندلعت النيران في الدرَّاجة التي لم يدفع دين بعد كامل أقساطها. شعر ڤينس بضغط وحرارة من خلفه، تدفعه إلى الأمام، مهدِّدة أن تلقيه من فوق مقعده. ظن أن الشاحنة نفسها قد تنجرف خارج الطريق بسبب انفجار الدرَّاجة تحت إطاراتها، لكنها لم تفعل، واندفعت الشاحنة خارجة من ألسنة اللهب، جوانبها ملطخة بالسناج، والدخان ينبعث من أسفلها. غير ذلك، كانت سليمة تمامًا، وتنطلق بأقصى سرعتها. يعرف ڤينس أن الشاحنات سريعة، والحديث منها كأنما يمتلك محطَّة توليد طاقة تحت غطائها، لكن هذا الشيء...

فائقة الشحن؟ هل يمكن أن تشحن شاحنة قطر لعينة شحنًا فائقًا؟

تحرَّك ڤينس سريعًا حتَّى شعر أن إطار درَّاجته الأمامي يكاد ينفصل. كانوا قد وصلوا إلى نهاية الطريق المُنحدر الآن حيث يستوي. ريس أمامه بقليل، ومن خلال المرآة يرى ڤينس الناجين: ليمي، بيتشز، روي. وها هي الشاحنة تقترب من جديد.

يمكنهم التفوق على الشاحنة في المنعطفات، لكن لا توجد منعطفات أمامهم لمسافة عشرين ميلًا لو لم تخُنه الذاكرة. ستضرب الشاحنة بيتشز تاليًا. بيتشز الذي يصبح مضحكًا كلما حاول أن يكون جادًّا. نظر بيتشز نظرة سريعة من فوق كتفه وعرف ڤينس ما رأى؛ تلٌّ معدنيٌّ يقترب منه.

فكِّر في شيء! أخرجهم من هذه الكارثة!

يجب أن ينقذهم هو. ريس لا يزال بخير، لكنه فقد الوعي بما حوله، يركز فقط على الطريق ولا يلتفت. ضربه خاطر مريع، لكنه حقيقي. هكذا بدا ريس في الفلوجة وهو يتخلَّى عن زملائه في الكتيبة، ويقود المركبة الحربية مبتعدًا، بينما تتساقط فوقهم قذائف الهاون. زاد بيتشز من سرعته، فابتعد قليلًا عن الشاحنة التي أطلقت نفيرها كأنها تصيح غضبًا، أو تنفجر ضحكًا. أيًّا كان، فقد تأجَّل إعدام بيتشز. سمع ڤينس السائق -ربما اسمه لافلين، وربما هو شيطان من الجحيم- يغيِّر السرعة. إلهي، ما هي حدود سرعة هذه السيارة؟!

تقلَّصت المسافة بينهم وظن ڤينس أن بيتشز لن يتمكَّن من زيادة سرعته أكثر؛ درَّاجته العتيقة بلغت منتهى قوتها. إمَّا أن تصدمه الشاحنة، وإمَّا يحترق محرِّك الدرَّاجة ثمَّ تصدمه الشاحنة.

برونك! برونك! برونك! برونك!

قد يتحطَّم اليوم ما كان مُحطَّمًا من قبل، وبما لا يدع مجالًا للإصلاح، لكن طرأت على ڤينس فكرة تعتمد على مكانهم الآن. هو يعرف هذا الطريق، لكنه لم يقطعه منذ أعوام ولا يمكن أن يكون واثقًا من مكان شيء فيه الآن خاصَّة مع سرعته.

رمى روي شيئًا خلف كتفه، شيئًا لمع تحت الشمس، ثمَّ ارتطم بزجاج الشاحنة الأمامي وارتدَّ عنه. هذا هو السكين الكبير. عوت الشاحنة وأطلقت دخانًا أسود من مدخنتيها، وضغط السائق على النفير مرَّة أخرى.

برونك! برونك! برونك! برونك-برونك! برونك!

بدت النغمات متقطِّعة كأنها شفرة موريس.

ليت... إلهي.. لو أنني فقط..

رأى ڤينس أمامه لافتة قذرة بالكاد يمكن قراءة ما عليها: كومبا 2.

كومبا. كومبا اللعينة! بلدة تعدين صغيرة بجوار التل، حيث خمسة أخاديد صغيرة، وعجوز غريب الأطوار يبيع ألحفة هنود قبائل النافاهو التقليدية المصنوعة في لاوس[1].

ميلان ليسا بالمسافة الكبيرة إن كنت تسير بسرعة ثمانين ميلًا في الساعة. لا يوجد سوى فرصة واحدة. يجب أن يُسرعوا.

سخر الآخرون من ركوبة ڤينس، لكن ما نال منها حقًّا هي سخرية ريس. درَّاجته «كاواساكي ڤولكان 800» مُعدَّلة، بمواسير عادم «كوبرا»، ومقعد مُصمَّم خصوصًا، مغلَّف بجلد أحمر مثل جرس إنذار الحريق. قال دين كاريو في مرَّة عن المقعد: «كأنه مقعد مُسنين وثير».

فردَّ عليه ڤينس ساخطًا: «سحقًا لك!».

أطلقت العشيرة اسم «حارقة الأرز»[2] على درَّاجته، وكذلك اسم «توچو موچو إل روچو»[3]. أحب دوك -الذي يفترش الطريق الآن خلفهم- أن يطلق عليها الآنسة فوچي ياما.[4] يبتسم ڤينس وكأنه يعرف ما لا يعرفون، أو ربما هو بالفعل يعرف. لم يجاوز ڤينس سرعة مائة وعشرين ميلًا في الساعة قط خشية الخطر، لكن ريس لم يكن ليفعل هذا لو كان مكانه. ريس شاب، وعلى الشباب أن يتعلَّموا متى يتوقَّفوا عند الحدود المناسبة. مائة وعشرين ميلًا كانت كافية لڤينس، لكنه كان يعرف أن الدرَّاجة قادرة على ما هو أكثر، وجاء وقت اختبار حدود سرعتها الآن.

أدار مقبض الوقود حتَّى نهاية محوره، ولم تجب ڤولكان بزمجرة، إنما بصرخة، وكادت تتمزَّق تحته. لمح وجه ابنه الأبيض للحظة، ثمَّ تجاوزه إلى المقدِّمة، يركب صاروخه، تزكم رائحة الصحراء أنفه. على مقربة أمامه يتفرَّع

---

(1) دولة في جنوب غرب آسيا. (المترجمة)

(2) Rice burner عبارة تحقير تطلق على الدراجات البخارية اليابانية.

(3) عبارة سجعية بلا معنى، غالبًا عن الإسبانية (توخو موخو إل روخو)، ومعنى كل كلمة على حدة لا يُشكل عبارة مفيدة لكن كلمة «روخو» تُعني أحمر، وربما تشير إلى مقعد الدرَّاجة. و(موخو) تعني مبللًا. (المترجمة)

(4) بركان خامد في اليابان، ويقصد أن الدرَّاجة يابانية واسمها فولكانو أي «بركان». (المترجمة)

طريق أسفلتي مترَّب إلى اليسار، متجهًا إلى كومبا، أما الطريق الأساسي فينعطف يمينًا إلى شو لو.

نظر ڤينس إلى مرآته اليمنى فرأى الآخرين في كتلة متقاربة يتقدَّمهم بيتشز الذي ظن ڤينس أن الشاحنة ستنال منه -وربما الآخرون أيضًا- لكن بيتشز كان يعرف مثلما يعرف ڤينس أنه لا يوجد مخرج لهم على طول الأميال العشرين التالية. قبل مدخل طريق كومبا، ارتفع الطريق قليلًا، وأحاطه السور القصير من الجانبين ممَّا ذكَّر ڤينس بمنظر المواشي في القفص. الأميال العشرون التالية كلها لصالح لافلين.

أتمنَّى أن تنجح الخطة..

أطلق سراح مقبض الوقود، وضغط مكابح اليد بشكل متقطِّع. ما رآه الأربعة خلفه -إن كانوا ينظرون- ومضة قصيرة.. ثمَّ ومضة طويلة.. ثمَّ أخرى قصيرة. ثمَّ وقفة تلاها تكرار للومضات؛ قصيرة، طويلة، قصيرة. جاءته الفكرة من صوت نفير الشاحنة الذي ذكَّره بشفرة مورس، لكن ما كان يشير إليه ڤينس بمصباح المكابح الخلفي كان بالفعل شفرة مورس.

حرف R.

ربما يفهم روي وبيتشز الإشارة، لكن ليمي سيفهمها قطعًا. ماذا عن ريس؟ هل يعلِّمهم الجيش شفرة مورس حتَّى الآن؟ هل تعلَّمها الشاب في أثناء الحرب؟ قادة الكتائب الآن يستخدمون وحدات تحديد مواقع، ويتحكَّمون في القنابل عن طريق الأقمار الصناعية.

اقترب مدخل طريق كومبا، وكان لدى ڤينس وقت كافٍ لتكرار الحرف. لحقته باقي العشيرة، فأشار إليهم بيسراه إشارة يفهمونها جيدًا: *اتبعوني إلى خارج الطريق السريع*. رأى لافلين الإشارة كما توقَّع ڤينس وانطلق خلفهم، فأدار ڤينس مقبض الوقود مرَّة أخرى. صرخت الدرَّاجة واندفعت إلى الأمام متجهة إلى اليمين وتبعه الآخرون، لكن الشاحنة لم تفعل؛ لو حاول السائق الانعطاف وراءهم ستنقلب حمولته.

شعر ڤينس بالابتهاج، ورفع قبضته علامة النصر. *لقد فعلناها! سحقًا! سنكون قد اختفينا تمامًا حين يفلح في الالتفاف بهذه الشاحنة السريعة اللعينة..*

انكسرت خواطره كغصن جافٍّ عندما نظر مرَّة أخرى إلى مرآته. لم يكن يتبعه سوى ثلاث درَّاجات فقط لا أربع: ليمي، وبيتشز، وروي.

دار ڤينس نحو اليسار فسمع صوت فقرات ظهره العجوز تحتجُّ. كان يعرف ما سيراه. الشاحنة تجُرُّ خلفها سحابة من الغبار الأحمر الذي لوَّثها فلم تعد تلمع تحت الشمس. هنا شيء أصغر يلمع أمامها على مسافة خمسين ياردة، شيء له لمعة الكروم وصوت محرِّك درَّاجة سوفتيل ديوس. إما أن ريس لم يفهم إشارة مورس ولم يصدِّق ما يراه، وإما لم يرها من الأساس. تذكَّر ڤينس تعبير وجه ابنه الجامد وشروده، وعرف أن الاحتمال الثاني هو الأقرب. لم يكن ريس يلاحظ ما يفعلون، ولم يكن يراهم منذ اللحظة التي أدرك فيها أن شاحنة لافلين ليست شاحنة خارجة عن السيطرة، بل شاحنة موجهة لقتل العشيرة.

لم يلحظ سوى إشارة يد ڤينس، وتجاهل نظره الإشارات الضوئية. ما سبب هذا؟ الذعر؟ أنانية حيوانية؟ أم أن كليهما واحد؟

اختفت درَّاجة ريس خلف تلٍّ وتبتعها الشاحنة، ولم يعد هناك سوى عاصفة الغبار. حاول ڤينس ترويض أفكاره الجامحة وترتيبها. لو أن ذاكرته سليمة -يعرف أنه يطلب منها ما هو فوق طاقتها- فهناك تفريعة تؤدِّي إلى كومبا قبل أن تعود وتنضم إلى طرق 6 بعد تسعة أميال. لو أن ريس يستطيع أن يظل في المقدمة...

إلا..

إلا أن الطريق -ما لم يكن هناك تغييرٌ ما- يؤدِّي إلى طبقة ترابية متصلِّبة خلف كومبا، وتميل إلى أن تكون عاصفة في هذا الوقت من السنة. لن تتضرَّر الشاحنة، لكن ماذا عن درَّاجة بخارية؟

فرص نجاة ريس من الأميال الأربعة التالية ليست مرتفعة، أما فرص دهمه فهي الأعلى.

تتالت صور ريس في عقل الأب: ريس على درَّاجته ذات العجلة الكبيرة: محارب الحضانة. ريس يحدِّق إليه من المقعد الخلفي للسيارة، تاركًا المثلجات تذوب، يحدجه بنظرات كاره، شفته السفلى ترتعش. ريس في عمر الثامنة عشرة، يرتدي زي الجيش الموحَّد وعلى وجهه ابتسامة غير مكترثة.

أخيرًا داهمته صورة ريس ميتًا على الطريق الترابي. دُمية محطَّمة لا تربط أجزاءها ببعض سوى الملابس. أبعد ڤينس هذه الصورة عن عقله. لا توجد نجدة هنا، ولا شرطة. لا توجد شرطة في كومبا عمومًا. لو رأى أحدهم الشاحنة تطاردهم سيتصل بشرطة الولاية، لكن أقرب شرطي سيكون في شو لو، يشرب القهوة ويأكل الفطائر ويغازل النادلة على أنغام غناء تراڤيس تريت المنبعثة من صندوق الموسيقى.

لم يكن هناك غيرهم، وهذا شيء بديهي.

رفع ڤينس يده اليمنى مكورًا قبضته، ثمَّ ضرب بها الهواء، فمال الثلاثة الآخرون يتبعونه، تهزم محرِّكات درَّاجاتهم، ويومض الهواء فوق مواسير العادم. اقترب منه ليمي بوجه ممتقع وهتف: «لم يرَ إشارة المصباح الخلفي».

فصاح ڤينس: «لم يرها أو لم يفهمها».

كان يرتعد، أو ربما كانت الدرَّاجة هي التي ترتعد تحته. أضاف: «النتيجة واحدة. لننقذ الصبي!».

لوهلة لم يفهم ليمي، ثمَّ دار بجذعه إلى الخلف وجذب شريط غلق جرابه. لم يكن يضع حاجياته في صندوق بلاستيكي؛ هو يتبع المدرسة القديمة دائمًا.

بينما يبحث عن شيء فيه، باغتهم صوت هدير قوي. هذا روي وقد نال كفايته، فاستدار قاصدًا الشرق، ظله الآن يتقدَّمه كرجل عملاق أسود. على ظهر سترته الجلدية مزحة بغيضة: لا تراجع ولا استسلام.

صاح بيتشز: «عُد يا كلويس، أيها الأحمق!».

ترنحت الـ «بيزر»[1]، وكادت تدهم قدم ڤينس، ثمَّ أطلقت عادم وقود عالي الأوكتان حتَّى توقَّفت. كاد أن يرشق في درَّاجة بيتشز لكن بدا أنه لم يلحظ، فقد كان ينظر إلى الخلف. ضرب الهواء بقبضته، وشعره الرمادي يرفرف حول رأسه الطويل وهو يصيح: «عُد أيها الأحمق، يا خراء الدجاج!».

لم يعد روي، ولم ينظر خلفه حتَّى.

---

(1) Beezer درَّاجة بخارية مصممة للسباق تصنيع شركة BSA المحدودة. (المترجمة)

التفت بيتشز نحو ڤينس. الدموع تجري على خدَّيه اللذين شوتهما الشمس في خلال ملايين الرحلات. بدا في هذه اللحظة أكبر سنًّا من الصحراء التي تحيط به.

قال بيتشز: «أنت أقوى منِّي يا ڤينس، لكن لديَّ أحمق يفوق ابنك حُمقًا. اقطع رقبته ولن أتكلَّم».

صاح ڤينس في ليمي: «أسرِع! أسرِع لعنك الله!».

كان يظن أن ليمي لن يجد ما كان يبحث عنه، لكنه فوجئ به يرفع يده المُقفَّزة ممسكًا سلاحه. لا يحمل أفراد العشيرة أسلحة نارية. راكبو الدراجات الخارجون عن القانون أمثالهم لا يفعلون. لديهم جميعًا صحف سوابق، وأي شرطي في نيڤادا قد يُلقي بهم في السجن ثلاثين عامًا لحيازة سلاح. بعضهم قد يحمل سكاكين، لكن السكاكين لا نفع لها في هذه المواقف، نظرًا لتأثير سكين روي شبه المنعدم كصاحبه، إلا فيما يخصُّ طبعًا قتل الفتيات.

السلاح مع ليمي لم يكن قانونيًّا تمامًا، ولم يكن مسدسًا، والشرطي الذي رآه في أثناء تفتيشه عن المخدرات كان يعرف أنه ليس أكثر من شعلة تنبيه على الطريق إذا تعطلت الدرَّاجة. ربما كان الشرطي يعرف حقيقة السلاح وربما لا، لكنه كان متأكدًا أن ليمي جندي حرب سابق، ولم يعرف هذا من لوحة أرقام الدرَّاجة التي ربما كانت مسروقة، بل لأن الشرطي كان جنديًّا سابقًا مثله. هتف: «كنت أخدم في قرية أو شو، حيث للخراء رائحة أكثر حلاوة!».

ضحكا وانتهى بهما الأمر يضربان قبضتيهما ببعضهما جذلًا.

سلاح ليمي المُسمَّى «الولد الصغير» عبارة عن قنبلة يدوية صوتية ضوئية، معروفة أكثر باسم «المُفجِّر». ظل ليمي يحملها في جرابه لخمس سنوات، ويزعم أنه قد يحتاجها إن استفزه أحد أفراد العشيرة، من ضمنهم ڤينس نفسه.

وها هو الوقت المناسب قد جاء.

صاح به ڤينس: «هل ستعمل ابنة العاهرة القديمة هذه؟».

لم تكن تبدو كقنبلة يدوية، بل هي أقرب إلى عبوَّة رشٍّ أو كوب حراري. الشيء الوحيد الذي يشبه القنابل فيها الحلقة المثبتة إلى جانبها بشريط لاصق.

- لا أعرف.. لا أعرف حتَّى كيف...

ليس لدى ڤينس وقت لمناقشة الخطط. لديه فقط فكرة ضبابية عن سير الأمور.

- يجب أن أكمل طريقي. الزاني هذا سيخرج من الطرف الآخر من طريق كومبا! علينا أن نكون هناك حين يخرج.

سأل ليمي: «ماذا لو لم يكن ريس أمامه؟».

كانوا يتصايحون حتَّى العبارة الأخيرة، وسماع عبارة بصوت عادي فاجأهم. أجاب ڤينس: «بطريقة أو بأخرى، لستما مجبرَيْن على مرافقتي. أتفهَّم لو اخترتما العودة. هو ابني أنا».

قال بيتشز: «ربما، لكنه واحد من عشيرتنا. أو كان كذلك».

ضغط على بدَّال بيزر، فهدر المحرِّك عائدًا إلى الحياة. أضاف: «سأذهب معك يا زعيم».

أومأ ليمي، وانطلق خلفهما.

***

لم تكن البلدة بعيدة كما تصوَّر. تبعد سبعة أميال فقط لا تسعة. لم يقابلوا أي سيارة أو شاحنة. الطريق مهجور، تتحاشاه السيارات بسبب أعمال الصيانة عند مفترق الطرق. ظل ڤينس يسدِّد نظرات متلاحقة من فوق كتفه، ورأى غبارًا أحمر يتعالى، والشاحنة تجُرُّ خلفها نصف الصحراء بتفريغ الهواء. ثمَّ لم يعد يرى شيئًا حين ابتعدت التفريعة خلف التلال.

تأرجحت القنبلة أمامًا وخلفًا، معلَّقة برباطها. *هل ستعمل ابنة العاهرة القديمة هذه؟* سأل ليمي، ثمَّ أدرك أنه المفترض أن يسأل نفسه هذا السؤال. منذ متى اختبر قدرته إلى هذا الحد، يسير بهذه السرعة القصوى كل هذا الوقت؟ منذ متى لم يكن لديه سوى خيارين؛ الحياة أو الموت؟ منذ متى وابنه الجذَّاب في سترته الجلدية ونظارته العاكسة يخالف هذه المعادلة البديهية؛ *عِش أو مُت، لكن لا تهرب. لا تهرب.*

ربما تعمل القنبلة، وربما لا، لكن ڤينس يعتزم على انتهاز الفرصة، ممَّا جعله يبدو طائشًا أمام نفسه. لو كان السائق يعتزم شيئًا منذ البداية، فالأمر ميؤوس منه. لكنه لم يكن يعتزم شيئًا عند المطعم. كانت ذراعه هناك مُدلَّاة

خارج نافذته، ثمَّ لاحقًا.. ألم يُشِر إليهم أن يتخطُّوه من خلال النافذة نفسها؟ بالتأكيد. بالتأكيد هذا ما حدث.

سبعة أميال. خمس دقائق تقريبًا. وقت كافٍ كي تمُرُّ ذكرياته مع ابنه أمام عينيه. ابنه الذي علَّمه أبوه كيف يغير زيت الدرَّاجة، ولم يعلِّمه تلقيم سنارة. علَّمه تغيير شموع الاحتراق ولم يعلِّمه إن كانت العملة من دار سك العملة في دينفر أو في سان فراينسيسكو. جاء وقت التفكير في الكيفية التي تورَّط بها ريس في معمل الميث، وطاوعه ڤينس وهو متأكد أنها صفقة غبية لأن الموافقة على المشروع بدت له تعويضًا لابنه عن كل ما جرى بينهما في الماضي. لكن وقت الندم قد فات. انطلق ڤينس بسرعة خمسة وثمانين ميلًا في الساعة، ومال إلى الأمام محاولًا تقليل مقاومة الهواء. فجأة خاطر مريع، خاطر حاول الهرب منه طيل الوقت. ربما من الأفضل أن يدهم لافلين ابنه. لم يكن سبب الخاطر منظر ريس وهو يرفع المجرفة عاليًا ثمَّ يهوي بها على رأس الرجل الأعزل بسبب غضب على مال مفقود، رغم أن المنظر شنيع كفاية. لكن السبب شيء آخر؛ النظرة الجامدة الخاوية في عينَي الشاب قبل أن ينعطف إلى الطريق الخاطئ. لم يتوقَّف ڤينس عن النظر إلى العشيرة من خلفه طيلة الطريق، بينما بدا ريس غير قادر على لف عنقه المتصلِّب إلى الخلف وكأن لا شيء وراءه يستحق النظر إليه.

سمع ڤينس صوتًا من خلفه، وصيحة اخترقت أصوات المحرِّكات: *يا ابن العاهرة!* نظر إلى المرآة فرأى بيتشز يسقط عن درَّاجته والدخان يتصاعد من بين ساقيه، والزيت يغرق الطريق خلفه على شكل مروحة يتسع قطرها كما تباطأت درَّاجته. لقد انفجرت حشية رأس أسطوانة المحرِّك، وهي معجزة أنها لم تنفجر قبل هذا بكثير.

أشار إليهما بيتشز أن يكملا الطريق، وكأن ڤينس سيطاوعه. إنقاذ ريس محل تساؤل، حتَّى إنقاذ ڤينس نفسه أو أيهم. تذكَّر شرطي من أريزونا أوقفهم في مرَّة وقال: «حسنًا. انظر ماذا تقيأ الطريق».

وهذه حقيقتهم؛ قيء الطريق. لكن الجثث خلفهم كانت حتَّى الظهيرة رفاق دربه، والشيء الوحيد ذو القيمة في العالم. كانوا بطريقة ما إخوة ڤينس، وريس ابنه، لا يمكنك قتل عائلة رجل وتتوقَّع أن تحيا بعدها أو أن يدعك تهرب.

لو أن لافلين لا يعرف هذا، فسيعرفه قريبًا.

***

لم يستطع ليمي مواكبة سرعة توچو موچو إل روچو. اتسعت المسافة بينهما أكثر، ولم يضايق هذا ڤينس، فقد كان مسرورًا أن درَّاجة ليمي بخير رغم كل شيء.

أمامه بزغت لافتة مكتوب عليها: «انتبه. تفريعة خروج عند اليسار».

هذا هو الطريق الخارج من كومبا حيث الأرضية الترابية المضغوطة كما خشي ڤينس. توقَّف ثمَّ أطفأ محرِّك الدرَّاجة.

لحقه ليمي وتوقَّف جواره. لم يكن هناك سور على جانبي الطريق هنا، حيث ينضم طريق كومبا الفرعي إلى طريق 6 في نفس مستوى الصحراء المحيطة، لكنه يرتفع مرَّة أخرى بعد عدَّة أميال ويدخل إلى حيز الأسوار على جانبيه.

قال ليمي وهو يطفئ محرِّك درَّاجته:

- الآن ننتظر.

أومأ ڤينس. تمنَّى لو أنه لا يزال مدخنًا. قال لنفسه إن أمر ريس الآن سواء نجا أم لا ليس في يده. هذه هي الحقيقة، لكنها لم تفلح في تهدئة توتره.

قال ليمي: «ربما سيجد طريقًا للنزول إلى كومبا. حارة أو شيء من هذا القبيل».

- لا أظن. كومبا ليست مكانًا بالضبط. ما هي إلا محطَّة تزويد وقود وبيتان أو ثلاثة تحت سفح التل. الطريق سيئ حتَّى بالنسبة لريس.

لم يحاول أن يخبر ليمي عن برود تعبيرات وجه ريس التي تشي أنه لا يرى شيئًا سوى الطريق أمامه. كومبا ستكون بالنسبة له كومضة لا تُرى إلا بعد المرور بها بمسافة.

قال ليمي: «ربما...».

رفع ڤينس يده ليُسكته، ثمَّ أمالا رأسيهما نحو اليسار. سمعا صوت الشاحنة أولًا، فغاص قلب ڤينس في صدره. بعد وهلة سمع صوت محرِّك آخر، بلا شك صوت محرِّك درَّاجة هارلي. صاح ليمي: «لقد فعلها!».

رفع يده ليضربها بيد ڤينس، لكن الأخير تجاهله. يجب أن يصل الصبي إلى طريق 6 أولًا ليتأكدوا أنه فعلها حقًّا.

مرَّت دقيقة، وعَلا صوت المحرِّكين. مرَّت دقيقة أخرى، ورأى الرجلان سحابة الغبار قرب التلال، ثمَّ التماع ضوء الشمس على المعدن. لمحا ريس مائلًا نحو درَّاجته، شعره يطير من خلفه، ثمَّ اختفى مرَّة أخرى. بعد لحظات رأيا الشاحنة خلفه، تطلق الغبار وراءها. لم يعد اسم لافلين على جانبها واضحًا، فقد دُفِن تحت طبقات من الغبار.

ضغط ڤينس زر تشغيل ڤولكان، فبُعِث المحرِّك. أدار مقبض الوقود فاهتز هيكل الدرَّاجة. قال ليمي: «حظًّا سعيدًا يا زعيم».

فتح ڤينس فمه ليرد، لكن العواطف والتوتُّر خنقاه. بدلًا عن الحديث، أومأ نحو ليمي شاكرًا ثمَّ انطلق، يتبعه صديقه كالعادة.

***

تحوَّل عقل ڤينس إلى حاسوب. حاول حساب السرعة والمسافة ليوقِّت كل شيء بشكل صحيح. انطلق نحو التقاطع بسرعة خمسين ميلًا، ثمَّ خفضها إلى أربعين، ثمَّ أدار مقبض الوقود مرَّة أخرى عند ظهور ريس، يدور حول كرة حشائش جافة، ويطير في الهواء وهو يعبر من فوق مطبَّين. حين وصل ريس إلى نقطة التقاء الطريق الفرعي بالأساسي، أبطأ سرعته. كان عليه أن يبطئ. بمجرَّد أن فعل ذلك، التهمت الشاحنة المسافة بينهما في لحظات.

صاح ڤينس: «انطلق!».

كان يعرف أن ريس لن يسمعه، فصرخ مرَّة أخرى رغم هذا: «انطلق ولا تُبطئ!».

نَوَت الشاحنة أن تضرب إطار الهارلي الخلفي فتديرها حول محورها. وصلت درَّاجة ريس إلى التقاطع ثمَّ قفزت، يمسك ريس المقود بأطراف أصابعه فقط، فبدا كلاعب أكروبات. لم تلحق الشاحنة بالإطار الخلفي، وضربت أنفها بالهواء الذي كان مؤخِّرة الهارلي منذ ثوانٍ. ظن ڤينس أن ريس سيفقد السيطرة على الدرَّاجة وسيدور حول نفسه، لكنه لم يفعل. هبط عند الناحية البعيدة من طريق 6 ناثرًا الغبار، ثمَّ انزلق نحو شو لو.

خرجت الشاحنة إلى حدود الصحراء كي تدور، فعقعت وتمايلت والسائق يغير السرعة متعجِّلًا، فترتعد حاوية النفط إذ تدور العجلات من تحتها محيلة السماء الزرقاء إلى لون ترابي. سحقت الشاحنة العشب الجافَّ على جانب الطريق قبل أن تعود إلى الحارة وتنطلق نحو ابن ڤينس.

أدار ڤينس مقبض الدرَّاجة الأيسر، فانطلقت ڤولكان بينما يتدلَّى «الولد الصغير» ويتأرجح بجنون من رباطه حول المقود. حان الآن وقت الجزء الأسهل من الخطة. ربما يقتل ڤينس، لكنه قطعًا سيكون أسهل من فترة انتظاره وليمي حتَّى يسمعا صوت درَّاجة ريس المختلطة بصوت محرِّك لافلين.

لن يفتَح زجاج نافذته. ليس بعدما اخترق كل هذا الغبار.

سارت الشاحنة بسرعة ستين ميلًا، وستزيد السرعة مع الوقت، لكن ڤينس لن يترك سائقها ينقل عصا السرعات بين التروس اللانهائية هذه حتَّى يصل إلى السرعة القصوى. سينهي كل شيء الآن، وربما سيقضي على حياته هو نفسه، وهي فكرة لا يخجل منها. على الأقل سيشتري لريس المزيد من الوقت مع موقع الريادة حتَّى يتسنى لها الوصول إلى شو لو قبل أن تلحق به الشاحنة. هناك ما هو أكثر من مساعدة ريس، فڤينس لم يتعرَّض لكل هذا الفقد من قبل؛ أربعة من العشيرة قُتِلوا وتمدَّدت جثثهم على الطريق. لا يمكن أن تؤذي رجلًا في عائلته إلى هذا الحد ويسامحك.

ثمَّ انتبه ڤينس إلى الدافع الذي جعل لافلين يفعل ما فعل، وتلتهم شاحنته الرجال مثنى وثلاثًا دون أن يعبأ بخطورة هذا على شاحنته وكرة اللهب التي تجرُّها خلفها. الدافع هو الجنون، لكنه جنون لا يُستوعَب.

انتقل ڤينس إلى الحارة اليسرى، وتقلَّصت المسافة بينه وبين هدفه النهائي؛ مؤخِّرة الشاحنة عند يمينه. رأى شيئًا لخَّص يومه المريع وفسَّره بعبارات سهلة جلية. مكتوب على الملصق الخلفي عبارة متربة لكنها مقروءة:

أب فخور لتلميذة متفوِّقة في الثانوية!

زاد ڤينس سرعته، فرأى عبر المرآة جوار النافذة الأمامية أن السائق قد لمحه. في اللحظة نفسها أدرك ڤينس أن مخاوفه قد تحققت؛ النافذة بالفعل مغلقة.

زحفت الشحنة يسارًا عابرة الخط الأبيض الفاصل بين الحارتين. لدى ڤينس خياران: التراجع قليلًا أو التقدُّم. أخبره الحاسوب في عقله أن وقت الاختيارات قد ولَّى، فحتَّى لو ضغط المكابح مغامرًا بأن ينقلب بدرَّاجته ستضربه آخر خمسة أقدام من جسم الشاحنة المغبَّرة وتُلقي به نحو السور.

بدلًا عن التراجع زاد سرعته رغم انكماش المتاح له من عرض الحارة اليسرى، تدفعه الشاحنة نحو السور المعدني. مزق رباط القنبلة اليدوية ونزع الشريط اللاصق عن الحلقة المعدنية عند جانبها، ثمَّ جذبها بأسنانه، فلطم خده ما تبقى من الرباط.

حُجِبت الشمس، وسار ڤينس في ظل الشاحنة الآن، يفصل بينه وبين السور أقل من ثلاثة أقدام وهي المسافة نفسها تقريبًا بينه وبين جانب الشاحنة التي تقترب أكثر. وصل عند وصلة التقاء المقطورة بالقاطرة، ولم يعد يرى سوى رأس ريس، أما جسده فيحجبه جسد الشاحنة القذر. لم يكن ريس ينظر خلفه.

لم يفكر ڤينس في الخطوة التالية؛ ولم تكن لديه خطة أو استراتيجية. ما يحرِّكه هو وعي قيء الطريق، يهتف به أن سحقًا للعالم. لطالما كان هذا الوعي هو سرُّ وجود العشيرة واستمرارها.

اقتربت الشاحنة لتصدمه صدمة الموت، ولن تترك له مفرًّا. رفع ڤينس إصبعه الوسطى في وجه السائق. كانت سرعته هي نفس سرعة الشاحنة الآن، ويسير موازيًا للكابينة.

ثمَّة حركة بالداخل، عضلات الذراع السمراء ذات وشوم البحرية تتقلَّص وزجاج النافذة ينزل تدريجيًّا، ولاحظ أن الشاحنة قد توقَّفت عن الاقتراب أكثر منه. لا بُدَّ أن السائق قصد هذا قبل أن يرد بطريقة ما.

فكر ڤينس: *ربما خدمنا في وحدتين منفصلتين في قرية أو شو التي لخرائها -كما يقولون- رائحة حلوة.* ربما خدم مع ريس في الصحراء، ويعلم الله أنهم قد استدعوا الكثير من الجنود السابقين لهذه الحرب[1]. لا يهم. الحروب تتشابه.

---

(1) حرب العراق. (المترجمة)

أنزل زجاج النافذة وخرجت منه الذراع تلوِّح له بإصبعها الوسطى، ثمَّ توقَّف. لاحظ السائق أن يد ڤينس التي رفعها بحركته البذيئة لم تكن خاوية، بل تمسك شيئًا. لم يمنحه ڤينس فرصة التفكير، ولم يمنح نفسه فرصة رؤية وجه السائق. كل ما رأى هو الوشم «الموت قبل العار». كم مرَّة منحك القدر فرصة أن تعطي أحدًا ما تمنَّى؟

أمسك ڤينس الحلقة بين أسنانه وجذبها، فسمع هسيس اختلاط مواد كيميائية ببعضها. ألقى بـ«الولد الصغير» عبر النافذة دون أن يكترث بطريقة إلقائه له. فكر ڤينس: *لنُنهِ هذا الأمر بطريقة صحيحة.*

ابتعدت الشاحنة عنه، وعرف ڤينس أنها ستعود لتهاجمه إن سمح لها الوقت. ابتعادها كان مجرَّد رد فعل؛ لافلين يحاول الابتعاد عن الشيء الذي رماه عليه. قام «الولد الصغير» بدوره قبل أن يصحِّح السائق مساره ويقترب ليُنحي ڤينس آدمسون عن الطريق.

أضاءت الكابينة بوميض أبيض كأن الرب نفسه يأخذ صورة له. بدلًا من أن ينطلق نحو اليسار، مال لافلين يمينًا إلى الحارة المؤدِّية إلى شو لو، ثمَّ تجاوزها أكثر ضاربًا السور الأيمن مطلقًا شلالًا من الشرر النحاسي، آلاف الألعاب النارية تدور وتدور، ذكَّرت ڤينس باحتفالات الرابع من يوليو. رأى ريس طفلًا مرَّة أخرى، يجلس على فخذيه يشاهد وميض الصواريخ الملون يضيء السماء فتضيء عيناه الداكنتان بدورهما في رضا.

مزَّقت الشاحنة السور كأنه مصنوع من ورق القصدير، وهوت من تبة ارتفاعها عشرين قدمًا نحو الرمال وكرات الأعشاب الجافة. تصلَّبت الإطارات وانقلبت الشاحنة فضربت حاوية النفط الكابينة بقوة. جاوز ڤينس مكان الانقلاب بمسافة قبل أن يتمكَّن من التوقُّف، لكن ليمي رأى كل شيء. رأى الحاوية تنقلب على جانبها أولًا ثمَّ تلحقها الكابينة، ثمَّ الحاوية تنفتح وتنفجر كقنبلة زيتية عملاقة، وتصل أعمدة الدخان الأسود إلى السماء. تدحرجت الكابينة مرَّة تلو الأخرى وتحوَّل شكلها المكعب إلى كتلة منبعجة بُنِّيَّة تخرج منها شظايا الحديد والأيايات والخطاطيف من كل صوب.

ثمَّ استقرت، ونافذة السائق نحو السماء على بعد ثمانين قدمًا من الحاوية المحترقة. عاد ڤينس أدراجه ورأى الشخص الذي يحاول الخروج من النافذة المحطَّمة. استدار الوجه نحوه، إلا أنه لم يكن ثمَّة وجه، مجرَّد قناع من دم.

خرج نصف السائق قبل أن ينهار ويسقط إلى الداخل مرَّة أخرى، لا يبدو منه إلا ذراعه الموشومة السمراء تتدلَّى من النافذة.

توقَّف ڤينس جوار درَّاجة ليمي يشهق طلبًا للهواء. للحظة ظن أنه سيفقد الوعي، لكنه مال إلى الأمام مرتكنًا بكفيه على ركبتيه، فشعر بتحسُّن.

قال ليمي بصوت يختنق بالحماس: «نلت منه يا زعيم!».

- الأفضل أن نتأكد.

رغم أن الذراع المتدلية تشي بأنه قد نال منه حقًّا. قال ليمي: «لِمَ لا؟ أريد أن أبول على أية حال».

غمغم ڤينس: «لن نبول عليه سواء كان حيًّا أو ميتًا».

سمعا صوت درَّاجة تقترب؛ درَّاجة ريس الهارلي. اقترب منهما ثمَّ توقَّف ونزل عن متنها، وجهه المتربَّ القذر يضيء بالنصر. لم ير ڤينس وجه ريس يبدو كذلك منذ كان في الثانية عشرة حين فاز بسابق درَّاجات بخارية بنى له والده مضماره. وصل ريس إلى نهاية السباق يحمل وجهه التعبير نفسه.

لفَّ ريس ذراعيه حول ڤينس وهو يصيح: «لقد فعلتها يا أبي! لقد شويت ابن الزانية!».

سمح ڤينس بالعناق لأنه كان مشتاقًا إليه؛ هو يبين جانب ابنه الطيب. يؤمن ڤينس بأن لكل جانب طيبًا حتَّى في سنِّه هذه وبعد كل ما خبر. لذا، فقد طال العناق، واستمتع بدفء جسد ابنه ووعد نفسه ألا ينسى هذه اللحظات.

بعدها، وضع يده على صدر ريس ودفعه بقوة. تعثَّر ريس وكاد يسقط إلى الخلف، واختفى تعبيرَي النصر والمحبة عن وجهه.

كلا، لم يختفيا، بل تحوَّلا إلى تعبير وجه ريس المألوف؛ تعبير انعدام المحبة والثقة.

مهلًا، ليس انعدام المحبة، بل الكراهية.

لقد تم التعامل مع الموقف يا سيدي، وسحقًا لك.

سأل ڤينس: «ماذا كان اسمها؟».

- ماذا؟

- اسمها يا چون.

لم ينادِ ريس باسمه الحقيقي منذ أعوام، ولم يكن سواهما الآن ليسمعه؛ ليمي كان ينزلق فوق التبة الرملية نحو الكتلة المحطَّمة التي كانت كابينة لافلين، تاركًا الأب وابنه يحظيان بدقائق من الخصوصية.

سأله ريس في احتقار: «ماذا بك؟!».

لكن حين مدَّ ڤينس يده وخلع عن ابنه النظَّارة العاكسة اللعينة، عرف الحقيقة في عيني چون «ريس» آدمسون. عرف سبب كل هذا (خمسة ضرب خمسة)[1] كما كانوا يقولون في ڤايتنام. هل كانوا يستخدمون التعبير نفسه في حرب العراق؟ أم أنه انقرض كما انقرض تعليم شفرة مورس.

- ماذا تريد أن تفعل الآن يا چون؟ ستذهب إلى شو لو؟ ستعذب أخت كلارك لأجل مال ليس معها؟

- يمكن أن يكون معها.

استجمع ريس شتاته ثمَّ أردف: «المال بالفعل معها. أنا أعرف كلارك وأعرف أنه يثق بهذه العاهرة».

- والعشيرة؟ ماذا...؟ ستنساهم؟ دين وإليس والباقين؟ ودوك؟

نظر إلى أبيه وأجاب: «لقد ماتوا. كانوا أبطأ من اللازم.. أكبر سنًّا من اللازم».

وأضافت عيناه الباردتان: حتَّى *أنت*.

كان ليمي في طريق العودة ممسكًا شيئًا في يده، يثير نعلاه التراب. كرَّر ڤينس: «ما كان اسمها؟ حبيبة كلارك. ما كان اسمها؟».

- وما فائدة معرفة هذا الأمر اللعين؟

صمت ريس وجاهد كي ينتصر على أبيه في مباراتهم الكلامية. اقتربت تعبيرات وجهه إلى الرجاء وهو يضيف: «إلهي. لماذا لا تترك الأمر؟ لقد انتصرنا! لقد أريناه من الأقوى!».

- أنت عرفت كلارك منذ كنتما في الفلوجة، وعرفته هنا في العالم الحقيقي. لقد كنتما مقربان. إن كنت تعرفه فأنت تعرف اسمها. ما اسمها؟

---

(1) 5x5 تعبير في الجيش الأمريكي يعني الفهم الكامل للوضع، ويستخدم خلال التواصل اللاسلكي. (المترجمة)

- چيني أو چوني.. شيء من هذا القبيل.

لطمه ڤينس. رمش ريس وعاد كأنه طفل في العاشرة للحظات فقط، ثمَّ سرعان ما حدَّق إليه في كراهية وحنق. قال ڤينس: «لقد سمعنا نتحدَّث في باحة انتظار المطعم. أعني السائق».

تحدَّث في صبر كأنما يوجِّه كلامه إلى طفل، الطفل الذي صار شابًّا وغامر بحياته لإنقاذه. لكن مغامرته كانت بدافع الغريزة ولم يكن ليغيِّر فيها شيئًا. كانت الشيء الوحيد الخير وسط هذا الجحيم.. هذا الوَسَخ.

- كان يعرف أنه لن يستطيع استدراجنا إلى هنا، لكنه لم يستطع أن يطلق سراحنا أيضًا. لذا فقط انتظر وراهن بوقته وتركنا نتجاوزه.

قال ريس كاذبًا، وكلاهما أدرك هذا: «لا أعرف إلامَ تشير».

- هو يعرف الطريق وتبعنا إلى المنطقة التي تخدمه، مثله كمثل أي جندي ماهر.

ثمَّ طاردهم ليس في عقله سوى هدف واحد مهما كلفه الوصول إليه. عزم لافلين على الموت قبل أن يلحقه العار. لم يكن ڤينس يعرف شيئًا عنه، لكنه شعر بأنه يروقه أكثر ممَّا يروقه ابنه. هذا شيء شبه مستحيل، لكنه حدث. قال ريس: «لقد ذاب مخك».

- لا أظن. أعتقد أنه كان ذاهبًا ليراها عندما صادفنا في المطعم. هذا ما قد يفعله أب لأجل ابنته التي يحبها. سيوفِّق ظروفه ليراها بين حين وآخر ليرى إن كانت تحتاج إلى شيء.

لحقهما ليمي وهو يقول: «لقد مات».

أومأ ڤينس. ناوله شيئًا وهو يضيف: «كان هذا داخل حاجب الشمس».

لم يُرِد ڤينس أن ينظر إلى ما أعطاه إياه، لكنه فعل. هي صورة لفتاة ذات عقصة شعر، ترتدي قميصًا يحمل اسم مدرسة كورمان الثانوية. القميص نفسه الذي ماتت فيه. في الصورة كانت تقف أمام شاحنة عليها اسم لافلين وتبتسم معتمرة قبعة أبيها، وتلوح بيدها في تحية. من تُحيي؟ لافلين نفسه بالطبع. لافلين الذي كان يحمل الكاميرا.

قال ريس: «اسمها چاكي لافلين، وهي ماتت أيضًا. سحقًا لها».

اندفع ليمي ناويًا لكم أسنان ريس، لكن ڤينس أمسك كتفه ونظر إليه ثمَّ نقل نظره إلى الشاب وقال: «ارحل».

نظر إليه ريس غير فاهم.

- لكن لا تتوقَّف في شو لو لأنني سأبلغ الشرطة أن هناك عاهرة شابة تحتاج إلى حماية. سأخبرهم أن مجنونًا قتل أخاها ويبحث عنها لقتلها.

- وماذا ستخبرهم حين يسألونك عن طريقة الحصول على هذه المعلومات؟

أجاب ڤينس بصوت هادئ: «سأخبرهم بكل شيء. تحرَّك. هذا أفضل ما تفعله، وأشهد لك بهذا. لقد استطعت أن تسبقه طيلة الطريق. إذَنْ، انطلق بمؤخرتك هذه بعيدًا».

نظر إليه ريس قلقًا، لكن القلق لم يَدُم طويلًا إذ أدار ظهره نحو أبيه في سُبَّة غير مبالية، وارتدى نظَّارته ثمَّ اعتلى الدرَّاجة.

- أبي..

قال ليمي: «الأفضل أن تذهب يا بني. سرعان ما سيرى أحدهم هذا الدخان وستصل الشرطة قريبًا».

ابتسم ريس، وحين فعل، انحدرت دمعة من عينه اليسرى، أزالت الغبار عن وجهه في طريقها إلى الهاوية. قال: «أنتما زوجان من خراء الدجاج».

صلصلت السلاسل التي تزين حذاءيه عاليي الرقبة. زينة غبية كما يراها ڤينس. أدار ريس محرِّك الهارلي وانطلق غربًا، مبتعدًا عن شو لو. لم يتوقَّع ڤينس أن ينظر خلفه، ولم يخيِّب ابنه توقُّعه.

شاهداه يبتعد، وبعد هُنيهة قال ليمي: «هل تريد أن تنطلق يا زعيم؟».

- لا يوجد مكان أذهب إليه. أعتقد أنني سأجلس إلى جانب الطريق قليلًا.

قال ليمي: «كما تشاء. إن أردت، يمكنني أن أمكث معك».

تربَّعا كهنديين عند جانب الطريق، ورمقا الحاوية تحترق في الصحراء، تلوث زرقة السماء بالسواد.

أخيرًا قال ڤينس: «الآن يمكن أن نرحل. الرائحة صعبة».

أرجع ليمي رأسه إلى الخلف واستنشق الهواء الملوث كأنه يشم عبق خمر معتق.

- الرائحة تذكرني بڤايتنام.

أومأ ڤينس وقال: «عش فخورًا...».

- أجل.. أو مُت ضاحكًا.

صمتا، وانتظرا. ظل ڤينس ممسكًا بصورة الفتاة بين أصابعه، وبين الحين والآخر ينظر إليها ووجهها نحو الشمس، مفكِّرًا في شبابها وسعادتها اللذين فقدتهما.

لكنه أغلب الوقت كان يراقب النيران.

دوَّارة الملاهي الخبيثة

لطالما ظهرت صورتها على البطاقات المطبوعة؛ دوَّارة الملاهي تلك، عند مرفأ «كيب ماجي». يسمُّونها العجلة الجامحة، تدور بسرعة -ليست في سرعة القطار الأفعواني- لكن سرعتها أكثر نوعًا من الدوَّارات العادية المخصصة للأطفال. تبدو العجلة ككعكة عملاقة، قُبتها مُخططة بالأسود والأخضر مع حواف ذهبية. في الظلام تبدو كصندوق جواهر غارق وسط وهج أحمر شيطاني، يشبه وهج نيران الموقد. أنغام صندوق الموسيقى تصل إلى أرجاء الشاطئ، متضاربة نشاز، تشبه موسيقى الڤالس الرومانية. شيء بُعِث من القرن التاسع عشر يليق بحفل يقيمه الكونت دراكيولا وعرائسه البيضاوات بياض الثلج.

هي أكثر معالم شاطئ كيب ماجي المليء بالطحالب لفتًا للنظر. حال شاطئ المرفأ يتدهور منذ كان جدَّاي طفلين. تعبق رائحة حلوى غزل البنات الهواء، وهي رائحة غير موجودة في الطبيعة، لا يمكن وصفها إلا بكونها رائحة «وردية». عليك تفادي كومة قيء دائمة على الممر الخشبي، تسبح فيها حبَّتَا فيشار مبلَّلتان. هناك العديد من المطاعم على امتداد الشاطئ، حيث يمكنك دفع ثروة مقابل وجبة محار مقلي تتأخَّر دائمًا. ستجد أيضًا بالغين

ساخطين محترقين من أثر الشمس، يحملون أطفالًا صارخين، محترقين من أثر الشمس أيضًا. تلك عائلات تؤمُّ الشاطئ لأجل التمشية.

عند المرفأ نفسه أكشاك لبيع التفاح المغلف بالحلوى، وشطائر النقانق، وأخرى لممارسة لعبة التصويب تجاه لصوص مصنوعين من الصفيح يبزغون ويغربون من خلف ساتر معدني. ثمَّة سفينة قراصنة ضخمة معلَّقة كالبندول، تبحر عند جانب المرفأ نحو المحيط، بينما صرخات الحماس تعلو محمولة على نسائم الليل. ركوب السفينة الحمقاء مرفوض تمامًا بالنسبة لي. هناك أيضًا منزل مطَّاطي منفوخ يسمونه «بيرثا الرَّجراجة». مدخل المنزل على شكل وجه امرأة سمينة بعينين محدَّقتين وخدَّين ورديين لامعين. تخلع حذاءيك بالخارج ثمَّ تتسلَّق اللسان المتدلِّي من بين الشفتين الغليظتين. هنا تبدأ المشكلات.. المشكلات التي بدأتها چري رينشو. لم تكن هناك قوانين تمنع الأطفال الكبار والمراهقين من اللعب في المنزل المطاطي. لو معك تذاكر يمكنك الاستمتاع بثلاث دقائق من القفز داخله، وقالت لي چري إنها تريد أن تعرف إن كانت اللعبة ممتعة كما تتذكَّرها من طفولتها.

دخلنا مع خمسة أطفال، وبدأت الموسيقى؛ نسخة مُعقَّمة عن أغنية «تقافَز هنا وهناك» لفريق « بيت الآلام»، ينشدها أطفال صغار. أمسكت چري بكفيَّ وقفزنا معًا، نرتد عن الأرض كرائدي فضاء على القمر. ظللنا نقفز حتَّى اصطدمنا بحائط، ثمَّ جذبتني إلى الأسفل، واعتلتني وبدأت تقفز فوق حوضي. كانت فقط تتحامق، لكن السيدة ذات الشعر الأشيب التي أخذت منها التذكرتين كانت تراقبنا، فصاحت بأعلى صوتها: «لا يمكن أن تفعلا هذا! اخرجا! هذا مكان عائلي!».

قالت چري وهي تميل نحوي، أنفاسها دافئة ذات رائحة وردية: «فهمت».

كانت ترتدي قميصًا ضيقًا أظهر صدرها المُسمرَّ. نهداها أمام وجهي، ويا له من مشهد رائع. أردفت: «ما أفعله الآن وهو ما يخلق العائلات.. بالطبع ما لم أستعمل وسائل الحماية».

ضحكت رغمًا عنِّي، ورغم خجلي ووجهي المشتعل حمرة. هذه هي چري التي اعتدتها. هي وأخوها چاك يستدرجانني دائمًا إلى مواقف محرجة مثيرة على حدٍّ سواء مثل هذه. يقودانني إلى أفعال أندم عليها وقتها، لكنها

تتحوَّل إلى ذكريات أستمتع باستعادتها. الخطيئة الحقيقية كما أعتقد تمنح الإحساس نفسه لكن بالعكس.

كنَّا متحمِّسين. رمقتنا المرأة بنظرة مَن يرى ثعبانًا يلتهم فأرًا، أو خنفستين تتضاجعان. هتفت چري: «نحن لم نخلع سراويلنا يا بيرثا».

ابتسمت كالأحمق، لكن الشعور السيئ لم ينصرف عنِّي. لا تنصاع چري ولا چاك رينشو لأي أمر من رجل أو امرأة، تأخذهما العزة بالإثم.

چاك ينتظرنا وذراعه حول خصر نانسي فيرمونت حين أتينا نهرول نحو المرفأ. كان يمسك كوبَ بيرة ورقيًّا ناولني إياه عندما وصلت. إلهي، لكم كان رائعًا. شعرت وقتها أنه أفضل كوب بيرة قد أشربه في حياتي. مذاقه مالح بارد، يختلط بطعم هواء البحر، وتتكاثف قطرات الماء على الكوب من الخارج.

كنا في نهاية أغسطس 1994، وكنا في الثامنة عشرة، إلا أن چاك كان يبدو في الثلاثين. لو نظرت إلى نانسي لن تصدق أنها تواعد چاك رينشو بقصَّة شعره المُسطَّحة من أعلى ووشومه التي تشي بافتعال المشكلات. لكن الأصعب هو تخيُّل أن شخصًا مثلي يواعد چري. هي وچاك توأمان، طول الواحد منهما ستة أقدام، وهذا يعني أنهما أطول منِّي ببوصتين، وهو أمر يضايقني كلما وقفت على أطراف أصابع قدمَيَّ كي أُقبِّل چري. كانا قويين، رشيقين، أشقرين، تربَّيا على ركوب دراجات الطرق الوعرة، واعتادا عقاب الاحتجاز في المدرسة بعد الدوام. لدى چاك سجل إجرامي، والسبب الوحيد الذي أنجا چري من تسجيلها مجرمةً -كما يزعم چاك- أنها لم تُعتَقل بعد.

أما نانسي، فهي ترتدي نظَّارة ذات عدستين في اتساع طبقين، ولا تذهب إلى أي مكان دون كتاب تضمه إلى صدرها المُسطَّح. والدها كان جنديًّا سابقًا ووالدتها أمينة مكتبة. بالنسبة لي -أنا بول وايتستون- أتوق أن يكون لديَّ وشم وسجل إجرامي، لكن بدلًا عن ذلك لديَّ خطاب قبول من جامعة دارتماوث ودفتر مليء بمسرحيات الفصل الواحد.

ذهبت أنا وچري وچاك إلى الشاطئ في سيارة الأخير؛ «كورڤيت» موديل 1982، وهي سيارة في سرعة وسلاسة حركة الصواريخ الموجهة، بها مقعدان فقط، ولن يدعنا أحد نركبها اليوم كما كُنَّا نركبها في ذاك الوقت؛ چري تجلس على فخذَيَّ، وچاك خلف المقود، وست عبوات بيرة خلف ذراع السرعات. عرجنا على لويستون لنقابل نانسي التي كانت تبيع الفطائر المقلية

في المرفأ خلال الصيف. حين تُنهي ورديتها، سنذهب أربعتنا إلى كوخ والديَّ الصيفي عند بحيرة ماجي. والدي في المنزل في لويستون، والكوخ سيكون لنا وحدنا. بدا لي المكان مناسبًا لنخطو أولى خطواتنا نحو البلوغ.

ربما شعرت بالذنب تجاه فعلتي مع موظفة التذاكر في بيرثا، لكن نانسي كانت هنا لتُريح ضميري. مسَّت نظارتها وقالت: «السيدة چيش هنا تُنظم اعتصامات ضد تنظيم النسل في أيام الأحد، وترفع صورًا مزيَّفة لأجنَّة مُجهضة. الأمر مُضحك حين تعرف أن زوجها يملك أكثر من نصف الكبائن على المرفأ، بما فيها المكان الذي أعمل فيه، والرجل يغازل أي فتاة تعمل لديه».

سأل چاك ضاحكًا: «وهل يفعل ذلك الآن؟».

كانت هناك نبرة خبيثة في صوته، عرفت من خبرتي معه أنها بمنزلة تحذير من أنه على وشك الخوض في أمور خطرة.

أجابت نانسي: «لا عليك يا چاك».

قبَّلت خده ثمَّ أردفت: «هو يُفضِّل فقط فتيات المدرسة الثانوية. أنا الآن أكبر عمرًا من اهتماماته».

- ينبغي أن تجذبي نظره بشيء أولًا.

نظر إلى جميع الاتجاهات حوله في المرفأ، كأنه يبحث عن الرجل. وضعت نانسي يدها على ذقنه وأدارت وجهه نحوها عنوة وهي تقول: «تعني أنه ينبغي لي أن أفسد أمسيتنا بأن أدعك ترتكب مصيبة وأُفصَل من عملي؟».

ضحك، لكنها تضايقت منه فجأة فأردفت: «لو استمررتَ في ارتكاب مصائبك يا چاك قد تُحبس خمسة أعوام على الأقل. السبب الوحيد أنك لم تُحبس هو أنك التحقت بالبحرية، ربما كي تتمكَّن فقط من استخدام الأسلحة. لا يمكن أن تتربَّص بكل أحمق يجول على الشاطئ، هذه ليست وظيفتك».

قال چاك بنبرة هادئة: «والتأكُّد من طردي من البحرية ليس وظيفتك، ولو انتهى بي الأمر في السجن، سأتمكَّن على الأقل من رؤيتك أسبوعيًّا حين تزورينني».

- لن أزورك.

- ستفعلين.

قبَّل خدَّها، فاحمرَّ وجهها وهي تصطنع الغضب. كم هو محرج أن تكون طوع چاك، وتفعل أي شيء كي تسعده. أتفهم شعورها بالفعل لأنني أشعر تجاه چري بالشيء نفسه.

قبل ستة أشهر، ذهبنا جميعًا للعب البولينج في لويستون، وهو أمر نفعله لنقتل الوقت في أمسيات الخميس. أحد الثملين جوارنا أطلق شهقة مُستحسنة بذيئة حين انحنت چري لتحمل الكرة، وقال شيئًا عن إعجابه بمؤخِّرتها داخل بنطالها الچينز. نهرته نانسي، فأخبرها ألا تقلق؛ لن يضايق أحد عاهرة مُسطحة الصدر مثلها. قبَّل چاك جبهتها برقَّة، ثمَّ -وقبل أن تقبض على رسغه وتجذبه بعيدًا- لكم الرجل لكمةً حطَّمت غضاريف أنفه وأسقطته أرضًا.

المشكلة الوحيدة هنا هي أن الثَّمِل ورفاقه من رجال الشرطة، وفي الدقائق التي تلت تلك الفِعلة أسقطوا چاك أرضًا وصفَّدوه، وسدَّد واحد منهم فوهة مسدسه نحو رأسه. خلال المحاكمة، تبيَّنوا أن معه مطواة ولديه سجلًا تخريبيًّا. أما الثمل -الذي لم يكن ثملًا في أثناء المحاكمة، بل عاد شرطيًّا وسيمًا لديه زوجة وأربعة أبناء- أصرَّ على أنه قال لنانسي «فتاة مسطحة العقل» ولم يقل «عاهرة مسطحة الصدر». لم يكن مهمًّا ما قاله لأن القاضي رأى أن ملابس وتصرُّفات الفتاتين مستفزَّة، وليس لهما الحق في الاعتراض على تعليق بذيء عابر. خيَّر القاضي چاك بين السجن أو الالتحاق بالجيش، وبعد يومين كان چاك في طريقه إلى معسكر ليچون في كارولينا الشمالية، رأسه حليق وكل ما يملك محزوم داخل حقيبة «نايكي» رياضية.

والآن، چاك في إجازة لعشرة أيام. في الأسبوع بعد القادم سيركب طائرة إلى مطار «بانجور» الدولي ليسافر إلى مركز توزيعه في برلين، ألمانيا. لن أكون هناك لأودِّعه؛ سأكون وقتها في طريقي إلى نيو هامبشير حيث مسكني في الجامعة، وستكون نانسي في طريقها إلى مكان آخر أيضًا. بعد عيد العُمَّال بدأت دراستها في جامعة مَين في أورو. چيري فقط لن تذهب إلى أي مكان، وستظل في لويستون حيث حصلت على وظيفة خادمة غُرف في فندق دايز. لقد ارتكب چاك المخالفة، لكن بشكل ما كنت أومن أن چري هي من استحقَّت العقاب.

***

نانسي في فسحة راحة من العمل، وأمامها بضع ساعات أخرى من قلي الفطائر قبل أن ترحل. كانت تريد غسل رائحة الزيت من شعرها، فسارت نحو نهاية المرفأ. هبَّ الهواء قويًّا حتَّى أطار القبعات وأغلق الأبواب. عند الشاطئ بدت الرياح صيفية، خانقة، مُحمَّلة برائحة العشب الساخن والأسفلت الملتهب. أما عند المرفأ فالهبَّات باردة تجعل نبضك يتسارع، كأن المرفأ وحده يعيش شهر أكتوبر.

أبطأنا سرعتنا حين اقتربنا من العجلة الجامحة التي توقَّفت عن الدوران. جذبت چري كفي وأشارت إلى المخلوق داخل الدوَّارة؛ قط أسود في حجم الحصان الصغير، يحمل جثة فأر بين شدقيه. يدور رأس القط ببطء فبدا كأنما يراقبنا بعينيه الخضراوين.

هتفت چري: «انظر، هذا يشبهني في أول موعد لي مع بول».

وضعت نانسي كفَّها على فمها لتكتم ضحكتها. لم تحتَج چري أن تُفسِّر أينا كان الفأر وأينا القط. لنانسي ضحكة بريئة حلوة تهزُّ جسدها النحيل كله، وتحيل لون وجهها إلى الوردي. قالت چري: «تعالوا.. لنعرف أي حيوان هو حيواننا الروحي».

تركت يدي وأمسكت يد نانسي.

دوَّت الموسيقى، مسرحية، غريبة، شبيهة بالموسيقى الجنائزية. سرت بين الجياد الخشبية، أنظر إليها في خليط من الانبهار والنفور. بدت لي مجموعة مزعجة مشوَّهة. كان من بينها ذئبٌ في حجم الدرَّاجة، فراؤه المنحوت اللامع عبارة عن كتلة متشعِّثة من الأسود والرمادي، وعيناه صفراوان مثل البيرة في كوبي. إحدى قائمتيه الأماميتين مرفوعة قليلًا، باطنها مطلي بالأحمر كأنما كانت تخوض في دماء.

ثعبان ماء ضخم يلفُّ نفسه حول حدود الدوَّارة الخارجية، حبل مُحرشف في سُمك جذع الشجرة. للثعبان معرَفة ذهبية، وفم فاغر أحمر بأنياب سوداء. حين ملت نحوها اكتشفت أنها حقيقية؛ أسنان قرش غير متماثلة، اسودَّت بفعل الزمن.

مررت عبر مجموعة خيول بيضاء، متجمدة في وضع القفز، تبرز أربطة أعناقها، وأفواهها مفتوحة في صرخة غضب أو كرب. خيول بيضاء بأعين بيضاء، كأنها تماثيل كلاسيكية.

يقول چاك مشيرًا نحو فم أحد الخيول: «من أين تظنهم قد حصلوا على هذه الخيول اللعينة؟ من متجر إبليس لبيع مستلزمات السيرك؟».

من فم الحصان، يتدلَّى لسان أسود مشقوق. وصل إلينا صوت من ناحية المرفأ يقول: «اشتروها من ناكودوتشس، تكساس. عمرها أكثر من مائة عام. كانت ضمن مجموعة التماثيل في دوَّارة كوجر ذات العشرة آلاف مصباح. دمَّر حريقٌ ملاهي كوجر وسوَّاها بالأرض. هل ترى كيف تفحَّم هذا؟».

وقف مُشغِّل اللعبة جوار لوحة التحكُّم الملاصقة للدَّرَج المؤدِّي إلى الدوَّارة. يرتدي زيَّ العمل الذي يشبه زيَّ الحمَّالين في فنادق شرق أوروبا في الماضي. سترته من المخمل الأخضر، بصفَّيْ أزرار نحاسية على جانبَي الصدر، وكتَّافتين ذهبيتين فوق منكبيه.

وضعَ كوبًا حراريًّا معدنيًّا على الأرض وأشار نحو الحصان ذي الوجه نصف المحترق، كأنه حلوى مارشميلُّو مشوية. انفرجت شفتا العامل الحمراوان المنتفختان عن تكشيرة مُقلقة، وهو يقول: «لقد صرخوا».

سألته: «مَن؟».

- الخيول. حين اشتعلت الدوَّارة، زعم عشرات الشهود أنهم سمعوهم يصرخون كالفتيات.

انتصبت الشعيرات على ساعدَيَّ. كم هو زعم مرعب. تقول نانسي من مكان ما خلفي: «سمعت أنهم قد أنقذوهم جميعًا».

دارت هي وچري حول الدوَّارة، وفحصا الخيول، ثمَّ عادا إلينا.

- قرأت هذا في مقال نُشر في جريدة «بورتلاند بريس هيرالد» العام الماضي.

قال مُشغِّل اللعبة: «جاءنا هذا الجريفين(1) من ملاهي سليزنيك في المجر بعد إفلاسها. القط هدية من مانكس(2)، الرجل الذي يدير أرض الكريسماس

(1) مخلوق أسطوري، بجسد نسر ورأس طائر. (المترجمة)

(2) تشارلي مانكس شخصية محورية في رواية جو هيل «نوسفراتو»، وأرض الكريسماس عالم أسطوري مخيف على هيئة مدينة ملاهٍ. (المترجمة)

في كلورادو. نحت فريديرك ساڤيچ[1] ثعبان الماء هذا بنفسه، وهو الذي صمم أكثر الدوَّارات شهرة؛ العدَّاءة الذهبية في مرفأ «برايتون بالاس». كان هذا بعد تصميم العجلة الجامحة. أنتِ واحدة من بنات السيد چيش، أليس كذلك؟

أجابت نانسي ببطء، غالبًا لأن صياغة الرجل لسؤاله لم تعجبها خاصَّة عبارة «بنات السيد چيش»: بلى. أعمل عنده في كابينة بيع الفطائر المقلية».

قال مُشغِّل اللعبة: «بنات السيد چيش يستحققن الأفضل. هل تودِّين ركوب حصان اعتلته چودي جارلاند[2] من قبل؟».

صعد إلى الدوَّارة ومدَّ يده إلى نانسي، فأمسكت بها دون تردُّد كأنه رجل وسيم يطلب مراقصتها، لا رجل عجوز مريب ذو شفتين سميكتين رطبتين. قادها إلى أول حصان من قطيع الخيول الستة. حين وضعت قدمها على الرِّكاب الذهبي، أحاط خصرها بكفيه يساعدها على الصعود.

- زارت چودي ملاهي كوجر عام 1940 حين كانت في جولة ترويجية لفيلم ساحر أوز. أهدوها مفتاح المدينة، وغنَّت «فوق قوس قزح» أمام جمع هائل، ثمَّ ركبت دوَّارة العشرة آلاف مصباح. ثمَّة صورة لها في مكتبي الخاص تركب هذا الحصان بالذات. هيا اصعدي.

قالت لي چري بصوت منخفض وهي تمد يدها لي: «يا له من أحمق».

يبدو أن صوتها لم يكن منخفضًا كفاية، فقد جعل مُشغِّل اللعبة يجفل. ركبت چري القط الأسود وهي تسأل: «هل ركب هذا أحد المشاهير؟».

أجاب في جذل: «ليس بعد؟ لكن ربما تصبحين أنت نفسك شهيرة يومًا ما! ثمَّ نظل سنوات طوال نتحدَّث عن اليوم الذي ركبتِها فيه».

ثم نظر إلى عينَيَّ وغمز مُضيفًا: «لا بُدَّ أن تنتهي من شرب هذه البيرة يا بُني. غير مسموح بالمشروبات داخل اللعبة، ولا داعي للكحول أساسًا، العجلة الجامحة قادرة على شفائك من أي سُكْر!».

كنت قد شربت علبتَيْ بيرة في الطريق، وكوبي هذا الذي لم أشرب منه تقريبًا هو الثالث. كنت لأضعه على الأرضية، لكن اقتراحه التلقائي «لا بُدَّ أن

---

(1) مهندس ومخترع إنجليزي، اشتهر بما قدمه في مجال ألعاب الملاهي، خاصَّة الدوارات الأفقية التي تعمل بمحرِّك بخاري في مركزها. (المترجمة)

(2) الممثلة التي مثلت في فيلم ساحر أوز، واحدة من أشهر ممثلات هوليود. (المترجمة)

تنتهي من شرب هذه البيرة يا بُني» بدا لي التصرُّف الوحيد الصحيح. ابتلعت أغلب محتوى الكوب في خمس جرعات، وفي الوقت نفسه الذي سحقت فيه الكوب ورميته إلى الظلام، كانت الدوَّارة بدأت تتحرَّك بالفعل.

ارتجفت؛ البيرة باردة للغاية حتَّى كأنني أشعر بها في دمي. داهمتني موجة دوار، فمددت يدي نحو أقرب تمثال: ثعبان البحر ذي الأنياب السوداء. اعتليته وقد بدأ يطفو متحركًا إلى الأمام فوق القضيب وأسفله. ركب چاك حصانًا جوار نانسي، وأسندت چري رأسها إلى عنق القط الذي تركبه.

كنا قد ابتعدنا عن مرأى الشاطئ، واقتربنا أكثر من طرف المرفأ. على يساري سماء حالكة وبحر أشد حُلكة. تزايدت سرعة العجلة الجامحة وسط الهواء المالح.

تصادمت الأمواج. أغلقت عينَيَّ، ثمَّ اضطررت إلى فتحهما فورًا. للحظة شعرت كأنني أغوص في الماء على ظهر ثعبان البحر. للحظة شعرت كأنني أغرق.

دُرنا، ولمحت مُشغِّل اللعبة يحمل كوبه الحراري. عندما حدَّثنا، كان مبتسمًا، لكن خلال اللمحة التي رأيتها منه الآن بعدما تحرَّكنا، رأيت وجهه الميت بلا تعبير، متهدِّل الجفنين، مزموم الشفتين. أظنني رأيته يبحث عن شيء في جيبه. ملحوظة عابرة قد تُنهي حيواتٍ قبل أن ينجلي الليل.

دارت العجلة ودارت، تزيد سرعتها في كل دورة، تنثر أغنيتها المجنونة في أرجاء الليل، كأنها أسطوانة فوق قرص تشغيل دوَّار. في الدورة الرابعة ذُهلت من سرعتنا. شعرت بقوة الطرد المركزية كأنها وزن يضغط ما بين حاجبَيَّ، ويجذب معدتي المليئة نحو مركز جسدي. حاولت إقناع نفسي أنني أمضي وقتًا ممتعًا، لكنني شربت الكثير من البيرة. مرَّت أمامي ومضات كأنها النجوم، ووصلت إلينا أصوات المرفأ متقطِّعة. رأيت نانسي وچاك يميلان نحو بعضهما، يتبادلان القبلات. ضحكت نانسي ومسَّدت ظهر حصانها. ظلت چري ملتصقة بظهر قطتها، ونظرت إليَّ بعينين ناعستين.

أدار القط رأسه نحوي، فأغلقت عينَيَّ وارتجفت، ثمَّ فتحتهما مرَّة أخرى، وبالطبع لم أرَ القط ينظر تجاهي. عدَت بنا التماثيل عبر الليل، عبر الظلام الذي يشبه الجنون. ندور وندور وندور، لكن في النهاية لا نصل إلى أي مكان.

***

لمدَّة ثلاث ساعات تالية، دفعتنا الريح عبر الممشى بينما نانسي تُنهي ورديتها. كنت قد شربت كفايتي من البيرة، لكنني شربت المزيد رغم هذا. حين باغتتني هبَّة ريح من خلفي، شعرت كأنها ستقتلعني من الأرض، وكأنني في وزن جريدة.

لعبنا أنا وچاك بالكرة على جهاز «موردور»، ثمَّ تمشَّينا أنا وچري عند الشاطئ تمشية بدأت رومانسية -مراهقان متعانقا الكفَّين، ينظران نحو النجوم- ثمَّ تطوَّرت كعادتنا إلى جدل وشجار. جرَّتني چري نحو الماء، قاومتها لكنني سقطت فيه، وخرجت منه مبتل الحذاءين، ساقَيْ بنطالي متشبِّعتَيْن بالماء، مُحمَّلتَيْن بالرمال. كانت چري تنتعل خُفين، وتثني طرفَيْ سروالها إلى الأعلى، فلم تُصَب بشيء، وظلت تضحك. بعدها تناولت شطريتَيْ نقانق مع الجبن واللحم المقدد كي أستعيد دفئي.

بحلول العاشرة والنصف، امتلأت الحانات حتَّى تقيأت الزائد على سعتها على الممشى الخشبي. الطريق الموازي للشاطئ مصطفٌّ بالسيارات، وامتلأت أجواء الليل بصيحات السعادة وأصوات نفير السيارات، لكن كل شيء عند المرفأ يُنهي يومه ويغلق أبوابه، وقد أظلمت بيرتا الرَّجراجة وغيرها من ألعاب منذ ساعة.

وقتها كنت متعبًا من البيرة وأشعر بالغثيان، وبدأت أظن أنني لن أكون قادرًا على فعل أي شيء بعدما أودِع چري فراشها.

مطعم الفطائر المقلية عند بداية المرفأ، وعندما وصلنا إلى هناك كانت اللافتة المُضيئة قد أظلمت. اعتادت نانسي أن تمسح بقايا السكر والقرفة عن منضدتها بخرقة، ثمَّ تتمنَّى لرفيقتها ليلة سعيدة، وتخرج من الباب إلى ذراعَيْ چاك. وقفت على أطراف أصابعها لتسمح له بتقبيلها، تحمل تحت إبطها كتاب «كل الخيول الجميلة» لكورماك مَكَّارثي.

سألني چاك من فوق كتفه:

- هل تود شراء المزيد من البيرة في طريق خروجنا من البلدة؟

أثارت الفكرة معدتي، فقلت:

- لا داعي.

قالت نانسي:

- سأدفع أنا.

قادتنا إلى الخارج كأنها تتعجَّل الحرية مع حبيبها، وتعود فتاة في الثامنة عشرة، تُحِبُّ وتُحَبُّ. داعبت الرياح شعرها المموَّج، فتراقص حول وجهها كعُشب الماء.

كنا ننتظر عبر الطريق حين حدث شيءٌ غريبٌ. ضربت نانسي ردفها، ثمَّ بحثت في جيبها الخلفي عن مالٍ. عقدت حاجبيها. بحثت في باقي جيوبها مرَّة واثنتين.

- اللعنة! لا بُدَّ أنني نسيت نقودي على الطاولة.

عدنا معها إلى المطعم، وكانت زميلتها قد أطفأت باقي الأنوار وأوصدت الباب، لكن نانسي فتحت لنفسها ودخلت ثمَّ جذبت الخيط المتدلِّي من السقف فأضاء مصباح فلورسنت يصدر عنه صوت أزيز. بحثت نانسي أسفل المنضدة، ثمَّ تحقَّقت من جيوبها مرَّة أخرى، ونظرت داخل كتابها لترى إن كانت قد دسَّت المال بداخله دون أن تدري. رأيتها تُفتِّش الكتاب بنفسي، أنا متأكد.

صاحت: «ماذا يجري؟ لقد كانت معي ورقة عملة بخمسين دولارًا! خمسين دولارًا! كانت جديدة كأن أحدًا لم ينفقها من قبل. ماذا فعلت بها؟!».

تذكَّرت مُشغِّل الدوَّارة وهو يساعدها في ركوب الحصان، ويداه حول خصرها، وابتسامة كبيرة على تلك الشفتين المنتفختين. ثمَّ تذكَّرت أنني لمحته بينما ندور، لم يكن يبتسم وقتها، وكان يدس أصابعه في جيبه الأمامي.

قلت بصوتٍ عالٍ: «هه...».

سألني چاك: «ماذا؟».

نظرت إلى وجهه الوسيم الطويل، وصدمني حدس مفاجئ بقرب حلول كارثة. هززت رأسي، ولم أقل شيئًا.

قال چاك: «انطق».

الأفضل أن أصمت.. لكن لا يوجد ما يضاهي إشعال فتيل والانتظار حتَّى تنفجر القنبلة. ثمَّ إن هناك شيئًا مثيرًا في إثارة ضيق أي من ابنَيْ رينشو للسبب السابق نفسه. لهذا السبب ذهبت إلى بيت بيرثا مع چري، ولهذا السبب لم أمنح چاك إجابة مباشرة.

- مُشغِّل الدوَّارة. ربما كان يضع شيئًا في جيبه بعدما ساعد نانسي في...

ولم أكمل. قاطعني چاك: «ابن العاهرة!».

ثمَّ استدار على عقبيه. صاحت نانسي: «چاك! كلا!».

قبضت على رسغه، لكنه تملَّص وانطلق نحو المرفأ المظلم. نادته نانسي مرَّة أخرى لكنه لم يلتفت. قلت ومعدتي تتقلَّص بتأثير الخمر والتوتُّر: «چاك. أنا لم أرَ شيئًا. ربما كان يدسُّ يده في جيبه ليُعدِّل وضع خصيتيه».

كرَّر چاك: «ابن العاهرة! كانت يداه عليها».

***

رأينا العجلة الجامحة مظلمة، ومخلوقاتها الساكنة متجمِّدة على أوضاع حركة. ثمَّ حبل أحمر معقود حول الدرجات المؤدِّية إليها، معلق في منتصفه لافتة مكتوب عليها: *ششش! الخيول نائمة! لا تقلقها!*

في منتصف الدوَّارة حُجيرة داخلية محاطة بألواح المرايا، يسطع ضوء من خلف واحدة من تلك الألواح، ويمكن أن تسمع أصوات أبواق فاخرة تنبعث من ورائها، مصحوبة بدندنة رقيقة بصوت بات بوُن يغني «كدت أفقد عقلي». يبدو أن هناك شخصًا يسكن بيتًا سريًّا خلف الألواح، في قلب العجلة الجامحة.

هتف چاك: «مهلًا.. مهلًا يا صاح!».

صاحت نانسي مرتعبة ممَّا قد يفعله چاك: «چاك! انسَ الأمر! أنا متأكدة أنني وضعت المال على المنضدة ثمَّ هبَّت الريح فجرفتها».

لم يصدِّق أينا هذا التفسير.

كانت چري أول مَن عبر الحبل الأحمر المخملي، وإن كانت قد عبرت، فعليَّ أن أتبعها رغم ذعري. للأمانة، كنت مذعورًا وأرتجف من الحماس. لا أعرف ما ستؤول إليه الليلة، لكنني أعرف التوأمين رينشو، وأعرف أنهما إما سيستعيدان نقود نانسي وإما سيثأران من سارقها.. أو الأمران.

عبرنا خلال مجسَّمات الخيول. لم أحب وجوهها في الظلام، ولا أفواهها المفتوحة كأنما تصرخ، ولا أعينها العمياء المحدِّقة إلينا في ذعر أو غضب أو جنون. اقتربت چري من ألواح الزجاج التي يشع الضوء من خلفها، وضربتها بقبضتها وهي تنادي: «أنت يا...».

لكن ما إن لمست اللوح حتَّى مال إلى الخلف كاشفًا عن حجيرة المحرِّك في منتصف العجلة، وهي حجيرة ثُمانية الأضلاع، حوائطها من الورق المقوى. المحرِّك الذي يدير العجلة قد يتجاوز عمره نصف القرن، ويشبه من بعيد القلب البشري، يحيط بأحد جانبيه سير مطاطي أسود. عند الجهة الأبعد من العمود رأيت حشيَّة تخييم صغيرة. لم أرَ أية صور لچودي جارلاند، لكن الحائط خلف الحشية مُغطى بصفحات من مجلة «بلاي بوي» الإباحية.

جلس مُشغِّل اللعبة خلف منضدة صغيرة قابلة للطي، على مقعد ضخم بشكل غريب. كان مائلًا على المنضدة، يتوسَّد إحدى ذراعيه، ولم يصدر عنه رد فعل حين دخلنا. ظل بات بون ينعى أحزانه بصوته الرخيم المنبعث من مذياع فوق الطاولة.

نظرت إلى وجهه فأجفلت؛ لم تكن أجفانه مغلقة تمامًا، ورأيت من بينها كُرتي عينيه الرماديتين. شفتاه الممتلئتان مبللتان باللعاب، والكوب الحراري مفتوح جواره. تفوح الحجيرة برائحة زيت المحرِّكات، مع شيء آخر.. رائحة سيئة لم أستطع تمييزها.

دفعت چري كتفه وهي تصيح: «أنت.. استيقظ. صديقتي تريد استعادة نقودها».

مال رأسه، لكنه لم يستيقظ. دسَّ چاك جسده في الحجيرة الضيقة خلفنا، بينما نانسي تقف بالخارج وسط الخيول. أمسكت چيري كوبه وتشمَّمته، ثمَّ صبَّت محتواه على الأرض. كان يحوي خمرًا رائحتها كرائحة الخل.

- لقد فقد وعيه ثملًا.

قلت: «يا شباب.. يا شباب، هل هو.. هل أنتم واثقون أنه يتنفَّس؟».

لم يبدُ أن أحدًا قد سمعني. تقدَّم چاك مزيحًا أخته إلى الخلف وبدأ يبحث في جيبَي الرجل الأماميين. بغتة، تراجع وسحب يده كأنه إبرة شكَّته. في هذه اللحظة تبيَّنت أخيرًا كُنه الرائحة الغريبة التي غطت عليها جزئيًّا رائحة الزيت.

هتف چاك: «لقد بال في بنطاله. يا للقرف اللعين! ملابسه غارقة في البول! يا يسوع!».

ضحكت چري، لكني لم أضحك؛ ازداد قلقي من أنه قد مات حقًّا. أليس هذا ما يحدث حين يتوقَّف قلبك؟ تفقد السيطرة على مثانتك؟

كشَّر چاك وعاد يفتِّش جيوب الرجل، فأخرج محفظة جلدية وسكينًا بمقبض من العاج المصفر مزينًا بنحت لثلاث خيول صغيرة. قالت نانسي وهي تدخل الحجيرة أخيرًا وتجذب يد چاك: «كلا. لا يمكنك فعل هذا».

-ماذا؟ لا يمكنني استعادة ما سرق؟

فتح المحفظة وأخرج ورقتين من فئة عشرين دولارًا لم يجد سواهما، ثمَّ أسقط المحفظة على الأرض. قالت نانسي: «لقد كانت معي ورقة واحدة جديدة من فئة الخمسين دولارًا!».

- أجل، والخمسون دولارًا الآن ترقد في خزينة متجر بيع الخمور. ثمن زجاجة خمر عشرة دولارات بالضبط. على أيه حال، فيمَ تجادلين؟ رآه بول يضع المال في جيبه.

لكنني لم أفعل. لم أعد واثقًا حقًّا من أنني رأيت شيئًا سوى عجوز بمثانة ضعيفة يُعدل من وضع خصيتيه داخل البنطال. لم أقل شيئًا ممَّا دار في عقلي، ولم تكن لي رغبة في الجدال. كنت أريد فقط التأكد من أن الجدَّ المُسِنَّ حي، ثمَّ الرحيل بسرعة قبل أن يستيقظ أو يرانا أحد.

زال أي حماس لديَّ حين لمحت وجه الرجل الرمادي. سألت مجدَّدًا: «هل هو حي؟».

ومجدَّدًا لم أتلقَّ ردًّا. قالت نانسي: «أعِد المال إلى مكانه. ستورِّطنا في مشكلات».

سأل چاك مُشغِّل اللعبة: «هل ستبلغ عنَّا الشرطة يا زميل؟».

ولم يرد الرجل، فأردف چاك: «لا أظنه سيفعل».

ثمَّ التفت وأمسك بيد چري، ودفعها نحو المدخل. قالت نانسي بصوت مرتجف متوتِّر: «علينا أن نقلبه على جانبه. لو أنه فقد الوعي من الخمر ربما يقيء ويختنق بقيئه».

قال چاك: «ليست مشكلتنا».

وقالت چري: «نانسي، أراهن على أنه فقد وعيه بهذه الطريقة عشرات المرَّات. لو أنه لم يمت بعد، فهو على الأرجح لن يموت الليلة».

صرخت نانسي في هستيريا: «بول! رجاءً».

انعقدت معدتي وشعرت بحموضة قوية كأنني شربت دلو قهوة. كنت أريد الرحيل أكثر ممَّا أريد أي شيء آخر، ولا أعرف لماذا وجدت نفسي أمسك بمعصم الرجل بحثًا عن نبضه. قال چاك: «هو ليس ميتًا أيها الأحمق».

لكنه انتظر نتيجة ما أفعل. وجدت النبض الذي كان غير منتظم، لكن محسوسًا. شممت بالقرب منه رائحته النتنة التي لم تكن فقط خليطًا من البول والخمر، بل من رائحة أخرى كأنها رائحة دم متخثر.

قالت نانسي: «بول، ضعه في فراشه.. على جانبه».

قال چاك: «لا تفعل».

لم أشأ أن أفعل، لكني لا أعتقد أنني قادر على مسامحة نفسي لو قرأت خبر موته في الجريدة. ليس بعدما جرَّدناه من الدولارات الأربعين التي لا يملك سواها. دسست ذراعَيَّ تحت ساقيه وخلف ظهره، ورفعته عن المقعد.

تمايلت متجهًا نحو الحشية، ثمَّ وضعته فوقها. أثارت معدتي رائحة البقعة التي تغرق بنطاله. أدرته لينام على جانبه، ووضعت الوسادة تحت رأسه كي لا يرتدَّ القيء إلى قصبته الهوائية لو تقيَّأ. أطلق شخيرًا لكنني لم ألتفت. دُرت حول الحجرة، ثمَّ جذبت الحبل المتدلي من السقف لأطفئ المصباح، وفي المذياع يخبر الفجر بات بون أن طالعه لا يُنبئ بالخير.

ظننت أننا انتهينا، لكن حين خرجت وجدت چري تثأر بنفسها. كانت قد أخذت سكينه وراحت تحفر به على حصان چودي جارلاند كلمتين: «سُحقًا لك». لم يكن الانتقام عادلًا، لكن لديها وجهة نظر.

في الطريق إلى الممشى الخشبي، حاول چاك إعطاء نانسي الدولارات الأربعين، لكنها كانت حانقة، ولم تقبلها منه. دسَّ المال في جيبها، فأخرجته ورمته نحو المرفأ. طارد چاك الورقتين قبل أن تبعدهما الريح وتُلقيهما في فم الظلام.

حين وصلنا إلى الطريق كان الزحام قد قل رغم انشغال الحانات. قال چاك لنانسي أنه سيجلب السيارة، وطلب منها أن تشتري البيرة لأنه من الواضح أنهما لن يتضاجعا الليلة، وهو يحتاج إلى المزيد من الكحول ليدفن فيه أحزانه. اضطرَّت هذه المرَّة إلى أن تأخذ المال منه وحاولت ألا تبتسم له، لكنها لم تسيطر على نفسها. حتَّى أنا أجد چاك ساحرًا حين يكون مثيرًا للشفقة.

***

في الطريق إلى كوخ والدي، ركبت السيارة وچري تجلس فوق فخذَيَّ، ونانسي محشورة بين خصري وباب السيارة. شرب كلٌّ من الفتاتين زجاجة بيرة «سام آدمز»، حتَّى چاك كان يقود السيارة وزجاجته بين فخذيه. كنت الوحيد الذي لم يشرب. ما زلت أشمُّ رائحة مُشغِّل اللعبة على يدَيَّ، رائحة تُذكِّرني بالتحلُّل، بالسرطان. لم تعد لديَّ شهية، وسعدت بالهواء النقي حين أنزلت چري زجاج النافذة للتخلُّص من زجاجتها. سمعت صوت الزجاجة تصطدم بالأرض وتتهشَّم.

كنَّا طائشين، لا نتحمل المسؤولية، لكننا لم نكن مدركين هذا. لست واثقًا من أنني أوضحت لك الزمن بدقة. في عام 1994، لم تكن إعلانات التخويف من القيادة في أثناء السُّكر سوى ضوضاء في الخلفية، ولم أسمع أن أحدًا نال غرامة بسبب القيادة غير الواعية. لم نكن نربط أحزمة السيارة أيضًا، ولم يخطر لي هذا ببال.

لست واثقًا أيضًا من أنني أوضحت لك الكثير عن چاك وچري. قلت لك إنهما خطران، لكنهما ليسا فاسقين. ربما لديهما حسٌّ أخلاقيٌّ أقوى ممَّا لدى الأغلب، وكانا مستعدَّيْن للتحرُّك في سبيل إصلاح الخطأ. لو مال حال العالم، سيهرعان لتقويم ميله حتَّى لو تطلَّب الأمر أن يسرقا مُسِنًّ ثمِل، أو يخرِّبا حصان زينة قديمًا.

لم يكونا كذلك خاويَي العقل أو بلطجيَّيْن ضيقي الأفق. لم نكن لنرافقهما أنا ونانسي لو كانا كذلك. يجيد چاك تصويب السكاكين، والسير على الحبال. لم يُعلمه أحد هذا، هو اكتشف هذه الأمور بنفسه. في العام النهائي من الدراسة الثانوية، وحتَّى أبدى عدم اهتمامه بالدراما، كان چاك يقوم بدور في مسرحية لشيكسبير على مسرح المدرسة. رشحه السيد كوس لدور بوك في مسرحية «حلم ليلة منتصف صيف»، ولكم كان بارعًا في أداء هذا الدور.

أما چري فماهرة في التمثيل الصوتي، وتستطيع أداء أصوات مختلفة متباينة، بل وتستطيع تقليد الفنانين وأصواتهم ورقصاتهم. رأيتها جميلة وموهوبة كفاية لتصبح ممثلة. اقترحت عليها أن نسافر إلى نيويورك معًا بعدما أنهي دراستي الجامعية، سأكتب المسرحيات وتمثِّلها هي. حين اقترحت عليها هذا الاقتراح ضحكت، ثمَّ نظرت إليَّ نظرة لم أفهمها من وقتها. صدر عنها شعور لم آلفه، شعور بالشفقة.

لم يكن هناك قمر، وأصبح الطريق أكثر ظُلمة مع اتجاهنا إلى الشمال. قطعنا الطريق السريع ذا الحارتين، تحفُّنا الأشجار من الجهتين. في البداية كانت هناك أعمدة إنارة، تفصل بينها مسافة رُبع ميل، ثمَّ اختفت. اشتدَّت الريح، وتلاعبت بالسيارة وبالنباتات على جانبي الطريق.

كدنا نصل إلى الممر الترابي المؤدِّي إلى كوخ والديَّ، لكن السيارة ترنَّحت عند المنعطف العنيف، فضغط چاك المكابح بكل قوته حتَّى صرخت الإطارات وهي تحتكُّ بالأسفلت. صرخ: «سحقًا، ماذا...».

ارتطم وجه نانسي بالتابلو ثمَّ ارتد عنه، وطار كتابها من يدها. اندفعت چري إلى المكان نفسه وصدمت كتفها بقوة. نظر كلب نحونا -برقت عيناه بلون أخضر من أثر انعكاس كشافي السيارة عليهما- ثمَّ هرع نحو الأشجار. هذا لو أنه كان كلبًا وليس دبًّا. بدا كبيرًا كفاية ليخرج من تصنيف الكلبيات ويدخل تصنيف «الدُّبيَّات». سمعنا صوته يخترق الشجيرات قبل أن يختفي.

صرخ چاك: «يا يسوع! يبدو الآن أنني بلَّلت نفسي. انسكبت البيرة على بنطالي و...».

قاطعته چري: «اخرس! نانسي، حبيبتي، هل أنت بخير؟».

مالت نانسي إلى الخلف، ورفعت ذقنها، ونظرت إلى سقف السيارة ممسكة أنفها بيد واحدة. قالت: «ضربت أنفي».

استدارت چري إليَّ ومدَّت ذراعها وهي تقول: «هناك خِرق قماشية في الخلف».

قاومت رغبة في الانحناء والتقاط كتاب نانسي من تحت قدمي چري، لكنني مِلت لأرفعه، ثمَّ تردَّدت حين لمحت شيئًا آخر بالأسفل، فالتقطته.

أمسكت چري بخرقة بدت كأنها قميص وردي قديم.

- استخدمي هذا.

هتف چاك: «مهلًا، هذا قميص جيد».

- وهذا المُصاب هو وجه حبيبتك يا أحمق.

- لديك حق. نانسي، هل أنت بخير؟

ضغطت القميص إلى أنفها الدقيق الهش، ومسحت به الدماء، ثمَّ أشارت له بإبهامها أن كل شيء على ما يرام. قلت: «أنقذت كتابك. أ... وكانت هذه جواره على الأرض».

ناولتها الرواية والخمسين دولارًا الجديدة النظيفة، كأنها طُبِعت هذا الصباح. اتسعت عيناها في ذعر من خلف القميص الملطَّخ بالدماء.

- أوه! لا! لا! لقد بحثت عنها ولم تكن في الكتاب!

- أعرف. رأيتك تبحثين عنها. ربما لم تريها.

ترقرقت عينا نانسي بالدموع، وهدَّدت بالانسكاب. قالت چري: «حبيبتي.. لا بأس. لقد ظنناه جميعًا السارق. هذا خطأ غير مقصود».

قلت: «يمكننا أن نعترف بهذا للشرطة. لو سألونا إن كُنَّا قد سرقنا ثملًا عند المرفأ. يتفهَّمون الموقف».

نظرت إليَّ چري نظرة قاتلة، وانتحبت نانسي. ندمت أنني قلت أي شيء، وندمت على عثوري على المال من الأساس. نظرت في قلق نحو چاك وأنا مستعدٌّ لملاقاة نظرته الغاضبة، لكنه كان يتجاهل ثلاثتنا، ويحدِّق عبر النافذة إلى الظلام.

سأل: «هلا أخبرني أحدكم أي شيء لعين عَبَر الطريق أمامنا؟».

قلت وأتوق إلى تغيير الموضوع: «كلب، أليس كذلك؟».

قالت چري: «لم أره. كنت في موقف أحسَد عليه».

قال چاك: «لم أرَ كلبًا مثله. لقد كان في نصف حجم السيارة».

- ربما كان دُبًّا بُنِّيًّا؟

سألت نانسي في بؤس: «ربما كان ساسكواچ[1]؟».

صمتنا جميعًا للحظة، ثمَّ انفجرنا ضاحكين. ليس هناك من هو ألطف من الساسكواچ بين المخلوقات الأسطورية.

ثمَّة عمودان مُلصق عليهما أقراص عاكسة يُحدِّدان الطريق الترابي المؤدِّي إلى كوخ والدَيَّ الصيفي، المُطل على تجمُّع مصبَّات أنهار يُسمى «بِركَة

(1) كائن أسطوري يُقال إنه يشبه الشمبانزي، يجوب الغابات ولا يوجد دليل على وجوده سوى المشاهدات. (المترجمة)

ماجي». استدار چاك بالسيارة وهو يُنزل زجاج نافذتها، سامحًا للهواء المالح بالدخول وإبعاد خصلات شعره عن جبينه. الطريق الترابي مليء بالحفر والوهاد، بعضها بعمق قدم وبعرض ياردة. أخفض چاك سرعة السيارة إلى نحو عشرة أميال في الساعة. سمعت الأعشاب تتكسَّر تحت العجلات، والأحجار تؤرجحنا.

كنا قد قطعنا ثلث ميل حتَّى رأينا غصن بلوط كبير ساقط على الطريق. أطلق چاك سُبة، وأوقف السيارة.

قالت نانسي: «سأبعده عن الطريق».

فهتف چاك: «انتظر هنا».

لكنها كانت قد فتحت بالفعل بابها وهي تقول بصوت مكتوم: «أريد تحريك ساقَيَّ».

ألقت القميص الوردي الملوَّث على أرضية السيارة وترجَّلت. شاهدناها تسير أمام كشَّافَي السيارة، هشَّة، رقيقة تنتعل حذاءين زهريين. انحنت نحو طرف الغصن المهشم، ثمَّ راحت تجذبه. قال چاك: «لن تستطيع تحريكه وحدها».

قالت له چري: «لا تقلق».

قال لي چاك: «هلا ساعدتها يا بول؟ سيعوض هذا حماقاتك التي تفوَّهت بها منذ دقائق».

- أوه! سحقًا يا رجل، أنا حتَّى لم أكن أفكر في.. لم أقصد أن..

غاص رأسي بين كتفَيَّ تحت ثقل العار الذي أشعر به.

استطاعت نانسي تحريك الغصن البالغ طوله ثمانية أقدام عن منتصف الطريق فقط، ثمَّ دارت كي تمسك طرفه الآخر، ربما لتحاول دحرجته إلى المنحدر عند جانب الطريق.

أردف چاك: «ألم تستطع دفع تلك النقود بقدمك إلى ما تحت المقعد؟ لن تنام نانسي الليلة. أنت تعرف أنها ستبكي حتَّى ينفجر رأسها بمجرَّد أن نتركها وحدها. سأتولَّى أنا أمرها...».

سألت چري: «ما هذا؟».

- ... لا تتدخَّل.

استكمل چاك عبارته كأنها لم تتكلَّم، وأضاف: «لقد أفسدت الليلة كعادتك بعدما استمتعت باليوم و...».

سألت چري مرَّة أخرى: «ألا تسمع هذا؟».

شعرت به قبل أن أسمعه. اهتزت السيارة ووعيت إلى الصوت كأنني أعي إلى اقتراب عاصفة، والمطر يضرب الأرض بكثافة. الأمر أشبه بالوقوف جوار قضبان سكة حديد بينما يمُرُّ القطار جوارك.

مرَّت أولى الخيول مندفعة عن يسارنا، كانت قريبة منَّا حتَّى إنها دفعت مرآة السائق الجانبية وكادت تكسرها. نظرت نانسي نحو الصوت وتركت الغصن، وتحرَّكت جانبًا كأنها ستقفز إلى خارج الطريق. لم يكن أمامها سوى لحظة، ربما ثانية أو اثنتين، ولم تبتعد كثيرًا. صدمها الحصان، وسقطت نانسي تحت حوافره. كانت ممدَّدة على الطريق حين اندفع الحصان الثاني نحوها وعبر من فوقها. سمعت صوت انكسار عمودها الفقري، أو ربما هو صوت تهشُّم الغصن.. لا أعرف.

انطلق حصان ثالث، فرابع. ظلَّت الخيول الثلاثة الأولى مندفعة في طريقها حتَّى اختفت في الظلام، أما الرابع فقد أبطأ قرب نانسي. كانت ملقاة على مسافة ثلاثين قدمًا تقريبًا من السيارة، حيث لا يصل إليها ضوء الكشَّافين. أحنى الحصان الأبيض الطويل عنقه، وبدأ كأنما يأكل شعر نانسي الذي كان داميًا مُلبَّدًا.

صرخ چاك. أظنني حاولت التفوه باسم نانسي لكنني عجزت عن تشكيل الكلمات. كانت چري تصرخ أيضًا، ولم أفعل أنا.. لم أجد في صدري هواءً للصراخ، كأن حصانًا دهمني أنا الآخر فأخرج الهواء من جسدي.

للحصان الذي يقف جوار نانسي وجه مشوه، نصفه وردي محترق، عيناه بيضاوان، لكن العين في النصف المشوه من وجهه جاحظة على نحو مقزِّز مرعب. اللسان الذي خرج من فمه ليلعق وجه نانسي لم يكن لسان حصان. كان أسود مشقوق الطرف كلسان أفعى.

مدَّ چاك يده يبحث عن مقبض الباب مرتبكًا مذعورًا. كان ينظر نحو نانسي، ولم يرَ الحصان الآخر الواقف جوار السيارة. لم يره أينا. فتح چاك بابه وأنزل قدمه، فنظرت نحوه، وبالكاد كان هنا وقت لأصرخ باسمه.

فتح الحصان جوار السيارة فكَّيه، وأغلق أسنانه الضخمة على كتف چاك، ثمَّ لوى عنقه إلى الخلف، فارتفع چاك عن الأرض، وقُذف إلى جذع شجرة ضخمة عند الجهة المقابلة من الطريق. ضربها كأنه قذيفة انطلقت من مدفع، ثمَّ اختفى أسفلها وسط الشجيرات المتشابكة.

نقلت چري نفسها من فوق فخذَيَّ إلى مقعد السائق، ومدَّت يدها نحو الباب كأنها تريد أن تلحق به إلى الخارج. أمسكت كتفها وجذبتها نحوي في اللحظة التي دار فيها الحصان نصف دورة حول نفسه، فضرب ردفاه الباب وأغلقه.

ثمَّ رأيت چاك. كان يحاول جرَّ نفسه عبر الطريق نحو ضوء الكشَّافين. أعتقد أن ظهره مكسور، لكنني لست متأكدًا. يجُرُّ ساقيه خلفه وينظر نحونا -نحوي- نظرة غريبة حين التقت الأعين، لكم تمنَّيت لو لم تلتقِ. لم أكن أتصوَّر أنني سأرى كل هذا الذعر في عينَيْ إنسان. ذعر مهيب.

سار الحصان الأبيض خلفه، ثمَّ رفع قائمتيه الأماميتين عاليًا. نظر إلى چاك في كراهية ثمَّ هوى بثقل جسده بين لوحَيْ كتفيه، وسوَّاه وزن الحصان بالأرض. حاول النهوض، لكن الحصان ركل وجهه ركلة أصابت رأسه بالكامل وهشَّمت جسر أنفه وخدَّيه. انفجرت الدماء وغطَّت وجهه الوسيم، لكن الحيوان لم يكن قد انتهى منه بعد. انحنى الحصان وأطبق فكَّيه على ظهر سُترة چاك ثمَّ رفعه، ورماه نحو الأشجار كأنه خيال مآتة محشوٌّ بالقش.

تجمَّدت چري خلف المقود متسعة العينين ذاهلة، لا تعرف ماذا تفعل. كانت النافذة مفتوحة، وحين اصطدم الكلب الضخم بالباب، عبرت رأسه بالكامل من خلالها، وغَرَزَ أنيابه في كتفها اليسرى ممزِّقًا قميصها من الياقة حتَّى الكُم، نافثًا أنفاسه الحارَّة نحو بشرتها المكشوفة تحته.

صرخت.. وجدت يدها عصا السرعات، فحرَّكتها وانطلقت السيارة إلى الأمام. كان الحصان الذي قتل چاك أمامنا مباشرة، فزادت چري السرعة إلى عشرين ميلًا في الساعة وضربت قوائم الحصان من تحته. يزن الحصان نحو ألف ومائتي رطل، ممَّا بعَّج مقدِّمة السيارة.

قُذِفت نحو لوحة عدَّادات السيارة، وتدحرج الحصان نحو السقف، وقوائمه تركل السماء. مال إلى جانبه، وهشَّم الزجاج الأمامي بحافره، فضرب صدر چري ودفعها نحو ظهر المقعد. تحوَّل الزجاج إلى حصى رفيع وانهمر علينا.

نقلت چري ذراع السرعة لتتحرَّك إلى الخلف، ثمَّ انطلقت. تدحرج الحصان الضخم من فوق السقف وهوى على الطريق، ثمَّ رفع جسده على قائمتيه الأماميتين، أما الخلفيتين المكسورتين ظلَّتا بلا حراك.

انطلقت چري إلى الأمام مرَّة أخرى، وتجاوزناه على مسافة قريبة للغاية حتَّى إن ذيله ضرب نافذتي. أعتقد أن في خلال اللحظات التالية، قادت چري السيارة فوق نانسي. رأيتها لجزء من الثانية أمامنا قبل أن ترتجَّ السيارة وهي تعبر فوق العَقَبة على الطريق.

لثوانٍ رهيبة، جرى الكلب بمحاذاتنا، لسانه الأحمر يتدلَّى من فمه مرفرفًا، ثمَّ جاوزناه. صرختُ: «چري! أغلقي نافذتك!».

- لا أستطيع!

صوتها حادٌّ مولول، كتفها منهوشة حتَّى العضلات، وصدر قميصها غارق بالدماء، وتقود السيارة بيد واحدة.

مددت يدي من أمام خصرها وأدرت مقبض غلق الزجاج. عبرنا وهدة عميقة فضرب رأسي أسفل فكِّها، وسطعت نجوم الألم أمام عينَيَّ. صحت بها: «أبطئي قليلًا! ستنحرفين بنا خارج الطريق!».

- لا أستطيع أن أبطئ؛ هو خلفنا.

نظرت عبر الواجهة الخلفية، ورأيتها تنطلق وراءنا، حوافرها تثير سحابة منخفضة من الطبشور الأبيض. خمسة كائنات شاحبة كأنها أشباح خيول. أغلقت چري عينيها في يأس، وأحنت رأسها. كُنَّا قد حِدنا عن الطريق وقتها ودخلت السيارة تفريعة موازية. قبضت على عجلة القيادة لنعود إلى مسارنا رغم أن هذا شبه مستحيل. صرخْت. جذبت صرختي انتباهها وأخرجتها من ألمها. أدارت المقود بقوة، فركلت العجلات الحصى من تحتنا وانحرفت يسارًا بينما چري تتنفَّس بصعوبة ويصدر من صدرها صوت أزيز. سألت في حمق: «هل أنت بخير؟».

وكأن هناك أي خير فيما رأته من مقتل شقيقها وصديقتها، ومن مطاردة الكائنات المستحيلة التي تتبعنا، وتضرب الطريق بحوافرها. قالت: «لا أستطيع التنفُّس».

تذكَّرت الحافر الذي ضرب صدرها. لا بُدَّ أن ضلوعها قد أصيبت بكسور.

- سنصل إلى المنزل، وسنتصل بمَن يساعدنا.

- لا أستطيع التنفُّس. بول.. هذه المخلوقات هي خيول الدوَّارة. تطاردنا ثأرًا ممَّا فعلنا، أليس كذلك؟ لهذا قتلوا چاك. لهذا قتلوا نانسي.

شنيع أن أسمعها تقول هذا. أعرف أنها على حق، وعرفت هذا منذ اللحظة التي رأيت فيها الحصان ذا الوجه المحترق. أدارت الفكرة عقلي، كأنني ثمِل، أركب دوَّارة تدور بسرعة خرافية. حين أغمضت عيني شعرت بذعر من خطر الطيران خارج دوَّارة العالم العملاقة.

- كدنا نصل إلى المنزل.

- بول...

لأول مرَّة منذ عرفتها، أراها تصارع الرغبة في البكاء.

- أعتقد أن هناك شيئًا مكسورًا داخل صدري.. أعتقد أنني سُحقت.

صحت: «استديري!».

كان المصباح الأيسر الأمامي قد انكسر، ورغم أنني سافرت على طريق بِركة ماجي آلاف المرَّات، فاتنا المدخل إلى كوخ أبوَيَّ بسبب الظلام. أدارت المقود، فدارت السيارة تتبع الدخان المنبعث من ماسورة العادم. سرنا فوق طريق مفروش بالحصى حتَّى وصلنا إلى المنزل.

المنزل كوخ أبيض مكون من طابقين، نوافذه ذات خصاص خُضر، والشرفة السفلية مغلقة بالسلك. تؤدِّي درجة حجرية واحدة إلى الباب الخلفي. الأمان بالداخل، لن يمكنهم الوصول إلينا. أنا واثق.

ما إن توقَّفنا حتَّى أحاطت الخيول بالسيارة، تضربها بأكتافها، وتثير حوافرها الغبار وتحجب عنَّا رؤية الشرفة السفلية.

بعدما توقَّفنا، استطعت أن أسمع الصفير المنبعث من صدر چري مع كل شهيق. مالت إلى الأمام، يلمس حاجباها المقود ويدها على صدرها.

سألت: «ماذا سنفعل؟».

حصان منها ضرب السيارة فراحت تتمايل على ياياتها. سألت چري وهي تأخذ شهيقًا آخر: «كل هذا لأننا سرقنا المال؟ أم لأنني شوهت أحدًا من الأحصنة؟».

- لا تفكِّري في هذا، لنُركِّز على الطريقة التي سنتجاوزها بها إلى داخل البيت.

أكملت حديثها كأنها لم تسمعني: «أم لأننا نستحق القتل؟ ما خطبنا يا بول؟ أوه.. صدري...».

- ربما الأفضل أن نستدير وننطلق إلى الطريق السريع.

اقترحت هذا رغم أنني أشك في مقدرتنا على الذهاب إلى أي مكان. لقد توقَّفنا ولا أعرف إنا كُنَّا نستطيع الانطلاق مرَّة أخرى. بدت مقدِّمة السيارة كأنما ارتطمت بشجرة قوية. غطاء المحرِّك منبعج، وشيء تحته يصدر صوت هسيس مستمر.

قالت وهي تنظر إليَّ من خلف شعرها المتشابك الذي يغطِّي جبينها: «لديَّ فكرة أخرى. ماذا لو ترجَّلت من السيارة وعدوت نحو البحيرة؟ سأبعدهم عنك حتَّى تستطيع أن تدخل المنزل».

- ماذا؟! لا يا چري، لا! المنزل هنا، ولن نعرِّض أحدنا للموت. لا سبيل لأن أوافق على مناورة أفلام غبية ليتبعوك إلى...

قالت چري وقد ثقلت أنافسها وتهدجت: «ربما لا يريدونك أنت يا بول. أنت لم تفعل أي شيء، نحن فعلنا. ربما يتركونك وشأنك».

صحت: «وماذا فعلت نانسي؟!».

- شربت البيرة.. أخذنا المال وأنفقته وتشاركنا البيرة التي اشترتها به. كلنا شربنا ما عداك. چاك سرق، أنا خرَّبت حصان. ماذا فعلت أنت؟ حملتَ الرجل العجوز ووضعته في فراشه على جانبه كي لا يختنق فيموت.

- أنتِ مشوَّشة. فقدتِ الكثير من الدماء ورأيت چاك ونانسي يُقتلان. أنت في صدمة. تلك بالخارج مجرَّد خيول، لا يمكن أن تسعى إلى الثأر.

- بالطبع تسعى إلى الثأر، لكن ربما لا يريدون الثأر منك. أنصت، لست في كامل تركيزي لأجادلك. يجب أن نتصرَّف الآن. سأخرج من السيارة وأعدو نحو اليسار تجاه البحيرة. ربما أستطيع الوصول إلى الطوف، ولا أعتقد أنها تستطيع السباحة خلف طوف. رغم ما حدث لصدري

أعتقد أني سأستطيع النجاة منها. عندما أنطلق، أنتظر حتَّى تهرع خلفي ثمَّ أدخل المنزل وأتصل بكل شرطي في الـ...

- كلا.

قالت وزاوية فمها ترتفع إلى أعلى في ابتسامة ساخرة: «هذا، إلى جانب أنني قادرة على تمزيق أي لعين منها».

فتحت كفَّها اليسرى فرأيت السكين الذي أخذته من مُشغِّل اللعبة، ورأيت بوضوح نقش الخيول على مقبضها.

- كلا.

لا أعرف لماذا خذلتني كل الكلمات الأخرى. وضعت يدي على يدها فقالت: «لطالما كنت أعتبر موضوع سفرنا إلى نيويورك كلامًا فارغًا. موضوع عملي ممثِّلة وكتابتك للمسرحيات. لطالما اعتبرته مستحيلًا. لكن لو لم أمُت، سنجرِّب. لا يوجد ما هو أكثر استحالة ممَّا نحن فيه الآن».

سحبت يدها من قبضتي. حتَّى الآن، لا أعرف لماذا تركتها ترحل.

رفع حصان قائمتيه الأماميتين في الهواء، ثمَّ حطَّ بهما على غطاء المحرِّك، فتأرجحت السيارة. حدَّق إلينا الحصان العملاق الضخم بعينين بلون الدخان. خرج لسان أفعى من بين لثته السوداء المجعَّدة، ثمَّ نزل بردفيه إلى الأسفل في وضع استعداد للهجوم علينا.

قالت چري بصوت خافت: «وداعًا».

خرجت من السيارة وراحت تعدو قبل أن أتمكَّن حتَّى من الالتفات نحوها. اتجهت نحو الأشجار عند جانب المنزل، واستطعت أن أرى البحيرة بين سيقان الأشجار، يلمع سطحها وسط ظلمة الليل.

أدار الحصان أمامي رأسه ليراها تهرب، فاندفع نحوها، تبعه حصانان آخران، لكن چري سريعة حقًّا.

كانت قد وصلت إلى حدود الغابة حين قفز قِطٌّ من بين الشجيرات المتشابكة. كان في حجم الفهد، وكفَّاه كقُفَّازَيْ كرة القاعدة. ضرب چري بكفٍّ منهما فأدارها حول نفسها. جثم القِطُّ فوقها مطلقًا مواءً استحال إلى صرخة حيوانية مرعبة. أحب أن أتصوَّر أن چري طعنته. خرجت من السيارة وانطلقت نحو الباب الخلفي المصنوع من السلك لأفتحه ثمَّ أقصد مفتاح

الباب الخشبي الموصد الذي كان معلَّقًا جواره من مسمار صدئ. انتزعته، وأسقطته، ثمَّ رفعته ودسسته في القفل بعد مرَّات فاشلة. شعرت بمن يهرع من خلفي في الظلام. حصان أو ذئب أو چري نفسها ممزَّقة الحنجرة تسألني: حبيبي، *هل تظنني الآن جميلة كفاية لأظهر على شاشة السينما؟*

ظللت أجاهد مع القفل لأكثر من عشر ثوانٍ حتَّى انفتح الباب. اندفعت داخلًا، فتعثَّرت في العتبة وسقطت على وجهي. هرعت أتقدَّم على أربع وأنا أسبُّ وأبكي. كنت أرتجف كأنني خارج للتَّوِّ من مبرِّد لحوم.

احتجت دقيقة أو اثنتين حتَّى استعدت السيطرة على نفسي، وقمت واقفًا. عدت إلى الباب ونظرت من نافذته. خمس خيول تراقب المكان من حول السيارة. تحدِّق إلى البيت بأعينها الشاحبة السامة. عند أول الطريق رأيت الكلب يأتي، يترجرج فراؤه حول جسده العضلي. لم أستطع أن أحدد مكان القِطِّ، لكنني سمعته. في خلال الساعات التالية سمعته يعوي غاضبًا في مكان بعيد.

نظرت نحو رعيل الخيل الواقف بالخارج. واحد منها يزن نصف طن، جسده مزين بالجروح المندملة كأنه أصيب بها منذ عشرة أعوام لا بضع ساعات. جروحه الفضية البارزة فوق جسده الأبيض توضح كلمة «سحقًا لك».

صهلتْ معًا، فبدتْ لي كأنها تضحك.

***

ترنَّحت إلى المطبخ، وحاولت مع الهاتف. لا يصدر من السماعة أي صوت. الاتصال مقطوع. ربما سقط سلك الهاتف الخارجي بفعل الخيول الأسطورية، لكنني رجَّحت أن الرياح هي التي أسقطته. عندما تهبُّ الريح بهذا الشكل حول بِركة ماجي، تتأثَّر أسلاك الكهرباء والهاتف وينقطع التيار والاتصال.

مشيت من نافذة إلى أخرى. الخيول تراقب، بينما تقترب وحوش أخرى من ناحية الغابة وتطوِّق المنزل. صرخت فيها لتبتعد. هددتها بالقتل. سأقتلها. أخبرتها أننا لم نقصد شرًّا. العبارة الأخيرة صادقة كما بدت لي الآن.

لم يقصد أينا شيئًا.

نمت على أريكة حجرة المعيشة، وعندما استيقظت رأيت سماء النهار الصافية، واختفت مخلوقات العجلة الجامحة. لم أجرؤ على الخروج؛ ربما تكون مختبئة.

قرب الظهيرة قرَّرت أن أغامر وأخرج إلى الطريق الترابي. كنت مذعورًا حتَّى وأنا أحمل سكين المطبخ الضخم. اقتربت امرأة تركب سيارة دفع رباعي وتثير الغبار. عدوت نحوها أصرخ طالبًا النجدة، فأسرعت وفرَّت. هل تلومها؟

عثرت عليَّ سيارة شرطة بعد خمس عشرة دقيقة. أمضيت ثلاثة أيام في مستشفى مَين المركزي في لويستون. لم أكن أعاني أي إصابات جسدية، لكنني ظللت تحت الملاحظة لإصابتي بما يسمونه «انفصال خَطِر عن الواقع».

***

في اليوم الثالث، وفي حضور والدَيَّ ومحامي العائلة، اعترفت للشرطي فوليت أن أربعتنا قد تعاطينا عقار هلوسة قبل ركوب العجلة الجامحة. في مكان ما من الطريق إلى بِركة ماجي صدمنا حيوان شارد، غالبًا غزال الموس، ولم تكن نانسي ولا چري تربطان حزام الأمان، فقُتلا في حادث التصادم. سألني الشرطي عن السائق، فأجاب المحامي نيابة عنِّي أنه چاك. أضفت أنا أنني عاجز عن قيادة عصا حتى، وكان هذا صحيحًا.

حكى المحامي باقي ما حدث: ألقى چاك الجثتين في البحيرة وهرب، ربما إلى كندا، ليتفادى حُكمًا بالسجن مدى الحياة. أضاف المحامي كذلك أنني كنت ضحية.. ضحية المخدرات التي أمدَّنا بها چاك، وضحية ما فعل على الطريق. كل ما فعلت هو أنني أومأت ووقَّعت الأوراق التي طلب منِّي توقيعها. كانت الحكاية كافية بالنسبة للشرطي؛ هو يتذكَّر چاك جيدًا ويتذكَّر الليلة التي ضرب فيها صديقه الشرطي الآخر.

ذهبت شرطة مَين وحرس البحيرات إلى بِركة ماجي لانتشال الجثث، لكنهم لم يجدوا شيئًا. بِركة ماجي قبل كل شيء حوض مَدِّي مفتوح على البحر.

***

لم أذهب إلى دارتماوث. مغادرة المنزل عذاب بالنسبة لي. مرَّ شهر حتَّى استطعت أن أنظر عبر نافذة حُجرتي ذات مساء. رأيت أحد الخيول تراقبه،

يقف تحت عمود إنارة يحدِّق إليَّ بعينيه الغائمتين. نصف وجهه محترق إثر حريق قديم. بعد لحظات، أخفض الحصان رأسه وابتعد ببطء.

كانت چري تظنُّها لا تُريدني. بالطبع تُريدني! أنا مَن أثرت الشكوك في عامل تشغيل العجلة. أنا مَن أشعلت فتيل چاك.

زاد رُهاب الليل. أظل مستيقظًا متأهِّبًا لعودتها. أحيانًا أراها؛ الخيول والقِط.. كلُّها تُراقبني. كلُّها تنتظرني.

أقمت في مصحَّة عقلية لمدَّة عشرة أسابيع من ربيع 1995. انتظمت في تناول العقاقير حتَّى لم تعد الخيول قادرة على العثور عليَّ. لفترة تحسَّنت بعد أشهر من العلاج. بدأت أسير في الخارج، في البداية لم أكن أخرج أبعد من موضع صندوق البريد أمام المنزل، ثمَّ زدت المسافة تدريجيًّا طالما كانت جولاتي في النهار، أما الغروب نفسه فيكتم أنفاسي.

في ربيع 1996، سافرت إلى كاليفورنيا بموافقة معالجي النفسي وبمباركة أهلي. أمضيت أشهرًا مع عمَّتي المصرفية المتدينة الهادئة. ظن أهلي أنني سأكون في أمان بصحبتها. افتخرت أمي بشجاعتي وإقدامي على هذه الخطوة، أما أبي فقد ارتاح لخروجي من المنزل حتَّى يتخلَّص من نوبات هياجي وشكِّي.

حصلت على وظيفة في متجر البضائع المستعملة، وخرجت للمواعدة. شعرت بالأمان، وأحيانًا بالسعادة. لقد عدت تقريبًا إلى حياتي الطبيعية. تعرَّفت إلى امرأة أكبر منِّي، مُدرسة سابقة ذات ضحكة ذكورية خشنة وشعرٍ شابَ قبل الأوان. في يومٍ تقابلنا لتناول الشاي والكعك، وفقدت إحساسي بالوقت، وحين خرجنا من المطعم كانت الشمس قد مالت للغروب، ورأيت الكلب هناك. خرج من حديقة جانبية ووقف ينظر إليَّ واللعاب يتساقط من بين شدقيه. رأت رفيقتي الكلب، فقبضت على معصمي وقالت: «ما هذا بحق الجحيم؟!».

سحبت ذراعي منها وعدت إلى المطعم، أصرخ كي يطلب أحدهم الشرطة.. أصرخ أنني سأموت.

كان عليَّ أن أعود إلى المصحَّة وأخضع للعلاج بالصدمات الكهربية. بينما كنت هناك، أرسل إليَّ أحدهم بطاقة عليها صورة العجلة الجامحة. لم يكن هناك أي شيء مكتوب على البطاقة، وكأنها في حد ذاتها رسالة.

لم أتصوَّر أن تتبعني مخلوقات الدوَّارة عبر الولايات. تطلَّب منه الأمر شهرين حتَّى عثروا عليَّ هنا.

***

في مطلع القرن الحالي، قُبلت في جامعة لندن، وسافرت إلى المملكة المتحدة لأدرس تخطيط الضواحي، وبعدما تخرَّجت مكثت هناك.

لم أكتب مسرحية أو حتَّى نصف قصيدة. انكمشت قدراتي الأدبية لتغطِّي فقط كتابة التقارير التقنية عن التعامل مع حيوانات الضواحي؛ الحمام، الجرذان، الراكونات. في مجال عملي أطلقوا عليَّ لقب «السفَّاح». تخصصي تطوير طرق التخلُّص من أي أثر للحيوانات داخل التجمُّعات السكنية.

لكن السيد سفَّاح لم يكن ممَّن يجذبون الفتيات بسبب مشكلاته النفسية؛ نوبات هلع، خوف مرضي من الظلام. جعلتني مشكلاتي منعزلًا عن البشر. لم أتزوَّج وليس لديَّ أبناء. لديَّ معارف، لا أصدقاء. الصداقة تتطلَّب الخروج إلى الحانات في الليل وأحيانًا تنشأ فيها. أعود من عملي في ساعات النهار، وأصعد إلى شقتي في الطابق الثالث، وأوصد الأبواب وأظل وحيدًا مع كتبي.

لم أرَ الخيول هنا قط. أعتقد أن قدراتها لا تتيح لها عبور المحيطات لملاحقتي. أنا هنا في أمان منها.

أرسلوني في العام التالي لحضور مؤتمر التخطيط العمراني في برايتون. وَجَبَ عليَّ إلقاء محاضرة مسائية عن الخنافس اليابانية ومخاطرها على العمران. لم أدرك حتَّى وصلت أن الفندق أمام مرفأ بالاس، بدوَّارته الضخمة عند طرفه. تحمل الريح موسيقى الڤالس من الشاطئ حتَّى أذنَيَّ. ألقيت محاضرتي والعرق يغمر وجهي، وبمعدة متقلِّصة. لم أكن أفكر سوى في إنهاء مهمتي والهرب. موسيقى الدوَّارة تصل إليَّ داخل الفندق، موسيقى مجنونة.

لم أستطع العودة إلى لندن على الفور، فقد كانت لديَّ محاضرة أخرى في الصباح، لكنني استطعت الابتعاد عن الفندق والجلوس على الشاطئ عند أبعد نقطة من المرفأ.

تناولت شطيرة برجر وشربت الخمر كأسًا تلو الأخرى كي أهدأ. مكثت طويلًا، ثمَّ عدت إلى الفندق سيرًا محاذاة الشاطئ، بينما الشمس تهبط لتمسَّ

خط الأفق. ظهر الفندق عند مرمى بصري، فأبطأت التقاط أنفاسي من سرعة سيري.

شيء لطم الماء ثمَّ تحطَّم.

لم أرَ سوى ذيله للحظات. ذيله البالغ طوله ثمانية أقدام. أسود، لامع، يشبه الحبل، سميك كعمود حمل أسلاك. شقَّ رأسه صفحة الماء، ذهبي مخضر كأنه درع. عيناه مضيئتان عمياوان كعملتين معدنيتين. غاص الكائن مرَّة أخرى. لم أره منذ عشرين عامًا، لكنني تعرَّفت ثعبان الماء الملتف حول العجلة الجامحة من أول نظرة.

لن تتركني وشأني أبدًا.

عدت سريعًا إلى حجرتي في الفندق، فأفرغت شطيرتي وخمري في المرحاض. مرضت وظللت أرتجف طيلة الليل. لم أنم.. لم أستطع. كل مرَّة أغلق عينَيَّ فيها تدور بي الحجرة كدوَّارة ملاهٍ. أدور وأدور وأدور معها، تدوي موسيقى العدَّاءة الذهبية في مرفأ برايتون بالاس. موسيقى القالس تشقّ أستار الليل والأطفال يصرخون في جزل أو ذعر، لا أستطيع أن أتبيَّن.

كل شيء يتشابه عليَّ هذه الأيام.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

محطَّة وُلفيرتون

رأى ساندرس أول الذئاب مع دخول القطار إلى محطَّة وُلڤيرتون.

رفع عينيه لحظة عن جريدة التايمز الاقتصادية ورآه، يقف عند الرصيف. ذئب بطول ستة أقدام، يعتمر قبعة المشاغبين[1] بين أذنيه الخشنتين الشائبتين. وقف الذئب على قائمتيه الخلفيتين، مرتديًا معطف أمطار ويمسك بين مخالبه حقيبة. ثمَّة ذيل أشعث يظهر من خلفه، يتحرَّك يمينًا ويسارًا، على الأغلب يخرج من فتحة في بنطاله.

كان القطار يتحرَّك، ما زال، وفي لحظة اختفى الذئب عن الأنظار.

ضحك ساندرس ضحكة سريعة متهدِّجة لا تعبِّر عن أي سرور، ثمَّ فعل الشيء الوحيد المعقول؛ نظر مرَّة أخرى إلى جريدته. لم يفاجئه الذئب الواقف عند المحطَّة. ربما يرى الشيطان نفسه عند المحطَّة التالية. يظن ساندرس أنه توجد فرصة كبيرة لوجود المتظاهرين اللعناء في كل محطَّة بين لندن وليڤربول، يجولون مرتدين ملابس تنكُّرية، آملين أن يصوِّرهم أحد فيظهرون في التلفاز.

---

(1) قبعة على شكل نصف بيضاوي، تغطِّي مقدمتها حافتها الأمامية. (المترجمة)

كانوا قد تجمهروا خارج الفندق الذي يقيم فيه في لندن، مجموعة من الأولاد المشاغبين يروحون ويجيئون على الرصيف عبر الشارع مباشرة. وفَّرت الإدارة لساندرس حجرة خلفية، فلا يضطر إلى رؤيتهم، لكنه أصرَّ على النزول في الجناح الأمامي ليُطل عليهم من أعلى؛ وجودهم مسلٍّ أكثر من أي برامج ترفيه في التلفاز البريطاني. لم ير ذئابًا هناك، لكنه رأى رجلًا على عكَّازين، يرتدي زي العم سام[1]، مُثبتًا إلى بنطاله عضوًا ذكريًّا صناعيًّا من المطَّاط بطول ثلاثة أقدام. ملامح العم سام قاسية وكارهة، لكن العضو كان ورديًّا كالحًا، يترجرج بشكل مبهج. العم سام يرفع لافتة مكتوب عليها:

العم سام يبول في كوب
وندفع نحن الإنجليز لشُرب بوله
لا لقهوة چيمي![2] لا عبيد أطفال!

ضحك ساندرس كثيرًا لقراءة هذه العبارات، خصوصًا وقد انقسم سطرها الأخير بين الغضب الجادِّ، والتخلُّف العقلي. «لا عبيد أطفال»؟ ماذا جرى للنظام التعليمي البريطاني الأسطوري؟

باقي المتظاهرين، وهم جماعة من المُشرَّدين المعتدِّين بأنفسهم، يرفعون لافتات خاصَّة بهم، أقل تسلية من السابقة؛ لافتتاهم تحوي صورًا لأقدام حافية، وأطفال سُمر نصف عرايا يقفون جوار شجيرات القهوة. يحدِّق الأطفال إلى الكاميرا بأعين تلمع بالدموع كأنهم شعروا لتوِّهم بجَلدة مُستعبدهم. رأى ساندرس هذه الصور كثيرًا من قبل حتَّى أغضبته، حتَّى ولو كانت هذه الصورة الكئيبة رائجة، قهوة چيمي لا تستغل الأطفال في الحقل، ولم تستغلهم. قد يعمل الأطفال هناك في تعبئة الحبوب، لكنهم لا يعملون

---

(1) شخصية تمثل الحكومة الفيدرالية الأمريكية، أو الولايات المتحدة نفسها، على هيئة رجل أبيض الشعر واللحية يعتمر قبعة بألوان علم أمريكا. (المترجمة)

(2) وادي جيمي منطقة تشبه الكثير من مثيلاتها في جنوب شرق آسيا، يعمل أهلها في زراعة وجني القهوة. (المترجمة)

أبدًا في الحقول، التي هي رغم كل شيء أكثر نظافة من قرى أكواخ الصفيح العشوائية التي يعيش فيها أولئك الأطفال.

على العموم، لم يستطع ساندرس أن يكره الفتيات المثيرات اللاتي يرتدين قمصانًا تكشف بطونهن، مطبوعًا عليها صورة تشي جيڤارا، ولم يستطع أن يكره رفاقهن الذين يرتدون الصنادل. هم يتظاهرون اليوم، لكن في خلال ثلاث سنوات ستدفع هاته الفتيات عربات الأطفال، ويختلسن نصف ساعة في مقهى قهوة چيمي، ويثرثرن مع رفيقاتهن ويقضين أفضل وقت في يومهن. أما الشباب فسيطاردون الوظائف بوجوه حليقة، ثمَّ يقضون الصباح في مقاهي چيمي يشربون قهوة الصباح قبل بداية يوم عصيب من العمل. لو سمح هؤلاء الشباب لأنفسهم وقتها أن يفكروا في تظاهراتهم ضد افتتاح مقاهي چيمي في بريطانيا، لكَسَت وجوههم حُمرة الحرج لأجل مثاليتهم التافهة في غير موضعها.

كان العشرات منهم أمام الفندق في الليلة السابقة، ومثلهم عند متجر التجزئة في حديقة «كوڤينت» صباحًا في أثناء افتتاحه. ليست أعدادًا هائلة، ولم يلتفت إليهم أغلب المارين، ومَن رآهم أجفل من منظر العم سام بعضوه المتدلِّي. هذا كل ما قد يتذكَّره أي شخص، عضو العم سام؛ لا لافتته ولا احتجاجه. راهن ساندرس على أن التظاهرات لن تُذكر إلا ربما في أصغر ركن من صفحة الأعمال في جريدة تايمز. ربما يكتب أحدهم شيئًا عن ممارسات قهوة چيمي، وهي ممارسات ساعد ساندرس بنفسه في تطويرها.

كعادة سياسات چيمي، بحثوا عن مقاهٍ عائلية مزدهرة في الجوار، وفتحوا متاجرهم أمامها. يمكن أن تتحمَّل سلسلة مقاهي چيمي الخسارة لعدَّة أشهر، وربما سنوات لو كان هذا ضروريًّا، حتَّى تُخرِج باقي المقاهي من المنافسة وتستحوذ على زبائنها. يعتبرون هذه السياسة حادَّة، إجرامية، ولا يلتفتون إلى أن المقاهي القديمة كانت تقدِّم قهوة مُخففة من أردأ أنواع القهوة سريعة التحضير، ويصبونها في أكواب بحجم الإبهام، ولا يهتمون بتنظيف حماماتهم. أما بالنسبة لعمالة الأطفال، فهي لم تُعجب المتظاهرين، لكن يبدو أن لا مشكلة لديهم في موتهم جوعًا بسبب عدم وجود عمل أساسًا.

لم يكرههم ساندرس. كان يفهم عقلياتهم جيدًا، وقد تظاهر هو نفسه من قبل.. تظاهر ودخَّن الماريجوانا، ورقص بملابسه الداخلية، وطاف الهند

على قدميه. سافر إلى الخارج يبغى التسامي، أو المانترا[1]، أو المعنى من الحياة، ولم يجد أي شيء. أمضى ثلاثة أسابيع مُشرَّدًا في معبد في جبال كشمير، حيث للهواء رائحة حلوة، رائحة البامبو وزهر البرتقال. سار حافيًا فوق الأحجار العتيقة، ومارس التأمُّل، وترنَّم مع الآخرين الحمقى الذين انتهى بهم المطاف إلى حيث انتهى به. منح نفسه لكل هذا على أمل أن يشعر بالنقاء، أو بالحب.. سلَّم نفسه للطعام محسوب الكمية من الأرز الذي يشبه طعمه الطبشور المُبلَّل، وصحون الأشياء التي عرف لاحقًا أنها أغصان مطهوة بالكاري. ثمَّ جاء اليوم الذي تلقَّى فيه ساندرس الحكمة التي انتظرها.

جاءته على هيئة طفل نحيل حالك الشعر من كلورادو، يُدعى چون تُرنر، أشار إليه نحو الغاية العُظمى من الوجود. لم يصل إليها أحد أكثر من چون الذي كان يتربَّع في جلسات التأمُّل، عاري الجذع تبرز ضلوعه من خلف بشرته البيضاء. كان المفترض أن يصبُّوا تركيزهم على شيء جميل، أو شيء يملأهم بالحبور حتَّى الحافة. حاول ساندرس تخيُّل بتلات أزهار اللوتس، والشلالات، والمحيط، وعشيقته العارية، دون أن يشعر بأي شيء إيجابي. أما چون، فبدا أنه قد التقط شيئًا على الفور، وأشرق وجهه الطويل كوجوه الخيل بالنشوة. حتَّى عرقه كان له رائحة نظيفة سعيدة. في نهاية أسبوعهم الثالث هناك، سأله ساندرس عمَّا كان يتخيَّل. قال تُرنر:

- حسنًا.. لقد طُلِب منَّا أن نفكر في شيء يملأنا حبورًا، فبدأت في تخيل شطيرة البرجر الضخمة اللعينة بالجبن التي سأغرز فيها أنيابي حين أعود إلى وطني. يومان آخران من أكل العِصي والتراب المُبهَّر وستجدني قادرًا على تجسيد الشطائر الشهية اللعينة أمام أعينكم.

ذهب ساندرس إلى الهند وهو واقع في حب فتاة شقراء اسمها ديني، والألبوم الأبيض[2]، والجانچا[3]. عند عودته إلى سان ديَّجو كانت ديني قد

---

(1) المانترا في الهندوسية والبوذية هي كلمة أو عبارة أو صت يُردده المرء خلال التأمُّل، ويساعده في معرفة رغباته الحقيقية واتجاهاته في الحياة. (المترجمة)

(2) أحد ألبومات فريق البيتلز. (المترجمة)

(3) واحد من أقدم أسماء مخدر الماريجوانا. (المترجمة)

تزوَّجت صيدليًّا، وبول مَكارتني[1] في جولة مع وينجز[2]، ودخَّن ساندرس آخر لفافة ماريجوانا، ووجد لنفسه خطة. ربما هي ليست خطة بالضبط، إنما رؤية، فهم. أزاح الواقع واحدًا من ألواح الحياة المعتمة السوداء جانبًا، ومنحه لمحة من التروس التي تدور خلفه. اكتشف ساندرس أحد ثوابت الكون، مثل الجاذبية أو طبيعة الضوء الكمومية. أينما ذهبت، ومهما كانت التقاليد عتيقة، وأيًّا كان حجم التاريخ، وكيفما أذهلتك المناظر، ستجد سوقًا لوجبة هابي ميل[3] رخيصة. ربما يقودك طريق اللوتس[4] إلى النيرڤانا[5]، لكنها رحلة طويلة، وحين يكون أمامك رحلة بهذا الطول سترغب في أن تجد مطعمًا على الطريق.

بعد ثلاث سنوات من مغادرة كشمير، امتلك ساندرس خمسة مطاعم «برجر كينج»، وتحرَّقت الإدارة العُليا للمطاعم لمعرفة سر زيادة مكاسب تلك المطاعم بنسبة 65% أكثر من النسبة المحلية العادية. (حيلته كانت: افتتح المحلات بالقرب من متنزهات التزلج والشواطئ والممرات التجارية، ثمَّ اشوِ البرجر والنوافذ مفتوحة ليشمها الأطفال طيلة اليوم). بعد ثلاثة عشر عامًا انضم هو نفسه إلى الإدارة العليا، فعلَّم مقاهي «دَنكِن دوناتس» كيفية مضايقة مقاهي «ستاربَكس». (حيلته كانت: اجعلهم يبدون كأنهم دُخلاء متعجرفون، والعب من زاوية نيو إنجلند، وأغرِق السوق).

عندما عرضت عليه قهوة چيمي راتبًا ذا سبعة أصفار ليساعدها في إعادة هيكلة الشركة وإيصال سلسلة متاجرها إلى أرجاء العالم، وافق ساندرس على الفور بعد تفكير دام أقل من أربع وعشرين ساعة. أحب فكرة مساعدة قهوة چيمي بشكل خاص للوصول إلى العالمية لأنها ستوفِّر له فرصة السفر؛ لم يكن قد غادر الولايات منذ عودته من الهند. ربما يقنعهم بافتتاح فرع في كشمير، بالضبط أمام معبده القديم. سيحب رواد المعبد المأكولات النباتية

---

(1) أحد أعضاء فريق البيتلز. (المترجمة)

(2) فريق موسيقي إنجليزي أمريكي أسسه بول مَكارتني عام 1971. (المترجمة)

(3) وجبة أطفال تقدمها مطاعم ماكدونالدز. (المترجمة)

(4) اللوتس من أكثر الزهور المقدسة عند عدَّة شعوب، في الهندوسية والبوذية ترمز إلى النقاء والجمال والخير. (المترجمة)

(5) في البوذية، هي أعلى مكانات التنوير والفهم. (المترجمة)

في قائمة چيمي، وسوف يمنح الكابوتشيو بالڤانيلّا ترانيم الشروق زهوة أخرى. بالنسبة لتطوير التركيز والسلام الداخلي والتأمُّل، فليس هناك أفضل من كوب قهوة آخر. سيستطيع كهنة بوذا حليقو الرؤوس تفويت دروس اليوجا، لكنهم سيعجزون عن استكمال يومهم من دون قهوة، وسيصيرون حيوانات في وقت قصير، مجرَّد...

ثنى ساندرس أحد أركان الجريدة وألقى نظرة أخرى نحو الرصيف. أبطأ القطار حتَّى اقترب من التوقُّف. هو لا يرى المُهرِّج الذي يرتدي زي الذئب بعدما تركه خلفه. كان ساندرس يركب في أولى عربات القطار، ويرى ركنًا واحدًا من الرصيف. ثمَّة لافتة مرفوعة بين عمودين حجريين تحمل عبارة «محطَّة وُلڤيرتون». شيء لطيف أن يملك الناشطون بالكاد ثمن الأقلام والأوراق واللاصق التي يحتاجون إليها لصنع لافتتاهم. آخر شيء يريد ساندرس فعله هو مشاركة عربة الدرجة الأولى الفارغة مع مخبول ابن زانية يرتدي زي الذئب الشقي.

فكَّر ساندرس: كلا، سحقًا لهذا. أتمنَّى لو يركب ويجلس جواري. يمكنه أن يجلس هنا على مؤخِّرته الذئبية ويحاضرني بشأن الأطفال السود الصغار الذين يعانون تحت الشمس اللافحة ويجمعون حبوب القهوة، ثمَّ سأخبره أننا لا ندع الأطفال يجنون الحبوب، وقهوة چيمي توفِّر منحًا دراسية كل عام لعشرة أطفال من دول العالم الثالث. سأسأله عن عدد أطفال العالم الثالث الذين ألحقتهم المقاهي العائلية التقليدية بالجامعة العام الماضي، بينما يجني محاصيل قهوتهم عبيدٌ من ساموا[1].

في خلال سنوات إدارته مطاعم «برجر كينج»، أُطلق عليه لقب «الحطَّاب»، لأنه لا يتردَّد عن التلويح بفأسه كلما ظهرت مهمَّة عصية يتفاداها الجميع. لم يجمع من عمله ثروة كبيرة (أكبر ممتلكاته بيت على عشرين فدانًا في نيو لندن، كونيكتيكت، وآخر في مرفأ فلوريدا، وزورق رياضي يُقلَّه بين البيتين) عن طريق تفادي المواجهات. في مرَّة، فَصل امرأة حامل في الشهر الثامن، وزوجة صديق مقرَّب عبر رسالة من كلمتين: انتهى أمرك. فصل ساندرس المئات من وظائفهم، وتحمَّل أن تنعته امرأة يهودية بـ«الوغد بلا روح» عندما أغلقت سياسة توسُّع قهوة چيمي سلسلة مقاهيها الصغيرة التي تُقدِّم

(1) مجموعة جزر في المحيط الهادي. (المترجمة)

المشروبات والمأكولات الكوشير[1]. لهذا السبب تحديدًا عينته شركة چيمي، فقد احتاجوا إلى «حطاب»، وهو لديه أكثر بلطات الغابات حِدَّة. كان ساندرس في عشرينياته لا يسعى سوى للحب والسلام، وهو يحب أن يظن أنه ما زال كذلك، لكن مع مرور السنوات، تطوَّرت لديه محبة خاصَّة لطعم الدماء المالح. كان كالقهوة بالنسبة له؛ مذاقًا مُحبَّبًا.

توقَّف القطار لفترة أطول من اللازم حتَّى إنه أخفض الجريدة ونظر إلى الرصيف مرَّة أخرى. لأول مرَّة منذ ركب من محطَّة أيوستن شعر بالضيق من نفسه. كان الأفضل أن يستأجر سيارة لعينة. ركوب القطار كان قرارًا عاطفيًّا مفاجئًا. لم يكن قد زار إنجلترا منذ تخرُّجه في الجامعة، كان قد أمضى أسبوعين في المملكة المتحدة كبداية لجولته الطويلة التي انتهت به عند كومة أحجار متحلِّلة فوق جبال كشمير. سافر إلى إنجلترا لأن البيتلز كانوا هناك. لولا البيتلز لكان قد انتحر في مراهقته بعدما هجر أبوه أمه. سافر رغبة في الشعور بوجود البيتلز بشكل ما، وطمعًا في أن يمَسَّ بيده جدران نادي كاڤِرن الموسيقي، كأن موسيقاهم قد سكنت أحجاره إلى الأبد. ركب القطار إلى الشمال متكوِّمًا على الأريكة، وقدماه معرَّضتان إلى الهواء البارد لساعات، وجسده ملتصق بفتاة من إدنبرة لم يكن يعرفها قبل بدء الرحلة، وكانت ترتدي بنطلون چينز أزرق. هامَ بها حبًّا في الوقت الذي مرَّ بهما حتَّى وصلا إلى ليڤربول. ربما كانت هذه هي أجمل ذكرى في حياته، وسبب اختياره السفر بالقطار الآن.

حاول ساندرس ألا يفكر فيما حدث بعدما نزل من القطار. افترق هو وفتاة إدنبرج على وعد باللقاء في نادي كاڤِرن في المساء. توقَّف ساندرس عند مطعم سمك وبطاطس، لكن السمك كان مدهننًا وفاسدًا، وأمضى الليلة يرتجف في الفندق، غارقًا في العرق، غير قادر على الحركة. ظل يشعر بتعب في المعدة في الأيام التالية، كأنه شرب قهوة داكنة مرَّة بكميات ضخمة، ولم يستطع الابتعاد عن الحمام مسافات كبيرة، ولا إبعاد فكرة أنه أضاع فرصة الحصول على شيء مميَّز للغاية. حين وصل أخيرًا إلى نادي كاڤِرن في الليلة التالية، لم يجد فتاة إيدنبرج -بالطبع لم تكن هناك- ووجد الفرقة تعزف

(1) الطعام الحلال المناسب لشريعة اليهود. (المترجمة)

موسيقى ديسكو سخيفة. لم يُنشأ فرع قهوة چيمي على أنقاض مطعم السمك والبطاطس، لكن يحلو لساندرس أن يؤمن بهذا.

أضيء رصيف المحطَّة بمصابيح الفلورسنت، فعجز عن رؤية أي شيء من العالم خلفه. بدا له كأن القطار مكث مكانه طويلًا رغم أن القطار لم يكن ساكنًا، بل يتأرجح على عجلاته الحديدية كأن أحدًا يشحن حمولات ثقيلة في عرباته الخلفية. سمع صوتًا يصيح من مسافة: توقَّف! كفى! تخيَّل ساندرس أن أحدًا يحاول إدخال خزانة كبيرة إلى متن القطار والحارس يمنعه؛ هذا ليس قطار شحن. فكَّر ساندرس في أن يذهب إلى مؤخِّرة عربته ليتبيَّن الأمر، لكن القطار تحرَّك إلى الأمام مصدرًا صوتًا عاليًا، ثمَّ اتجه إلى خارج المحطَّة في لحظة سماع ساندرس لصوت باب الدرجة الأولى من خلفه يُفتح.

حسنًا.. لا بُدَّ أنه هو. هكذا ظن ساندرس شاعرًا بالرضا. هذا هو المُتظاهر. لم ينظر ساندرس خلفه ليتأكد، ولم يحتج إلى ذلك؛ عندما نظر إلى النافذة عبر المحطَّة رأى انعكاس الرجل، مشوَّشًا غير واضح، لكنه تبيَّن الرجل الطويل ذا أذني الكلاب المُدبَّبة. أخفض ساندرس عينيه إلى جريدته وتظاهر بأنه يقرأ. أي شخص يرتدي زيًّا غريبًا مثل هذا يتوق إلى أن يُلاحَظ ويأمل في أي رد فعل، لكن ساندرس لم يكن ينوي أن يُرضيه بأي رد فعل.

سار راكب الدرجة الأولى الجديد بين صفوف المقاعد، أنفاسه ثقيلة مكتومة. ماذا تتوقَّع من رجل يتنفَّس داخل قناع مطاطي؟ في اللحظة الأخيرة فطن ساندرس إلى خطورة الركوب في المقعد الملاصق للنافذة. المقعد جواره خالٍ كأنه دعوة مفتوحة. فكَّر في أن يتحرَّك، ينقل مؤخِّرته إلى المقعد المجاور، لكن لا.. سيلاحظ المُتظاهر أن حركة كهذه تعني الخنوع، فمكث ساندرس مكانه.

اتخذ المُتظاهر المقعد المجاور في ثقة، مرتميًا عليه وهو يزفر زفرة رضا. نوى ساندرس ألا ينظر جواره، لكن مجال بصره الجانبي امتلأ بالتفاصيل؛ قناع ذئب يغطِّي الرأس كله، قفَّازان من الفراء، ذيل أشعث يتحكَّم فيه من خلال سلك داخلي على الأرجح لأنه مال جانبًا حين جلس. زفر ساندرس من بين أسنانه وأدرك لأول مرَّة أنه كان يُكشر عن أنيابه، وهي حركة يفعلها كلما اقترب من شجار أو نوى ذلك. قالت زوجته الأولى إن هذه الإيماءة تجعله

يشبه چاك نيكلسون وهو يطوِّح بلطته في ذاك الفيلم[1]. كانت تناديه بلقب «الحطاب» أيضًا.. خصوصًا في أواخر أيامهما معًا حين صارت مُتطلِّبة لا يعجبها شيء.

تململ المُتظاهر في مقعده، محاولًا أين يجد وضعية مريحة أكثر، فلمست يده المغطاة بالفراء ذراع ساندرس. أثارت اللمسة غضب ساندرس المُستعد للانطلاق. طوى صحيفته وفتح فمه ليخبر الرجل اللعين أن يُبعد مخالبه عنه.. لكن أنفاسه اختنقت في صدره، وشعر أن رئتيه تتقلَّصان. حدَّق، وعجز عن فهم ما يراه. حاول أن يرى المُتظاهر ذا قناع الذئب الذي يرتدي معطفًا بُنِّيًّا. أصر على ذلك للحظات، محاولًا أن يفرض صورة التفسير المنطقي في عقله على الصورة اللامنطقية الواقعية الجالسة جواره. لكن مَن جواره لم يكن المُتظاهِر، ولا يمكن لأي قوة في العالم أن تجعله المُتظاهر.

هناك ذئب جالس إلى جواره.

وإن لم يكن ذئبًا فهو كائن أقرب للذئب منه إلى الإنسان. جسده بالكاد جسد رجل، صدره عريض ينتهي من أسفل بخصر ضيق للغاية. كفَّاه ذاتا مخالب وشعر رمادي ينبت من جلدهما، ويحمل نسخة من جريدة التايمز الاقتصادية هو الآخر، ويقلب الصفحات بمخالبه المصفرَّة فيصدر صوت احتكاك سخيف. أنفه المدفون -حرفيًّا- وسط الفراء عبارة عن خطم طويل بأنف أسود، يبرز أسفله نابان مُصفرَّان. أُذناه بارزتان مغطاتان بالفراء، وقبعته مُثبتة بينهما. دارت واحدة من الأذنين نحو ساندرس، كأنها طبق استقبال يبحث عن إشارة.

لم ينظر الذئب إليه مباشرة وظل خلف جريدته، لكنه مال نحوه وقال بصوت أجش غليظ: «ليتهم يحضرون عربة الغداء. أتوق إلى «عضَّة» طعام. متوقَّع طبعًا أن تدفع أضعاف مقابل طبق من طعام الكلاب البارد، ولا يسعك الاعتراض».

أنفاسه نتنة كأنفاس كلب. غرق إبطا ساندرس وجبينه بالعرق الحار الذي لا يشبه في شيء عرق الرياضة العنيفة. تخيَّل هذا العرق أصفر، كيميائيًّا حارقًا، يسيل على جانبي جسده.

---

(1) The shining فيلم عن رواية لستيفن كينج من إخراج ستانلي كوبريك. (المترجمة)

تجعد خطم الذئب، وتراجعت شفتاه السوداوان مُبرزتين أنيابه وقواطعه الحادَّة. تثاءب كاشفًا عن لسان أحمر كلبي يؤكد لساندرس -الذي لم يكن يشك الآن- في أن المخلوق جواره حقيقي وكما يبدو. جاهد ساندرس نفسه طيلة اللحظات التالية كي لا يصرخ صرخة رعب. الأمر أشبه بمحاولة كتم عطسة. أحيانًا يمكنك كتمها، وأحيانًا تعجز عن ذلك. ابتلع صرخته بينما يسأل الذئب: «هل أنت أمريكي؟».

لا تُجِب! لا تتحدَّث! ردَّدها ساندرس لنفسه بصوت مرتعب، ثمَّ أجاب بصوت واثق، فسمع نفسه يقول ضاحكًا: «أها! كشفتني! هلا أفسحت لي الطريق لأذهب إلى دورة المياه؟».

رفع جسده عن المقعد وهو يتكلَّم. كان هو والذئب جالسَيْن على مقعدين أمام طاولة مُبقَّعة من خشب الفورميكا، ولم يكن قادرًا على الوقوف بشكل كامل.

قال الذئب بلكنة أهل ليڤربول: «لا بأس».

دار ذئب الأعمال في مقعده ليسمح بمرور ساندرس الذي عبر إلى الممر، تاركًا خلفه حقيبته ومعطفه باهظ الثمن. حاول ألا يمَسَّ الكائن بأي شكل، لكن هذا مستحيل؛ لم يكن هناك متسع كافٍ ليمُرَّ دون أن يحتك برُكبتي الذئب. تلامست سيقانهما، فأجفل ساندرس وتداعت إلى ذاكرته ذكرى من صف الأحياء في الصف الثالث، حين كان يمسك أعصاب الضفدع على طبق التشريح بملقاط، فيجفل الضفدع وتركل ساقه. كان الأمر مثل هذا تمامًا. استطاع أن يُبعد الخوف عن صوته، لكنه فشل عن إبعاده عن جسده. آمن ساندرس أن إيماءة خوف تلو الأخرى ستدفع الذئب للهجوم ردًّا على خوفه بغَرْز أنيابه في خاصرته، وإخراج محتويات بطنه كأنما يُخرج البذور من داخل يقطينة.

لكن الذئب في البذلة الأنيقة لم يُعلق، وأبعد ساقيه أكثر ليتيح لساندرس مكانًا أوسع.

بمجرَّد أن خرج ساندرس إلى الممر، تحكَّم في خطواته كي لا يجري. أول جزء من خطته هو الوصول إلى أشخاص آخرين، لكنه لم يفكر في الخطوة التالية من الخطة بعد. أبقى عينيه مثبتَّتَيْن إلى ما أمامه، ونظَّم تنفُّسه بالضبط كما تعلَّم في كشمير. شهيق بطيء، ثمَّ زفير نظيف عبر أنفه. *لن يقتلني ذئب*

ثمَّ *يأكلني في قطار إنجليزي*. الخاطر واضح مباشر. مثله كمثل البيتلز، ذهب إلى الهند شابًّا، بحثًا عن معنى لحياته ثمَّ عاد من دون واحد. على مستوى اللاوعي، كان يعرف أنه لم يتوقَّف عن البحث عن المانترا؛ سببًا لحياته يحمل في طياته الأمل والقوة والمعنى. والآن هو في الحادية والستين ووجد معنى لحياته: *لن يقتلني ذئب ثمَّ يأكلني في قطار إنجليزي*.

زفير وشهيق مع كل خطوة نحو الباب. بعد ثماني خطوات وصل، ثمَّ ضغط الزرَّ الذي يفتح الباب المفضي إلى العربة التالية. تحوَّل الضوء حول الزر من الأصفر إلى الأخضر، ثمَّ انفتح الباب إلى الخارج.

أول ما رأى كانت الدماء. بصمة كفٍّ دامية على منتصف النافذة، ثمَّ أثر جرٍّ إلى الأسفل مخلِّفًا وراءه خطوطًا داكنة على الزجاج المقوى. آثار دماء أخرى رسمت لوحات مريعة على امتداد الممر والسقف.

رأى ساندرس الدماء قبل أن يرى الذئاب.. أربعة يجلس كلُّ اثنين منهم متجاورين.

زوجان على اليمين عند نهاية العربة، الذي يجلس منهما عند نهاية الممر يرتدي بذلة رياضية سوداء ذات خطوط زرقاء تشبه زي فريق كرة قدم، رجَّح ساندرس أنه فريق مانشستر يونايتِد. الذئب الجالس جوار النافذة يرتدي قميصًا أبيض مطبوعًا عليه إعلان عن ألبوم فريق فوينكس المُسمَّى «وُلفجانج أماديوس». يتبادل الذئبان شيئًا ملفوفًا في منديل، شيئًا بُنِّيًّا مستديرًا قرَّر ساندرس أنه فطائر مُحلاة بالشوكولاتة، وجاء قراره لدعم التفسير الوحيد الذي يستطيع تحمُّله.

أما الذئبان الآخران على اليسار فكانا أقرب لساندرس، يرتديان أزياء مماثلة للتي يرتديها ذئب الأعمال في الدرجة الأولى لكن أقل جودة. أحدهما يقرأ في جريدة -ليست التايمز الاقتصادية، إنما دايلي ميل، وتترك مخالبه عليها بقعًا حمراء. الفراء حول فمه ملطخ بالأحمر الذي يكاد يصل إلى عينيه.

يقول الذئب صاحب الجريدة: «كيت وينسلت انفصلت عن الممثل السخيف الذي مثَّل فيلم الجمال الأمريكي».

قال ذئب الأعمال الآخر: «لا تنظر إليَّ. لا صلة لي بما حدث».

ثمَّ ضحك الاثنان ضحكة كلابية لعوب.

كانت هناك راكبة أخرى في العربة، بشرية، ممدَّدة على جانبها على المقعد فلم يرَ منها سوى ساقها اليمنى في جورب مهترئ. هذه ساق جميلة، مغرية، شابة. لم يرَ وجهها ولم يرغب في ذلك. وجد فردة حذائها ساقطة في كومة من أمعائها وسط الممر. رأى ساندرس الأمعاء في النهاية، وخيط منها يمتد إلى حيث المرأة الراقدة.

تذكَّر كيف طال انتظارهم في محطَّة وُلڤيرتون، وكيف تأرجح القطار كأن حمولة ثقيلة تُنقل إلى متنه. تذكَّر صوت نحيب امرأة فسَّره على أنه ضحكة، وصوت صراخ الرجل: توقَّف*!* كفى*!* لقد سمع كل هذا كما يريد أن يسمعه، وعرف ما أراد معرفته.

لم يبدُ أن ذئب الأعمال قد لاحظه، لكنَّ الآخريْن في المقعد الخلفي لاحظاه. وكز صاحب القميص الأبيض ذراع ذي بذلة مانشستر يونايتِد، فنظرا إلى بعضهما ورفعا أنفيهما إلى أعلى.. يتشمَّمانه على ما يبدو.

قال واحد منهما -صاحب إعلان فوينكس- بصوتٍ عالٍ متهكِّم: «مهلًا يا صاح.. هل ستجلس في عربات الدرجات الأدنى؟ هل ستجالس الطبقة الكادحة؟».

ضحك ذئب مانشستر يونايتِد، وكان قد قضم للتَّوِّ قطعة من الفطيرة المحلاة التي يمسكها بمنديل. إلا أنها لم تكن فطيرة ولا ما يمسكها به منديل. ساندرس الآن مضطر إلى رؤية الأمور على حقيقتها، لا كما يتمنَّى. حياته تعتمد على هذا. لذا، فما يراه هو قطعة كبد في محرمة ملطَّخة بالدماء. محرمة نسائية ذات حوافٍ من الدانتيل.

وقف ساندرس عند عتبة الدرجة الأولى، عاجزًا عن اتخاذ خطوة واحدة، كأنه ساحر سيفقد أمانه إن تقدَّم خارج دائرة حمايته نحو الوحوش والشياطين خارجها. نسي كيف يتنفَّس، ونسي الشهيق والزفير الهادئ. لم يكن يشعر بشيء سوى تصلُّب عضلات صدره. كان يخشى التنفُّس كي لا يغشى عليه أو يموت.

انغلق الباب بين العربات ببطء، فرفع ذئب مانشستر يونايتِد عقيرته إلى أعلى وعوى.

ابتعد ساندرس عن الباب. لقد دفن أبويه وأخته التي ماتت في سنِّ التاسعة والعشرين، وحضر العشرات من جنازات حملة الأسهم ورأى رجالًا

يتهاوون ويموتون جرَّاء الأزمات القلبية، لكنه لم يرَ شيئًا مثل الأمعاء على الأرض وعربة القطار المدهونة بالدماء من الداخل. رغم ذلك لم يشعر بغثيان ولم يخرج منه أي صوت. كل ما شعر به هو تنميل في ذراعيه وبرودة في أصابعه. أراد أن يجلس.

باب الحمام عن يساره. حدَّق إليه بنظرات فارغة، ثمَّ ضغط الزرَّ فانفتح الباب. باغتته رائحة أدمعت عينيه. رائحة بشرية نتنة. لم يعبأ آخر رواد الحمام بضغط زرِّ طرد الفضلات. مناديل الحمام قذرة، مبلَّلة، ملتصقة بالأرضية، وتفيض سلة المهملات جوار الحوض بمحتوياتها. فكر في الدخول وغلق الباب خلفه، لكنه لم يتحرَّك، وحين انغلق الباب تلقائيًّا، كان في مكانه وسط الممر.

هذا الحمَّام الصغير تابوت نَتِن. لو دخل فلن يخرج وسيموت بالداخل مستغيثًا من الذئاب بالخارج. نهاية شنيعة وحيدة مقزِّزة، سيهجر بعدها الحياة وكرامته معها. لم يكن لديه تفسير لهذا بعد؛ كيف سيفتحون الباب إن كان سيوصده من الداخل؟ لكن كان يعرف أن هذا ما سيحدث. يعرفه كما يعرف تاريخ ميلاده ورقم هاتفه.

هاتفه.. أفضل ما يمكنه فعله هو الاتصال بأي شخص (*أنا في القطار مع مذؤوبين؟*) وإخباره أنه في خطر. غاصت يداه الباردتان الميتتان في جيبَيْ بنطاله وكان يعرف أن هاتفه ليس هناك. هاتفه في جيب معطفه باهظ الثمن من ماركة لندن فوج[1].

هاتفه ضاع في ضباب لندن.. وكأن كل شيء صار رمزيًّا أكثر من اللازم. عليه أن يعود ويعبر من أمام ذئب الأعمال كي يحصل عليه وهو أمر أكثر استحالة من الاختباء في دورة المياه.

لم يكن في جيبه شيء يستطيع استعماله. بضع ورقات بنكنوت، تذكرة القطار، خريطة السكة الحديد. الحطاب وحيد وسط الغابة المظلمة من دون بلطته، من دون مطواة صغيرة حتَّى، وكأن الأخيرة قد تفيده في شيء. تمكَّنت من ساندرس صورة عقلية لنفسه مُمدَّد على ظهره، والذئب ذو القبعة يمزِّق بطنه ورائحة أنفاسه النتنة تلفح وجه ساندرس، بينما هو يلوح في وجهه بالمطواة الصغيرة. شعر بضحكة تصارعه كي تخرج، فابتلعها وعرف

(1) ضباب لندن، شركة أمريكية لتصميم وتصنيع الملابس الفاخرة. (المترجمة)

أنه على شفا الذعر. جيبان خاويان، عقل خاوٍ.. لا، انتظر. الخريطة. أخرج الخريطة من جيبه وفضَّها واحتاج إلى جهد كبير كي يستعيد تركيزه. مهما كانت نقائصه، فساندرس لديه عزيمة قوية. بحث عن خط ليڤربول وتتبعه شمالًا من لندن عبر الطريق ليعرف المسافة الفاصلة بين محطَّة وُلڤيرتون والتي تليها.

فطن إلى أن محطَّة وُلڤيرتون عند ثلثي المسافة إلى ليڤربول، إلا أن اسمها لم يكن وُلڤيرتون على الخريطة بل وُلڤيرهامبتون. رمش بسرعة كأنه يحاول إخراج حصوة من عينيه. ظن أنه قد أخطأ قراءة اللافتة عند المحطَّة بينما كان مكتوب عليها طيلة الوقت وُلڤيرهامبتون، ممَّا يجعل المحطَّة التالية فوكسام. ربما توجد ثعالب في انتظاره هناك[1]. شعر بضحكة مذعورة خطرة أخرى تصعد في حلقة كحمض المعدة، فابتلعها. الضحك الآن في خطورة الصراخ.

وَجَبَ عليه أن يقنع نفسه بوجود بشر في فوكسام، وأنه إن غادر القطار وهرب ربما ينجو. على الخريطة تبعد فوكسام عن ولڤيرهامبتون نصف بوصة. القطار يكاد يصل إليها غالبًا، فهو يجري بسرعة تزيد على مائة ميل في الساعة لمدَّة ربع ساعة. همس الصوت في عقله: *كلا.. ليست ربع ساعة. أنت لاحظت أن الرجل جوارك ليس رجلًا على الإطلاق منذ ثلاث دقائق، وفوكسام ما زالت على بعد نصف ساعة. ستكون جثتك في درجة حرارة الغرفة حين تصل إلى هناك.* دار ساندرس على عقبيه دون وعي، عائدًا إلى حيث جاء. أدرك ساندرس أنه عبر جوار الذئب الذي يقرأ جريدة التايمز الاقتصادية، وعندما أبصر الشيء ذا وجه الذئب بجانب عينيه غاص قلبه في صدره وشعر بوخز قوي كأنه صار وسادة دبابيس. قال لنفسه إنه لم يعد شابًّا يصعب إصابته بنوبة قلبية. لم تُضِف إليه هذه الملحوظة شيئًا إيجابيًّا الآن.

تظاهر ساندرس أنه شارد في خريطته واستمر في السير نحو صف المقاعد التالية. رفع عينيه ورمش، ثمَّ جلس على مقعد على الجهة المقابلة من الممر. حاول أن يجعل تصرُّفه ناجمًا عن شرود كأنه نسي مكان مقعده وهو يبحث عن شيء على الخريطة. لم يصدق أن أداءه التمثيلي خدع ذئب الأعمال. سمعه يصدر صوتًا ذئبيًّا قد يعني التقزُّز والمرح في آن. إن لم يكن

---

(1) وُلفيرهامبتون تعني حرفيًّا (مزرعة الذئاب) إذ تعني هامبتون وحدها «مزرعة قرب النهر»، أما فوكسام فتعني حرفيًّا قرية الثعالب. (المترجمة)

يخدع أحدًا، فاستمراره في مسرحية الشرود في الخريطة لم تكن سوى فعل آمن بلا بديل. سأل ذئب الأعمال: «هل وجدت الحمام؟».

- وجدته مشغولًا.

- صحيح. أنت أمريكي.

- أعتقد أنك خمَّنت من اللهجة.

- عرفت من رائحتك، ولهجتك الجنوبية الكاليفورنية النيويوركية. رائحتكم جميعًا متماثلة.

جلس ساندرس ثابتًا، ينظر أمامه وسرعة نبضه تتزايد. *سيقتلني ذئب ويأكلني في قطار إنجليزي*. لاحظ أن المانترا لديه تحوَّلت في اللحظات الأخيرة من عبارة إنكار إلى عبارة تأكيد. وقت التظاهر قد ولَّى. طوى خريطته ودسَّها في جيبه.

سأله ساندرس: «كيف هي رائحتنا؟».

- كرائحة برجر الجبن.

نبح ضحكة طويلة، ثمَّ أضاف:

- ورائحة المُستحقات المالية.

تكرر الخاطر مرَّة أخرى في عقل ساندرس: *سيقتلني ذئب ويلتهمني في قطار إنجليزي*. وفي لحظة لم تعد العبارة مرعبة كما كانت. كانت مخيفة، لكنها ليست أسوأ من الجلوس كما يفعل والمراوغة حتَّى تقع الواقعة. قال ساندرس بصوت حانق مرتجف: «سحقًا لك! رائحتنا كرائحة المال، وهي رائحة أفضل بكثير من رائحة الكلب المُبلَّل».

لم يجرؤ على النظر نحو الذئب مباشرة، لكنه لمحه بجانب عينيه ورأى أذنيه المنتصبتين تدوران نحوه، ثمَّ ضحك ذئب الأعمال مرَّة أخرى وقال: «اعذرني. تعرَّضت محفظتي الاستثمارية إلى ضربات متتالية خلال الشهرين الماضيين بسبب زيادة الأسهم الأمريكية في البورصة. ضايقني هذا منكم ومن نفسي. تفاقم الوضع مع تورُّطي في الأمر كله كما تفاقم مع كل من في هذا البلد المنكوب».

سأل ساندرس: «أي أمر؟».

صاح عقله فيه مطالبًا بالصمت. *اخرس فمك الحقير! ماذا تفعل؟ لماذا تتحدَّث معه؟!*

إلا أن...

إلا أن القطار كان يُبطئ سرعته بشكل ملحوظ. في الظروف الطبيعية لم يكن ساندرس ليُلاحظ، لكن وضعه الحالي جعله ينتبه إلى التفاصيل كلها. هكذا يعمل عقلك حين يقاس ما تبقَّى من عمرك بالثواني. تُدرك أنفاسك وحرارتك وثقل الهواء حولك وتسمع انهمار المطر بالخارج.

استمر الليل في التحرُّك إلى الخلف من وراء النوافذ بينما القطار يبطئ أكثر، وتمنَّى ساندرس أن يكونوا قد اقتربوا من فوكسام، وأن الذئب فهم كلامه دون أن يتحسَّس منه ما دام يستمر في الحديث معه.

قال الذئب: «قصَّة الأمريكيين الخيالية. تعرف هذه القصَّة التي تُمنينا جميعًا بأن نكون مثلكم. كل ما نريد هو أن نكون مثلكم. نلوح بعصانا السحرية الأمريكية فوق البلدان المثيرة للشفقة ثمَّ.. ثمَّ يظهر مطعم ماكدونالدز هنا ومحل أوربان أوتفيترز هناك وتصير إنجلترا وطنًا.. وطنك أنت. أشعر بالإهانة لأنني صدَّقت هذا. تعرف أن شخصًا مثلي يوقن أن كل هذا وهم.. يمكن أن يرتدي الذئب قميص ديزني لاند مع ذلك يظل ذئبًا».

نظر ساندرس عبر النافذة فرأى بلدة صغيرة، نوافذ منازلها البيضاء مُضاءة والريح تتلاعب بالأشجار فتتأرجح وتخمش بمخالبها السماء. حتَّى الأشجار في إنجلترا مختلفة. الأنواع نفسها التي قد تجدها في الولايات المتحدة لكنها أكثر ضخامة وميلًا كأن الريح العاتية المستمرة نحتتها بهذا الشكل.

قال ساندرس وقد شعر بانفصال عن ذاته وعن صوته الخاص: «كل مَن في العربة التالية ماتوا».

نخر الذئب. فأردف ساندرس: «لماذا لم أُقتَل؟».

لم ينظر الذئب نحوه كأنه فقد الاهتمام بالحوار، لكنه قال: «هذه هي الدرجة الأولى. إن لم تجد المعاملة المُتحضِّرة هنا فأين تجدها؟ إضافة إلى أنني أرتدي ملابس فاخرة من ڤيڤيز أند هوكس. البذلة كلفتني خمسمائة جنيه إسترليني ولا يصحُّ أن ألطخها. ثمَّ ما الفكرة من الركوب في عربة الدرجة الأولى إن كنت ستبحث عن طعامك بنفسك؟ هم يحضرون لنا طعامنا على عربة».

قلب الصفحة ثمَّ أضاف: «على الأقل المفترض أن يفعلوا هذا. لقد تأخَّروا كثيرًا، أليس كذلك؟».

صمت هُنيهة ثمَّ أردف: «اعذرني. لقد ذكرت التحضُّر في حديثي، وأود أن أضيف أن الحفاظ على التحضُّر صعب بينما المرء جائع».

قال عامِل القطار شيئًا بصوت ذئبي عبر مكبِّرات الصوت، لكن ساندرس لم يتبيَّن ما هو مع انتباهه لما يقول مرافقه الذئب وارتفاع صوت هدير الدماء في أذنيه. لم يكن في حاجة لسماع صوت العامل على أية حال لأنه كان يعرف ماذا يقول. لقد وصلوا إلى المحطَّة أخيرًا والقطار يتباطأ حتَّى يكاد يتوقَّف. قبض ساندرس على ظهر المقعد أمامه ونهض واقفًا. لمح المحطَّة بالخارج والساعة العتيقة هناك، فسار بخفَّة نحو مقدِّمة العربة.

ضحك الذئب وقال: «ألا تريد معطفك؟ تعالَ وخذه».

أكمل ساندرس طريقه حتَّى وصل إلى الباب عند نهاية العربة ثمَّ ضغط زرَّ الفتح. نبح الذئب ضحكة أخيرة من خلف ظهر ساندرس، فنظر الأخير من فوق كتفه وقد انتصر عليه الفضول. اختفى ذئب الأعمال خلف جريدته مرَّة أخرى وقال بصوت يجمع الإحباط والرضا: «انخفضت قيمة أسهم شركة مايكروسوفت، وانخفضت أسهم شركة نايكي. هذا ليس ركودًا، هذا هو الواقع. أنتم توجدون القيمة الحقيقية لما تصنعون: أحذيتكم، برامج حواسيبكم، قهوتكم، أساطيركم. يكتشف شعبكم الآن معنى أن تغوصوا في عمق الغابة المظلمة اللانهائية».

ثمَّ خرج ساندرس من الباب إلى رصيف المحطَّة. كان يظن أن السماء تمطر، لكن ما ينهمر كان أقرب إلى رذاذ بارد معلَّق في الهواء. مخرج المحطَّة عند الجهة الأخرى من الرصيف، درجات تُفضي إلى الشارع بالأسفل.

خطا خمس خطوات قبل أن يسمع صوت ثرثرة مختلطة بنباح، نظر خلفه فرأى ذئبين يترجَّلان من العربة. ليسا من الذئاب التي ترتدي البذلات، بل الاثنان اللذان يرتديان قميص وُلفجانج أماديوس وبذلة مانشستر يونايتِد. ضرب الأخير رفيقه على كتفه ثمَّ رفع خطمه نحو ساندرس.

جرى ساندرس. كان سريعًا في أيام مراهقته، لكن هذا كان في زمن غابر. لم يحتج إلى أن ينظر خلفه ليعرف أنهما يتبعانه بما يفوق سرعته. وصل إلى الدرج فنزله سريعًا كأنه يسقط سقوطًا مُتحكَّمًا فيه. صعدت

أنفاسه المتدافعة إلى حنجرته، وسمع صوت واحد من الذئبين يزمجر عند رأس الدَّرج (*هل يُعقل أن يكونا عند رأس الدَّرج بهذه السرعة؟! كل شيء ممكن*) عند نهاية الدَّرج صف بوابات خلفها الشارع، وعند الرصيف سيارة أجرة إنجليزية سوداء خارجة من أفلام هيتشكوك تنتظر. اختار ساندرس بوابة وهرع إليها. البوابات عبارة عن تقسيمات من المعدن اللامع، بين كل بوابة والأخرى حاجز من الزجاج الواقي بارتفاع الخصر. المفترض أن تُدخِل تذكرتك في فتحة جهاز العبور لتنفتح البوابة، لكن ساندرس لن يجرب حظَّه، فقفز مباشرة من فوق الحاجز وارتطم بالأرض عند الجهة الأخرى. تمدَّد على بطنه فوق الأرضية المبلَّلة بماء المطر للحظات ثمَّ قام سريعًا. لم يتخيَّل في حياته أنه سيتعافى من سقطة بهذه السرعة.

صاح أحد من خلفه وفطن إلى أنه حارس البوابة الذي من مهامه التأكد من استخدام التذاكر في العبور. رآه بركن عينيه، رجلًا يرتدي سترة برتقالية بلا أكمام، شعره ولحيته أبيضين. لم يتلفت إليه ساندرس وأكمل طريقه وقد خطرت على باله طُرفة عن شابَّين في الغابة يهربان من دُب. انحنى أحدهما يربط رباط حذائه، فقال له الآخر: لماذا تربط رباط حذائك؟ لن تسبق الدُّبَّ أبدًا. فقال الأول: لا أريد أن أسبق الدُّبَّ، أريد أن أسبقك أنت.

مضحكة للغاية. سيُذكِّر ساندرس نفسه لاحقًا أن يضحك عليها. رمى نفسه على السيارة الأخرى وتحسَّس هيكلها سريعًا بحثًا عن مقبض بابها، ففتحه، ثمَّ هوى جالسًا على الأريكة الجلدية في الخلف. صاح في السائق: «هيا! بسرعة!».

قال السائق بلكنة غربية ثقيلة: «إلى أين يا س...».

- البلدة. لا أعرف بعد، لكن المهم انطلق الآن.

- كما تشاء.

وانطلقت السيارة نحو البلدة. استدار ساندرس في مقعده لينظر إلى الخلف ويرى الذئبين قد توقَّفا عند البوابة، يحاصران الحارس. لم يفهم ساندرس سبب وقوف الحارس مكانه بهذا الشكل بدلًا عن الهرب. لماذا لم يهاجماه؟ ابتعدت به السيارة عن المحطَّة وانعطفت عند الزاوية قبل أن يتبيَّن ما سيحدث تاليًا.

جلس في الظلام يتنفَّس بسرعة وصعوبة، ساقاه ترتجفان وعضلة فخذه الخلفية تتقلَّص وترتعش. لم يخف بالقدر الكافي حين كان على متن القطار، لكن وقت الخوف حان الآن. قطعت السيارة الأجرة الطريق، مرورًا بالمنازل المُضاءة والأسوار. تحسَّست يد ساندرس جيبه بحثًا عن هاتف لم يعد معه. قال كأنه يتحدَّث إلى نفسه: «الهاتف.. الهاتف اللعين».

سأله السائق: «هل تريد هاتفًا؟ متأكد أن هناك هاتفًا في المحطَّة».

نظر ساندرس وسط ظلام السيارة إلى رأس السائق. رجل ضخم هو ذو شعر أسود طويل يختفي طوله تحت ياقة معطفه.

- لم يكن لديَّ وقت لإجراء مكالمة من هناك. خذني إلى أقرب مكان عام به هاتف.. مكان غير المحطَّة.

- ثمَّة هاتف في «أذرع العائلة». لا يبعد عن هنا كثيرًا.

سأل ساندرس بصوت مراهق مبحوح: «أذرع العائلة؟ ما هذا المكان؟ حانة؟».

- الأفضل في البلدة، كذلك هي الحانة الوحيدة. إن كنت أعرف أنك تريد الذهاب إليها ما سمحت لك بالركوب. هي على مسافة خطوات والأسهل السير إليها من المحطَّة.

- سأدفع لك ثلاثة أضعاف أجرتك. لديَّ مال كثير. أنا أغنى مَن ركب هذه السيارة اللعينة.

قال السائق: «أليس هذا يوم سَعدي؟ أخبرني إذَنْ، ماذا حدث لسائقك الخاص؟».

- ماذا؟

لم يفهم ساندرس السؤال، والحقيقة أنه كان مُشتَّتًا فلم يعره اهتمامًا. كانا قد وصلا إلى مكانٍ مُضيء ونظر ساندرس عبر النافذة فرأى مُراهقَيْن يتعانقان عند الزاوية، ومعهما كلبان يحرِّكان ذيليهما في حماس في انتظار أن يفرغا من العناق والتقبيل. ثمَّة مشكلة في المراهقَيْن... تحرَّكت السيارة مرَّة أخرى قبل أن يفهم ساندرس سبب تعجُّبه. الذيلان المُتأرجحان من جهة إلى جهة.. لم يَر ساندرس تفاصيل الكلبين معهما، وليس واثقًا من أن هناك كلابًا من الأساس.

سألساندرس: «أين نحن؟ في فوكسام؟».

- لسنا في أي مكان قرب فوكسام يا سيدي. نحن في وُلڤيرتون العليا. هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليها لأن اسم «اللامكان» مُريب قليلًا. عند حافة عالم مجهول تحديدًا.

أبطأ السيارة حتَّى أوقفها عند الرصيف. ثمَّة حانة ذات نوافذ زجاجية ضخمة بدت كمربعات ذهبية وسط الظلام. حتَّى من مكانه في السيارة استطاع ساندرس أن يسمع الضوضاء بالداخل، وهي أقرب إلى ضوضاء ملجأ حيوانات.

وقفت مجموعة أشخاص تحت اللافتة الخشبية المُعلقة على عمود حجري جوار الباب، محفور عليها رسم لذئاب جاثمة حول طاولة، في منتصفها طبق ضخم يحوي كومة من الأذرع البشرية.

قال السائق وهو ينظر إلى الخلف: «ها قد وصلنا».

قرَّب وجهه أكثر من الحاجز الزجاجي بين الكابينة الأمامية والمقعد الخلفي، ثمَّ زفر من خطمه الأسود بخارًا وهو يضيف: «يمكنك أن تستخدم الهاتف هنا، لكنني أخشى أنك ستضطر إلى الخوض وسط الحشد».

ثمَّ أصدر صوتًا اعتبره ساندرس ضحكة، لكنه أقرب إلى صوت سعال كلب يحاول إخراج كرة شعر من حلقه. لم يرد ساندرس وظل يحدِّق إلى الواقفين خارج حانة «أذرع العائلة». حدَّقوا إليه واقترب بعضهم من السيارة. قرَّر ساندرس ألا يصدر أي صوت وهم يُخرجونه من السيارة. تعلم في كشمير طريق الحفاظ على الهدوء والتزام الصمت ليبدو أقوى. عليه فقط أن يتماسك لدقيقة أو دقيقة ونصف ثمَّ سينتهي كل شيء.

قال السائق: «مكان عائلي ظريف. يقدمون عشاءً جيدًا هنا. حقًّا يفعلون. أتعرف شيئًا يا زميل؟ أعتقد أن وقت العشاء قد حان».

جوار مياه بحيرة تشامبلين الفضية

أصدرت الآلية صوت «كلانك - كلانك» وسط صمت حجرة النوم، ثمَّ وقفت تحدِّق إلى البشريين.

تثاءبت البشرية ثمَّ انقلبت على جانبها ووضعت وسادة فوق رأسها. قال البشري هو يلعق شفتيه: «جيل، حبيبتي. الأم تعاني صداعًا. هل يمكنك أن تبعدي الضوضاء عنها؟».

- يمكنني أن أوفر كوب قهوة مُنشِّطًا.

قالتها الآلية بصوت محايد بلا عواطف. فقالت الأنثى: «اطلب منها أن تخرج يا ريموند. رأسي سينفجر».

- ارحلي يا جيل. ألا تدركين أن الأم ليست كما نعهدها؟

قالت الآلية: «أنت مخطئ. لقد مسحت مؤشراتها الحيوية، وتعرَّفت عليها على أنها سليڤيا لندن. الأم هي نفسها، كما نعهدها».

أمالت الآلية رأسها في فضول، منتظرة المزيد من المعلومات. سقط الإبريق المعدني من فوق رأسها، فارتطم بالأرض مُحدثًا جلبة.

قامت الأم صارخة صرخة تعسة مكروبة غير بشرية بلا أي كلمات، أفزعت الآلية حتَّى إنها نسيت للحظات أنها آلية وعادت جيل، مجرَّد جيل الطفلة. حملت إبريقها من على الأرض وانطلقت إلى الأمان النسبي في الردهة.

تلصَّصت على الحجرة لترى الأم ما زالت راقدة، تضع الوسادة على رأسها مرَّة أخرى.

ابتسم ريموند في الظلام إلى ابنته، ثمَّ همس وهو يغمز بعينه: «ربما تستطيع الآلية ابتكار مضاد لتسمُّم الكحول».

غمزت الآلية.

لفترة عكفت الآلية على ابتكار مضاد سموم قادر على تنظيف جسد سيلڤيا لندن من الكحول. قلبت الآلية عصير الليمون والبرتقال ومكعَّبات الثلج والزبد والسكر وصابون جلي الأطباق في كوب القهوة. النتيجة النهائية أسفرت عن سائل ذي رغوة بلون أخضر خارج من أفلام الخيال العلمي، يوحي بهلام سكان كوكب الزهرة والإشعاع.

رأت جيل أن مضاد السموم مرافق جيد لبعض الخبز والمربى. إلا أن خطأً برمجيًّا وقع واحترق الخبز.. أو ربما أسلاكها هي التي تحترق فتمنعها من تنفيذ مهامها اليومية امتثالًا لقوانين أزيموڤ[1].

بدأت وظائف جيل تختل مع احتراق رقائقها الإلكترونية بداخلها. اصطدمت بالمقاعد وتعثَّرت في الطاولات، وأسقطت كتب الطهي عن أرفف المطبخ. الأمر مريع، لكنها لا تستطيع التحكُّم في نفسها.

لم تسمع جيل أمها تهرع خلفها، ولم تعلم بوجودها إلا عندما حملت سيلڤيا الإبريق عن قمة رأسها وطوَّحته نحو الحوض هي تصرخ: «ماذا تفعلين؟ ماذا

---

(1) إيزاك أزيموف: كاتب أمريكي تخصص في كتب وروايات الخيال العلمي.

قوانين أزيموف هي القوانين التي وضعها الكاتب في قصته القصيرة «الهارب» وهي كالتالي:

1 - لا يؤذي الآلي بشريًا، لا يسمح لبشري بالتعرُّض لأذى.

2 - يطيع الآلي أوامر البشر، إلا تلك التي تتعارض مع القانون الأول.

3 - يحمي الآلي وجوده ما لم تتعارض هذه الحماية مع القانونين السابقين. (المترجمة)

تفعلين بحق الرب؟ لو سمعت شيئًا آخر يتحطَّم سأكسر رأس أحدهم. ربما رأسي أنا».

لم تقل جيل شيئًا ظنًّا منها أن الصمت أفضل.

- اخرجي من هنا قبل أن تحرقي المنزل... المطبخ في حالة يرثى لها، واحترق الخبز و.. ماذا صببت في هذا الكوب اللعين؟

قالت جيل: «سأعالجك».

غمغمت أمها: «لا علاج لي. أتمنَّى لو كان لي ولد واحد. الأولاد أكثر هدوءًا. أنتن أربع فتيات، كأنكن شجرة تعجُّ بالعصافير المزعجة».

- بِن كواريل ليس هادئًا ولا يتوقَّف عن الثرثرة.

- الأفضل أن تخرجي. اخرجوا جميعًا. لا أريد أن أسمع أصواتكن مرَّة أخرى حتَّى أنهي إفطاري.

تحرَّكت جيل نحو حجرة المعيشة، فقالت لها أمها: «اخلعي هذه الأصص عن قدميكِ».

ثمَّ مدَّت يدها إلى علبة السجائر عند إفريز النافذة. أخرجت جيل قدمًا ثمَّ الأخرى من الإصيصين اللذين تنتعلهما على سبيل الحذاء.

جلست هيثر إلى طاولة العشاء مُنكبَّة على جهاز الرسم اللوحي، أما التوأمتان ميريام وميندي فتلعبان لعبة العربة: تمسك ميندي قدمي ميريام وتدفعها أمامها عبر الحجرة كأنها عربة جرٍّ بينما ميريام تحبو على ذراعيها.

نظرت جيل من فوق كتف هيثر إلى ما ترسمه أختها الكبرى، ثمَّ أمسكت مِشكالها[1] ونظرت عبره لكن الوضع لم يتحسَّن.

أخفضت مشكالها وقالت: «هل تريدينني أنا أساعدك في الرسم؟ يمكنني أن أعلمك كيفية رسم أنف قط».

- هذا ليس قط.

- أوه، وما هو إذَنْ؟

(1) Kleidoscope أنبوب مرايا يحتوي على خرز ملون وحصى وغيرها من الأجسام الملونة ويدخل الضوء منعكسًا من طرف المشكال على هذه الألوان والمرايا ممَّا يمكن المشاهد من رؤية تشكيلات ملونة هندسية. (المترجمة)

- حصان صغير.

- ولماذا هو وردي؟

- أحب خيولي وردية. لا بُدَّ أن هناك خيولًا وردية، فهي أفضل من تلك بالألوان العادية.

- لم أر حصانًا بأذنين كهاتين. الأفضل أن ترسمي له شوارب وتجعليه قطًّا.

سحقت هيثر لوحتها بيد واحدة ووقفت سريعًا حتَّى إنها أسقطت المقعد خلفها.

في اللحظة نفسها، دفعت ميندي أختها كالعربة نحو منضدة قهوة صغيرة. صرخت ميريام وأمسكت رأسها، فأسقطت ميندي ساقيها فهوت ميريام بجسدها كاملًا على الأرض وارتجَّ البيت كله.

جاءهن صراخ أمهن من المطبخ: «اللعنة عليكن! هلا توقَّفتن عن إسقاط الأشياء على الأرض؟ لماذا تدفعن المقاعد اللعينة هكذا؟ ماذا أفعل كي تتوقَّفن؟».

قالت جيل: «هيثر فعلتها..»..

وقالت هيثر: «لم أفعل شيئًا، جيل السبب».

لم يبدُ لها ما قالت كذبًا؛ تسبَّبت جيل -بشكل ما- في هذا باستفزازها وجهلها.

انتحبت ميريام ممسكة رأسها، وأمسكت ميندي كتابًا عن الأرنب بيتر وحدَّقت إليه، تقلِّب صفحاته في شرود. جذبت الأم هيثر من كتفيها وضغطت عليهما حتَّى ابيضت مفاصل أصابعها.

- اخرجن جميعكن. خذي أخواتك واذهبن إلى البحيرة ولا تعدن إلا حين أناديكن.

تدفَّقن إلى الباحة الأمامية؛ ميريام وهيثر وجيل وميندي، وقد كفَّت ميريام عن البكاء في اللحظة التي عادت فيها أمهن إلى المطبخ. أمرت الأخت الكبرى هيثر أختيها ميريام وميندي بالجلوس واللعب بالرمال.

سألت جيل: «وماذا أفعل أنا؟».

- أغرِقي نفسك في البحيرة.

قالت جيل وهي تنطلق نحو البحيرة: «هذا يبدو ممتعًا».

وقفت ميريام وسط الرمال تحمل مجرفة صغيرة من الصفيح وتنظر إلى أختها إذ تبتعد، أما ميندي فكانت قد دفنت ساقيها بالفعل في الرمال.

الوقت مبكر والجو بارد، الضباب يعلو سطح البحيرة والماء يبدو كمعدن لامع. وقفت جيل جوار مرفأ أبيها وقارب أبيها تشاهد البخار يتحرَّك ويتلوَّى بفعل الهواء، كأنها تشاهده عبر مشكال ممتلئ بالزجاج الرمادي. مشكالها معها، في أحد جيبي فستانها. في يوم من أيام الصيف تستطيع جيل أن ترى المنحدرات الخضراء على الجهة الأخرى من الماء، والشاطئ الصخري عند الشمال، والممتد حتَّى كندا، لكنها الآن لا ترى أبعد من مسافة عشرة أقدام أمامها.

تبعت الشاطئ الرفيع متجهة نحو منزل آل كواريل الصيفي. لم يكن عرض الشاطئ أكثر من ياردة من الصخور والرمال بين الماء والمنحدر، ربما المسافة أقل في عدَّة مواضع.

انعكس لمعان الضوء على شيء، فانحنت جيل لتتبيَّن أنه قطعة زجاج خضراء صقلتها رمال البحيرة. إما أنها شظية زجاج خضراء وإما حجر زمرد. ثمَّ اكتشفت ملعقة فضية بعد قدمين. رفعت جيل رأسها مرَّة أخرى ونظرت نحو سطح البحيرة الفضي. خطر على بالها أن سفينة غرقت، أو زورق شخص ما، على مقربة من الشاطئ، ووجدت هي الكنز الذي جرفه المد. ملعقة وزمرُّدة.. هذه مصادفة لا تُصدَّق.

أخفضت رأسها وأكملت سيرها ببطء أكثر باحثة عن المزيد من الكنوز. بعد عدَّة خطوات وجدت مجسم راعي بقر من الصفيح يمسك بأنشوطة. ارتعد جسدها سعادة وحزنًا في آن؛ لقد كان هناك طفل على متن السفينة الغارقة.

قالت وهي تنظر في حزن إلى الماء: «لا بُدَّ أنه ميت الآن. بل غارق».

تمنَّت لو أن معها زهرة صفراء لتُلقيها في الماء. أكملت جيل سيرها لكن سرعان ما توقَّفت حين سمعت صوتًا من ناحية البحيرة. صوتًا منخفضًا حزينًا كصافرة الضباب، لكنه لم يكن كذلك.

توقَّفت تلقي نظرة أخرى.

رائحة الضباب تفوح بالنتن.

لم يتكرَّر صوت صافرة الضباب مرَّة أخرى.

أمامها رأت جلمودًا ضخمًا مرتفعًا عن صفحة الماء الضحل أمامها، أغلب كتلته فوق رمال الشاطئ. ثمَّة شبكة تلفه. بعد لحظة تردُّد جذبت جيل الشبكة وتسلَّقت الجلمود. كان جلمودًا هائلًا أطول منها. غريب أنها لم تلحظه من قبل، لكن الأشياء تبدو مختلفة وسط الضباب.

وقفت جيل فوق الصخرة العالية الطويلة، المنحدرة عن اليمين، والملتوية حول نفسها نحو الماء على اليسار. بدت كأنها سور حجري يفصل بين المياه والرمال.

نظرت نحو البحيرة بحثًا عن سفينة الإنقاذ التي قد تصل في أي لحظة بحثًا عن ناجين. ربما لم يفُت وقت إنقاذ الطفل. رفعت المشكال إلى عينها، متعشِّمة في خواصه السحرية في اختراق الضباب وكشف مكان القارب.

قال أحد خلفها: «ماذا تفعلين؟».

نظرت جيل من فوق كتفها فرأت چويل وبِن كواريل حافيين. يبدو بِن كواريل نسخة أصغر عن أخيه، وكلاهما بشعر أسود وأعين داكنة مع وجهين متماثلين. أحبتهما بالقدر نفسه، لكن بِن لديه هواية غريبة هي التظاهر بأنه يحترق، ثمَّ يرمي نفسه على الأرض ويتدحرج ويصرخ حتَّى يأتي مَن يُسكته. يحب چويل التحديات لكنه لا يتحدَّى أحدًا فيما لا يستطيع هو فعله. في مرَّة تحدَّى جيل أن تدع عنكبوتًا يزحف على وجهها، وحين رفضت فعلها هو، بل وأخرج لسانه ليدع العنكبوت يسير عليه. خشيت أن يأكله لكنه لم يفعل. لم يحب چويل الثرثرة حول إنجازاته مهما عظمت.

افترضت جيل أنهما سيتزوَّجان في يوم. سألت چويل إن كان سيود ذلك، فهز كتفيه وقال «لا بأس». كان هذا في يونيو ولم يتحدَّثا عن خطبتهما منذ وقتها. أحيانًا تشعر أنه قد نسي.

سألته: «ماذا حدث لعينك؟».

لمس چويل عينه المحاطة ببقعة زرقاء متورمة وقال: «كنت ألعب لعبة «مُتهوِّرو السماء» وسقطت من فوق الفراش».

أومأ تجاه البحيرة وسألها: «ماذا هناك؟».

- سفينة غرقت. هم يبحثون عن ناجين الآن.

جذب چويل الشبكة التي تحيط بالصخرة ثمَّ تسلَّقها ووقف جوارها يحدِّق إلى الضباب. سألها: «ما الاسم؟».

- أي اسم؟

- اسم السفينة الغارقة.

- ماري سيليست[1].

- كم تبعد؟

رفعت المشكال إلى عينها ونظرت حولها من خلاله وهي تقول: «نصف ميل».

تكسَّرت الأمواج عبر عدسة المشكال إلى شظايا ملوَّنة. سألها چويل بعد هنيهة: «كيف عرفتِ؟».

- وجدت أشياء جرفتها الأمواج.

قال بِن كواريل: «هل يمكن أن تُرِيني إياها؟».

عجز بِن عن تسلق الشبكة، فظل يصعد إلى منتصف المسافة ثمَّ يقفز مرَّة أخرى. التفتت جيل إليه وأخرجت قطعة الزجاج الأخضر من جيبها، وقالت وهي تبرز المجسم الصفيحي: «هذه زمرُّدة. وهذا راعي بقر من الصفيح. يبدو أن ولدًا كان على متن السفينة».

قال بِن: «بل هي لعبتي؛ لقد تركتها هنا أمس».

-كلا، هي فقط تشبهها.

حدَّق چويل إلى اللعبة وقال: «بل هي لعبته، دائمًا ما يأخذها إلى الشاطئ وتضيع منه».

استسلمت جيل وقذفت اللعبة إلى بِن الذي التقطها ثمَّ فقد الاهتمام بالسفينة الغارقة. أدار ظهره إلى الجلمود ثمَّ جلس على الرمال وأشعل حربًا بين راعي البقر وبعض الحصوات. ظلت الحصوات تضربه وتُسقطه، وفكرت جيل في أن الحرب غير متكافئة. سألها چويل: «ماذا لديكِ أيضًا؟».

- هذا الملعقة، ربما مصنوعة من الفضة.

---

(1) سفينة تجارية أمريكية وجدوا حطامها عام 1872، وأحاط باختفائها ورجوعها الغموض حتَّى وقت قريب. (المترجمة)

ضيق چويل عينيه وهو يفحصها، ثمَّ نظر إلى البحيرة وقال: «الأفضل أن تعطيني المشكال. لو أن هناك أحياء فيمكننا رؤيتهم من هنا».

أعطته المشكال وقالت: «هذا ما أفكر فيه».

أدار المشكال هنا وهناك يمسح البحيرة بحثًا عن ناجين، ووجهه متوتِّر مكروب. أخفض المشكال أخيرًا ثمَّ فتح فمه ليقول شيئًا، لكن قاطعه صوت الصافرة الحزينة مرَّة أخرى. ترقرق الماء، ثمَّ ابتعد صوت الصفارة. تساءلت جيل: «ماذا قد يكون؟».

- هم يطلقون قذائف مدفعية كي تطفو الجثث على سطح الماء.

- لكن لم يكن هذا صوت مدفع.

- هو صاخب كفاية.

نظر خلال المشكال مرَّة أخرى، ثمَّ أبعده عن عينه وأشار نحو لوح طاف.

- انظري. جزء من السفينة.

- ربما يحمل اسم السفينة.

جلس چويل وطوى طرفي بنطاله إلى أعلى، ثمَّ نزل من الصخرة إلى الماء وهو يقول: «سأجلبه».

- سأساعدك.

حتَّى لو لم يكن يحتاج إلى مساعدة، خلعت جيل حذاءيها الأسودين ودسَّت جوربيها فيهما ثمَّ انزلقت فوق الحجر الصلب البارد إلى البحيرة.

سارت خطوات حتَّى بلغ الماء كاحليها ثمَّ توقَّفت كي لا تبلِّل فستانها. أمسك چويل اللوح ووقف والماء يصل إلى خصره وهو ينظر إليه. سألته: «ما المكتوب عليه؟».

رفع اللوح نحوها كي تراه وهو يقول: «ماري سيليست، كما قلتِ».

إلا أن شيئًا لم يكن مكتوبًا عليه. عضَّت شفتها السفلى ونظرت نحو الماء وهي تقول: «لو أن أحدًا سينقذهم فنحن أولى. لا بُدَّ أن أشعل نارًا عند الشاطئ ليعرفوا في أي اتجاه يسبحون. ما رأيك؟».

لم يُجب. سألته مجدَّدًا: «كنت أسألك: ما رأيك؟».

ثمَّ رأت النظرة على وجهه وعرفت أنه لن يرد ولم يسمع من الأساس.

- ماذا بك؟

نظرت إلى ما خلف كتفها لترى إلامَا يحدِّق بعينين متسعتين ووجه ممتقع.

الجلمود الذي كانا يقفان عليه لم يكن جلمودًا، بل حيوانًا ميتًا، طوله يقارب طول قاربين، ذيله مثني نحو الماء، نحوهما، يطفو على السطح كخرطوم إطفاء حريق. رأسه على هيئة مجرفة موجَّه نحو الشاطئ. بين الرأس والذيل جسد منتفخ سمين كجسد فرس النهر. خطر لها وهي تنظر إليه تساؤلًا عن كيفية تفسيرها لوجوده على أساس أنه صخرة.

ارتعدت كأن نملًا يسري تحت ملابسها ووسط شعرها. ترى موضع جرح الكائن الطويل الذي يصل بين بطنه ورقبته. أحشاؤه حمراء وبيضاء كأحشاء الأسماك، ولم تكن الفتحة العملاقة تنزف.

قبض چويل على كفها ووقفا في الماء الذي وصل إلى فخذيهما، يحدِّقان إلى الديناصور الذي مات مثل باقي الديناصورات التي سارت على وجه الأرض.

قال چويل: «هذا وحش!».

وكأن الأمر يحتاج إلى توضيح.

كان قد سمع كثيرًا عن الوحوش التي تجوب البحيرة. في احتفالات الرابع من يوليو يُبحر زورق يحمل مجسَّم بليسيوصور[1] مصنوع من عجينة الورق. في يونيو نُشِر مقال على مخلوق البحيرة، وقرأته هيثر بصوتٍ عالٍ وهي جالسة إلى طاولة الطعام، لكن والدها أسكتها وقال: «لا يوجد أي شيء في البحيرة. هذا كلام لجذب السائحين».

- مكتوب في المقال أن عشرات الأشخاص رأوه. مكتوب أن العبَّارة صدمته.

- عشرات الأشخاص رأوا عمودًا خشبيًّا، وأفزعوا أنفسهم. لا يوجد في البحيرة سوى الأسماك التي تشبه أي أسماك أخرى في بحيرات أمريكا.

أصرَّت هيثر: «قد يكون ديناصورًا!».

- لا يمكن أن يكون ديناصورًا. هل تعرفين كم سيصل عددهم إن كان هناك منهم ذكر وأنثى فقط؟ لو أن هذا صحيح فسيراهم الناس طيلة

(1) ديناصور مائي. (المترجمة)

الوقت. والآن اسكتي ولا تُفزِعي إخوتك. لم أشترِ هذا البيت كي تجلسن جميعًا داخله وتتشاجرن. إن لم تذهبن إلى البحيرة لأنكن خائفات من وحش متخلِّف، فسأرميكن إليه.

والآن، يقول چويل: «لا تصرخي».

لم يخطر الصراخ ببال جيل، لكنها أومأت لتُظهر له أنها تُنصت. أضاف چويل بصوت منخفض: «لا أريد أن أخيف بِن».

ساقا چويل ترتجفان حتَّى يكاد يسقط، لكن الماء كان باردًا على أية حال. سألته: «ماذا تظن قد حدث له؟».

- كُتب في الجريدة أن العبَّارة صدمت وحشًا. هل تذكرين هذا المقال؟

- أجل، لكن أليس من المفترض أن يكون الماء قد جرفه إلى الشاطئ منذ أسابيع؟

- لا أظن أن العبَّارة قتلته، ربما سفينة أخرى. أو فرمته مروحة يخت. لا يبدو أنه يعرف الكثير عن ضرورة الابتعاد عن القوارب. الأمر يشبه إصرار السلاحف على عبور الطريق السريع لوضع البيض على الجانب الآخر منه.

واقتربا منه ببطء، يده تقبض على يدها. قالت جيل هي ترفع ياقة فستانها لتغطِّي أنفها: «رائحته سيئة».

التفت نحوها وقال بعينين تبرقان: «جيل لندن، سنصبح مشهورين! سنظهر في الصحف، وستزين صورتنا ونحن نقف فوقه الصفحات الأولى».

سرت قشعريرة الحماس في جسدها، وضغطت على يده وهي تقول: «هل تعتقد أنهم سيدعوننا نطلق عليه اسمًا؟».

- هو له بالفعل اسمٌ. سيطلق عليه الجميع اسم تشامب.

- لكن ربما سيطلقون اسمنا على هذا النوع الجديد.. الـ «جي*لوصور*»!

- هذا اسمك أنت.

- حسنًا، ما رأيك في اسم دينوج*يل*-چوي*لوصور*؟ هل سيسألوننا عن اكتشافنا هذا؟

- سيسعى الجميع للقائنا. هيا، لنخرج من الماء.

ترنَّحا نحو اليمين حيث ذيل المخلوق، ودارت جيل من حوله سباحةً لتقف خلفه. نظرت وراءها لتجد چويل على الجهة الأخرى من الذيل ينظر إليه. مدَّ نحوه يده برفق، ثمَّ سحبها فورًا.

سألته: «ما ملمسه؟».

رغم أنها تسلَّقت الشبكة المحيطة به، تشعر أنها لم تمسَّه بأي حال. أجابها: «بارد».

وضعت يدها على جانبه، فشعرت بملمس خشن كالصنفرة، وكان باردًا كأنه خارج لتوه من البرَّاد. غمغمت: «يا للمسكين».

- تُرى كم عمره؟

- مليون عام. لقد ظل وحيدًا في البحيرة لمليون عام. ظل آمنًا حتَّى أنزل البشر قواربهم ذات المحرِّكات إلى الماء. كيف قد يعرف بشأن خطورة القوارب ذات المحرِّك؟

- أراهن أنه عاش حياة جيدة.

- مليون عام وحيدًا؟ لا يبدو لي هذا جيدًا.

- لو أن لي بحيرة كاملة من الأسماك آكلها وحدي، ومئات الأميال أسبحها، ولا شيء يخيفني، فسأكون قد عشت حياة جيدة.

نظر إليها چويل متعجِّبًا وقال: «أنت أكثر الفتيات الصغيرات ذكاءً في هذا الجانب من البحيرة. أنت تتحدَّثين كأنك تقرئين من كتاب».

- أنا أذكى فتاة على جانبَي البحيرة.

دفع الذيل جانبًا ومرَّ من جواره، ثمَّ خرجا إلى الشاطئ يقطران ماءً حتَّى وجدا بِن يلعب بدميته الصفيحية، تمامًا كما تركاه.

قال چويل وهو ينحني ويداعب شعر أخيه: «سأخبره. هل ترى الصخرة خلفك؟».

قال بِن ولم يرفع عينيه عن اللعب: «أها».

- الصخرة ديناصور. لا تخف؛ هو ميت. لن يؤذي أحدًا.

قال بِن: «أها».

ثمَّ دفن راعي الأبقار حتَّى خصره في الرمال وقال بصوت رفيع ملتاع: «النجدة! آه.. أنا أغرق في الرمال المتحركة!».

قال چويل: «بن. أنا لا ألعب معك. هذا ديناصور حقيقي».

توقَّف بِن عن اللعب ونظر إلى الكائن، ثمَّ عاد إلى اللعب بصوت راعي الأبقار المُستنجِد: «ليلقِ لي أحد حبلًا! سأدفن حيًّا!».

عبس چويل ثمَّ استقام واقفًا.

- لا نفع منه. اكتشاف القرن خلفنا، وكل ما يريده هو اللعب براعي الأبقار السخيف هذا.

ثمَّ مال چويل مرَّة أخرى على أخيه وقال: «بِن! هذا الشيء يساوي تلالًا من النقود. سنصبح أغنياء. أنا وأنت وجيل».

أحنى بِن كتفيه ومدَّ شفتيه ممتعضًا؛ فهما لن يتركاه يلعب على راحته. سيرغمه چويل على التفكير في ديناصوره سواء أحب هذا أو لم يحب.

- لا بأس. خذ نصيبي من المال.

- لست طامعًا.

قالت جيل: «ما يهم هو قيمة الاكتشاف العلمي. هذا ما نهتم به».

فكَّر بِن فيما قد ينقذه وينهي النقاش. أطلق صوتًا من حلقه يحاكي صوت الانفجار، ثمَّ قال: «انفجر الديناميت! أنا أحترق!».

ثمَّ انقلب على ظهره وتدحرج على الرمال وهو يصرخ: «أطفئوني! أطفئوني!».

لم يطفئه أحد. قال چويل: «يجب أن تنهض وتخبر أحد البالغين أننا وجدنا ديناصورًا. أنا وجيل سننتظر هنا لنحرسه».

توقَّف بِن عن الحركة، وانفتح فمه، ثمَّ رفع نظره إلى أعلى وهو يقول: «لا أستطيع.. أنا مُت محترقًا!».

قال چويل بطريقة كطريقة البالغين: «أنت أحمق».

ثمَّ ركل الرمال ليُغرق بِن بها.

- أنت الأحمق! أكره الديناصورات.

بدا چويل كأنه ينوي ركل الرمال في وجه بِن، لكن جيل تدخَّلت. لم تكن تتحمَّل رؤية چويل يفقد وقاره، فقد أحبت جديته وصوته الذي يشبه صوت الرجال، والطريقة التي عرض بها على بِن نصيبًا في الاكتشاف. ركعت جيل على ركبتيها جوار الصبي ووضعت كفها على كتفه وقالت: «بِن، ما رأيك في أن تحصل على صندوق جديد من مجسَّمات رعاة الأبقار هذه؟ يقول چويل إنك فقدت أغلبها».

جلس بِن ونفض الرمال عن ملابسه وهو يقول: «كنت سأدخر لشرائها».

- لو ذهبت وأحضرت والدك، سأشتري لك مجموعة كاملة. سنشتريها لك أنا وچويل.

قال بِن: «يبيعونها بدولار في متجر فليتشر. هل معكما دولار؟».

- سيكون معنا بعدما نحصل على المكافأة.

- ماذا لو لم يكن هناك لا مكافأة؟

- تعني: ماذا لو لم يكن ثمَّة مكافأة. ما قلت أنت للتَّوِّ هو نفي النفي، ويعني عكس ما قصدت. والآن، إن لم يكن ثمَّة مكافأة فسأدخر ثمَّ سأشتري لك المجموعة. أعدك.

- تعدينني؟

- هذا ما قلت. سيدخر چويل معي، أليس كذلك يا چويل؟

- لا أريد شيئًا من هذا الأحمق.

- چويل؟ هل ستدخر معي؟

أجاب چويل: «لا بأس».

قام بِن واقفًا ثمَّ قال: «سأذهب لأحضر أبي».

قال چويل وهو يمَسُّ عينه المصابة: «انتظر. أبي وأمي نائمين، وطلب أبي ألا يوقظه أحد قبل الثامنة والنصف. لهذا خرجنا. لقد ظلَّا ساهرين حتَّى وقت متأخِّر في حفل لدى آل ميلر».

قالت جيل: «والداي كانا هناك أيضًا! أصيبت أمي بصداع متوحش».

قال چويل: «على الأقل والدتك مستيقظة. أحضِر السيدة لندن يا بِن».

قال بِن وقد بدأ في السير بالفعل: «حسنًا».

هتف چويل: «أسرِع!».

- حسنًا.

لكنه لم يغيِّر سرعة خطواته. راقبته جيل وچويل حتَّى اختفى في الضباب.
قال چويل: «سيدَّعي أبي أنه هو من وجده».

أجفلت جيل من المرارة في صوته. أردف: «لو أريناه لأبي أولًا، لن نظهر في الصور على صفحات الجرائد».

قالت جيل: «لندعه نائمًا إن كان نائمًا».

قال چويل وهو يخفض رأسه وصوته يزداد ارتجافًا: «هذا ما أعتقد».

لقد أظهر عواطفه أكثر ممَّا ينبغي، وهو الآن محرج. دون تفكير، أمسكت جيل بيده، فقد بدا لها أن هذا هو التصرُّف الوحيد الصحيح. تشابكت أصابعهما وهو ينظر إليها في تركيز كأنها سألته سؤالًا يعرف إجابته.

- أنا سعيد أنني وجدت المخلوق معكِ. على الأرجح ستمضين باقي حياتك تتحدَّثين عنه في الجرائد والمجلات. حين نبلغ التسعين سيظل الناس يسألوننا عن اليوم الذي وجدنا فيه الوحش. أنا واثق أننا سنحافظ على علاقتنا حتَّى في هذه السن.

- أول شيء سنقوله إنه لم يكن وحشًا، بل شيئًا مسكينًا صدمه قارب. هو لم يلتهم أي شخص.

- نحن لا نعرف ماذا يأكل. هناك الكثير من الغرقى في هذه البحيرة، وربما لم يغرق بعضهم، بل كان هو من أنشب أنيابه فيهم.

- نحن لا نعرف حتَّى إن كان ذكرًا.

فكَّا تشابك أصابعهما والتفتا نحوه. من زاويتهما بدا كصخرة مرَّة أخرى، صخرة تغلِّفها شبكة. لم يكن جلده يلمع كما يلمع جلد الحوت، بل كان داكنًا باهتًا كأنه قطعة جرانيت.

خطر ببالها خاطر، فنظرت نحو چويل تسأله: «هل تظن أن علينا الاستعداد للمقابلات واللقاءات؟».

- أتعني أن علينا أن نمشط شعرينا؟ لا تحتاجين إلى تمشيط، شعرك جميل.

ثمَّ دَكن وجهه ولم يستطع أن يثبِّت عينيه إلى عينيها. قالت: «كلا. أعني ليس لدينا ما نخبرهم به. نحن لا نعرف أي شيء عنه. ليتنا نعرف مثلًا طوله على الأقل».

- يجب أن نحصي أسنانه.

ارتجفت، وعاد شعور النمل الذي يزحف تحت ملابسها.

- لن أستطيع أن أمد يدي داخل فمه.

- هو ميت. أنا لست خائفًا. العلماء سيعدون أسنانه أول شيء.

اتسعت عيناه وهو يقول: «سِنًّا! سِنٌّ لي، وسِنٌّ لك. يجب أن نأخذ سِنَّين على سبيل التذكار».

- لن أحتاج إلى سنٍّ لأتذكَّره، لكنها فكرة جيدة. سأعلِّق سِنِّي في قلادة.

- وأنا أيضًا. قلادة رجالية ليست في جمال قلائد الفتيات.

رقبة المخلوق طويلة، ممتدة على استقامتها على الشاطئ. لو كانت قد رأت المخلوق من هذه الجهة لاكتشفت أنه ليس صخرة. على عينيه غشاوة بلون الحليب، فمه مفتوح، أسنانه صغيرة للغاية، كثيرة، متراصة في صفين مزدوجين.

قال چويل في حماس متوتر: «انظري إليها.. يمكنها أن تقطع ذراعك كالمنشار الكهربي».

- تُرى كم قضمت من أسماك؟ يحتاج على الأرجح إلى عشرين سمكة في اليوم كي يظل حيًّا.

أعطته الملعقة الفضية التي وجدتها على الشاطئ. نزل في الماء وسار فيه خطوات حتَّى وصل إلى الفم. تربَّصت جيل وانعقدت معدتها.

بعد لحظات، أبعد چويل يده وظل في مكانه يحدِّق إلى وجه الكائن. وضع يدًا على عنقه وقال: «لا أريد أن أفعل هذا».

- لا بأس.

- ظننت أن الأمر سهل، لكن لا أشعر أن هذا صحيح.

- لا بأس. أنا حتَّى لا أريد سِنًّا.

- سقف حلقه.

-ماذا؟

- سقف حلقه مثل سقف حلقي، وسقف حلقك.

وقف قليلًا ينظر إلى الملعقة في يده عاقدًا حاجبيه كأنه لا يعرف ماذا تكون، ثمَّ دسَّها في جيبه.

قال: «ربما سيعطوننا سِنًّا، جزء من مكافأتنا. الأفضل ألا ننزعها نحن بأنفسنا».

خرج من البحيرة ووقفا ينظران إلى الكائن. سأل چويل وهو ينظر نحو الاتجاه الذي ذهب نحوه بِن: «أين بِن؟».

- يجب أن نعرف طوله على الأقل.

- لنحضر شريط قياس، لكننا سنغامر أن يجده أحد ويزعم أنه هو من عثر عليه.

- طولي أربعة أقدام بالضبط. يمكننا أن نقيس طوله مقارنة بطولي.

- حسنًا.

تمدَّدت على الرمال وضمت ذراعيها إلى جسدها، وكاحليها إلى بعضهما. وجد چويل عصا رسم بها خطٌّ على الرمال ليُعلِّم مكان رأسها. قامت جيل ونظَّفت عنها الرمال، ثمَّ خطَّت فوق الخط، وتمدَّدت مرَّة أخرى بحيث يلامسك كعبيها العلامة على الرمال. وَجَبَ عليه الخوض في الماء كي يُخرج باقي الذيل.

قال: «طوله أكثر من أربعة جيل».

- ستة عشر قدمًا.

- أغلبها ذيل.

- ويا له من ذيل. أين بِن؟

سمعا أصواتًا حادَّة عبر الضباب، ثمَّ ظلال أشخاص يقتربون. اخترقت ميريام وميندي الضباب، وبِن خلفهما مُتلكِّئًا. كان يأكل قطعة خبز بالمربى، والفراولة تلوِّث ما حول شفتيه وذقنه. دائمًا ما يصيب وجهه من الطعام أكثر ممَّا يصيب فمه.

أمسكت ميريام بيد ميندي وهما يتقافزان بشكل غريب، بينما تصيح ميندي: «أعلى! أعلى!».

سأل چويل: «ما هذا؟».

قالت ميندي: «لديَّ بالون أليف اسمه ميريام. اقفزي يا ميريام!».

قفزت ميريام إلى أعلى ثمَّ هبطت بقوة حتَّى إن ساقيها خذلتاها فسقطت على الأرض، جاذبة مينيدي معها، فتمدَّدت الفتاتان تضحكان.

قال چويل لبِن: «أين السيدة لندن؟».

مضغ بِن الشطيرة طويلًا، ثمَّ ابتلعها وقال: «قالت إنها ستخرج لترى الديناصور حين يكون الجو أكثر دفئًا بالخارج».

صاحت ميريام: «اطفي يا ميريام!».

انقلبت ميريام على ظهرها وتنهدت ثمَّ قالت: «فرغ منِّي الهواء».

نظر چويل إلى جيل في خليط من الغضب والاشمئزاز. قالت ميندي: «رائحة الهواء نتنة هنا».

قال چويل: «هل تصدِّقين هذا؟ والدتك لن تأتي».

قال بِن: «قالت لي أن أخبر جيل بأن تعود إلى البيت إن كانت تريد تناول الإفطار. هل سنشتري مجموعة رعاة الأبقار اليوم؟».

قال چويل حانقًا: «أنت لم تفعل ما طلبناه منك، لذا لن تحصل على شيء».

- أنتما لم تطلبا منِّي أن أحضر أحد البالغين، طلبتما فقط أن *أخبر* أحد البالغين. أريد ألعابي.

مرَّ چويل من بين الفتاتين على الأرض تجاه بِن، وجذبه من كتفه وهو يقول: «أحضِر أحد البالغين وإلا أغرقتك».

- لقد قلت إنك ستشتري لي رعاة أبقار.

- أجل، وسأتأكد من دفنك معها.

ركل مؤخِّرة بِن ليحثه على الحركة. صرخ بِن وتعثر، ثمَّ نظر إلى أخيه نظرة كارهة.

- اجلب أحد الكبار وإلا ستعرف حدود شري.

هرع بِن مبتعدًا، بساقين متصلِّبتين لا تنثنيان. قال چويل: «أتعرفين ما المشكلة؟ لن يصدِّقه أحد. هل كنت ستصدِّقينه لو أخبرك أننا نحرس ديناصورًا؟».

تحدَّثت الفتاتان بصوت منخفض حين كادت جيل تعرض عليهما العودة إلى المنزل لإحضار أمهما، لولا لاحظت همسهما. حدَّقت لتجدهما متربِّعتين عند ظهر الكائن، وميندي ترسم على ظهره لعبة أحجية. صرخت جيل وهي تجذب منها الطبشور: «ماذا تفعلين؟ احترمي الموتى!».

قالت ميندي: «أعطيني طبشوري».

- لا يمكن الرسم فوقه. هذا ديناصور.

قالت ميندي: «أعطيني طبشوري وإلا أخبرت أمي».

قال چويل: «هما حتَّى لا تصدِّقاننا وهما جالستان جواره مباشرة. لو كان حيًّا لأكلهما!».

قالت ميريام: «يجب أن تعيدي الطبشور الذي اشتراه أبي. لقد سمح لكل منَّا بشراء شيء بمليم، وأنت اخترتِ العلكة. كان يمكنك اختيار إصبع طبشور. أعيديه».

- حسنًا، لكن لا ترسما على الديناصور.

قالت ميندي: «يمكن أن أرسم على الديناصور لو أردت. هذا ديناصور عام».

قال چويل: «هذا ليس صحيحًا. هو ملكنا نحن. نحن مَن اكتشفناه».

أضافت جيل: «ارسما في أي مكان آخر وإلا لن أرجع إليكما الطبشور».

- سأخبر أمي. ســتأتي وتسلخك!

مدَّت جيل يدها بالطبشور لكن چويل منعها.

- لن تعطيه لهما.

قالت ميندي وهي تقوم: «سأخبر أمي».

هتفت ميريام: «سأخبرها أنا أيضًا، وســتأتي أمي وتسلخك».

ابتعدتا نحو الضباب وهما تناقشان ما حدث في غضب. قالت جيل: «أنت أذكى صبي على هذا الجانب من البحيرة».

- على جانبَي البحيرة.

تسبَّبت ألعاب خداع البصر في أن يرتمي ظِلَّا الفتاتين على الضباب ضخمًا للغاية، بداخله ظلال أصغر متداخلة، كأن الظلَّين نفقان على هيئة فتاتين. لم

يستدر چويل وجيل إلى الديناصور قبل أن تختفي الفتاتان تمامًا. رأيا نورسًا يقف فوق المخلوق الميت، يحدِّق إليهما بعينيه الواسعتين السوداوين. صاح چويل وهو يحرِّك ذراعيه: «ابتعد!».

قفز النورس إلى الرمال، وسار مبتعدًا. قال چويل: «حين تغيب الشمس سيجتمع حوله أكلة الجيف».

- بعدما يلتقط له العلماء الصور، سيضعونه في الثلاجة.

أرادت أن تمسك يده مرَّة أخرى لكنها لم تفعل، وسألته: «هل تعتقد أنهم سينقلونه إلى المدينة؟».

وكانت تقصد نيويورك، المدينة الوحيدة التي سافرت إليها.

- هذا يعتمد على ماهية مَن سيشتريه منا.

أرادت جيل أن تسأله إن كان والده سيسمح له بالاحتفاظ بالنقود، لكنها خشيت أن يثير سؤالها أفكارًا مُحزنة في رأسه، فسألت: «كم يدفعون لنا في رأيك؟».

- ضربت العبارة هذا الشيء في الصيف، قال ف. ت. بارنوم[1] أنه قد يدفع خمسين ألف دولار مقابل جثته.

- أود أن أبيعه لمتحف التاريخ الطبيعي في نيويورك.

- أعتقد أن الناس تمنح الأشياء للمتاحف مجانًا، الأفضل أن نبيعه لبارنوم.

لم ترد جيل لأنها لم تشأ أن تقول شيئًا يحبطه. سألها: «هل ترينه قرارًا خاطئًا؟».

- سنفعل ما تشاء.

- يمكن أن يشتري كلانا منزلًا بنصف المال الذي سيدفع بارنوم، وسنمتلك مغطسًا مملوءًا بأوراق البنكنوت ونسبح فيه.

لم تقل جيل شيئًا، فأضاف: «نصف المال لك. افعلي ما تحبين!».

---

(1) فينياس تايلر بارنوم، صاحب عروض ترفيهية، ورجل أعمال، وسياسي أمريكي. (المترجمة)

نظرت إلى المخلوق وقالت: «هل تظن عمره حقًّا مليون سنة؟ هل تتخيَّل كل تلك الأعوام من السباحة؟ هل تتخيَّل السباحة تحت نور القمر؟ تُرى هل افتقد الديناصورات الأخرى؟ هل تتصوَّر أنه قد تساءل عن مصيرها؟».

نظر إليها چويل هنيهة، ثمَّ قال:

- أخذتني أمي مرَّة إلى متحف التاريخ. لديهم قلعة صغيرة بها مئات الفرسان.

- ديوراما[1].

- أجل. بدت لي كعالم صغير داخل خزانة. عالم ملخَّص للغاية. ربما سيفعل بارنوم الشيء نفسه بالديناصور.

- وقتها سيستطيع العلماء دراسته وقتما يشاؤون.

- قد يجعل بارنوم زيارات العلماء بتذاكر. سيعرضه بجوار الماعز ذي الرأسين، والمرأة الملتحية السمينة، ولن يكون مميَّزًا بعد ذلك. هل لاحظت هذا؟ لأن كل شيء في السيرك مميَّزٌ! المميَّز وسط المميَّزين لن يكون مميَّزًا!

كانت هذه هي أطول عبارة سمعتها منه. أرادت أن تخبره كم هو مذهل، لكنها خشيت أن تحرجه. مد يده نحو يدها، فتسارعت دقَّات قلبها، لكنه كان يريد الطبشور فقط.

أخذها منها وبدأ يكتب على جانب الكائن البائس. فتحت فمها لتخبره أن المفترض ألا يفعل، لكنها أغلقته حين رأت الصبي يكتب اسمها على الجلد الخشن، ثمَّ كتب اسمه تحته.

قال لها: «في حال زعم أحدهم أنه وجد الشيء. المفترض أن يُكتب اسمك على لوحة هنا. يجب أن يظل اسمانا معًا إلى الأبد. أنا سعيد أنني وجدته معكِ، ولا يوجد من (لا) أفضله عنك في هذا الأمر».

قالت: «عبارتك بها نفيٌ للنفي».

قبَّلها على خدها ببساطة، ثمَّ قال لها كأنه في الأربعين من العمر لا العاشرة فقط: «أوه، عزيزتي».

ثمَّ أعاد لها الطبشور.

---

(1) مُجسَّم يُعرض في المتاحف، يمثل مشاهد معينة من التاريخ. (المترجمة)

رأت عددًا من ظلال الدمى الروسية تتحرَّك نحوهما، ويندمج كل ظل فيما يليه كأنها ترى مِقراب تنغلق عدساته منطبقة على بعضها. ظِل الأم يحيط بظلَّي ميريام وميندي. فتحت جيل فمها لتنادي، لكن الظل المركزي الكبير تقلَّص فجأة ليكوِّن شكل هيثر. بِن كواريل يتبعها، يبدو معتدًّا بنفسه.

خرجت هيثر من الضباب ولوح رسمها تحت إبطها، وخصلات شعرها الأشقر الملفوفة تتأرجح حول وجهها. زمَّت شفتيها، ثمَّ نفخت الخصلات لتُبعدها عن عينيها، وهو تصرُّف تفعله كلما كانت غاضبة بحق.

- تريد أمنا أن تراكِ. حالًا.

سألتها جيل: «أليستْ قادمة؟».

- لقد وضعت فطائر البيض في الفرن للتَّوِّ.

- اذهبي وأخبريها أن..

- اذهبي أنتِ وأخبريها. أعيدي لميندي إصبع الطبشور قبل أن ترحلي.

مدَّت ميندي كفها وراحتها إلى أعلى.

غنَّت ميريام: «*جيل جيل، تضايق كل من حولها، جيل جيل، إنها حقًّا حمقاء!*».

قالت جيل لهيثر: «وجدنا ديناصورًا. يجب أن تذهبي سريعًا وتخبري أمي. سوف نسلِّمه إلى المتحف وسوف نظهر على صفحات الجرائد. أنا وچويل سنظهر في صورة معًا».

أمسكت هيثر أذن جيل ولوتها، فصرخت جيل. اندفعت ميندي وخطفت الطبشور من يد جيل. ولولت ميريام بصوتٍ رفيعٍ عالٍ تقلِّد صرختها.

أنزلت هيثر يدها وقرصت لحم ذراع جيل بين سبابتها وإبهامها، فصرخت جيل مرَّة أخرى وجاهدت كي تتحرَّر منها. طوت كفها وضربت بها لوح رسم هيثر فأسقطته على الرمال. لم تبالِ هيثر بسبب حماسها للإيذاء، وبدأت تجذب أختها نحو الضباب لتجبرها على أن تسير معها وهي تقول:

- كنت أرسم أفضل حصان قزم رسمته، وتعبت فيه للغاية، ولم تنظر إليه أمي حتَّى لأن ميريام وميندي وبِن لم ينفكوا يضايقونها ويحكون لها عنكِ وعن وديناصورك الأحمق. صرخَت فيَّ أن أحضرك وأنا لم أتسبَّب في أي شيء لأستحق الصراخ. فقط أردت أن أرسم، وقالت لي إن لم

أحضرك ستأخذ منِّي أقلامي الملونة. أقلامي الملونة! تلك التي حصلت عليها في عيد ميلادي!

ظلَّت تلوي لحم ذراع جيل حتَّى دمعت عيناها. هرع بِن كواريل جوارها يقول: «الأفضل أن تفي بوعدك وتشتري لي رعاة البقر كما وعدتِ».

قالت ميريام: «تقول أمي إنك لن تحصلي على أي من فطائر البيض بسبب كل تلك المشكلات التي تسبَّبتِ فيها هذا الصباح».

قالت ميندي: «جيل؟ هل تمانعين لو أكلت نصيبك من فطائر البيض؟».

نظرت جيل من فوق كتفها نحو چويل. أمسى شبحًا يقف خلف الضباب بنحو عشرين قدمًا بعدما تسلَّق الهيكل واعتلاه.

صاح: «سأظل هنا يا جيل. لا تقلقي! اسمك مكتوب عليه! اسمك واسمي معًا! سيعرف الجميع أننا من وجدناه! عودي بأسرع ما يمكنك! سأنتظرك!».

قالت بصوت متهدِّج بالعواطف: «حسنًا. سأعود يا چويل».

قالت هيثر: «لن تعودي».

تعثَّرت جيل فوق الصخور وهي تنظر إلى الخلف نحو چويل لأطول فترة ممكنة. سرعان ما تحوَّل هو والكائن الذي يقف فوقه إلى جسمين معتمين خلف الضباب الكثيف الذي ينجرف مثل الملاءات المبلَّلة، أبيض إلى درجة ذكَّرت جيل بغطاء الرأس الذي ترتديه العروس في الزفاف.

أدركت أن المكان كان أبعد عن المنزل أكثر ممَّا تتذكَّر. سارت العصبة -أربعة أطفال صغار وواحدة في الثانية عشرة- بحذاء الشاطئ الضيق لبحيرة شامبلين الفضية. نظرت جيل إلى قدميها تراقب الماء يداعب الحصى برفق.

أكملوا الطريق الموازي للضفة حتَّى وصلوا إلى المرفأ حيث يقف زورق الأب. عندئذٍ أطلقت هثير سراح ذراع جيل وتسلَّقوا جميعًا إلى الألواح المصطفَّة. لم تحاول جيل الهرب. من المهم أن تجلب أمها وظنَّت أنها لو بكت وصرخت ستستطيع إجبارها على الذهاب.

كان الأولاد في منتصف الباحة حين سمعوا صوت الصافرة مرَّة أخرى، إلا أنها لم تكن صافرة، وكانت قريبة، تنطلق من مكان ما خارج مجال إبصارهم عبر الضباب. صوت ممطوط، ملتاع، أشبه بخوار البقر. أعاد هذا

الصوت شعور التنميل إلى فروة رأس جيل وصدرها. حين نظرت مرّة أخرى إلى المرفأ لمحت زورق أبيها يعلو ويهبط محمولًا على الماء، يضرب جانبه الخشب. صاحت هيثر: «ما كان هذا؟».

ضمت ميندي وميريام بعضهما إلى بعض، ونظرتا في ذعر إلى البحيرة. اتسعت عينا بِن كواريل، وأمال رأسه ليسمع أفضل. سمعت جيل صوت چويل يصرخ بشيء. ظنَّت -وإن لم تتأكد قَط- أنه يصرخ: «جيل! تعالي لتري!» في الأعوام التالية ظلت تفكر في إن كان قد صرخ: «إلهي، انجدني!».

شوه الضباب الأصوات كما شوه الضوء، لذا حين سمعوا صوت دفقة الماء الهائلة كان من الصعب الحُكم على حجم الشيء الذي أصدر هذا الصوت. بدا كأن حوض استحمام قد سقط من ارتفاع شاهق إلى البحيرة. أو سيارة. على العموم، كان صوت دفقة الماء هائلًا.

صرخت هيثر مرَّة أخرى وهي تمسك بطنها كأنها تتألَّم: «ما كان هذا؟».

انطلقت جيل تعدو، لكنها تعثَّرت وسقطت على ركبتيها. اختفى الشاطئ الذي اندفعت نحوه وقد تدافعت الأمواج بارتفاع ثمانية قدام كأنها أمواج في محيط لا بحيرة شامبلين. أغرق الماء الشاطئ الضيق ووصل إلى التبَّة. تذكَّرت كيف كان الشاطئ يتسع لسيرها وهيثر دون أن تَمَسَّ أقدامهما الماء.

جرت عبر الضباب البارد تصرخ باسم چويل. كلما جرت، شعرت أنها لا تقترب بسرعة مناسبة. كادت تفوت المكان الذي كان فيه الكائن؛ لم يعد في مكانه. من مكانها وسط الضباب والماء الذي يغمر كل شيء، صار عسيرًا أن تحدِّد أي مكان.

لكنها أبصرت لوح رسم هيثر الذي يطفو وقد تجعَّدت صفحاته. تجمَّدت جيل في مكانها وهي تنظر إلى الأمواج والماء الثائر. شعرت بوخزة في جانبها، رئتاها تجاهدان بحثًا عن هواء. عندما انحسرت الأمواج، استطاعت أن ترى حيث كان الكائن على الرمال، وأثر انزلاقه نحو الماء، نحو بيته. بدا لها كأن أحدًا قد جذبه إلى البحيرة.

- چويل!

صرخت تجاه الماء، ثمَّ استدارت لتصرخ تجاه الشاطئ والأشجار ومنزل الصبي.

- چويل!

دارت حول نفسها تصرخ باسمه. لم تشأ أن تنظر نحو البحيرة، لكنها لم تجد مفرًّا من ذلك. آلمتها حنجرتها من الصراخ وبدأت تنتحب.

نادتها هيثر بصوت مذعور: «جيل! عودي إلى البيت يا جيل! عودي إلى البيت فورًا!».

صاحت والدة جيل: «جيل!».

وصرخت جيل وهي تفكر كم أن صراخ الجميع هكذا سخيف: «چويل!».

ثمَّ همست: «أعده إليَّ. رجاء، أعده».

عدت هيثر تشقُّ الضباب، وكانت فوق التبَّة لا على الشاطئ حيث الأمواج تسكب ماءها بلا انقطاع. ثمَّ ظهرت والدة جِيل تنظر إليها من أعلى وتقول بوجه قلق شاحب: «حبيبتي.. اصعدي إلى هنا يا حبيبتي. اصعدي إلى أمك».

سمعتها جيل، لكنها لم تصعد إليها. شيء سحبته الماء وضرب قدمها؛ دفتر رسم هيثر مفتوح على رسم الحصان القزم. حصان أخضر ذو خطوط بألوان قوس قزح، وحوافر حمراء. كان أخضر اللون كشجرة كريسماس. لم تكن جيل تعرف سبب رسم هيثر لأحصنة لا تبدو من قريب أو بعيد كأحصنة. أحصنة مستحيلة كأنها نفيٌ للنفي. تلك الخيول، مثلها كمثل الديناصور، احتمالية تلغي وجود نفسها في اللحظة التي تُكشف فيها.

انتشلت الدفتر من الماء ونظرت إلى الحصان الأخضر، وشعور مُمرِض يتصاعد في معدتها كأنها تقاوم القيء. قطعت الصفحة ثمَّ سحقتها وألقتها إلى الماء، ثمَّ قطعت بضع ورقات أخريات مرسوم عليها الحصان نفسه وألقتهم أيضًا إلى الماء. طفت كُرات الورق على السطح حول كاحليها. لم يطلب منها أحد التوقُّف عمَّا تفعل، ولم تشكُ هيثر عندما تركت جيل الدفتر يسقط من بين يديها عائدًا إلى البحيرة.

نظرت جيل مرَّة أخرى إلى الماء في انتظار سماع الصوت مرَّة أخرى؛ صوت النفير، وسمعته، لكن هذه المرَّة دوى بداخلها طويلًا كصرخة مكتومة حزنًا على آمال لن تتحقَّق.

فون

الجزء الأول: جهة الباب من ناحيتنا

فالوز يحصل على قِطِّهِ..

أول مرَّة يتحدَّث فيها ستوكتون عن الباب الصغير كان فالوز تحت شجرة التِّبِلدي ينتظر أسدًا.

- بعد ذلك، إن أردت شيئًا يشعل حماسك، اتصل بالسيد تشارن. إدوين تشارن في ولاية مَين. سوف يريك الباب الصغير.

رشف ستوكتون رشفة من الويسكي وضحك بخفَّة مُضيفًا: «أحضِر دفتر شيكاتك معك».

كانت الشجرة عجوز، في حجم كوخ تقريبًا، جذورها جافة قاسية. الناحية الغربية من جذع الشجرة محفور، وقد بنى هيمنجواي هَنتز خيمته داخل فجوة الشجرة، وهي خيمة خاكيَّة اللون مخفيَّة وراء أغضان شجرة التمر هندي. داخل الخيمة فراشين وبراد بداخله بيرة باردة، وتصل إليها إشارة إنترنت هوائي جيدة.

بيتر -ابن ستوكتون- كان نائمًا على واحد من الفراشين وظهره نحوهما. احتفل بتخرجه في الثانوية بقتل وحيد قرن أسود في اليوم السابق. اصطحب بيتر معه صديقه المقرَّب من المدرسة الداخلية؛ كريستيان، لكن كريستيان لم يقتل أي شيء إلا الوقت الذي أمضاه يرسم الحيوانات.

ثلاث دجاجات مذبوحات، معلَّقة بالمقلوب، متدلِّية من غصن شجرة شوكة الجمل على بعد عشر ياردات من الخيمة. تتجمَّع بحيرة دماء لزجة على التراب أسفلها. يرى فالوز منظر الطيور واضحًا على شاشات الرؤية الليلية، وتبدو بالنسبة له ككتلة فاكهة منتفخة عجيبة الشكل.

احتاج الأسد إلى وقت لتحديد الرائحة؛ هو أسدٌ مُسِنٌّ، جدٌّ، وهو أكبر القطط لدى هيمنجواي هَنتز سنًّا، وأفضلها صحة. أغلب الأسود الأخرى عانت سُلَّ الكلاب الفيروسي[1] فأصيبت بالدوار والحُمَّى وتساقط شعرها، وكَثُر الذباب على أعينها. أنكر مدير محميَّة الصيد إصابتها، لكن فالوز عرف أنها تحتضر بمجرَّد النظر إليها.

كان الموسم سيئ الحظ على الأصعدة كلها. لم تكن مشكلة أسود مريضة؛ فمنذ بضعة أيام فقط اصطدم الصيادون وهم على متن عربة الكثبان[2] في السياج عند الشمال الغربي، وخلعوا السور الشائك بطول مائة قدم. كانوا يجولون بحثًا عن خرتيت -قيمة القرن الواحد تزيد على قيمة وزنه من الألماس- لكن طاردتهم بعض الحراسات الخاصَّة فعادوا دون أن يقتلوا أي شيء. هذه هي الأخبار الجيدة، أما السيئة فهي أن بعض الزرافات والأفيال فرت عبر السور المكسور. أُلغِيَ الصيد، وأُعيد المال لأصحابه. أصيب الناس بالهياج في صالة استقبال الفندق، وراح الرجال محمرُّو الوجوه يلقون بأمتعتهم على ظهور سياراتهم «اللاند روفر» المُستأجرة.

رغم ذلك لم يندم فالوز على حضوره. كان قد اصطاد منذ سنوات نصيبه من الخراتيت والأفيال والفهود والجواميس البرية. سيصطاد الليلة آخر صنف من الصنوف الخمسة الأهم، وسيحظى بصحبة ستوكتون وابنه وصديق ابنه،

---

(1) يُسمى أيضًا ديستمبر الكلاب، هو مرض يصيب عدد كبير من الثدييات، لا الكلاب فقط. (المترجمة)

(2) هي نفس موتوسيكلات الشواطئ المعروفة وتُستخدم في الأماكن الرملية عمومًا (المترجمة)

وبالويسكي الفاخر من نوع «يامازكي» عندما يريد، ومن نوع «لافرويج» عندما لا يرغب في الأول.

قابل فالوز ستوكتون وابنه منذ أسبوع فقط، في الليلة التي وصل فيها إلى فندق «هوسي كوتاكو» الدولي. كان آل ستوكتون قد وصلوا للتَّوِّ من «تورونتو» على متن طائرة من الخطوط الجوية البريطانية. طار فالوز على متن طائرة خاصَّة من «لونج آيلاند» ولم يكن رجلًا يعبأ بطائرات شركات الخطوط الجوية، وكان يتحسَّس من الوقوف في الطوابير، وتعامل مع هذا الأمر عن طريق أمواله. وصل الجميع إلى «ويندهوك» في الوقت نفسه تقريبًا، وقد أرسل إليهم مدير محمية الصيد سيارة مرسيدس لنقلهم إلى الغرب عبر «ناميبيا».

لم تمضِ سوى لحظات في السيارة قبل أن يُدرك إيمانويل ستوكتون أن تيب فالوز هو الذي يدير صندوق استثمار فالوز، وهو ذو مكانة كبيرة في مؤسسة ستوكتون الدوائية.

شرح فالوز: «قبل أن أصبح حامل أسهم في المؤسسة كنت عميلًا. خدمت أمَّتي بفخر بمشاركتي في الحرب الشعواء، وما زلت لا أفهم. حبوت وأنا أجر أشلائي، وعشت على معجزات عقاقيرك المخدِّرة لقرابة خمس سنوات. أخبرني حدسي أن استثماري في شركتك سيكون جيدًا».

حاول أن يبدو حكيمًا، لكن ستكوتون سدَّد نحوه نظرة إعجاب مشرقة غريبة، ثمَّ ربَّت على كتفه وقال: «أفهمك أكثر ممَّا تتصوَّر. حين نتحدَّث عن البضائع الفاخرة -السيجار، والفراء، وما إلى ذلك- لا شيء منها يساوي قيمة مهرِّبٍ».

بحلول الوقت الذي انسكبوا فيه خارجين من المرسيدس، وبعد أربع ساعات، كانوا في مزاج ممتاز. بعد إنهاء إجراءات التسكين في الفندق انتقلا بحديثهما إلى المشرب. بعدها، اعتاد ستوكتون وفيلوز على الشرب معًا كل ليلة، بينما بيتر وكريستيان يمرحان في حمام السباحة. عندما سأله الصبي كريستيان -وهو في عمر الثامنة عشرة، لكنه بالنسبة لفالوز صبي- إن كان يسمح له بالمجيء لرؤية قِطِّه، لم يخطر بباله قَط أن يرفض.

والآن، يسأل فالوز: «الباب الصغير؟ ماذا يكون بحق الجحيم؟ محمية صيد خاصَّة مثل التي نحن فيها الآن؟».

أومأ ستوكتون ناعسًا: «أجل».

تصاعدت رائحة خمر اللافوريج من مسامه، واحتقنت عينيه؛ شرب كثيرًا. أضاف: «محمية السيد تشارن الخاصَّة، لا يدخلها أحد من دون دعوة. لكن الباب الصغير أيضًا.. باب صغير».

ثمَّ ضحك مرَّة أخرى، قهقه. قال كريستيان سويفت: «يقول بيتر إنها عالية التكاليف».

- عشرة آلاف دولار كي تنظر من خلال الباب. عشرة آلاف أخرى لتعبره. مائتي وثلاثين ألفًا لتصطاد هناك ليوم واحد فقط. يمكنك أن تجلب تذكارًا من هناك، لكنه يظل مع السيد تشارن في منزله الريفي. هذه هي القواعد. لو لم تكن قد اصطدت الأصناف الخمسة الكبرى فلا تحاول أن ترسل إليه ولو حتَّى رسالة إلكترونية. لا يطيق تشارن الهواة.

قال فالوز: «ربع مليون دولار؟ لا بُدَّ أنه سيسمح لنا باصطياد حصان وحيد القرن الخرافي!».

رفع ستوكتون حاجبيه وغمغم: «تقريبًا».

كان فالوز يحدِّق إليه حين مسَّ كريستيان كتفه بأصابع كفٍّ واحدة وقال: «سيد فالوز، قطك هنا».

اشتعلت اليقظة في عقل كريستيان وهو يناول فالوز بندقيته الكبيرة CZ 550. للحظة نسي فالوز ما كان يفعل هنا. أومأ الشاب نحو إحدى شاشات الرؤية الليلية. الأسد يحدِّق إلى الكاميرات بعينيه المشعَّتين اللامعتين كعملتين مصقولتين.

ركع فالوز على رُكبة واحدة، وقرفص الشابُّ جواره فتلامست كتفاهما. وقف الأسد في الظلام تحت شجرة شوكة الجمل. أدار رأسه الهائل نحو المخبأ، عيناه ذكيتان هادئتان مُتسامحتان. هذه نظرة ملك يشهد لحظة إعدامه.

كان فالوز هو الأقرب للقِطِّ المُسِنِّ. في اليوم الذي رآه فيه لأول مرَّة كان هناك سور سلكي بينهما. درس السبع العجوز جيدًا من خلف السياج، وحدَّق إلى عينيه الهادئتين الذهبيتين، ثمَّ أخبر مدير المحمية التي اختارها بما يعتزم. قبل أن يرحل وعد الأسد وعدًا عليه أن يفي به الآن.

أنفاس كريستيان سطحية مضطربة، قريبة من أذن فالوز.

- يبدو كأنه يعرف. يبدو كأنه مستعد.

أومأ فالوز كأن الشاب قد تفوه بحقيقة مقدَّسة، ثمَّ ضغط الزناد.

دوَّى صوت الطلقة، فاستيقظ بيتر ستوكتون صارخًا متعثِّرًا في أغطيته وسقط عن الفراش.

***

كريستيان يمزِّق قميصه..

تبع كريستيان الصيَّاد فالوز خارجين من الخيمة. خطا القاتل على الأرض خطوات حذرة بطيئة، يغرز قدمه جيدًا قبل أن ينقل قدمه الأخرى، كحامِل نعش يحمل ركنًا من أركان تابوت خفي. سهل أن يبتسم ويضحك، لكن عينيه باردتان بلون الرصاص. دفعت هاتان العينيان كريستيان ليفكر في القمر الذي يدور حول كوكب زحل. مكان بلا هواء، ماؤه حامض. استمتع بيتر ووالده بصيد جيد، وصاحا في حماس كلما غاصت رصاصاتهما في جلد تمساح، أو أثارت الغبار وهي تضرب جانب جاموس. أما الطريقة التي اصطاد بها فالوز فقد جعلته يبدو كأنه هو السلاح، وما وجود البندقية سوى مصادفة. لم يكن يشعر بالحماس أو المتعة.

ارتفع ذيل الأسد ببطء، ثمَّ ضرب الأرض. ارتفع، ثمَّ توقَّف مكانه، ثمَّ هوى مرَّة أخرى. رقد القِطُّ المُسِنُّ على جانبه.

مرَّ زمن وفالوز يجلس وحده جوار أسده، وظل الباقون يرمقونهما في احترام. مسَّد فالوز على خطم السبع الرطب وحدَّق إلى وجهه المريض الساكن. ربما تحدَّث إليه أيضًا. سمعه كريستيان من قبل يقول للسيد ستوكتون أنه ربما يعتزل الصيد بعدما يصطاد أسده، وأن لا شيء سيبقى ليحمِّسه للاستمرار بعد ذلك.

ضحك ستوكتون وقال: «ماذا عن صيد إنسان؟».

نظر إليه فالوز بتلك العينين الشاردتين الباردتين وقال: «صدتهم واصطادوني، وفي جسدي جروح تثبت ذلك».

تناقش كريستيان وبيتر من يومها حول عدد من اصطادهم. سُرَّ كريستيان لمعرفة رجل كهذا؛ عميلًا للموت.

ظهر عدد من مزارعي البوشمن[1] من الظلام، وتصاعدت أصوات تشجيعهم وتحياتهم في الظلام لمرأى الأسد القتيل. فتح أحدهم كيسًا قماشيًّا حافظًا للبرودة، وأخرج منه علب البيرة المدفونة في الثلج داخله.

ضرب الذيل الأرض مرَّة أخرى، وكان كريستيان يشعر بالأرض تُزلزل من تحتهم. ساعد ستوكتون رفيقه فالوز على النهوض، وناوله علبة بيرة «أوربوك» مثلجة.

أمسك بيتر أنفه وقال: «إلهي! رائحته كرائحة الخراء! يجب أن يحمِّموهم قبل صيدهم».

قال والد بيتر: «هذه رائحة الدجاج أيها الأحمق».

ارتفع الذيل، وهوى مجدَّدًا. سأل كريستيان: «هل المفترض أن يطلق عليه الرصاص مرَّة أخرى؟ هل يتعذب؟».

قال ستوكتون: «كلا. هذا قِطٌّ ميتٌ. لا تعبأ بالذيل. هم يفعلون ذلك، مجرَّد تشنُّج ما بعد الموت بلا معنى».

جلس كريستيان جوار رأس الأسد ممسكًا بدفتر الرسم. رسم سريعًا لبدة الأسد المرتجفة، ثمَّ أعاد رسم خطوطها بدقَّة أكبر. مال مقتربًا من أذنه المشعرة ليهمس إليه قبل أن يرحل، ليودِّعه. بالكاد وعى لجلوس بيتر جواره وللرجلين اللذين يتحدَّثان خلفه. للحظات ظل وحده مع الأسد، وسط السكون العميق بين الموت والحياة، وسط تلك المملكة المنفصلة المهيبة.

قال بيتر مُعيدًا كريستيان إلى الواقع: «هلا نظرت إلى كفِّه؟».

رفع بيتر كف الأسد الأمامية الضخمة، وفرد وساداتها السفلية الجلدية بالضغط عليه بإبهامه. صاح فالوز: «مهلًا».

لكن كريستيان لم يكن واثقًا إن كان يتحدَّث لهما. قال بيتر: «تصلح ثقالة أوراق ممتازة. أليس كذلك؟».

ثمَّ حرَّك الكفَّ ببطء كأنه يلوِّح لكريستيان. برزت المخالب حادَّة معقوفة مصفرة. تقلَّص أحد أوتار الكفِّ فجأة، فقفز كريستيان وضرب صدر بيتر

---

(1) مجموعة عرقية بدائية تحترف الصيد، تعيش في صحراء كالهاري بين بوتسوانا وناميبيا وأنجولا. (المترجمة)

بكتفه. كان سريعًا، لكن الأسد أسرع، وفالوز أسرع منهما. مُسِنٌّ، كسرته الأيام مرارًا، لكنه أسرع منهما.

صدم فالوز بيتر، وسقط ثلاثتهم على التربة المتصلِّبة. شعر كريستيان بشيء يجذب قميصه، كأن القماش قد علق بغُصن للحظات، ثمَّ سحقه الاثنان الآخران وخرج من صدره الهواء. ركل فالوز والتفت مُنزِلًا البندقية عن كتفه ثمَّ رفعها سريعًا، كل هذا في حركة واحدة سلسة. دسَّ ماسورة البندقية أسفل فك الأسد، وأطلق الرصاص الذي أصمَّ صوته أذني كريستيان.

انزلقت بيرة ستوكتون من بين أصابعه، وسقطت على التراب فانسكبت الرغوة منها.

- بيتر؟ بيتر! ما خطبك؟!

بيتر هو أول مَن جاهد للخروج من حيث كانوا، وترك كريستيان وفالوز يلهثان كأنهما تعثَّرا وسقطا فوق بعضهما بعد سباق جري طويل. الجندي العجوز ساخط، وقف بيتر خلفهما ينظر إلى الأسد وهو ينفض ملابسه. ظل في حال من الضبابية والتشتُّت حتَّى جذب والده كتفه وأجبره على الالتفات نحوه. وجه ستوكتون محمرٌّ إلى درجة مقلقة، ونفرت عروق جبهته. صاح في ابنه: «أيها الأحمق اللعين! هل تعرف ما فعلت للتَّوِّ؟ أفسدت صيده اللعين! دفع السيد فالوز ثلاثين ألفًا لأجل هذا القط، والآن ثمَّة ثقب في حجم كرة الجولف في وجهه!».

شهق بيتر ووجهه يلمع بعرق الصدمة والحزن، وقال: «أبي.. أبي...».

قال فالوز: «لم يفسد. يمكن تصليحه بسهولة عند مُحنِّط حيوانات».

حدَّق إلى الظلام وأضاف: «ربما أنا نفسي جاهز للتحنيط».

نقل بيتر ستوكتون نظره من فالوز إلى أبيه ثمَّ إلى الأول مرَّة أخرة. قال كريستيان بصوت مكتوم بعيد: «ما رأيك يا بيتر؟ لقد أنقذ السيد فالوز حياتك للتو. يا لحظك! هذا أفضل ما يمكنك فعله».

سكن رجال البوشمن في غمار ما حدث، لكنهم الآن يزأرون بالضحك وينخرون بالهتاف. جذب أحدهم يدي بيتر، وفتح آخر علبة بيرة بعدما رجَّها وترك رغوتها تنهمر فوق رأس الفتى المراهق. في لحظات تحوَّل بيتر من قرب البكاء إلى الضحك. سدَّد ستوكتون نظرة غاضبة نحو ابنه، ثمَّ ارتخت كتفاه وضحك أيضًا.

شعر كريستيان بنسمات باردة على جلده العاري، فنظر إلى أسفل ورأى أثر مخالب الأسد إذ مزقت قميصه ولم تمَسَّ جسده الشاحب من تحته. ضحك ثمَّ نظر نحو فالوز وقال: «سأحتفظ بهذا القميص لما تبقَّى من حياتي. هذا هو التذكار الذي أتمنَّاه».

ثمَّ فكَّر قليلًا وأضاف: «شكرًا لإنقاذك لي من مخالبه».

- أنا لم أنقذ أحدًا. أنت تحرَّكت أولًا وقفزت كالغزال.

كان يبتسم، لكن عينيه تحملان همًّا. قال له كريستيان في تواضع: «لا أظن هذا يا سيد فالوز».

قال ستوكتون وهو يعتصر كتفي الشاب بين يديه: «نحن نميِّز الأمور جيدًا يا سيد فالوز، ونعرف الرجل الحقيقي حين نراه».

ثمَّ صبَّ بيرته فوق رأس فالوز بينما يتصايح البوشمن. انتشل كريستيان دفتر الرسم برفق ليرى ما رسمه.

***

ستوكتون يرُدُّ الدَّيْن..

عندما دقَّ الجرس، وارَب ستوكتون باب حجرته في الفندق، فرأى فالوز بالخارج. حذَّره ستكتون هامسًا: «ادخل. كن حذرًا. الحجرة مظلمة».

سأل فالوز وهو يدخل الحجرة: «ما خطب النور؟ هل تحضِّر الأرواح هنا؟».

كان الضوء مطفأً والستائر مُسدلة في حجرة السيد تشارن في الطابق الرابع من فندق «فور سيزونز». أُضيء مصباح واحد عند طرف المنضدة، وقد أُطفئ ما سواه، فلم يكن من ضوء إلا الأحمر المنبعث منه. لقد شاهد ستوكتون عرض إدوين تشارن من قبل.

فتح فمه ليفسِّر أو يحاول التفسير، أو على الأقل يضغط على فالوز ليصبر- لكن تشارن تحدَّث أولًا. قال بصوت مرتجف بفعل التقدُّم في السن: «اعتَد عليه يا تيب فالوز. لو منحتك مكانًا في حفل صيدي التالي، سيجبُ عليك الاعتياد على شِبه الظلام. ما يمكن صيده على الجانب الآخر من الباب الصغير يُصاد وقت الغسق، أو لا يُصاد أبدًا».

جلس تشارن على مقعد وثير مخطط على يسار الأريكة الصغيرة، وكان يرتدي ربطة عنق فراشيَّة صفراء، وحمَّالتَيْ بنطال ترفعان سرواله إلى أعلى أكثر ما يجب. فكَّر ستوكتون في أنه يرتدي مثل أزياء مقدِّمي برامج الأطفال الذين يتظاهرون بالطيبة، ويعلِّمون الأطفال العدَّ وأسماء الألوان.

جلس الشابَّان على الأريكة الصغيرة، يرتدي بيتر بذلة من تصميم بيت أزياء أرماني، ويرتدي كريستيان سترة زرقاء. لم يكن كريستيان ثريًّا، والتحق بالدراسة في مدرسة خاصَّة بمجهوده وذكائه. سُرَّ ستوكتون لأن ابنه اختار صديقًا بغضِّ النظر عن محتوى خزانة ملابسه وحالته المادية، وبغضِّ النظر عن خجل كريستيان وتديُّن والديه بالتبنِّي الصارم. بالتأكيد كريستيان هو السبب في أن بيتر قد تخرَّج من المرحلة الثانوية؛ ستوكتون واثق من أنه سمح لبيتر بنقل حلول الامتحانات، وربما كتب له بعض الأبحاث. سَرَّ هذا ستوكتون أيضًا. أن تعتني بأصدقائك، ويعتني أصدقاؤك بك. لهذا السبب أصرَّ ستوكتون على تقديم كريستيان لفالوز والسيد تشارن. كان فالوز يعتني بابن ستوكتون في إفريقيا طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، وشعر ستوكتون بالرضا إذ اطمأن لاستطاعته رد جميل فالوز. بوضوح أكثر، رحلة عبر الباب الصغير ستساوي العناية بأي عدد من الأبناء السِّمان الكسولين عقليًّا.

ثمَّة قفص عصافير على المنضدة الجانبية، مغطًّى بقطعة قماش حمراء. أو ربما كان القماش أبيض وبدا أحمر في هذه الإضاءة. لم يكن ستوكتون واثقًا من اللون. لو أن ستوكتون هو من سيفتتح العرض، فعليه أن يبدأ بقفص العصافير، لكنه لم يفعل، وكذا لم يفعل تشارن.

قال فالوز: «شكرًا لموافقتك على مقابلتي يا سيد تشارن. أنا متحمِّس للغاية لمعرفة المزيد عن الباب الصغير. أخبرني ستوكتون أن لا مثيل له في العالم كله».

قال تشارن: «أجل. باب واحد كافٍ. شكرًا لحضوركم جميعًا لبوسطن. لا أهتمُّ كثيرًا لمغادرة مَين. لا أحب أن أترك الباب وحده كثيرًا، ولا يستدعي عملي السفر المتكرِّر. ينتقل الكلام من شخص لآخر، ومن يثير الكلام فضوله يأتي ويقابلني. لا أقدِّم إلا عرضين للصيد سنويًّا، والقادم سيكون في العشرين من مارس. فقط مجموعة صغيرة. السعر غير قابل للتفاوض».

- سمعت بأمر السعر. أنا هنا لهذا السبب.. سماع نوعية الصيد الذي قد يحصل عليه المرء مقابل ربع مليون دولار. لا أستطيع التخيُّل. أنفقت أربعين ألفًا مقابل صيد فيل، وما زلت أشعر أن السعر مبالغ فيه.

رفع السيد تشارن حاجبًا، ونظر إلى ستوكتون نظرة متسائلة وقال: «لو أن المبلغ يفوق قدرتك على الدفع يا سيدي، فـ...».

قال ستوكتون في ثقة: «لديه المال. هو فقط يريد معرفة ما يمكنه الحصول عليه في المقابل».

لم ينسَ كيف شعر هو نفسه حين كان في موضع فالوز الآن. يذكر تعجُّبه من المبلغ ورفضه لأن يُخدع. أقنعه ما رأى، وسيُقنع فالوز أيضًا.

قال فالوز: «أنا فقط أتساءل عمَّا يمكنني صيده ويساوى هذا المبلغ. أتمنَّى أن يكون ديناصورًا. قرأت قصَّة لراي برادبِري عن شيء كهذا عندما كنت طفلًا. إن كان هذا ما تعرضه، أعدك أنني لن أطأ أي فراشة».

ضحك فالوز، لكن تشارن لم يضحك؛ هدوؤه مريب.

- ولو صدت شيئًا.. هل حقًّا لا يمكنني الاحتفاظ به أو بتذكار منه؟ كل هذا المال ولا أحصل على شيء ملموس في المقابل؟

- صيدك سيُحفَظ في منزلي الريفي. يمكنك رؤيته بموعد مُسبق.

- بلا مصاريف إضافية؟ كم هو عرض كريم منك.

ميَّز ستوكتون الحدَّة في صوت الجندي السابق، وقاوم أن يُهدِّئه أو يربت على ذراعه. لم تضايق تشارن الحدَّة أو السخرية. لقد سمع كل هذا من قبل. سمعه من ستوكتون نفسه منذ ثلاث سنوات. قال تشارن في هدوء: «بالطبع مشاهدة صيدك مجانية، إلا إذا وددت شرب الشاي في أثناء الزيارة، فستدفع ثمنه. والآن، أود أن أشارككم تسجيل ڤيديو قصيرًا غير محترف. صنعته بنفسي منذ فترة، وما زلت أشعر أنه كافٍ لما أحتاجه له. التسجيل الذي سترونه لم يُعدَّل بأي طريقة. لا أتوقَّع منكم أن تصدِّقوه. في الواقع، أنا واثق أنكم لن تصدِّقوا ما فيه. لا يهمني هذا. سأثبت لكم واقعيته قبل أن تغادروا».

ضغط تشارن زرَّ جهاز التحكُّم عن بُعد.

فُتِح المشهد على منظر منزل ريفي أبيض خلفه سماء زرقاء وأمامه حقل قشٍّ جاف. ظهرت الكتابة على الشاشة:

عِزبة تشارن، رَمفورد، مَين.

ثمَّ مشهد حجرة نوم في الطابق الثاني، تزينها لمسات من طابع نيو إنجلَند؛ جرَّة خزفية منقوشة بأزهار زرقاء على الكومود جوار الفراش، فراش نحاسي مفروش عليه غطاء مغزول يدويًّا. نام ستوكتون على هذا الفراش يوم زيارته الأخيرة للعزبة. حسنًا، لم ينم بالضبط. ظل راقدًا أرِقًا طيلة الليل، يايات الحشيَّة تنغرز في ظهره، وجرذان الحقول تخمش السطح في جنون. التفكير في اليوم التالي طرد النوم من عينيه.

ظهرت عبارة أخرى على الشاشة:

أربع حجرات من الطراز الريفي، ودورة مياه مشتركة.

سمع ستوكتون ابنه يهمس لكريستيان: «متأكد أن «الطراز الريفي» تعني باردة وغير مريحة».

إلهي، الولد صاخب حتَّى وهو يهمس.

كان بيتر صغيرًا على أن يحضر مع والده المرَّة السابقة، ولم يكبر كثيرًا الآن، لكن ربما يبقيه كريستيان على قدر الموقف. رتَّب ستوكتون هذا اللقاء كشكر لفالوز على إنقاذه ابنه. ليس للمرَّة الأولى، وتمنَّى لو أن فالوز لم ينقذ ابنه السمين الأبله.

انتقل الفيلم إلى مشهد لباب حديقة صغير، لا يمكن لبالغ أن يعبر منه إلا زاحفًا. الباب عند نهاية حجرة في الطابق الثالث من المنزل الريفي. فكَّر ستوكتون: *الباب!* كاد يصرخ جزلًا لمرأى الشيء المقدَّس. منظره ألهمه وأسعده إلى درجة لم يرها ابنه فيها من قبل، ولا حتَّى يوم ولادته.

السقف منخفض في الطابق العلوي، وفي الناحية القصية من الحجرة، أمام الكاميرا، يميل السقف أكثر نحو الأسفل، لذا فالحائط البعيد لا يزيد ارتفاعه على ثلاثة أقدام. للحجرة نافذة وحيدة مُترَّبة تطل على الحقول بالخارج. ظهرت على الشاشة عبارة:

يُفتح الباب الصغير للصيادين المُختارين مرَّتين في العام. لا تضمن خدمات تشارن الصيد، ويجب دفع المبلغ المطلوب بغضِّ النظر عن نتيجة الصيد.

سمع ستوكتون زفير فالوز المُتململ. الجندي القديم يعبس فتغوص في جبهته ثلاث تجعيدات عميقة. لغة جسده تشي بالضيق. فكر ستوكتون في أن فالوز كان يظن أن «الباب الصغير» اسم محمية، لا باب صغير حرفيًّا.

انتقل المشهد إلى منظر خارجي جوار تل في وقت الغسق.. أو الفجر، مَن يعرف؟ الشمس خلف خط الأفق بالكاد، والسماء مرصَّعة بسحب قرمزية، وحافة التقائها بالأرض كأنها خط نحاسي اللون.

درجات حجرية وسط العشب المصفر تؤدِّي إلى الأسفل، وتختفي بين الأشجار الجافة. لم يكن المنظر يشبه المكان حول منزل تشارن. لا تشبهه لو صُوِّر الفيلم في التوقيت نفسه من العام. المشاهد السابقة توضِّح مظاهر منتصف الصيف، أما هذه فبلاد الهالوين[1].

يأخذ المشهد التالي المتفرِّجين إلى مخبأ صيد يرتفع قليلًا عن الأرض، وجواره صيادان، أحدهما رمادي الشعر يرتدي زيًّا مموَّهًا، والآخر معروف بأنه مؤسس واحدة من أهم شركات التكنولوچيا. ظهر على غلاف مجلة فوربس من قبل. الأول محامٍ شهير دافع عن رئيسين سابقين للبلاد. تأرجح فالوز وهو واقف، وزال عن جسده أثر التوتُّر والضيق. لن يخرج من الحجرة غاضبًا إذَنْ. لا شيء يدفع المستثمرين للمغامرة قدر رجال الأعمال أمثالهم الذين سبقوهم.

ركع مؤسس الشركة على ركبة واحدة، وكعب البندقية مندسٌّ في كتفه، تخرج من فتحة المخبأ نحو بوصة من ماسورة سلاحه. من هذا المكان يمكن رؤية الدرجات الحجرية الخشنة تهبط إلى الوادي بالأسفل حيث يمكن أن تلمح ماءً يجري خلف ستار الأشجار الجافة.

(1) يُحتفَل بعيد جميع القديسين أو يوم الرعب في الحادي والثلاثين من أكتوبر. ربما يعني الكاتب أن المكان في الفيديو في نهاية الخريف. (المترجمة)

قال تشارن: «الصيد ممنوع على ضفة النهر الأخرى. والاستكشاف ممنوع كذلك. أي مَن يُكتشَف أنه قد عبر النهر، تُلغى رحلة صيده على الفور ولن يُرجع إليه ماله».

سأل فالوز: «وماذا عند الضفة الأخرى؟ ملكية حكومية؟».

غمغم ستوكتون: «قبر الدولمين[1]، والنائمة».

قالها عن غير قصد، فجذب صوته الوقور انتباه الرجل الآخر، فحدَّق إليه في ضيق، ولم يعبأ به ستوكتون. لقد رآها مرَّة عبر النهر، ويتوق شيء من نفسه إلى رؤيتها مرَّة أخرى، بينما يخشى حقًّا الاقتراب من مكانها.

ومض ضوء في المشهد، يصعد هذه المسافة معتليًا الدرج الوعر. ظهر شخص يحمل مشعلًا يلتهب بنار زرقاء. كان بعيدًا بحيث لم يميِّز أحد تفاصيله، لكن بدا أنه يرتدي بنطالًا واسعًا مغطًّى بالفراء.

الفيلم يقترب من اللحظات المشوِّقة. شعر الشابين بهذا فمالا أمامًا متحمِّسين.

قرَّبت عدسة الكاميرا المشهد واختفى مؤسس الشركة والمحامي من الكادر، وقلَّ وضوح تفاصيل الرجل على الدَّرج للحظات قبل أن تعيد الكاميرا تركيز عدستها عليه. حدَّق فالوز إلى الشاشة مطوَّلًا، ثمَّ قال: «مَن الأحمق الذي يرتدي هذا الزي العجيب؟».

تنتهي ساقا الرجل عند الدَّرج بحافرين، وساقاه نفساهما مغطَّاتان بالفراء البُنِّيِّ. كاحلاه مثنيان إلى الخلف ككاحلي الماعز. جذعه يخرج من فراء حيواني، لكنه جذع عارٍ لرجل لا يرتدي شيئًا سوى صديري كالح مهترئ مُقصَّب بخيوط ذهبية. قرنان هائلان ينبتان من بين شعره المجعَّد، ومشعله مكون من مجموعة عِصي مربوطة إلى بعضها.

قال تشارن: «يحمل مشعل شوكة الشيطان. يُطقطق خشبه ويتحوَّل لهبه إلى اللون الأخضر في وجود.. خطر. لكن لحسن حظنا، مداه لا يتعدَّى بضع ياردات. يمكن لمنظار «زَيس ڤيكتوري» المُقرِّب أن يُبعدك عن طائلته».

---

(1) نوع من أنواع القبور أو البنايات الطقسية، منتشر في دول شمال أوروبا، وهو عبارة عن صخرتين طوليتين تحملان فوقهما صخرة أخرى بالعرض. (المترجمة)

ابتعد تركيز عدسة الكاميرا عنه لتُظهِر كتف واحد من الصيادين. غمغم مؤسس الشركة: «سُحقًا. أنا أرتجف».

تجمَّد المخلوق الغريب الملتحي في مكانه عند الدَّرج. له رد فعل وسرعة الغزلان الغريزية. انطلقت الرصاصة، فارتدَّ رأس الفَون[1] إلى الخلف وترنَّح نازلًا ثلاث درجات، ثمَّ تعثَّر وهوى متكوِّرًا على الأرض في وضع جنيني.

صاح مؤسس الشركة في حماس، ثمَّ استدار ليضرب كفَّه المفتوحة بكفِّ المحامي، ثمَّ صدر صوت فتح علب البيرة.

قال فالوز: «حسنًا أيها الرفاق. كان هذا فَون، والآن قد انتهينا. لن أدفع ربع مليون لألعب المسَّاكة مع مجموعة مهرجين يرتدون زِي الكومبارسات في فيلم «سيد الخواتم»».

خطا فالوز خطوة نحو الباب، وتحرَّك ستوكتون -لكن ليس بسرعة حركة فالوز في إفريقيا عندما أنقذ بيتر من أن يمزِّق الأسد وجهه-.

قال ستوكتون: «هل تتذكَّر ما قلت في المرَّة الأولى التي نجلس فيها معًا؟ قلت لي إنك أكثر مَن يعرف ما قد يدفعه الإنسان كي يخرج من هذا العالم ولو لفترة، وقلت لك إنني أعرف أيضًا. وأنا حقًّا أعرف. رجاء، امنحني خمس دقائق أخرى يا تيب».

ثمَّ أومأ ستوكتون نحو قفص العصافير وأضاف: «ألا تريد أن ترى ما في هذا القفص؟».

حدَّق فالوز إلى الكف على ذراعه حتَّى سحبها ستوكتون، ثمَّ نقل عينيه -اللتين لا تكشفان سوى عن خواء مرعب- نحو تشارن الذي نظر إليه نظرة حالمة، فنظر فالوز إلى الشاشة.

انتقل الفيلم إلى مشهد حجرة تذكارات الصيد في منزل تشارن الريفي. فُرِشت لتُشبه قاعات التدخين القديمة، فتوسَّطتها أريكة جلدية ومقعدان وثيران، وخزانة كحوليات من خشب الماهوجني. ازدحم الحائط بالتذكارات المعلَّقة، وظهر مؤسس الشركة مرتديًا بنطال منامة قطنيًّا وسترة كريسماس قبيحة وهو يعلِّق تذكاره؛ رأس الفَون الملتحي. حول الرأس عدد من رؤوس

---

(1) فَون هو مخلوق أسطوري من الأساطير اليونانية والرومانية، نصفه السفلي ماعز والنصف العلوي بشري، وهو إله المزارع والغابات. (المترجمة)

الغزلان ذات القرون، وتذكار بدا لأول وهلة كأنه رأس خرتيت أبيض. بعد التدقيق تبيَّن أنه رأس رجل سمين مزدوج الذقن، تتوسَّط رأسه عين واحدة فوق أنف عظيم.

سأل بيتر همسًا: «ما هذا؟».

أجاب ستوكتون بهدوء: «سايكلوبس[1]».

ظهرت الكتابة على الشاشة:

تُحفظ التذكارات في حجرة في منزل تشارن
في بيئة مخصَّصة للحفاظ عليها.
يمكن للصيادين الذين نجحوا في صيدهم أن يزوروا
الحجرة بعد يومين من تاريخ طلب الزيارة.
تكاليف الشاي والمرطبات غير مشمولة في الزيارة المجَّانية.

قال فالوز: «سيدي.. لا أعرف أي أحمق تظنني...».

قاطعه تشارن: «الأحمق الذي يملك مالًا أكثر من اللازم، وخيالًا أضيق من اللازم. سآخذ من الأول وأضيف إلى الثاني، لمصلحتك».

هتف فالوز: «تبًّا لهذا!».

ضغط ستوكتون على ذراعه مرَّة أخرى. نظر بيتر حوله وقال: «هذا ليس زيفًا. أبي ذهب إلى هناك».

أومأ كريستيان نحو القفص المغطَّى وقال: «أرِنا ما تحت الغطاء يا سيد تشارن. أنت تعرف أن من يرى هذا التسجيل سيكتشف زيفه. لكن الناس يدفعون لك أموالًا طائلة رغم هذا، إذَنْ ثمَّة شيء أسفل الغطاء يساوي ربع مليون دولار».

قال تشارن: «أجل. كل من شاهد هذا التسجيل اتهمني بالتزييف والاستعانة بالملابس التنكُّرية والمؤثِّرات الخاصَّة. في عصر الزيف هذا لا نتعرَّف على الحقيقة إلا عندما تُرينا مخالبها وتُدمينا. لـ «الوُرلز» آذان وأعين حسَّاسة،

---

(1) عملاق أسطوري ذُكر في الإلياذة والأوديسة، وهو عبارة عن عملاق على هيئة رجل بعين واحدة. (المترجمة)

وأضواء عالمنا تؤلمها بشدَّة.. حتَّى هذا المصباح الأحمر. لو أخرجت هاتفك الذكي وحاولت تصوير ما ستراه، سأطلب منك المغادرة. الأمر لا يستحق تحمُّل المشقَّة؛ لن يصدِّق أحد ما ستصوره مثلما لم تصدِّقوا تسجيلي.. وستحرمون من عبور الباب الصغير. مفهوم؟».

لم يرُد فالوز. نظر إليه تشارن متفحِّصًا، ثمَّ مال إلى الأمام وسحب الغطاء عن القفص.

كانت تشبه السناجب، أو ربما الظربان الصغيرة. لها فراء أسود ناعم، وذيول منفوشة ذات حلقات على طولها بلون فضي. يديها الصغيرة جلدية رشيقة. واحد من تلك الكائنات يعتمر قلنسوة ويجلس فوق فنجان شاي مقلوب ويغزل بعودَيْ خِلَّة تنظيف أسنان، والآخر عاكف على قراءة كتاب مصور يناسب حجمه.

قال السيد تشارن: «مرحبًا ميهيتابِل، مرحبًا هَتش. لدينا زوَّار».

رفع هَتش -الذي يقرأ الكتاب- رأسه، وارتعش أنفه واهتز شارباه. سأله تشارن: «ألن ترحب بهم؟».

قال هَتش بصوت رفيع مرتجف: «لو لم أفعل، هل ستوخز حبيبتي بسيجارك مرَّة أخرى؟».

ثمَّ استدار ليُحدث ستوكتون وفالوز هاتفًا: «هو يعذبنا، هل تعرفان هذا؟ لو قاوم أحدنا تشارن فإنه يعذب الآخر كي يجبره على طاعته».

قال تشارن: «وهذا المُعذِّب لا يجلب لك قصصًا مصورة تقرأها، ولا يحضر لزوجتك خيط الغزل؟».

رمى هَتش الكتاب وقفز نحو القضبان ناظرًا من بينها إلى كريستيان الذي تراجع في جلسته. صاح: «أنت يا سيدي! أرى في عينيك صدمة! صدمة من القسوة التي تراها أمامك! كائنان ذكيان حسَّاسان يحبسهما مجرم، ويعرضهما مقابل المال على رفاقه الساديين، الصيادين بلا شرف! أرجوك، اهرب. اهرب الآن. أخبِر الجميع أن النائمة ربما تصحو! ربما يوقظها أحدهم بأنفاس الملك لتقودنا ضد السجَّان؛ الجنرال جورم، وتخلِّصنا من أرض باالينود أخيرًا! ابحث عن الفَون المسمى سلوفوت.. أعرف أنه ما زال حيًّا لكنه ضلَّ طريقه أو سُحِر كي ينسى نفسه.. أخبره أن النائمة ما زالت في انتظاره!»

انخرط كريستيان في ضحك هستيري وهو يقول: «يا رجل! للحظة لم أفهم ما يجري. هذه خُدعة، كلام من البطن ودُمى، أليس كذلك؟».

نظر فالوز إلى الشاب وزفر زفرة طويلة بطيئة ثمَّ قال: «بالتأكيد. عرض رائع. وضعت مكبِّر صوت في قاعدة القفص وأحدهم يبثُّ الصوت من غرفة مجاورة. انطلت عليَّ الخدعة للوهلة الأولى يا سيد تشارن».

ردَّد تشارن: « نحن لا نميِّز الحقيقة إلا عندما تُرينا مخالبها، وتُدمينا. تفضَّل إذَنْ، أدخِل إصبعك في القفص يا سيد فالوز».

ضحك فالوز ضحكة خاوية وقال: «لست واثقًا من أنني تلقيت تطعيماتي. قد يتضرَّر منِّي الوُرلز أكثر ممَّا قد أتضرَّر منه».

حدَّق فالوز إلى تشارن للحظة، ثمَّ دسَّ إصبعه داخل القفص بلا مبالاة. نظر هَتش إلى الإصبع بعينين ذهبيتين ذاهلتين، لكن ميهيتابِل هي التي قفزت من مكانها وأمسكت الإصبع بكلتا يديها الصغيرتين وصرخت: «لأجل النائمة! لأجل الإمبراطورة!».

ثمَّ أنشبت أسنانها في إصبع فالوز. سحب فالوز يده صارخًا. ردة فعله أسقطت ميهيتابِل على ظهرها. ساعدها هَتش على النهوض وهو يغمغم: «أوه، عزيزتي، حبيبتي...».

بصقت الدم على أرضية القفص ولوحَّت بقبضتها تجاه فالوز.

اعتصر فالوز يده بقوة والدم ينزف من إصبعه. ظل ينظر إلى القفص كأنما محقون بمخدر.. مخدر من مخدرات شركة ستوكتون ربما.

غمغم: «شعرت بصراخها في كفِّي».

قال ستوكتون: «هي حقيقية يا فالوز. حقيقية حتَّى إنها استطاعت أن تغرز أسنانها فيك».

أومأ فالوز شاردًا دون أن ينظر إلى القفص، ثمَّ قال مُشتَّتًا: «كم تريد مُقدمًا يا سيد تشارن؟».

***

بيتر يحتفل..

جلس الرجلان في الأمام، وجلس بيتر مع كريستيان في الخلف. انزلقت السيارة عبر قناة من الثلج المنهمر الناصع. إشارة الهواتف المحمولة ضعيفة، ولا يوجد ما يفعلونه طوال الرحلة سوى الحديث.

قال كريتسيان كأنه طفل يطالب بقصة ما قبل النوم: «احكِ لنا عن النائمة».

لا يستطيع بيتر تحديد إن كان يحب كريستيان حقًّا أم أنه يشعر سرًّا بنوع من الاحتقار تجاهه. ثمَّة شيء بشأنه تعجز الكلمات عن التعبير عنه، شيء عن شعره الذهبي البراق، وعيناه المبتهجتان وتقبُّله لنفسه، والمتعة التي يقبل بها على مذاكرته، والموهبة الفجَّة التي يرسم بها. حتَّى رائحته جيدة. تشاركا حجرة سكنية في خلال السنوات الأربع الأخيرة وكان بابها مفتوحًا أغلب الوقت، يملؤها الطلبة الصغار الملتحقين بالمدرسة. حين يقف بيتر جوار كريستيان يشعر كأنه قزم يقف في الظلال بجوار مِشعل ملتهب. مع ذلك، كريستيان يعشقه وقبِل بيتر هذه المشاعر على اعتبارها من حقوقه؛ لن يصطحب شخصًا آخر سوى كريستيان إلى ميلانو أو أثينا أو إفريقيا.. أو في رحلة عبر الباب الصغير.

قال ستوكتون: «هي على الجانب الآخر من النهر. تمكث في مكانها ونلتزم نحن بمكاننا».

- لكن، هل لديك فكرة عن كنهها أو ماهيتها؟

فتح والد بيتر زجاجة خمر «چيم بيم» في حجم صغير، وكان قد أخذها من مضيفة الطائرة من تورنتو إلى بورتلاند، مَين، حيث التقيا بفالوز. ارتشف رشفة وقال: «يمكنك رؤيتها إن نزلت حتَّى ضفة النهر، ترقد عند الجهة الأخرى تحت ما يسمونه دولمين، وهو بناء يبدو من حقبة ما قبل التاريخ.. بيت حجري مفتوح الحوائط، تحته ترقد.. فتاة، تحمل باقة أزهار».

مال بيتر إلى الأمام ليسأل سؤالًا ما كان ليسأله كريستيان: «أي نوع من الفتيات يا أبي؟ فتاة مثل فتيات الصف الثالث الثانوي أو فتاة من فتيات الصف الثالث الابتدائي؟»».

ضحك كريستيان. هذا شيء آخر اكتسبه كريستيان من صداقته ببيتر. بيتر يحصل على مساعدة في امتحان التاريخ، وكريستيان يحصل على شخص يقول ويفعل ما لا يمكن أن يقوله أو يفعله شاب مهذَّب مثله.

سأل فالوز: «ماذا تظنه قد يحدث إن عبر أحد النهر إليها؟».

- لا تفكر حتَّى في المزاح بهذا الشأن. تذكَّر عبارتك الساخرة عن صيد الديناصورات.

- أجل، وقلت إنني سأحذر من أن أطأ فراشة، لأن قصَّة راي برادبِري...

- أعرف القصَّة. الكل يعرفها. هل تريد عبور النهر؟ هذا سحق للفراشة اللعينة. نحن سنظل ناحية التلال. سنلتزم بمكاننا عند جهة النهر الأخرى.

عبث ستوكتون في عصبية بمفتاح ضبط المذياع حتَّى استقرَّ على قناة تبث موسيقى «الكنتري». إيريك تشرش يغني عبر غلاله من التشويش الاستاتيكي.

فالوز أكثر أصدقاء والد بيتر إثارة، وأراد الشابُّ أن يعرف منه كيف كان يقتل الناس في الحرب، وكيف هو شعور غرز سكين في جسد أحدهم. قرأ بيتر عن الجنود الذين قتلوا الأعداء ثمَّ اغتصبوا زوجاتهم وبناتهم. بدا لبيتر أن هذا سبب كافٍ للالتحاق بالجيش.

كان يحلم بالتجنيد حين أبطأوا السرعة عند السور المبني على الطريقة العسكرية؛ سياج معدني بارتفاع عشرة أقدام يقطع الطريق. أنزل فالوز زجاج نافذته، ومال والد بيتر نحوه ليحيي كاميرا الأمن، فارتفع الحاجز أمامهم لتعبر السيارة.

قال فالوز: «نسي تشارن أن يبني مخبأ بندقية آلية عند البوابة».

أنهى والد بيتر زجاجة خمره وتركها تسقط على أرضية السيارة المُستأجرة. تجشَّأ ثمَّ قال: «بل توجد واحدة، أنت فقط لم ترها».

حملوا حقائبهم بأنفسهم عبر الشرفة الخارجية التي تمتد على جانبي المنزل. قابلوا هناك السيدة تشارن القصيرة السمينة، التي تتحاشى تلاقي الأعين وتنظر باستمرار تجاه الأرض. أكثر شيء مميَّز فيها هو البثرة الحمراء المقرفة تحت عينها اليمنى، وهي بثرة غائرة كأنها سُرَّة ثانية في وجهها.

أخبرتهم أن السيد تشارن لن يكون في المنزل قبل المساء، ويمكنها أن تريهم المكان. كره بيتر رائحة المنزل التي تفوح بعبق الكتب القديمة والستائر المتربَّة والعطن. بل أن بعض ألواح الأرضية الخشبية مخلوع. إطارات الأبواب

عمرها قرون (قرون) وبعضها مائل، وكلها أقصر ارتفاعًا بكثير ممَّا يناسب طول إنسان القرن الحادي والعشرين. غرف النوم في الطابق الثاني، صغيرة، مرتَّبة، ذات أَسِرَّة فردية قاسية الحشية، وأثاث قديم، وأوعية قضاء حاجة للزينة.

قال ستوكتون عندما ارتطمت قدم بيتر بواحدة منها: «أتمنَّى أن تكون للزينة فقط حقًّا».

قال كريستيان: «مزحة موفَّقة يا سيد ستوكتون».

كلما توغَّلوا في البيت أكثر، زاد إحباط بيتر. الحمام في الطابق الثاني يُضاء عن طريق جذب سلسلة مثبتة إلى مصباح السقف، وعندما رفع غطاء المرحاض خرج منه عنكبوت طويل الأرجل.

همس بيتر: «أبي. هذا المكان مستودع قمامة».

- يجب أن تفكر من منظور الدخل الذي يجلبه لأصحابه ويزيد على مليون دولار في العام.

قالت السيدة تشارن من خلفهم مباشرة: «كل شيء يظل في مكانه».

بدا أنها منزعجة من سماع أن بيتها الريفي يُطلَق عليه مستودع قمامة. أردفت: «لا تقوِّموا أي إطار باب مائل. لا تغيِّروا موضع قشَّة. هو لا يعرف السبب الذي يُفتح لأجله هذا الباب على المكان الآخر، ولن يغيِّر شيء خشية ألا يُفضي الباب إلى هذا المكان مرَّة أخرى».

زحف العنكبوت طويل الأرجل عبر الأرضية ثمَّ تسلَّق حذاء بيتر ماركة جوتشي، فسحقه.

لكن بيتر ابتهج حين وصلوا إلى نهاية الجولة. منضدة كبيرة وُضعَت في منتصف حجرة التذكارات. مرأى كل تلك الرؤوس المقطوعة أحدث شعورًا غريبًا في معدة بيتر، أشبه بخفقان الرغبة الذي ينتابه كلما خطط لتقبيل فتاة.

جال بيتر وكريستيان في القاعة متجاوران، ينظران إلى الأعين المحدِّقة والوجوه الميتة. بالنسبة للناظر العادي، لو تجاهلت القرون التي تنبت من الرؤوس ذات الوجوه الملتحية، سيبدو له أن السيد تشارن قد ذبح فريقًا من

الفنانين المُلتحين. توقَّف بيتر عند أحد الرؤوس. أشقر ذو ملامح أنثوية. مدَّ يده يداعب شعره وهو يقول: «يبدو أننا وجدنا أباك الحقيقي يا كريستيان».

أشار له كريستيان إشارة بذيئة بإصبعه الوسطى، ولأنه شابٌّ مهذَّب، أخفى الإشارة خلف جسده فلم يرها أحد.

نظرا إلى السايكلوب صامتين ذاهلين، ثمَّ انتقلا إلى رأسَيْ كائني أورك[1] رماديي البشرة، آذانهما مزينة بأقراط نحاسية، ولسانيهما المتدلِّيين بنفسجيي في لون الباذنجان. أحد رأسَيْ الأورك معلَّق على ارتفاع خصر الإنسان، فتظاهر بيتر أنه يداعبه. ضحك كريستيان، لكنه مسح عرق الخجل عن حاجبه.

قُدم لهم بعد ذلك حساء البازلاء، ورغم أنه بدا كسائل ممَّا يخرج من أفواه الممسوسين في الأفلام، كان ساخنًا مالحًا، وأنهى بيتر طبقه بسرعة. تبعه الطبق الرئيسي المكوَّن من فخذ حَمَل سمين. قطع بيتر منه نسائر طولية تقطر دهنًا -كان هذا أشهى لحم تناوله في حياته- لكن كريستيان لم يأكل منه، واكتفى بوخزه بالشوكة. عرف بيتر بالعِشرة أن معدة كريستيان حسَّاسة، ويقيء بسهولة، خصوصًا في أول أيام المدرسة وقبل الامتحانات الكبرى.

لاحظت السيدة تشارن هذا، فقالت: «البعض يقلق كما تقلق أنت الآن. الأشخاص الأكثر حساسية، خصوصًا في وقت الاعتدالين الربيعي والخريفي».

قال كريستيان: «أشعر كأنني فراشة على حافة بالوعة».

تحدَّث بلسان ثقيل، كأنه مراهق يثمل لأول مرَّة في حياته.

أمسك فالوز من تحت المنضدة قطعة لحم لتأكلها كلاب السيد تشارن الصغيرة، وهي ثلاثة من نوعية «رات تيريَر» تطوف حول كاحليه بلا توقُّف.

- لم تخبرينا عمَّا ينويه السيد تشارن.

قالت: «هو عند المُحنِّط، يتسلَّم آخر ما أرسله إليه».

قال كريستيان وهو يقوم دافعًا كرسيه إلى الخلف: «أستأذن منكم».

---

(1) كائن خيالي من خيال الكاتب ج. ر. ر. تولكين، وهو كائن عنيف شبه بشري. (المترجمة)

اندفع نحو باب مزدوج وخرج منه. سمعه بيتر يتقيَّأ في المطبخ. رائحة القيء وصوت المُتقيِّئ تقلب معدته، لكن بعد أربعة أعوام من مشاركة كريستيان الحجرة اعتاد الأمر. سمح بيتر لنفسه بأخذ قطعة بسكويت أخرى بالزبد.

اعترف والد بيتر: «أصابني الغثيان في المرَّة السابقة التي جئت فيها إلى هنا أيضًا».

ربت على كوع بيتر بحنان وأضاف: «ستتحسَّن حالته حين يحصل على ما جئنا لأجله.. حين ينتهي الانتظار. بحلول الوقت نفسه غدًا سيكون جائعًا للغاية».

نظر نحو رأس المائدة وسأل: «هل يمكن أن نحتفظ بما تبقى من الطعام لكريستيان يا سيدة تشارن؟ فَون بارد أفضل من عدم وجود أي فَون على الإطلاق».

***

تشارن يكتشف متطفِّلًا..

دخل السيد إدوين تشارن منزله قرابة الساعة الحادية عشرة مساءً، يحمل وعاءً زجاجيًّا مغطًّى بقطعة قماش بيضاء. نفَّض حذاءيه فتساقط عنهما ما علق بهما من ثلج، ثمَّ صرَّ لوحٌ من ألواح الأرضية الخشبية في مكان ما بالأعلى، فتصلَّب مكانه. وقف عند بداية الدَّرج وركَّز كل حواسه على المنزل الريفي. من الشائع أن نقول إنه شخص يعرف بيته جيدًا مثلما يعرف راحة يده، لكن الحقيقة أن السيد تشارن يعرف منزل رَمفورد الريفي أكثر ممَّا يعرف راحة يده. كل ما احتاج إليه هو الإنصات إلى الصمت لبعض لحظات كي يحدِّد -بدقَّة غريبة- كل ما يحدث في البناية.

صوت الشخير غير المنتظم في مقدِّمة المنزل هو صوت زوجته. يستطيع أن يتخيَّل هيئة نومها؛ رأسها مائل إلى الخلف، وفمها مفتوح، تقبض على طرف الملاءة بيد واحدة. صوت يايات الفراش تصرُّ في حجرة من حجرات الطابق الثاني عن يمين الدَّرج. من صوت الصرير الثقيل استنتج أن النائم على الحشية هو ستوكتون. رجل العقاقير يحمل ستين رطلًا زيادة فوق وزنه الطبيعي. ابنه بيتر ينفس بصوتٍ عالٍ في أثناء نومه ويطلق غازات البطن.

أمال تشارن رأسه وظن أنه سمع صوت قدمين رشيقتين على الدرجات المؤدِّية إلى الطابق الثالث. لا يمكن أن تكون هذه صوت خطوات فالوز، الجندي الذي تمزَّق ثمَّ رُتِق أكثر من مرَّة في حرب أو أخرى. فالوز عصبي قوي، لكنه يتحرَّك بنوع من الصعوبة. لم يتبقَّ بعد الاستثناء إلا كريستيان، الفتى الذي يجسِّد دور أمير مثالي في قصَّة ملهمة من قصص الأطفال.

خلع تشارن حذاءيه وصعد الدرجات بحرص شديد وهو يحمل الوعاء.

كان كريستيان يرتدي منامة مخططة طوليًّا من طراز قديم، من نوعية المنامات التي يرتديها أبناء دارلينج(1) في ليلة رأس السنة عام 1904، ويقف عند نهاية العليَّة قرب آلة حياكة قديمة ذات بدَّال حديدي. البساط في العليَّة قديم أخضر باهت، يغطِّيه التراب فلا يمكن تمييزه من الأرضية الخشبية تحته. الباب الصغير -كأنه باب خزانة- عند طرف الحجرة البعيد، ينتظر. ظل تشارن صامتًا بينما الولد يفتح المزلاج النحاسي.

قال تشارن: «مجرَّد باب يُفضي إلى أسلاك كهرباء المنزل ومواسير السباكة».

أجفل الولد، وضرب رأسه في السقف المنخفض. جزاء كافٍ للتلصُّص. تراجع على رُكبتيه ودار نحو الصوت بوجه محمرٍّ خجلًا كأن تشارن ضبطه يشاهد صورًا إباحية.

ابتسم تشارن ليوضح للولد أنه ليس في مشكلة. السقف قرب الدَّرج في ارتفاع يناسب طوله تقريبًا. أمسك الوعاء الزجاجي أمامه بكلتا يديه كأنه نادِل يحمل وجبة ما قبل النوم الخفيفة.

- لم أرَ أي شيء إلا الفراغ خلف الجدران، حتَّى الساعة الثانية والنصف صباحًا، في ليلة الثالث والعشرين من سبتمبر عام 1982. سمعت صوتًا كأن ماعزًا انطلق في الطابق الثالث. صوت الحوافر يطرق الألواح بلا انقطاع. خرجت إلى الصالة في الوقت الذي رأيت شيئًا يندفع نحوي. ظننته صغيرًا.. لا أقصد طفلًا، بل صغير ماعز، هل تفهم؟ ضربني في بطني بقرنيه فأسقطني، ثمَّ أكمل طريقه. سمعته ينزل الدَّرج ثمَّ خرج من الباب الأمامي. خافت إدنا زوجتي من مغادرة حجرة النوم.

---

(1) أبناء جون دارلينج، إحدى شخصيات قصة بيتر بان، وهم الأبناء الذين سيلتقون الطفل بيتر بان السحري الذي لا يكبر. (المترجمة)

عندما تمالكت نفسي نزلت الدَّرج وكدت أتعثَّر من الألم. وجدت الباب الأمامي مفتوحًا على ليل صيفي رائع. الحشائش العالية تتماوج تحت قمر مكتمل. ظننت أن غزالًا تسلَّل إلى البيت بشكل ما، وأرعب نفسه، ثمَّ هرب. لكنني لم أكن ممَّن يتركون الباب مفتوحًا أبدًا في الليل، ثمَّ فطنت إلى أن الغزال لن يصعد إلى الطابق الثالث. بدأت في صعود الدَّرج متجهًا إلى العلية، حين لفت نظري وميضٌ؛ عملة ذهبية ذات نقش ظبي، ينعكس عليها الضوء. ما زالت معي حتَّى الآن. صعدت باقي الدرجات ذاهلًا نصف مرتعب. كان الباب الصغير موصدًا، ولا أعرف أي هاجس دفعني لفتح الرتاج. وعلى الجانب الآخر.. الأطلال! همهمة ريح عالم آخر! الغسق الذي ظننته يُنذر بليلٍ أبدي. فتحت الباب كل يوم من وقتها. احتفظت بتقويم. العالم الآخر ينتظر الاعتدال الربيعي والخريفي، والانقلاب الصيفي والشتوي. في باقي الأيام لا يوجد خلفه شيء سوى الأسلاك والمواسير. صدتُ أول فَون في ربيع 1984، وأحضرته إلى البيت، وسعدت لأن مذاقه أفضل بكثير من لحم الضأن. من وقتها وأنا أصطاد أي شيء، من الفَون وحتَّى الأورك، من الوُرل إلى الويزل، والآن صارت متعتي في منح الرجال الآخرين الفرصة لقتل القصص الخيالية بأنفسهم. لذبح وحوش قصص ما قبل النوم. هل تعرف أنك لو أكلت قلوب الوُرل لفترة تستطيع فهم لغة السناجب؟ لا أقصد بالطبع أن لديهم ما يقولونه. كلها ثرثرة عن الطعام والتزاوج. أصابني الصلع وأنا في الثلاثينيات، لكن شعري عاد للنموِّ بعدما انتظمت على أكل لحوم الفَون. لم أتحدَّث عن الأمر مع السيدة تشارن على أية حال، لكني صرت أضاجع كالفحول في أثناء أسفاري. أذهب إلى بورتلاند لزيارة بيوت المتعة مرَّتين في الشهر، وأترك النساء هناك منهكات. السر هو مسحوق قرون الأورك الذي يجعل عقار الڤياجرا كالأسبيرين مقارنة به. غدًا ترى رفاقك يقتلون أحلام اليقظة بأنفسهم.

أومأ كريستيان في أدب، ثمَّ أغلق الباب الصغير. سار حافيًا مطرق الرأس نحو الدَّرج، لكن عندما مرَّ من جوار تشارن نظر خلفه إلى الوعاء المغطَّى بنوعية القماش نفسها التي كانت تغطِّي قفص العصافير.

- سيد تشارن، ما هذا؟

خطا السيد تشارن نحو شعاع القمر، ووضع الوعاء على طاولة آلة الحياكة. جذب الغطاء وطواه على ذراعه.

- هذه الحجرة عارية بعض الشيء، أليس كذلك؟ ظننتها تحتاج إلى شيء يزينها.

مال كريستيان لينظر إلى ما في داخل الوعاء. اثنان من الوُرل محشوَّان وثابتان. واحد منهما يقف فوق غصن شجرة يحمل سيفًا في طول خنصر كريستيان، ويكشف عن أنيابه كأنه يزأر. الثاني يرتدي وشاحًا أخضر وينظر نظرة خبيثة كأنه يتحضَّر إلى الهجوم. قال تشارن: «هَتش العجوز المسكين. ميهيتابِل العجوزة المسكينة».

الجزء الثاني: جهتهم من الباب

ستوكتون يتمنَّى صحبة أفضل..

كان مزاج بيتر متعكرًا في الصباح. نسي أن يجلب معه سكين العمليات من نوعية MTech ذات مقبض يشبه مقبض المسدس. ظل يشكو ويضرب الأرض وينوح في حجرة نومه وهو يقلب محتويات حقيبة التخييم. لا بُدَّ أنه في مكان ما. عكف على هذا حتَّى دخل عليه ستوكتون وطلب منه أن يهدأ أو يمكنه البقاء في هذا العالم مع العجائز.

صعدوا إلى العلية بعد شُرب القهوة وتناول الفطائر المُحلَّاة، مرتدين زيًّا مموَّهًا بدرجات السكَّري والأخضر القاتم، مدجَّجين جميعًا بالأسلحة النارية عدا كريستيان الذي لم يكن مسلَّحًا سوى بدفتر الرسم. كان قد تعافى تمامًا ممَّا حدث له ليلة أمس، وأضاءت عيناه بالسعادة. نظر من وجه إلى وجه كأنه في صباح الكريسماس، ينفجر بمشاعر الرفقة الجيدة. تساءل ستوكتون إن كان من الممكن أن يصاب شخص بالصداع من رفقة شخص بهذا المرح. يجب أن يُحرم التفاؤل الزائد من الحد هذا، وحماية الناس منه كما يحمونهم من التدخين السلبي. لتخفيف الألم المستمر خلف عينيه، فتح وعاء القهوة الممزوجة بالقشدة الآيرلندية[1] ورشف رشفة.

---

(1) قشدة ممزوجة بالويسكي. (المترجمة)

تشارن آخر مَن انضمَّ إليهم، ولم يبدُ اليوم أشبه بمقدِّمي برامج الأطفال، ببندقيته «المارلين 336» معلَّقة على كتفه، وعلى وجهه أمارات العدوانية كصيَّاد موسمي محترف.

قال تشارن وهو ينظر إلى كل واحد منهم: «أحدكم لم يُطِق صبرًا على الانتظار حتَّى الصباح وحاول فتح الباب ليلة أمس».

احمرَّ وجه كريستيان، فابتسم تشارن وأضاف: «هلا كرَّرت المحاولة يا سيد سويفت؟».

ركع كريستيان على ركبة واحدة أمام الباب الصغير. أمسك الرتاج للحظات على سبيل التشويق، ثمَّ جذبه ليفتح الباب.

طارت أوراق شجر جافَّة إلى داخل الحجرة حاملة معها رائحة الخريف. نظر كريستيان إلى ضوء الغسق على الجهة الأخرى، ثمَّ أخذ شهيقًا وزحف عابرًا الباب. ردَّد الصدى صوت ضحكته الرقيقة الرنَّانة من العالم الآخر. رفع ستوكتون وعاء القهوة إلى شفتيه ورشف رشفة أخرى.

بيتر يتوق إلى المغامرة..

تبع بيتر كريستيان إلى الأرض العارية الباردة، وخرج من تحت حافة صخرية منخفضة. استقام واقفًا، ونظر من حوله ليجد نفسه في أرض ممهَّدة بين التلال، مدرج طبيعي مفروش بالحشائش الجافة. دار في دائرة كاملة ينظر من حوله. تكسو الطحالب الجلاميد الصخرية المتناثر في أرجاء المكان الفسيح. احتاجوا إلى دقائق حتَّى أدركوا أن وقفتهم في نصف دائرة مقصودة، كأنهم أسنان في فكٍّ سفليٍّ لكائن وحشيٍّ عتيق. تنشر شجرة مشوَّهة ميتة ظلال أغصانها على الأطلال. أطلال أي شيء؟ معبد وثني ما على الأرجح، مَن يعرف؟ ليس بيتر ستوكتون طبعًا.

هوت كفُّ أبيه على كتفه. الريح تِفحُّ كالثعابين من بين الحشائش الجافة. قال أبوه: «أنصِت».

أمال بيتر رأسه، وبعد لحظات اتسعت عيناه.

الأعشاب تهمس: سُم، سُم، سُم، سُم.

قال له أبوه: «هذه حشائش قاتلة. تهمس بهذه الكلمة كلما هبَّت الريح في وجود رجال من عالمنا».

السماء فوقهم بلون ملاءة مبقَّعة بالدماء.

نظر بيتر إلى الباب خلفه في الوقت نفسه الذي عبر فيه فالوز من عالم إلى آخر. من هذه الجهة، إطار الباب مصنوع من الحجارة الخشنة، والباب نفسه لم يكن سوى كوة في جانب التل أسفل حافة صخرية. زحف تشارن عابرًا في النهاية، وأغلق الباب خلفه.

قال تشارن: «انتبهوا إلى ساعاتكم. الساعة الآن الخامسة وأربعون دقيقة صباحًا. يجب أن نعود قبل الخامسة وأربعين دقيقة مساءً. لو فتحتم هذا الباب قبل الثانية عشرة مساءً لن تجدوا خلفه سوى الصخور. في عالمنا لا يُفتَح الباب إلا كل ثلاثة أشهر، لكن ثلاثة أشهر هنا بمقدار تسعة أشهر هناك. يجب أن تنتظروا مدَّة حمل امرأة حتَّى تستطيعوا فتحه مرَّة أخرى، في الانقلاب الصيفي، الحادي والعشرين من يونيو. في حال لم تحسبوها جيدًا... أجل. مرَّت سبعة وثلاثون عامًا منذ فتحت الباب للمرَّة الأولى في عالمنا، لكن مرَّ هنا مائة وأحد عشر عامًا».

قال كريستيان في جزل: «قرن من الشفق المستمر».

قال بيتر في رهبة: «قرن من الظلال».

علا صوت تشارن فوق صوتهما قائلًا: «أنا أتكلَّم من خلال خبرتي الشخصية المرعبة: أنتم لن تتحمَّلوا المغامرة بالبقاء هنا. أمضيت أغلب عام 1985 في هذا العالم، وحاول الفَون اصطيادي، وخانني الوُرل، وأُرغِمت على صفقة حقيرة مع جولِم[1] لخدمة الجنرال جورم البدين. تسعة أشهر من الشفق.. تسعة أشهر من صراع الظلال. لو تفرَّقنا وضللتم طريق العودة، ستُتركون هنا».

فكَّر بيتر: *إلهي، لكم يحب الكلام*. بدا لبيتر أن سبب الرحلة ليست الصيد، بل سماع الخطب.

(1) مخلوق من الأساطير اليهودية، وهو جسد طيني بُثَّت فيه الحياة عن طريق السحر. (المترجمة)

تبعوا تشارن نازلين الدرجات الحجرية. تمايلت أغصان الأشجار الجافة وتصارعت، وعصفت الريح بأوراقها الجافة بين كواحلهم.

توقَّفوا جميعًا عند صوت أنين مخيف. سأل والد بيتر: «غول؟».

أومأ تشارن. صدح الأنين مرَّة أخرى، فقال كاتمًا ضحكته: «موسم التزاوج».

تأرجحت بندقية بيتر وراحت تضرب ظهره، في مرَّة شبكت في غصن. عرض السيد فالوز أن يحملها عنه، ولم تخف نبرة صوته ضيقه. ارتاح بيتر للتخلُّص منها، فقد كان يشكو أنه يحمل ثقلًا كافيًا. هذا من أكثر ممَّا يكره في الصيد، بالإضافة إلى طول الانتظار، ومنع أبيه له من إحضار هاتفه المحمول. إطلاق النار على الكائنات ممتع، لكن الساعات تمُرُّ عادة ولا يحدث أي شيء. أرسل صلواته إلى أي كان من آلهة همجية تحكم هذا العالم يطلب فيها صيدًا قبل أن يموت مللًا.

كريستيان يشتاق إلى الليل..

نزلوا أكثر فأكثر. سمع كريستيان خرير الماء عن بعد، وارتعد بِشرًا كأنه مغمور حتَّى خصره في ماء بارد.

قادهم تشارن عبر الغابة. بعد ياردة من الطريق لمس شريطًا أسود حريريًّا يتدلَّى من غصن منخفض. أومأ إيماءة ذات معنى، واتجه إلى عمق الغابة المسمومة. تتبعوا وجود الشرائط السوداء لمسافة نصف ميل حتَّى وصلوا إلى مخبأ الصيد المنتصب على ارتفاع عشرين قدمًا. كان كوخًا صغيرًا مندسًّا بين فرجة في جذع شجرة ضخمة تشبه البلوط لكنها ليست كذلك. يتدلَّى من غصن قوي سُلَّمٌ من الحبال مغطًّى بالطحالب، قرَّبه تشارن إلى أسفل باستخدام عصا طويلة.

في الكوخ مقعدا تخييم، ورف خشبي يحمل أكوابًا متربَّة، وكتابًا بذيئًا بعنوان «شهوة بعشرين دولار» في حال احتاج أحد إلى شيء يقرؤه. عند جهة التلال فرجة في الحائط بارتفاع قدم وعرض ثلاثة أقدام. يمكنك أن ترى لمحة من النهر من خلال الأشجار.

صعد تشارن السُّلَّم بعدما صعدوا جميعًا قبله، وأخرج رأسه فقط من المدخل الأرضي وقال: «بنيت هذا المخبأ في عام 2005، ولم أصطد منه

منذ 2010. كل عام من أعوامنا بثلاثة أعوام من أعوامهم، لذا أعتقد أن أحدًا من حُرَّاسهم بالقرب من هنا. يمكنكم رؤية الدرجات الحجرية وملاحظة أي حركة على الطريق المحاذي للنهر. يجب أن أذهب للتحقُّق من سلامة مخابئي الأخرى، وأضع بعض الفخاخ للوُرل. ببعض الحظ يمكنني الحصول على بديل لميهيتابِل وهَتش قبل أن نغادر هذا العالم. لو سمعت صوت إطلاق رصاص سأعود سريعًا، ولن ألومكم لو أطلقتم النار عليَّ في هذه الإضاءة الشحيحة. أعرف ما قد ترونه من هذا المخبأ وليست لديَّ أي نية في أن أدخل حيز إطلاق النار. احترسوا من الفَون! هم كُثُر وسرعان ما سترون عددًا منهم. تذكَّروا، لا توجد قوانين هنا ضد صيد الظباء أو الفَون الصغير، فلحومها رائعة طرية.. لكننا لا نُعلق تذكارات سوى من الكائنات الكبيرة!».

رفع إصبعين في تحية ساخرة، ثمَّ نزل السُّلَّم مغلقًا الباب الأرضي خلفه.

جلس كريستيان على أحد مقاعد التخييم ووضع دفتر الرسم على فخذيه، لكنه مطَّ جسده إلى أعلى ليفحص شبكة عنكبوت في ركن علوي ظليل. العنكبوت كتب بعض كلمات بالخيوط:

فراش مجاني للذوباب

همس كريستيان مبهور الأنفاس لبيتر كي يأتي ويرى. نظر بيتر إلى العبارة هُنيهة ثمَّ قال: «لا أظن كلمة ذباب تُكتب هكذا».

هوى ستوكتون جالسًا على مقعد التخييم الآخر، وفتح واحدًا من أزرار زيِّه المُموه وأخرج قِربة صغيرة. رشف رشفة من القهوة ثمَّ ناولها لفالوز، فرفض.

قال كريستيان الذي فتح دفتره على صفحة جديدة: «صعب تصديق أن ما نراه حقيقي، وأنني لا أحلم».

سأل ستوكتون: «ما الوقت الآن؟ قرب النهار أم قرب الليل؟».

أجاب كريستيان: «ربما لم يُقرر بعد. ربما يسير في أيٍّ من الاتجاهين».

سأله فالوز: «أي تجاه تفضل؟».

- الليل طبعًا! أراهن أن أفضل الكائنات تظهر ليلًا. الوحوش الحقيقية. عظيم لو استطعنا العودة برأس مذؤوب لنعلِّقه في حجرة التذكارات.

قهقه بيتر. كان قد استعاد بندقيته من فالوز ثمَّ تمدَّد على الأرض. قال ستوكتون من فوق حافة قربته: «لنتمنَّى ألا نقابل مذؤوبًا. بعد كل ما أنفقناه للعبور إلى هنا لم يعد معنا ما نشتري به رصاصات من الفضة».

***

فالوز يتجهَّز...

مرَّت ساعة، ثمَّ أخرى. أكل كريستيان وبيتر الشطائر، وتهدَّلت جلسة ستوكتون على مقعده وهو يشرب القهوة الممزوجة بالكحول ويبدو ناعسًا. انتظر فالوز جوار الباب المفتوح يحدِّق إلى الليل. نبضه يدق بقوة وسرعة، وشعور بالقلق الممزوج بالحماس جعله يتذكَّر شعور الانتظار في طابور ركوب دوَّارة الملاهي. كهذا يشعر فالوز قبل القتل.

قال كريستيان: «أريد رؤيتها. النائمة. سيد ستوكتون، أنت لم تذكر إن كانت فتاة صغيرة أم شابة».

- حسنًا، أنا رأيتها فقط من بعيد، لكنني أظنها..

مدَّ فالوز يده إلى الخلف في إيماءة تعني طلب الصمت. تصلَّب جسد بيتر وحدَّق عبر الفتحة التي تواجه التلال. دون أن ينظر خلفه، أشار فالوز لكريستيان كي ينضم إليهم عند النافذة.

ثلاثة ظلال تصعد الدرج، أطولها يحمل مشعلًا ذا لهب أزرق، وقرنا ثور على جنبي رأسه، يسير وكفه على كتف طفله الذي يرتدي صديريًّا واسعًا وفوق رأسه قرنان صغيران، أما الثالث فكان خلفهما يحمل سلة.

همس فالوز: «هم لك يا بيتر. جهَّزت سلاحك بنفسي».

حدَّق بيتر إلى الهدف بعينين فضوليتين مفكِّرتين، ثمَّ قال: «لو أطلقت النار على الصغير ستتوقَّف لمحاولة نجدته، وقتها يمكننا اصطيادها جميعًا».

قال ستوكتون: «أوه، فكرة جيدة. لديك عقل ممتاز في رأسك، وبعد دقيقة ستحصل على رأس أفضل لحائط السيد تشارن».

قال كريستيان: «نفِّذ».

وضغط بيتر الزناد.

***

الصيَّاد يجمع صيده الأول..

صدر من البندقية صوت غير مُرضٍ.

جذب بيتر ترباس البندقية غاضبًا حائرًا ليجدها فارغة. هتف بيتر: «سحقًا».

من خلفه انقلب مقعد على الأرض.

- سيد فالوز، البندقية فارغة.

نظر إلى الخلف من فوق كتفه، فاسودَّ وجهه ثمَّ شحب. انتزع كريستيان تركيزه عن الفَون ونظر ليرى بنفسه ما حدث. سقط والد بيتر بمقعده، ومقبض سكين صيد يبرز من صدره. وجهه الأحمر السمين مرتبك، يحمل تعبير وجه رجل اكتشف أن مدخرات عمره في المصرف قد اختفت بطريقة غير ممكنة في الواقع. خطر على بال كريستيان خاطر مُشتِّت أن السكين في صدر الرجل هي التي كان يبحث عنها بيتر صباحًا ولم يعثر عليها.

حدَّق بيتر إلى والده وهمس: «أبي؟».

وقف فالوز أمام ستوكتون وظهره نحو الشابَّين. كان يجرِّد الرجل المحتضر من بندقيته، ولم يصدر عن ستوكتون أي صوت، ولم يشهق حتَّى، ولم يبكِ...

اندفع بيتر من خلف كريستيان وأمسك ببندقية فالوز CZ 550 التي كانت مرتكنة إلى الحائط. أصابعه متصلِّبة مرتجفة جرَّاء الصدمة، فأسقطها على الأرض.

لم يجرِّد فالوز رفيقه من بندقيته بالكامل؛ حزامها ملفوف حول كتفه، وستوكتون نفسه يقبض على كعب السلاح في محاولة أخيرة للمقاومة. نظر فالوز إلى الولدين خلفه وقال: «كُف عمَّا تفعل يا بيتر».

أخيرًا أمسك بيتر بندقية فالوز، ثمَّ فتح الترباس ليتأكد أنها محشوَّة، وكانت كذلك.

خطا فالوز من فوق ستوكتون واستدار ليواجههما. لا يزال ستوكتون متمسِّكًا بسلاحه، لكن فالوز يمسك ماسورة البندقية ويضع إصبعه على الزناد ويوجِّه فوهتها نحو بيتر.

قال فالوز مرَّة أخرى بصوت بارد: «توقَّف».

أطلق بيتر النار. صوت الطلقة يصمُّ الآذان من تلك المسافة القريبة. هزيم مرعب تلته صفَّارة مولولة. طار جزء من جذع الشجرة خلف فالوز إذ أصابته الرصاصة. بينما تتطاير الشظايا حول فالوز، ضرب يد ستوكتون وضغط زناد بندقيته. ارتدَّ رأس بيتر إلى الخلف وانفتح فمه في صرخة مألوفة لدى قاتله. الفتحة الحمراء مسودَّة الأطراف فوق حاجبه الأيسر واسعة، بعرض إصبعين.

سمع كريستيان صرخة، لكن لم يتبقَّ أحياء سواهما في المخبأ. بعد لحظات أدرك أنه هو نفسه مصدر الصراخ. أسقط دفتر الرسم ورفع ذراعيه يقي بهما وجهه. لم يُدرك ما قال أو وعد به، ولم يسمع صوت نفسه عبر الطنين الذي يغشى سمعه.

انفتح الباب الأرضي مقدار قدم، وأطل منه تشارن. حرَّر فالوز البندقية من ستوكتون، ووجَّهها نحو الرجل المُسِن. أغلق تشارن الباب سريعًا، وسمع كريستيان صوت تهشُّم أوراق الشجر بالأسفل إذ سقط فوقها.

فتح ستوكتون الباب الأرضي دون أن ينظر خلفه، وقفز منه.

***

كريستيان يهرب...

مضى وقت طويل قبل أن يستطيع كريستيان الحركة. أو على الأقل شَعَر هو أنه وقت طويل. في هذا العالم نصف المُضاء لا يمكن الحكم على مُضي الوقت. لم يكن مع كريستيان ساعة وقد ترك هاتفه المحمول بأمر تشارن في العالم الآخر. كل ما عرفه أن الوقت الذي مرَّ يكفي كي يبلِّل سرواله، ويبرد هذا البلل.

انتابته نوبات ارتجاف عنيفة. رفع رأسه بالكاد ليطل من النافذة. اختفى الفَون منذ فترة والتلال صامتة وسط العتمة.

فطن فجأة إلى ضرورة العودة سريعًا إلى الباب الصغير. أخذ دفتره مفكرًا في سبب أخذه -لأنه ملكه، لأن فيه رسوماته- وزحف عبر أرضية المخبأ العارية. توقَّف متردِّدًا جوار جثة ستوكتون. الرجل الضخم يحدِّق إلى السقف بعينين مدهوشتين، قربة القهوة جواره وقد انسكبت محتوياتها وأغرقت خشب الأرضية. فكر كريستيان في ضرورة نزع السكين من صدر

ستوكتون، لكنها كانت مغروزة عميقًا بين ضلعين. الجهد دفعه للبكاء. فكر في أن يزحف عائدًا إلى بيتر ويأخذ منه بندقية فالوز، لكنه لا يتحمَّل النظر إلى الثقب في جبهته. في النهاية ترك المخبأ كما جاءه، غير مُسلَّح.

نزل سلم الحبال مرتعدًا. الصعود كان سهلًا، والنزول أصعب لأن ساقيه ترتجفان. حين وصل إلى الأرض نظر حوله ثمَّ اتجه نحو التلال والدرجات الحجرية. لفت نظره شريط حريري أسود، فعرف أنه على الدرب الصحيح.

كان قد سار كثيرًا حتَّى تعرَّق حين سمع صوتًا كأنه قرعات حوافر خيل تعدو بين الأشجار. على بعد أقل من اثني عشر قدمًا رأى اثنين من الفَون ينطلقان بين الظلال، أحدهما يحمل خنجرًا، والآخر يحمل مقلاعًا. قفز الفَون الذي يحمل الخنجر من فوق جذع شجرة مائل، ثمَّ اختفى من مجال إبصاره. تبعه الآخر ذو المقلاع بعد بضع خطوات. توقَّف الكائن إذ نظر نحو التلال ورأى كريستيان. نظر إليه نظرة كارهة متعجرفة. صرخ كريستيان وهرع ينزل المنحدر.

ظهر جذع الشجرة أمامه كأنما بزغ من فراغ، فاصطدم به ودار حول نفسه نصف دورة، ثمَّ هوى وتدحرج. ضُربت كتفه في صخرة، فتدحرج مجدَّدًا هابطًا إلى أسفل بسرعة متزايدة حتَّى سقط جسده على وسادة من الأشجار الجافة وارتطم بشجرة أخرى أوقفت حركته. وجد نفسه عند سفح التل، خلف الأشجار طريق مخضر بالطحالب والنهر.

خشي كريستيان أن يتوقَّف، ولم يفكر في خطورة إصاباته. نظر إلى أعلى التل، فرأى الفَون يحدِّق إليه من مسافة خمسين قدمًا، ويعدو تجاهه. أو هذا ما ظن أنه رآه. ربما كان مجرَّد شجرة أو صخرة. أصابه الخوف بالجنون، فراح يعدو ويلهث، جانبه يؤلمه بشدَّة وكاحله لا يستطيع حمله، وأدرك أنه فقد دفتر الرسم في مكان ما.

تبع الفتى النحيل الطريق الموازي للنهر الذي يبلغ عرضه عرض طريق من أربع حارات، لكنه لم يكن عميقًا، تجري مياهه بين صخور بارزة، ثمَّ تصب في أحواض غائرة. درجة حرارتهم في المخبأ أضفت دفئًا على الطقس، لكن الآن، جوار النهر، الجو بارد حتَّى إن كريستيان رأى بخار أنفاسه أمام عينيه.

انطلق صوت نفير من مكان بعيد؛ نفير صيد ذي صوت ممطوط كأنه صرخة. نظر إلى الخلف فزعًا، ثمَّ ترنح في سيره. عشرات المشاعل تضيء بلهب أزرق في الظلام على طول الدرجات الصاعدة إلى التلال. خطر لكريستيان أن هناك مجموعات من الفَون فوق التلال يصطادون البشر.. يصطادونه.

وانطلق يعدو.

بعد مائة ياردة انحشرت قدمه بين الصخور فانكفأ على قدميه ورُكبتيه. ظل على أربع هُنيهة يلهث، ثمَّ لمح ثعلبًا عند الجهة القصية من النهر ينظر إليه بعينين متحمِّستين مرحتين. حدَّقا إلى بعضهما قدر شهيق، ثمَّ اختفى الثعلب في ظلام الليل يصرخ: «بشري هنا! ابن قابيل! اذبحوه! تعالوا واذبحوه وسألعق دمه!».

أجهش كريستيان بالبكاء وترنَّح مبتعدًا. جرى حتَّى داخ ورأى العالم ينبض أمامه ويخفت. أبطأ سرعته، ساقاه ترتجفان، ثمَّ صرخ في خوف؛ الضوء المتراقص أمامه لم يكن سوى مشعل أزرق اللهب، يحمله ظل أسود على خلفية أكثر سوادًا، يرفعه إلى أعلى بيُمناه، وفي يده اليسرى مسدس.

تصرَّف كريستيان بلا تفكير. لأن الرجل عن يمينه، انطلق كريستيان نحو اليسار وخطا إلى النهر. كان أعمق ممَّا بدا. بعد ثلاث قفزات وجد نفسه مغمورًا في الماء حتَّى ركبتيه، وفي خلال لحظات فقد أي شعور بقدميه.

جرى، وابتعدت الأرض من تحته. غاص حتَّى خصره وهو يصرخ من برودة الماء. أنفاسه قصيرة سريعة. بعد بعض خطوات أخرى لم يعد تحته ما يسير عليه، فصارع التيَّار الذي لم يتصوَّر أن يكون بهذه القوة.

كان الشاب في منتصف النهر حين رأى الدولمِن. شريحة حجر رمادي بحجم سقف مرأب، مُثبتة فوق ستة أحجار مائلة معوجَّة. تحت السقف الحجري الرمادي، وفي منتصف المنطقة المسقوفة، مذبح صخري عتيق تنام في سلام فوقه فتاة ترتدي فستانًا منزليًّا أبيض. أرعبه مرآها، لكن الخوف من مطارديه أجبره على التقدُّم.

خرج فالوز من بين ظلال الأشجار ونزل حتَّى كاحليه في النهر بعدما خلع حذاءيه. بينما يترنَّح الشاب ويغرق، كان فالوز يعرف بطريقة ما موضع خطواته جيدًا ولم تصل الماء إلى رِبلتيه قط.

الماء عند الضفَّة يصل إلى الحوض، فقبض كريستيان على العشب كي يُخرج نفسه. همست الحشائش السامَّة: سُم، سُم، سُم، وانخلعت من جذورها ليسقط في الماء مرَّة أخرى. انفجر في صرخات غيظ وهو مغمور حتَّى عنقه. رمى نفسه على الضفة مرَّة أخرى وراح يركل ويدفع نفسه كخنزير يحاول الخروج من الوحل، حتَّى وصل إلى الأرض الجافة. لم يتوقَّف، واندفع يعدو نحو الدولِمن.

المقبرة الصخرية عند حافة خميلة، وأقرب خط أشجار على بعد مائة قدم، ففهم كريستيان أنه لو حاول الوصول إلى تلك الغابة لاصطاده فالوز ببندقيته بسهولة. إلى جانب هذا فهو مُتعب، يرتجف. فكر أن يختبئ أو يتحدَّث بالعقل مع فالوز. لم يكن قد صاد شيئًا من قبل، وكان واثقًا أن فالوز لم يقتل الآخرين لما فعلوه من قبل فقط، بل لما كانوا ينتوون فعله. شعر بالإجحاف في هذا المنطق؛ لقد قتل فالوز أسدًا أيضًا!

من مخبئه السخيف استطاع كريستيان أن يرى الفتاة. شعرها الذهبي يصل إلى كتفيها ويبدو ممشطًا من وقت قريب، وتضمُّ باقة أزهار الحوذان والجزر البري إلى صدرها. كل ما رآه كريستيان في هذا المكان إما ميت وإما يموت، لكن هذه الأزهار تبدو يانعة كأنها قُطِفت من فورها. بدت الفتاة في التاسعة من عمرها، بشرتها نضرة وردية.

ألقت النيران ضوءًا أزرق على المقبرة مع اقتراب فالوز الذي سأل برفق: «هل رأيت من قبل وجهًا يوحي بالثقة أكثر من هذا؟».

ظهر في مجال إبصاره، يحمل مسدسًا في يد والمشعل في الأخرى. كان قد وجد دفتر رسم كريستيان وحمله تحت ذراعه. لم ينظر نحو الشاب، بل جلس على حافة المذبح جوار النائمة، ونظر إليها كأنها مُلهمته.

وضع فالوز الدفتر بجواره، ثمَّ أخرج من سترته المموَّهة زجاجة صغيرة، ثمَّ ثانية، ثمَّ ثالثة.. خمس زجاجات. فتح غطاء الأولى وقرَّب الفوَّهة من شفتَي الفتاة رغم أن الزجاجة كانت فارغة، أو بدت فارغة.

قال فالوز: «هذا العالم يكتم أنفاسه من وقت طويل يا كريستيان، لكنه الآن يستطيع التنفُّس مجدَّدًا».

فتح الزجاجة الثانية وقرَّبها من فمها. همس الشاب: «يكتم أنفاسه؟».

أومأ فالوز وهو يقول: «هذه هي أنفاس الملوك. أنفاس الأسد والفيل، أنفاس الفهد والجاموس والخرتيت العظيم. ستعكس عمل السَّام: الجنرال جورم، وستوقظها وتوقظ العالم معها».

حين أفرغ الزجاجات كلها، زفر ثمَّ مدَّ ساقيه وأضاف: «لكم أكره الأحذية. حفظ الله جنسي من شر الأحذية، ومن شر الأقدام الصناعية!».

أنزل كريستيان عينيه إلى الحافرين الأسودين عند طرفي ساقي فالوز. حاول أن يصرخ ثانية لكن الصراخ قد نفد. رآه فالوز يجفل، وظهر على ثغره ابتسامة خافتة.

- كان عليَّ أن أحطِّم كاحلي.. أحطِّمهما وأعيد تشكيلهما حين جئت إلى عالمكم أول مرَّة. لاحقًا كسرهما لي طبيب وأعاد إصلاحهما على أن يتقاضى مليون دولار ويحفظ سري، وقد دفعت له بالرصاص كي أضمن صمته.

مرَّر فالوز أصابعه خلال شعره المموَّج ومس طرف أذنه الوردية هو يقول: «حمدًا لله أنني لست من فَون الجبال، بل فَون سهول عادي! لفَون الجبال آذان كآذان الغزلان في عالمكم، بينما للفَون أمثالي آذان بشرية. على أية حال، كنت لأقطع أذنَيَّ من أجلها لو تطلَّب الأمر. كنت لأقطع قلبي وأقدِّمه نابضًا بين يديها».

نهض فالوز وخطا خطوة تجاهه. تحوَّل لون لهب المشعل في يده من الأزرق إلى الزمردي الباهت، وتطاير منه الشرر.

قال فالوز: «لا أحتاج إلى مشعلي كي أعرف أنك هنا، ولم أحتج إلى رؤية رسوماتك كي أعرف حقيقة قلبك».

ثمَّ رمى الدفتر عند قدمَيْ كريستيان.

نظر كريستيان إلى رسوماته التي توضِّح رؤوسًا مقطوعة معلقة على عِصي: رؤوس أسد، وحمار وحشي، وفتاة، ورجل، وطفل. قلَّبت الرياح الصفحات، فتبدَّت رسوم لأسلحة نارية وأخرى بيضاء. انتقلت عينا كريستيان المرتعبتان الذاهلتان إلى المشعل وقال: «لماذا غيَّر اللهب لونه؟ أنا لست خطرًا!».

- تشارن لا يعرف الكثير عن شوكة الشيطان. اللهب لا يغيِّر لونه في وجود الخطر، بل في وجود الخبث.

قال كريستيان: «أنا لم أقتل شيئًا قط!».

- كلا. كنت فقط تضحك بينما يقتل الآخرون. مَن الأكثر خبثًا يا كريستيان، السادي الذي يبدي طبيعته، أم العادي الذي لم يفعل شيئًا ليمنعه؟

- أنت قتلت! أنت ذهبت إلى إفريقيا وقتلت أسدًا!

- أنا ذهبت إلى إفريقيا لأحرِّر مَن أستطيع من أصدقاء إمبراطورتي، وقد فعلت بعدما وضعت بعض المال في الأيدي المناسبة. اثني عشر فيلًا، وأربع وعشرين زرافة. أما الأسود فقط أصبتها بأحد أمراض عالمكم كي أحافظ على كبريائها وأطلقها. أما بالنسبة للأسد العجوز الذي قتلته، فقط كان مستعدًّا للرحيل. طلبت منه المغفرة قبل يوم صيده. أنت أيضًا تحدَّثت إليه.. بعدما أطلقت عليه الرصاص. هل تتذكَّر ما قلته وهو ينزف؟

اضطرب وجه كريستيان، وشعر بوخز خلف عينيه.

- سألته كيف هو شعور المُحتضَر. حاول أن يُريك يا كريستيان، وكاد أن ينجح. لكم تمنَّيت لو لم تهرب منه. ما كنت وقتها لأضطر إلى ما ارتكبت هنا من فظائع.

صاح كريستيان: «أنا آسف!».

فقال فالوز: «أجل. كلانا آسف».

أخفض ماسورة سلاحه حتَّى قبَّل معدنه صدغ كريستيان الذي صرخ: «انتظر! أنا...».

وضاع صوته وسط الهزيم.

***

النائمة تصحو..

بعدها، جلس فالوز بجوار الفتاة ينتظر. لوقت طويل لم يحدث شيء. اقتربت مجموعات الفَون من الدولمِن دون أن يدخلوا إلى دائرته، ينظرون نحوه في إجلال. بدأ أكبرهم في الغناء، وهو فَون مُسِنٌّ يُدعى فورجيڤنوت، ذو وجه مشوه بجرح طولي كبير. تغنَّى باسم فالوز القديم الذي تركه بعدما غادر هذا العالم عندما عبر من الباب الصغير مع آخر كنوز الإمبراطورة بحثًا عن أنفاس الملوك ليعيد إليها الحياة.

تغيَّر لون الضوء ببريق لؤلؤي خافت حين تثاءبت الفتاة وفركت عينها بقبضتها. نظرت إلى أعلى بعينين ناعستين غائمتين حتَّى رأت فالوز. لوهلة لم تتعرَّف عليه وانعقد حجباها تساؤلًا، ثمَّ ميَّزته وضحكت.

- أوه، سلوفوت. أنت كبرت من دوني! بل وفقدت قرنيك الشامخين! آه يا عزيزي، يا صديقي القديم ورفيق لعبي!

بحلول الوقت الذي خلع فيه فالوز ملابسه البشرية، وحلق له فورجيڤنوت شعره بسكين عريض، كانت هي قد جلست على المذبح الحجري تؤرجح ساقيها فوق العشب، وقد ركع الفَون في صف أمامها مطرقي الرؤوس، يتلقُّون منها البركة.

***

عالم يصحو معها...

للمرَّة الثالثة، جزَّ تشارن على أسنانه كي لا يفقد الوعي. عندما انتهى الدوار أكمل طريقه زحفًا، لا يقطع سوى عشر ياردات في الساعة. كُسِر كاحله الأيسر؛ تحطَّمت عظامه حين قفز من المخبأ.

هناك عشرة من الفَون في حلقة العبادة، يجلسون ليمنعوا أي مهرب من خلال الباب الصغير، لكن مع تشارن بندقيته. شقَّ طريقه إلى أعلى محاولًا تفادي العشب القاتل الذي سيهمس لو رآه: سُم، سُم، سُم، وتحرَّك ببطء حتَّى إن صوت حفيف أوراق الشجر الجاف تحته لم يكن مسموعًا حتَّى بالنسبة لآذان الفَون. ثمَّة رف من الصخر يبرز من تحت المساحة المنبسطة أمام الباب ولا يمكن تخطِّيه إلا من الجانب؛ المنحدر من أسفله قائم الزاوية، والأرض مخلخلة.

هل فكَّر في إطلاق النار عليهم؟ حسنًا، هذا تساؤل آخر. ربما ينتهي حفل الفَون المسلَّح بعد قليل، أو ربما يظهر الولد كريستيان ويجذب انتباههم عنه. هذا إضافة إلى أن كثرتهم ربما تجبره على التسلُّل بعيدًا. لقد استطاع النجاة من هذا العالم تسعة أشهر من قبل، وهو يعرف أن في وسعه عقد اتفاق مع جولِم. الجنرال جورم البدين يحب التعاون مع الأشرار المُسلَّحين أمثال تشارن.

جرَّ تشارن نفسه إلى ما خلف جذع شجرة نخِر، ثمَّ مسح العرق عن جبينه. ضرب البرق شجرة بجواره وكادت تسقط فوقه. تحرَّك أحد قربه، ودخل الفَون المُسِن فورجڤنوت إلى المرج، ومقلاعه يتدلَّى من حزامه. يعرف تشارن جيدًا؛ أصابه بطلق ناري في المكان الخاطئ، وتسبب له في الجرح الهائل في وجهه، لذا كان يكره ألا يصيب هدفه بدقَّة.

رؤيته دفعت تشارن إلى أن يقرِّر أن يقتلهم الآن قبل أن يظهر المزيد. أنزل بندقيته الريمنجتون عن كتفه ووضع ماسورتها فوق جذع الشجرة، ثمَّ صوَّبها نحو فورجيڤنوت.

شيء تحرَّك على الشجرة الميتة خلفه، ثمَّ صوت همهمة وحفيف.

- قاتل!

صاح بها أحد الوُرل وهو يحدِّق إلى الأسفل نحو تشارن من حيث يقف فوق غصن.

- انجوا بأنفسكم! ابن قابيل هنا ليقتلكم جميعًا!

تدحرج تشارن وصوَّب السلاح إلى أعلى. تلاقت عيناه وعينَي الوُرل، ثمَّ أطلق الرصاص.. لكن شيئًا لم يحدث. حدَّق إلى البندقية مدهوشًا؛ لقد حشاها بالرصاص منذ دقائق. هل تعطَّلت؟ لم يصدِّق هذا. لقد واظب على تزييت السلاح وتنظيفه شهريًّا سواء استخدمه أم لا.

كان يحاول معرفة سبب تعطُّلها، حين سقطت أنشوطة فوق رأسه وأُحكِمَت حول عنقه حين تحرَّك محاولًا النهوض. خنقته الأنشوطة وجذبته إلى الخلف بعنف من فوق جذع الشجرة، ونحو الحافة. ضرب الأرض بقوة أخرجت كل الهواء من رئتيه. ضلوعه مكسورة، والألم يصرخ داخل عظام كاحله. مئات البقع السوداء تدور حوله كالبراغيث، لكنها في عقله فقط.

ارتمى على الأرض على بعد عشرة أقدام من الباب الصغير. بمجرَّد أن انجلى نظره، رأى لون السماء أزهى، بلون الليمون، وسحب بعيدة تقترب.

تحرَّكت يده اليمنى بحثًا عن بندقيته، لكن من يُمسك الحبل سحبه بعيدًا. خُنِق تشارن أكثر، وحاول إمساك الحبل، لكنه فشل. تدحرج وركل وهو يُسحَب، وجرح بطنه حتَّى وصل إلى الشجرة النخرة التي تظلِّل المُدرَّج.

قال فالوز من فوقه: «البندقية لن تفيدك على أية حال».

حدَّق تشارن إلى حافريه الأسودين.

- خلعت عنها إبرة الإطلاق ليلة أمس بينما كنت في الأعلى مع كريستيان.

ارتخى الحبل قليلًا، واستطاع تشارن أن يوسِّع الأنشوطة ليتنفَّس. حدَّق إلى فالوز. رأسه حليق تمامًا، يظهر عند جانبيه آثار قرنين مكسورين منذ زمن، تضيء من خلفه السماء بضوء أحمر ذهبي كلون النحاس المصقول.

وقفت فتاة صغيرة بجوار فالوز تمسك يده. نظرت في حزن إلى تشارن نظرة ملكة وقور. قالت: «لقد لحق بك يا سيد تشارن. لقد عثر عليك أخيرًا».

سأل تشارن: «مَن؟ مَن لحق بي؟».

كان حائرًا مرتعبًا، يريد أن يعرف أي تفاصيل. رمى فالوز الحبل من فوق غصن شجرة سميك. قالت الفتاة: «نور الصباح».

بقولها هذا، جذب فالوز الحبل ليرفع تشارن عاليًا وهو يصرخ ويركل في الهواء.

العائدون

عندما رحل والداي، رحلا معًا.

كتب والدي بضعة خطابات أولًا. كتب واحدًا إلى قسم شرطة بلدة «كينجزوارد». نظره ضعيف للغاية -هو أعمى تقريبًا منذ ثلاث سنوات- لذا كان خطابه مختصرًا، مكتوبًا بخط بالكاد مقروء. كتب للشرطة يخبرهم أن هناك جثتين في السيارة «الكاديلاك» الزرقاء الواقفة في مرأب بيته في شارع «كين». كانت أمي تعتني بأبي حتَّى ثلاثة أشهر مضت، لكنها شُخِّصَت بالخرف، وتدهورت حالتها سريعًا. خشي كلاهما أن يُثقلا على ابنهما الوحيد بعبء العناية بهما، وقرَّرا التصرُّف قبل أن يُحرما الاختيار. اعتذر أبي بصدق عن «أي فوضى وأي ضغط» سببه خيارهما.

كتب خطابًا آخر لي اعتذر فيه عن سوء خطه، لكنني أعرف مشكلة عينيه. كتب كذلك: «أمك تخشى أن تنفعل عاطفيًّا لو كتبت لك». قالت له إنها تريد أن تموت قبل أن تنسى الأشخاص الذين يجعلون حياتها تستحق العيش. طلبت منه أن يساعدها على الانتحار، واعترف لها أنه كان مستعدًّا «للتخلُّص من كل الهراء» منذ عام أو اثنين، لكنه مكث في الحياة ليكون معها.

قال أبي إنني كنت ابنًا رائعًا. قال إنني كنت أفضل جزء من حياته، وإنني كذلك بالنسبة لأمي أيضًا. طلب منِّي ألا أغضب منهما.. وكأن هذا ممكنٌ. قال إنه يتمنَّى لو أتفهَّم قرارهما، وأنهما لم يريدا الحياة فقط لأجل الحياة.

«قلتها ألف مرَّة من قبل، لكني ما زلت أومن أن بعض الكلمات لا تفقد قوتها مهما كررناها. لذا: أحبك يا چوني. وأمك تحبك أيضًا. لا تحزن طويلًا. الطفل الذي يحيا بعد أبويه هو القصَّة السعيدة الوحيدة التي يحصل عليها البشر».

ختم الخطابين ووضعهما في صندوق البريد، ثمَّ رفع العلم الأحمر الصغير إلى أعلى. عاد إلى المرأب حيث أمي تنتظره في السيارة. دار محرِّك السيارة حتَّى فرغ من الوقود وماتت البطارية. السيارة قديمة كفاية ليكون فيها جهاز تشغيل شرائط كاسيت، فظلا يسمعان ألبوم «صورة چوان بيز». أراهما في عقلي، رأس أمي على صدر أبي، وذراعه حول كتفيها، لكنني لست واثقًا من أنهم وجدوهما في هذه الوضعية. كنت في شيكاجو أقود سيارتي نصف النقل متجهًا إلى متجر «وُلمارت» حين اقتحمت الشرطة المرأب. آخر مرَّة رأيت فيها والدَيَّ كانت في المشرحة. حوَّل الاختناق وجهيهما إلى لون الباذنجان. هذه هي آخر نظرة لي عليهما.

شركة الشحن والإمداد التي أعمل فيها فصلتني. عندما اتصلت بي الشرطة على هاتفي المحمول، دُرت بالشاحنة دون أن أسلِّم شحنتي، ولم تحصل المتاجر على العنب الأحمر الذي طلبته، فثار مديري وطلب منِّي الرحيل.

استحقَّ والداي الموت بالطريقة التي اختاراها، كما عاشا بالطريقة التي اختاراها. لم يبدُ أنهما حصلا على الكثير: مزرعة وبيت من طابق واحد في نيوهامبشير، سيارة عمرها اثنان وعشرون عامًا، وتَل ديون. قبل أن يتقاعدا معًا كانت أمي تعلِّم اليوجا وأبي سائق شاحنات مسافات طويلة. لم يثريا ولم يشتهرا، وعاشا في بيتهما خمسة وعشرين عامًا قبل أن يمتلكاه.

لكنها كانت تقرأ له بينما يطهو، ويقرأ لها بينما تطوي الغسيل. ركَّبا بازِل من ألف قطعة معًا كل أسبوع، وأنهيا الكلمات المتقاطعة في الجريدة كل يوم.

دخَّنا الكثير من الحشيش، وتشاركا سيجارة ملفوفة في السيارة قبل أن يخنقا نفسيهما. حكَّم والدي في آلاف المباريات المحلية الصغيرة، وتطوَّعت أمي في حركات سياسية وحقوقية، ولم يصارع أحد مثلها -بكل هذا التفاؤل

والحماس- لأجل قضايا خاسرة. قلت لها إن لديها حساسية من المنتصرين، فصاح أبي: «مهلًا! لا تتحدَّث عن شيء ما لم تجربه! لو كانت كذلك ما كنت سأنال فرصة في أي شيء».

وكانت يداهما تتعانقان في أثناء المشي.

وأحبا المكتبة. عندما كنت صغيرًا، كُنَّا نذهب معًا صباح كل أحد. أول هدية كريسماس تلقَّيتها كانت محفظة زرقاء مُطرَّزة، وبداخلها بطاقة استعارة المكتبة.

لسبب ما، كلما فكرت في زياراتنا للمكتبة في نهاية كل أسبوع، أجد أنني أتذكَّر زيارات أول أيام هطول الثلج في السنة. أبي يجلس إلى واحدة من المناضد الخشبية المقشَّرة في حجرة الانتظار، يقرأ رواية «أتلانتيك» بجوار مصباح مكتب أخضر ونافذة ذات زجاج ملون مرسوم عليها راهب ينقش زخرفة لنص ديني. تقودني أمي إلى قسم كتب الأطفال حيث الأرائك الضخمة الملونة بالألوان الأساسية؛ أحمر، أصفر، أزرق، وتطلق سراحي. حين أحتاج إليها، أجدها تقرأ تحت تمثال بلاستيكي عملاق لبومة ترتدي نظارة.

المكتبة مكان مهم بالنسبة لهما، فقد تقابلا لأول مرَّة في واحدة. عاشت أمي في مدينة «فيڤر كريك» القريبة، في بيت القس المرفق بالكنيسة. كان زوج أمها قسًّا إنجيليًّا عصابيًّا ثقيل الظل. أمضى أبي أغلب الصيف في تلك المدينة، يعمل في ساحة خردة مع عمه. تقابلا وهما ينتظران عربة المكتبة المتنقِّلة التي تزور المدينة أسبوعيًّا. يمكنك وقتها أن تقترض أسطوانات الموسيقى والكتب -كان ذاك هو صيف الحب على كل حال- وأبواي -اللذان لم يصيرا أبوَيَّ بعد- يمدَّان أيديهما إلى النسخة الوحيدة من ألبوم صورة چوان بيز في الوقت نفسه. توصَّلا إلى حل؛ إن تركها تأخذ النسخة، فيمكنه القدوم إلى بيت القس أي وقت لسماعها. أمضيا الصيف كله يستمعان إلى الألبوم معًا على أرضية غرفة نومها في البداية، ثمَّ على فراش غرفة نومها.

***

لم أقصد حقًّا أن أصير أمين مكتبة. حين دخلت المكتبة بعد خمسة أسابيع من دفن والدَيَّ لم يكن في عقلي سوى إعادة الكتب المستعارة التي حان وقت إرجاعها.

ترك والداي خلفهما أكوامًا من فواتير العلاج غير المدفوعة، ودينًا بمائة ألف دولار، اقترضاه كي يلحقاني بالجامعة. مال مُهدَر. حصلت على بكالوريوس في اللغة الإنجليزية من جامعة بوسطن، لكنه لم يفدني في شيء على المستوى الاقتصادي أكثر ممًّا أفادتني الدورة التدريبة لمدَّة ثمانية أسابيع التي منحتني رخصة القيادة التجارية.

ليس لديَّ وظيفة. لا أملك سوى ألف ومائتي دولار باسمي، وحُرمت من مال تأمين والدَيَّ كونهما انتحرا. نصحني نيل بيلوك محامي والدي أن أفضل ما أفعله هو أن أتخلَّص من كل ما لا أريد الاحتفاظ به لنفسي وأبيع البيت. لو كنت محظوظًا، ثمنه قد يكفي سداد ديونهما مع فائض من المال يُمكِّنني من العيش حين أجد عملًا في شركة شحن أخرى.

لذا، فتحت باب المنزل، وأحضرت صندوقين من أكياس القمامة القوية، وأجَّرت مكنسة، ونويت البدء في مهمتي. ترك والداي المكان مهملًا في آخر سنوات حياتيهما، ولم أكن أريد رؤية كل هذا. الغبار في كل مكان، فضلات الفئران على الأبسطة، نصف المصابيح معطلة، العفن يبقّع ورق الحائط في الممر المظلم بين حجرة المعيشة وحجرة النوم الرئيسية. رائحة المنزل مثل رائحة دهان آلام العضلات والهجر. خطر لي أنني هجرتهما في آخر سنة من حياتهما. سعدت بالخلاص من حاجياتهما. كل شيء حزمته يقلل شيئًا من تفاصيل آخر شهورهما التعسة وهما يواجهان العمى والخرف وحدهما، ويخططان للرحلة الأخيرة بالكاديلاك مبتعدين عن كل همومهما دون مغادرة المرأب حتَّى. أرسلت أطنانًا من الملابس والمفروشات إلى الجمعيات الخيرية، وأخرجت الأريكة إلى الباحة الأمامية وعلَّقت عليها لافتة تعلن أنها مجانية لمَن يريدها. ولم يردها أحد، فتركتها بالخارج حتَّى تعفنت تحت المطر.

أدخلت مكنسة تحت الفراش لأخرِج كرات الغبار، فخرج معها سروال أبي الداخلي وصندوق أحذية أمي. اختلست نظرة إلى ما داخل الصندوق، وتوقَّعت أن أجد حذاءين عاليي الكعبين، وفوجئت أنه يحوي أكثر من ألفي دولار على هيئة مخالفات إيقاف سيارة ومخالفات سرعة غير مدفوعة منها مخالفة إيقاف سيارة في الممنوع في مدينة بوسطون بتاريخ 1993، وفاتورة طبيب أسنان غير مدفوعة من عام 2004، ونسخة عن فيلم «عندما قابل هاري سالي» مُستأجر من متجر «بلوكبَستر» لشرائط الفيديو، وكتاب بعنوان «شيء رائع آخر». لم أكن أعرف علاقة الكتاب بالأغراض الأخرى إلا

عندما فتحت غلافه الخلفي. كان كتابًا مستعارًا من مكتبة وعرفت بمجرَّد النظر أن أمي استعارته القرن الماضي ولم تُرجعه. وجدت بطاقة استعارة داخله في مظروف بني، مختوم بموعد الإرجاع. هذا أثر عتيق من حقبة ما قبل الرمز الشريطي. هناك غرامة مليم لكل يوم تأخير، على الأرجح نحن ندين للمكتبة ببيتنا كله، أو على الأقل بثمن كتاب بديل.

طبيب الأسنان الذي تدين له أمي قد تقاعد عام 2011 ويعيش الآن في أريزونا. أما متجر شرائط الفيديو المحلي قد اسُتبدِل بمتجر هواتف محمولة. أما مخالفات السيارات.. لا يمكن مقاضاة شخص ميت، ممَّا يترك لي مهمَّة إرجاع الكتاب. وضعت الرواية داخل جيب من جيوب سترتي وخرجت.

نحن في أواخر سبتمبر، لكن الوقت يبدو لي أقرب إلى الصيف. العثث تضرب مصابيح الشارع ذات الطراز القديم عند المنعطفات. ثلاثة من عازفي الأكورديون يرتدون قمصانًا ذات خطوط طولية وحمَّالات سراويل يعزفون لجمهور قليل في حديقة البلدة. الأطفال مع آبائهم يزحمون المناضد خارج متجر الآيس كريم. لو تجاهلت طراز السيارات، يمكنك بسهولة أن تظن أننا في عام 1929.

طريقي إلى المكتبة لم يكن مكلَّلًا بالحزن كما كنت أشعر منذ أسابيع. شعرت كأن سراحي قد أطلِق.

صعدت الدرجات الرخامية البيضاء إلى ردهة المكتبة التي تظلِّلها قبة نحاسية على ارتفاع ثمانين قدمًا فوق الرؤوس. تردَّد صدى خطواتي. لم أعد أتذكَّر آخر مرَّة زرت فيها هذا المكان، وندمت على طول الوقت الذي ابتعدت عنه. للمكتبة شعور مهدِّئ وقور كأنها كاتدرائية ولكنها ذات رائحة أطيب؛ رائحة الكتب.

اقتربت من المكتب المصنوع من خشب الورد باحثًا عن المكان الذي أعيد إليه كتابي، لكنني لم أجد شيئًا سوى لافتة مكتوب عليها (لا بُدَّ من مسح كل المرتجعات) جوار ماسحة ضوئية سوداء ذات مقبض يشبه مقبض المسدس مثل الموجودة في المتاجر الكبرى لمسح الأسعار عن المنتجات.

اقتربت.. ظننت أن في إمكاني التظاهر بأنني أمسحه ثمَّ أهرب، لكن السيدة المسنَّة خلف المكتب مدَّت إليَّ يدًا مرتعشة تطلب منِّي أن أنتظر، ورأيت يدها الأخرى تثبِّت الهاتف على أذنها. طرقت بإصبع واحدة على الماسح الضوئي،

ثمَّ حرَّكت الإصبع نفسها على عنقها عرضيًّا في إشارة تعني قطع الرقاب. فكَّرت في الانتظار حتَّى تنهي مكالمتها وأطلب منها تجديد بطاقة الاستعارة، ثمَّ أنتظر فرصة إلقاء كتاب أمي خلف المكتب دون أن يلاحظ أحد. لم أكن أريد أن أناقش أسباب تأخُّر إرجاع الكتاب ولا الحديث عن وفاتها.

وقفت جوار نافذة عرض إصدارات لكُتَّاب محليين. تضم المعروضات كتابًا مصوَّرًا عن حيوان كوالا يبدو مسعورًا بعنوان «لا يمكن أن آكل هذا»، ومذكِّرات لامرأة تدعي أن المخلوقات الفضائية خطفتها وعلَّمتها لغة الدلافين، ممَّا أدى بالضرورة إلى مواجهتها لعوائق قانونية كي تتزوَّج من دولفين. تمنَّيت لو أنني أختلق هذا. دُرَّة الكتب المعروضة روايات براد دولان، ابن كينجزوارد النجيب. قابلته مرَّة حين زار مدرستي للحديث عن الكتابة مع طلبة الصف الثامن. أحببت شاربه وحاجبيه الكثيفين وهدير صوته وارتداءه سترة ذات نقش مربعات مرفق بها عباءة قصيرة. كنت خائفًا منه إلى حد ما؛ كان يحدِّق إلى الطلبة بعينين لا تطرفان، يتفحَّصنا مثلما يتفحَّص قائد جيش خرائط أرض الأعداء.

بعدها وجدت نفسي أقرأ رواياته الثلاث عشرة واحدة تلو الأخرى، وأحيانًا كنت أدسُّ قبضتي في فمي كي أمنع نفسي من القهقهة لو كنت أقرأها في الصف. أنت تعرف الكتب ذات علامة التعجُّب عند نهاية عناوينها. من كتبه: «*الموت ضحكًا!*» والتي تدور حول سلاح كيماوي أطلقته الولايات المتحدة على ڤايتنام وتسبَّب في انخراط الناس في الضحك حتَّى يفقدوا وعيهم، وترياق هذه الحالة الوحيد هو الجنس. وهناك رواية «*المعزوفة!*» وتدور في عالم يحكم فيه التعديل الثاني[1] من الدستور العِصي السحرية، وبطلنا يبحث عن الرجل الذي شطر زوجته إلى نصفين. وهناك رواية «*التحية!*» وفيها يفوز رونالد ريجان بالرئاسة بالمناصفة مع رفيق مضمار العدو بونزو القرد.

هل تبدو تلك الكتب أقل إضحاكًا لو عرفت أن دولان نفسه ذو ميول انتحارية؟ لا أظن، لكنني أعترف أن تلك الكتب تحمل حزنًا ما بين طياتها الآن. الأمر أشبه بالتهام حلوى غزل البنات وسِنَّك مكسورة، فتحصل على الطعم الحلو والألم معًا. سحابة من السكر والدم.

---

(1) ينص التعديل الثاني للدستور الأمريكي على حماية حق المواطنين في الاحتفاظ بالأسلحة وحملها. (المترجمة)

قالت السيدة المسنَّة عبر الهاتف: «كلا يا سيد جالاجر، لا يمكننا إخراجه لك. يمكنني حجز كتاب بيل أورايلي هنا في المكتب، لكن لو جئت فعليك إعادة الكتب التي لديك بالفعل أولًا».

هي امرأة قصيرة ذات وجه صغير مربع تحت غرة فضية. نظرت إلى عينيَّ بعينين زرقاوين داكنتين، وهزَّت رأسها في أسف.

احتجَّ الشخص على الطرف الآخر من الخط، فأضافَت: «معذرة يا عزيزي، الأمر ليس في يدي. حافلة المكتبة انطلقت بالفعل، حتَّى لو لم تكن قد فعلت، فالسيد هينيسي لم يعد يعمل في المكتبة العامة. رُفِض ترخيصه... أجل، هذا هو ما قلت... أجل، وبطاقة المكتبة خاصَّته! والسيد هينيسي هو الوحيد المؤهل لقيادة الـ...».

صدح صوت صيحة رفيعة من السماعة، فأجفلت أمينة المكتبة إذ أغلق السيد جالالجر الخط. قالت: «عميل آخر راضٍ».

نظرت إليَّ نظرة مفسِّرة وهي تقول: «كان هذا هو السيد جالاجر الساكن في بناية «سيرينتي». الشيء الوحيد الذي يرغب فيه هو قراءة روايات بيل أو، وآن كولتر. روايات ضخمة هي، ولينجدنا الله لو لم نستطع توفير الكتاب الذي يريده. لا يهمه سوى معرفة ما نفعله بأموال دافعي الضرائب التي نسحبها من ميزانية البلدة. أريد أن أخبره أنه بالكاد يكفي لدفع اشتراك مجلة «سوشاليست» الأسبوعية».

قلت لها: «لم أكن أعرف أنكم توصلون الكتب إلى المنازل. هل توصلون البيتزا أيضًا؟».

- نحن لا نوصل أي شيء الآن يا عزيزي. حافلة المكتبة المتنقِّلة الجديدة كسرت قلوبنا، و...

- لماذا يطلق الناس عليها حافلة المكتبة (الجديدة) حتَّى الآن؟

صاح رجل من خلال باب يُفتح على مكتب خلفي: «لماذا لا يطلقون عليها حافلة المكتبة (الأقل جِدَّة)؟ السيارة على الطريق منذ عام 2010 يا دافني. ليست قديمة للغاية، لكنها في طريقها إلى هذا...».

رفعت دافني عينيها إلى أعلى وقالت: «حافلة المكتبة المتنقِّلة (الجديدة) لا ذنب لها. لا يمكنني قول مثل ما قلت أنت عن السيارة الخردة التي استأجرتها

لتقودها. الرجال مثل سام هينيسي يدفعونني إلى الظن أن الإعدام ليس فكرة سيئة».

قال الرجل في الغرفة الخلفية: «لقد دمَّر الشاحنة ولم يقتل طفلًا.. حمدًا لله. في رأيي، سام لديه كل المؤهلات: معه رخصة، وأجره رخيص».

سمعت نفسي أسأل: «عن أي نوع تراخيص نتحدَّث؟ الدرجة الأولى؟».

انطلق صوت صرير من كرسي المكتب، وخرج الرجل في الغرفة الخلفية إلى حيِّز رؤيتنا. ربما كان في عمر الخامسة أو السابعة والخمسين، في شعره الفضي بضع خصلات ذهبية، وعيناه زرقاوان كعيني عارضي أغلفة المجلات من نوعية الرجال الذين جاوزوا منتصف العمر ويظهرون في إعلانات عقار الڤياجرا. بذلته جيدة، مهترئة بعض الشيء عند الكوعين والركبتين. قال: «هذا صحيح».

قلت: «معي رخصة من الدرجة الأولى. لو أن هناك حافلة أو شاحنة متنقِّلة (أقل جِدَّة) للمكتبة، فهل يعني هذا أن هناك واحدة (أكثر قِدمًا)؟».

هتفت أمينة المكتبة: «بل عتيقة».

قال الرجل ذو البذلة: «ليس إلى هذه الدرجة يا دافني. نحن لا نستخدمها إلا في خلال احتفالات الرابع من يوليو السنوية».

كرَّرت دافني: «بل عتيقة!».

حكَّ حنجرته، ثمَّ مال في مقعده ليتفحَّصني من خلف الباب. سألني: «هل أنت سائق شاحنات تجارية؟».

أجبته: «كنت. أنا في فترة استراحة لإنهاء بعض الأمور العائلية. أي نوع من الحافلات هي؟».

سألني الرجل: «هل تود رؤيتها؟».

***

سألت ساخرًا بعدما أطلت النظر إليها بضع لحظات: «بماذا تعمل؟ بنزين خالي من الرصاص أم ماء النرجيلة؟».

امتص رالف تانر مِبسم غليونه ثمَّ قال: «أوقفتها الشرطة مرَّة. قال الشرطي إنه أراد اعتقال من لوَّنها بتهمة إقلاق سلامه النفسي، وقال رئيس

الشرطة إن واجبه مصادرة معدَّات تعاطي المخدرات، لهذا نبقيها حبيسة هذا المرأب».

تشارك المكتبة ساحة انتظار شاسعة مع مكتب بلدية المدينة وإدارة الترفيه والمُتنزَّهات والمرأب القديم الذي كان مستودعًا لعربات الجَرِّ بالخيول ولم تقف فيه عربة واحدة منذ قرن، لكنه لا يزال يفوح برائحة الخيل. هو مبنًى متهالك يشبه الحظيرة، ذو فجوات بين ألواح بنائه، ويعشش الحمام في أخشاب سقفه. هيئة الخدمات العامة خزَّنت في المكان مكنسة طُرُق وأخرى أصغر للأرصفة وساحات الانتظار، أما شاحنة المكتبة الأكثر قِدمًا فتقف في الخلف.

هي عبارة عن شاحنة توصيل طلبات مُغلقة مُعدَّلة على هيكل شاحنة «إنترناشونال هارڤيستر موديل 1963»، ذات ثلاثة محاور واثني عشر إطارًا، ومجازًا يطلقون عليها حافلة. جوانب الشاحنة الضخمة منقوشة بلوحة مبهرجة من وحي تعاطي المخدرات؛ قرب باب الرَّاكب رسم للكاتب مارك توين برأس مفتوح كإبريق الشاي، يخرج منه نهر «المسيسيبي» ملوَّنًا بألوان قوس قزح. قرب ذيل الشاحنة رسم لهاك وچيم واليرقة التي تدخِّن النرجيلة؛ شخصيات رواية أليس في بلاد العجائب. تنفخ اليرقة خيط دخان طويل يتحوَّل عند نهايته إلى محيط قرب المصَد الخلفي. يخرج الحوت موبي دِك من بين الأمواج، والقبطان آهاب مربوط إلى جانبه، يخرق عينه بحربته. نوتيلس؛ غوَّاصة كابتن نيمو، تنبثق من وسط زبَد الموج الذي يتحوَّل إلى سحب تظلِّل باب السائق. تهطل الأمطار فوق شيرلوك هولمز الذي لا يرى ماري بوبِنز تبحر وسط الرعود فوقه.

سألت: «أي مسطول كان يقودها يومها؟».

ثمَّ نظرت لرالف بركن عيني وأضفت: «أم تراه أنت؟».

ضحك وأجاب: «أعتقد أنني فوَّت حقبة الستينيات. عصر الهيبيز مرَّ على الآخرين بينما كنت أنا أشاهد مسلسل جزيرة چيليجان. فاتتني مراقص الديسكو أيضًا، ولم أرتدِ يومًا بنطلونًا واسع الساقين. كنت أرتدي ربطة عنق وأعيش في تورونتو وأعمل على كتابة أطروحتي غير المسبوقة عن بليك، تلك التي أعجبت مُناقِش رسالتي حتَّى كاد يضرم فيها النيران. تمنَّيت لو أن عشرينياتي كانت أقرب إلى هذا. هل تريد إلقاء نظرة بالداخل؟».

أشار نحو الباب عند ظهر الشاحنة. عندما فتحته، انفتح معه سُلَّمٌ من درجتين يقودني إلى داخل المكتبة المتنقِّلة. الأرفف الحديدية عارية، وشبكة عنكبوت هائلة تتدلى من واحدة من مصابيح السقف. فوجئت بمكتب رائع من خشب الماهوجني مُبطَّن بجلد داكن، ومُثبَّت إلى الأرض. في منتصف الممر بساط طويل بلون الشوكولاتة. مررت يدي على طول رف معدني بارد، ثمَّ رددتها إليَّ مغطاة بالغبار.

قال مِن خلفي: «خدمت السيارة أربعين عامًا، وتستطيع الخدمة أعوامًا أكثر، فقط لو عثرنا لها على سائق».

عرفت بالفعل أنني أرغب في هذه الوظيفة. كنت أعرف حتَّى من قبل أن أتأكد أن هناك وظيفة. من الناحية العملية، أنا عاطل، ووظيفة ذات راتب ضعيف أفضل من البطالة، إضافة إلى أن ساعات العمل التي سيعرضونها ستكون بالتأكيد أقل من ساعات عملي على شاحنة نقل البضائع، حيث كنت أمضي أحيانًا على الطريق عشرة أيام أو اثني عشر يومًا دون أن أعود إلى بيتي.

في الواقع، لم يخطر ببالي الجانب العملي من الوظيفة إلا لاحقًا. كنت أقضي وقتي كله يوميًّا في المكان الذي مات فيه أبواي، وللحظة شعرت أنهما أرسلا إليَّ عربة للهرب.. شاحنة تُبعدني عن أكثر مخيمات الصيف كآبة وتعاسة. ركوبتك *هنا*.. خطرت لي الفكرة، فاقشعرَّ جسدي. سألته: «ماذا قلت إنه قد حدث لسائقها الأخير؟».

- لم أقل.

حرَّك رالف غليونه من زاوية فمه إلى الأخرى، ثمَّ أضاف: «كان واحد من الأهالي اسمه سام هينيسي، ابتعد عن العمل في قيادة الشاحنات بدوام كامل كي يتفرَّغ للأمرين اللذين يحبهما؛ القراءة وصناعة البيرة المنزلية. احتفظ برخصة الدرجة الأولى وعرض علينا قيادة المكتبة المتنقِّلة الجديدة على سبيل تزجية الوقت. للأسف لم يكن سام يحب صناعة البيرة المنزلية فقط، بل عشق شربها خاصَّة في فترة استراحة الغداء في العمل. كان يعمل على المكتبة المتنقِّلة الجديدة منذ شهر، وشعر أنه مُرهق، فقرَّر أن يحصل على بعض القهوة، فقاد الشاحنة إلى ماكدونالدز، أعني أنه قادها إلى داخله مباشرة،

ورُشِقَت مقدِّمة السيارة في المطعم. حمدًا لله أن أحدًا لم يكن بالداخل. حين تفكر في كل أولئك الأطفال الذين يأكلون في مَكدونالدز...».

ارتعد، ثمَّ سألني إن كنت راغبًا في رؤية كابينة القيادة.

في أثناء سيرنا إلى مقدمة الشاحنة، أشار نحو لوح على جانب السيارة خلفه مولِّد كهرباء يعمل بالديزل لتشغيل إضاءة وتدفئة المكتبة.

- المكتبة المتنقِّلة الجديدة (تقريبًا) بها جهازا حاسوب، وأتساءل إن كانت أجهزة الحاسوب اللوحية قد تخدم الغرض نفسه. البحث عن الكتب سهل للغاية، وله تطبيق بحث على الهواتف المحمولة.

بدأ يشرح لي مهام العمل كأنني تقدمت للوظيفة بالفعل.

صعدت إلى الدرجة التي تؤدِّي إلى الكابينة، ونظرت إلى المقعد الأمامي. عصا التحكُّم في علبة التروس تبرز من منتصف الأرضية، طويلة كعكَّاز أحد النبلاء، يعلوها مقبض لامع من خشب الجوز. أوراق الشجر تنجرف إلى الداخل عبر الباب. يبدو أن المذياع لا يستقبل سوى موجة AM.

سألني: «ما رأيك؟».

جلست على كرسي السائق وساقاي تتدلَّيان خارج الشاحنة، ثمَّ سألته: «هل تسألني عن رأيي في الشاحنة أم الوظيفة؟».

دفع إبهامه داخل صحن الغليون، ثمَّ أشعل التبغ بداخله بعود ثقاب من علبة صغيرة. حاول أكثر من مرَّة حتَّى اشتعل، فسحب الدخان، ثمَّ رفع رأسه إلى أعلى وزفره من جانب فمه.

- هل سمعت المُزحة عن الرجل الذي سافر إلى إنجلترا وعاد يشكو من الوجبات؟ لم يكن الطعام شنيعًا فقط، بل كميته قليلة أيضًا! هذا يشبه بالضبط الراتب الذي نعدك به، وساعات العمل التي نضمنها لك. الأمر بعيد تمامًا عن العمل بدوام كامل. ست ساعات في يومي الثلاثاء والخميس، ثماني ساعات يوم الأربعاء. والراتب؟ يمكنك أن تحصل على أعلى منه لو قدت حافلة مدرسة.

- لكن وقتها سيجبُ عليَّ الاستيقاظ قبل الفجر. لا، شكرًا. إلى جانب هذا، فلدي شؤون عائلية هنا أراعيها.

- أجل..

قالها وعيناه حساستان مشفقتان، فتساءلت إن كان يعرف. كينجزوارد بلدة كبيرة، رابع أكبر بلدة في الولاية.. لكنها ليست بالحجم الذي تضيع فيه الأخبار.

- هل يمكن أن ترسل إليَّ مستندات تحقيق شخصية وسيرة ذاتية يا سيد..

- چون. چون ديڤيز. عملت لخمس سنوات مع شركة «وينشستر» للنقل، ولم يخترق إطار من إطارات شاحنتي مطعم وجبات سريعة من قبل. هل تظنني مؤهَّل للوظيفة؟ أليس المفترض أن أحمل شهادة في.. علوم المكتبات مثلًا؟ فنون المكتبات؟

- لم يحمل سام هينيسي أية شهادات. لورين هيس الذي قاد هذه الشاحنة قرابة ثلاثين عامًا كان يعمل في مكتبة تقنية تابعة للقوات الجوية قبل أن يعمل معنا، لكنه لم يقدِّم إلينا أية شهادات رسمية.

رفع رالف حاجبيه، وسدَّد نظرة مُحبة نحو الشاحنة وهو يضيف: «ألن يفاجأ حين يرى هذا الشيء العتيق على الطريق مرَّة أخرى؟».

- أما زال يقود الشاحنات بالقرب من هنا؟

- أوه، أجل. يعيش في بناية سيرينيتي مثل صديقنا السيد جالاجر الذي يقرأ أي شيء وكل شيء ما دام مكتوبًا بقلم أي شخص يعمل لدى قناة «فوكس نيوز».

فكَّر رالف قليلًا ثمَّ أضاف: «أحب لورين هذه الشاحنة. سلَّمني المفاتيح وهجر المهنة منذ عام 2009».

نظر إليَّ رالف نظرة حزينة ساخرة وقال: «كنا نستعد لتكهينها، لكنه تقاعد معها. مرَّ بتجربة سيئة خلف المقود وأرعب نفسه. كان يقود ثمَّ فجأة لم يعد يعرف أين يكون. مرَّ بمواقف مُربكة قبلها. قال لي إن شخصًا مات منذ عشر سنوات طلب منه كتاب.. هذه النوعية من المواقف».

قلت وأنا أفكر في أمي وخرف الشيخوخة الذي أصابها: «هذا مؤسف. هل أنت واثق أنه سيتعرَّف على الشاحنة إن رآها؟».

حدَّق إليَّ رالف بنظرة خاوية وأجاب: «هه؟ أوه، أجل. أخشى أنني لم أُعطِك انطباعًا دقيقًا عنه. ربما ينسى لورين كثيرًا، لكن ليس أكثر من أي

شخص آخر في عمره. ما زال قادرًا على هزيمتي في لعب الورق. نلعب آخر خميس من كل شهر وأخسر دائمًا أمامه. كلا، ما زال واعيًا».

- لكنك.. قلت إنه كان يقود عبر المدينة ثمَّ لم يعد يعرف أين هو.

قال رالف: «صحيح. كان مرتعبًا للغاية ولم يستطع أن يحدِّد إن كُنَّا في عام 1965 أم 1975 أم أي عام. كل مجموعة مبانٍ بدت له كأنها من عِقد مختلف. خشي أنه لن يستطيع العودة إلى القرن الحادي والعشرين».

نظر إلى ساعته مستطردًا: «يجب أن أعود إلى المكتبة، لقد طالت استراحة قهوتي. هل سترسل إليَّ المستندات عبر البريد الإلكتروني؟ عنواني على موقع المكتبة على الإنترنت. أتوق إلى استكمال حديثنا قريبًا جدًّا».

انتظرته بالخارج ريثما يوصد المرأب، ثمَّ ودَّعني ملقيًا تحية المساء. وقفت مكاني أنظر إليه يبتعد، والدخان الأزرق يتدفَّق من غليونه مختلطًا بالضباب المنبعث من الأشجار. لقد حلَّ الليل رطِبًا ونحن بالداخل.

اختفى داخل المكتبة قبل أن أدرك أن الرواية ما زالت في جيبي الخلفي.

***

غالبًا رأيت بعضهم قبل أن أفسِّر كنههم.. أقصد الأشباح. هذا ما ظننته في البداية، لكني الآن أعرف أكثر.

العائدون.. هذا هو ما أطلقه عليهم لورين رغم أنني لن أسمع هذه الكلمة قبل أشهر، ولن أقابله قبل ذلك اليوم البارد المبلَّل بعد الكريسماس.

كنت أقود الشاحنة القديمة منذ أسابيع، ورأيت طفلة تسير مع أمها. الفتاة تثبت فوق رأسها أذنَيْ ميكي ماوس وتقفز هنا وهناك في بركة ضحلة خلَّفتها الأمطار. تغطِّي أمها شعرها بمنديل منقوش بالأزهار وتحمل كيسًا ورقيًّا مكتوبًا عليه وُلوُرث. فكرت كم أن هذا غريب؛ كان هناك متجر وُلوُرث في وسط البلدة حين كنت طفلًا، لكنه أغلِق عام 1990. حين توقَّفت، بحثت عنهما في المرآة الجانبية فلم أجدهما. هل كانا من العائدين متأخِّرًا؟ لا أعرف.

في مرَّة أخرى رأيت سيدتين مسنَّتين منكمشتين، أختين، تدخلان إلى المكتبة المتنقِّلة عند استراحة سانت مايكل، وهي دار مسنِّين أمُرُّ عليها من ضمن جدول الثلاثاء. جالا في المكتبة دون أن تتحدَّثا إليّ، لكنهما كانتا

تتحدَّثان عن تيد كينيدي وحادث «تشاباكويديك». قالت واحدة منهما: «كل رجال هذه العائلة منحرفون».

- وما علاقة هذا بالخروج عن الطريق؟

لم أدرك إلا بعد رحيلهما أنهما كانتا تتحدَّثان بصيغة المضارع كأن حادث تشاباكويديك وقع حديثًا، وكأن تيد كينيدي لا يزال حيًّا.

كنا في بداية نوڤمبر حين بدأ الأمر، وتعرَّفته على الفور حين صعد أول العائدين إلى المكتبة المتنقِّلة، أول مَن عادوا من زمن مختلف.

في أيام الخميس، يأخذني جدولي إلى ويست فيڤر؛ بلدة تعسة مدفونة عند أطراف المقاطعة، تضمُّ بعض المراعي والكثير من المستنقعات، وبضع محطَّات تزويد وقود، ومركز تجاري وحيد يُعرف محليًّا باسم «مان مول»، بداخله متجر يبيع الألعاب النارية، وآخر يبيع أسلحة، ومتجر خمور، وصالون وشم، ومتجر بيع ألعاب البالغين مع عرض تلصُّص إباحي خلفه. لو أن معك أربعين دولارًا في جيبك، يمكنك زيارة مان مول مساء الجمعة فتثمل وتقضي وقتًا مع فتاة ليل وتوشم اسمها على ذراعك، وتحتفل بإطلاق صاروخ إلى السماء، وتشتري بندقية تسهِّل عليك قتل نفسك في الصباح التالي.

يشترك مان مول مع بناية سكنية متهالكة من طابقين في باحة انتظار سيارات غير مُمهَّدة. يسكن في البناية عدد لا بأس به من الأمهات العازبات مع أطفالهن، وبضعة ثملين ماجنين، ممَّا لا يجعل البناية مكانًا يُطلق عليه «بيت». البيت هو المكان الذي يمكنك تركه أو التفكير في مستقبلك فيه، لكن هذا المكان لم يكن سوى نُزُل حقير يسكنه نزلاء ذوو مدد إقامة طويلة، والجميع يتعايشون فيه حتَّى يجدوا فرصة الانتقال لمكان أفضل. عدد من السكان يتعايشون منذ سنوات.

رأيته - العائد- وأنا أدخل. رجل يرتدي سترة خفيفة حمراء، وقبعة بنقشة المربعات ذات غطاءين للأذنين تؤطِّران خدَّين محمرَّين من البرد. رفع لي يدًا مُقفَّزة، فرفعت كفي محييًا دون تفكير، ولم أفكر فيه مرَّة أخرى. الجو بارد رطب، وباحة الانتظار أمام مان مول مُضبَّبة. كُنَّا في العاشرة صباحًا لكن الوقت بدا لي أقرب إلى الشفق.

ضغطت زرًّا في لوحة تحكُّم السيارة حتَّى بُعِث المحرِّك إلى الحياة، ثمَّ نزلت لأفتح الباب الخلفي. قابلني الرجل ذو غطائي الأُذنين على الدَّرج وابتسامة متسائلة على شفتيه.

سألني والبخار يتصاعد من فمه في سحابات بيضاء: «أين الرجل الآخر؟ مريض؟».

- أتعني السيد هينيسي؟ اعتزل المهنة.

- أتساءل عمَّا عساه يحدث. أشعر كأنني لم أرَ المكتبة المتنقِّلة منذ نصف قرن.

بدا لي الأمر طريفًا؛ كيف أنه لم يلحظ الفارق بين المكتبة المتنقِّلة القديمة والأخرى التي كان يقودها هينيسي واقتحم بها ماكدونالدز. لم أقل شيئًا عنها، وفتحت له الباب ليدخل.

هدرت أجهزة التدفئة، وأضيئت الأنوار. مرَّ الرجل ذو غطائي الأُذنين من جواري بينما أمسك الباب وأحدِّق إلى البناية السكنية الحقيرة.

عادة ما تقف الأمهات المرهقات مع أطفالهن أمام البناية في انتظار المكتبة المتنقِّلة، لكن اليوم لم أرَ أيهن. امتد الضباب البارد الكئيب مغطِّيًا الرصيف أمام البناية. بدا لي المكان كأنه موقع تصوير فيلم عن نهاية العالم. صعدت درجات المكتبة وأغلقت الباب خلفي.

أخرج الرجل كتابًا باهت الغلاف من جيبه وقال: «أتمنَّى ألا أكون في مشكلة كبرى».

الكتاب هو رواية «ممر عبر السماء» لروبرت هاينلاين. أردف الرجل: «لقد مر وقت طويل على موعد إرجاع الكتاب. لكن مهلًا، لم يكن هذا خطئي! لو أنني استطعت أن أصل إلى المكتبة ما كنت لأحتاجك!».

- لو استطعت واستطاع أي شخص في ظروفك الوصول إلى المكتبة، ما كانت لوظيفتي وجود. نحن متعادلان. لا تقلق بشأن غرامة التأخير. نحن نغفر للجميع لأن المكتبة المتنقِّلة لم تكن تعمل منذ فترة.

- حقًّا؟! لا أعني أنني أمانع في قيء بعض المال غرامة التأخير، فهذا الكتاب يستحقّ. أتمنَّى لو أجد واحدًا آخر يشبهه.

- بالطبع. أنا أحب روايات هاينلاين القديمة هذه.

التفتَ وترك عينيه تسرحان عبر الأرفف وهو يبتسم لنفسه ويقول: «تلك الرواية فعلت كل ما على الرواية أن تفعله بالمرء. أحب القصَّة التي لا تلف ولا تدور كثيرًا، وتبدأ أحداثها على الفور، فتلقي البطل في مصائب عفنة رائعة ليعانيها منذ الأسطر الأولى. أمضيت معظم الأسبوع خلف الكاونتر في متجر المُعدَّات. حين أجلس لأقرأ كتابًا، أحاول أن أعيش حياة شخص آخر لفترة، حياة أخرى لن أعيشها بنفسي. لهذا أحب القراءة عن الغيلان والشرطيين والمشاهير، أحب أن يقولوا عبارات أنيقة لأنني أتخيَّل أنني أقولها».

- على شرط ألا تكون أنيقة أكثر من اللازم وإلا ضاعت الواقعية.
- هذا صحيح. أعثر على رجل له حياة مثيرة، ثمَّ أفسدها ودعني أرى كيف سينكسر. بمناسبة حديثنا، أريد أن أذهب إلى مكان لن أذهب إليه في الواقع، موسكو أو.. أو المريخ أو القرن الحادي والعشرين. لا تطلب وكالة ناسا موظفين، ولا أستطيع دفع تذاكر طيران. أنا مفلس، لكني مسرور أن اشتراك المكتبة مجاني.

سألته: «تقول إنك لن ترى القرن الحادي والعشرين؟».

أظنه لم يكن مدركًا ما قاله للتو، لكنه أجاب بثقة: «أنا في الحادية والستين من عمري الآن، احسبها. أظن الأمر مستحيلًا، وإلا لشهدت بداية القرن وأنا في عمر المائة واثنين! لو أخبرتني في عام 1944 أن ما زال في عمري عشرين أو ثلاثين عامًا لهويت على ركبتَيَّ ألثم قدميك سعادة. وقتها كانت اليابان تحاول إسقاط الطائرات فوقي، وبدا لي أن الرغبة في ثلاثين عامًا أخرى طمعًا زائدًا».

رد فعلي تجاه ما قال لم يكن سوى قشعريرة خفيفة في جلد رأسي، مع رعدة استمتاع وفضول. لم أصدق لوهلة أنني اقتنعت بكلامه، وخطر لي أنه معتلٌّ عقليًّا. لم يكن المسنُّ الوحيد الذي يعيش في هذه البناية المتهالكة ويجد مشكلة في التفرقة بين الواقع والخيال.

قلت له مراقبًا رد فعله أكثر من أي شيء آخر: «نحن في عام 2019. نحن في المستقبل بالفعل».

قال وهو يمسح الأرفف بعينيه: «في أي كتاب؟ أود قراءة قصة جيدة عن السفر عبر الزمن، لكنني أحب أكثر قراءة عمل فيه صواريخ ومسدسات تطلق الأشعة».

بدا لي طفوليًّا، كأنه صبي في جسد بالغ. قلت له بعد هُنيهة صمت: «لدينا كتاب أو اثنان لبراد دولان عن السفر عبر الزمن، لكنه ليس مثل هاينلاين. كتاباته أكثر.. لنقل، أقل أدبية؟».

تساءل الرجل ذو غطائي الأُذنين: «براد دولان؟ لقد كان يوصل إليَّ الصحف! مرت فترة من وقتها».

اتخذت ابتسامته طابعًا باردًا أكثر، وحكَّ عنقه وهو يقول: «إنهم يكبرون بسرعة، هه؟ يبدو لي أنه كان يحمل الصحف منذ عشر دقائق، والآن يحمل بندقية على كتفه ويتعثَّر في الوحل. موضوع كوريا يتكرِّر مرَّة أخرى. لا أعرف ماذا فعلنا هناك، ولا أعرف أيضًا ماذا كُنَّا نفعل في ڤايتنام. لدينا ما يكفينا من مشكلات هنا. رجال شعر رأسهم يصل إلى مؤخِّراتهم، وفتيات في تنانير تغطِّي بالكاد أردافهن حتَّى لأشعر أن واجبي تغطِّيتهن بمعطف. الحقيقة لست واثقًا من أننا نوصل إليهم الرسائل الصحيحة عبر المكتبة المتنقِّلة على حالها هذا. لا أعرف حتَّى إن كنت تقدم الكتب أم الخمر».

ضحكت، ثمَّ تراجعت عن ضحكي حين رفع حاجبًا متسائلًا نحوي، وابتسم ابتسامة مهذَّبة لكن متخشِّبة. لم يكن يرى أن هناك ما يُضحك فيما قاله، لكنه تغاضى عن ضحكي في غمار انسجامنا معًا.

تفحَّصته بينما يتفحَّص الأرفف. ما زالت فروة رأسي تقشعِر، لكن عدا ذلك كنت أشعر أنني بخير. هو يلاعبني، ويحاول أن يقنعني بكذبة ما، وهو ملتزم تمامًا بأداء دوره. لكنني لا أظنه يمثِّل. فكرة عودة شخص من الستينيات ليعيد كتابًا اقترضه ويبحث عن غيره لم تؤثر فيَّ كما تظن. لم أخف، لكن انتابني شيء من القلق، وشعرت بما يشبه الامتنان و.. المتعة. شيء من الارتباك اللطيف.

خطر لي وقتها تساؤل -مجرَّد فضول- فتصرفت قبل أن أدير الفكرة في رأسي. قلت له: «راقتك رواية «ممر عبر السماء»، أليس كذلك؟ لديَّ شيء لك، هل قرأت «ألعاب الجوع»؟».

قلتها وأنا أخرِج «ألعاب الجوع» من رف روايات اليافعين ثمَّ رفعتها أمامه.

نظر إلى الغلاف الأسود اللامع الذي يحمل نقش طائر ذهبي بارز، وابتسم ابتسامة حائرة. رفع إصبعين إلى صدغه الأيسر وقال: «كلا، لم أقرأها. هل هي رواية لهاينلاين أم.. معذرة، الكتاب يتسبب في شيء غريب لعينيَّ».

نظرت إلى الرواية، مجرَّد كتاب ورقي عادي، فنظرت إليه لأرى تعبيره الذي يمزج التركيز بالقلق. لمس طرف لسانه شفتيه، ثمَّ رفع يده وأخذ منِّي الكتاب برفق.. فارتخت تعبيرات وجهه، وابتسم.

- أعتقد أنني مُتعب قليلًا، قضيت الصباح في تجريف ممشى منزل أختي. سيهطل المزيد من الثلج هذا الأسبوع.

قرأ العبارة على الغلاف بصوتٍ عالٍ: *في المستقبل، الحب أكثر فتكًا من الألعاب!*

نظرت بنفسي إلى الكتاب، وللحظة غام بصري وشعرت بالدوار كأنني كنت جالسًا ووقفت فجأة. ما زال ممسكًا بالرواية رغم أنني احتجت إلى لحظات حتَّى تعرَّفت عليها. ظل غلافها أسود، لكن مطبوع عليه فتاة ترتدي فستانًا شفافًا، تستعد لإطلاق سهم من قوس ميكانيكي يصوِّب بالليزر. وجهها مرتعب وعيناها غاضبتان، تجلس القرفصاء وسط غابة ملونة كرؤى الثملين. ألوان الغلاف تعود إلى حقبة أغلفة قصص الخيال العلمي في الستينيات، حتَّى ملصق السعر عند الركن الأيسر: 35 سِنتًا. أعرف الكثير عن رسامي أغلفة هذا العصر، وأعتقد أن الغلاف بريشة ڤيكتور كالين رغم صعوبة التفرقة بين رسمه ورسم ميتشل هوكز. ابحث في جوجل عن الاسمين لتفهم ما أتحدَّث عنه.

الكتاب قديم، يبدو أنه قد تنقَّل بين عدد من أيادي القراء، أغلبهم أخرق مُتعجِّل.

شعرت بشيء يؤلمني خلف عيني، وكأن أحدهم يضغط بقوة على صدغَيَّ. نظر إليَّ ذو غطائي الأذنين في قلق وسألني: «هل أنت بخير؟».

لم أجبه، لكنني قلت: «هلا أريتني هذا؟».

وأخذت منه الكتاب لأرى أنه الكتاب الذي أَلِفته من عصري، بالغلاف الأسود المنقوش برسم الطائر الذهبي البارز على مشبك زينة. رفعت عينَيَّ نحوه لأجده ينظر بعيدًا عني، عيناه تطوفان بالكتب على الرف. قال بصوت عادي: «لا أستطيع أن أرى أغلبها. تبدو الكتب غريبة لعينيَّ حين أحاول قراءة عناوينها. بعضها على الأقل. أرى كتاب «الأشجار تنمو في بروكلي» جيدًا، لكن هذا...».

أشار نحو مجموعة روايات «هاري بوتر» وقال: «لا أستطيع رؤيتهم جيدًا. هل أصابتني جلطة مخية يا سيدي؟».

- لا أعتقد ذلك.

زفر، ثمَّ نظر إليَّ ووضع يده على صدغه الأيسر وهو يقول: «يجب أن آخذ كتابي وأرحل. أظنني أحتاج إلى بعض الراحة».

جلست خلف المكتب الخشبي، فأبرز لي بطاقة المكتبة، مكتوب عليها: فريد مولير، 46 شارع جلعاد، رقم الاستعارة: 1919.

لم يكن هناك رمز شريطي أمسحه بهاتفي المحمول. لا بأس، لكن حين أخرجت هاتفي وجدت شاشته سوداء بالكامل، ودائرة بيضاء تتوسطه، تدور وتدور كأن نظام التشغيل قد انهار.

لم يبدُ أن الرجل لاحظ الهاتف. عبر نظره من خلال الجهاز في يدي دون أن يلمحه. هذا هو تجسيد المستقبل أمامه، القرن الحادي والعشرين على هيئة هاتف آي فون بلس خارج لتوه من قصة خيال علمي أكثر من أي شيء كتبه هاينلاين. تجاهل الهاتف لم يفاجئني؛ هو لم يرَ سلسلة روايات «هاري بوتر» أيضًا، وأظن أنني عرفت السبب. هذه الأغراض لا تنتمي إلى عصره، ولم تحدث بعد. استطاع أن يرى «ألعاب الجوع»، وأظن أنني عرفت السبب كذلك. هي لم تنتمِ إلى عصره أيضًا حتَّى أعطيتها له. بمجرَّد أن استقرت بين يديه رآها كما المفترض أن يراها كي يتقبَّلها. اتخذت شكلًا يستطيع فهمه، شكلًا لا يزعجه.

أعتقد أنني مخطئ لو قلت إنني أفهم كل شيء عمَّا يجري. كنت كأعمى يمسك رُكبة فيل، ويشك أنه يمسك حيوانًا لا جذع شجرة. لم يكن ما أدركت يعني شيئًا في البداية، ثمَّ فطنت إلى المنطق وراءه، ووراء ما سيتكشَّف لي من الموقف.

سألني: «ألن تحتاج إلى أن تختمه؟».

وضع يديه على الكتاب واستدار نحوي، ورأيت الغلاف المرسوم الذي كنت شبه واثق أن ڤيكتور كالين هو من رسمه رغم أنك لن تجد هذا الغلاف على موقع كالين على الإنترنت. كيف هذا؟ نُشرت «ألعاب الجوع» عام 2008، ووقتها سيكون فريد مولير قد مات منذ نصف قرن. لقد سقط ميتًا في يناير من عام 1965 جراء أزمة قلبية بينما يجرف ممر منزل أخته من الثلوج كما

لا بُدَّ أنك خمَّنت. قرأت الخبر على الإنترنت في مساء ذلك اليوم على شاشة الهاتف الذي لم يستطع رؤيته. نال ميدالية الخدمة الشرفية في خلال فترة من أعنف الحروب التي نشبت في حرب المحيط الهادي.

وضع فريد رواية هاينلاين على المكتب، وأخذ النسخة «القديمة» من «ألعاب الجوع»، ثمَّ توجَّه نحو الباب الجانبي للشاحنة. وضع يده على المقبض ثمَّ تردَّد ونظر إليَّ مبتسمًا ابتسامة متوترة. بدا لي متخشِّبًا نوعًا، وانحدرت قطرة عرق عن جبينه. قال لي: «هل يمكن أن أسألك سؤالًا غريبًا؟».

- بالتأكيد.

- هل سألك أحد من قبل إن كنت شبحًا؟

ضحك، ثمَّ مسَّ جبينه كأنه يشعر بدوار مرَّة أخرى. قلت: «كنت أتساءل عن الأمر نفسه بالنسبة لك».

ثمَّ ضحكت معه.

***

بمجرَّد أن خرج، سمعت طرقًا على الباب قمت لأفتح فوجدت مجموعة أمهات مع أطفالهن الذين يتجمَّد المخاط أسفل أنوفهم. السماء زرقاء حتَّى ليؤلم النظر إليها. في الوقت الذي كنت أتحدَّث فيه مع فريد مولير، كان الضباب البارد قد انقشع تمامًا.

أحنيت عنقي لأنظر إلى الحشد الصغير وأتفحص الساحة الواسعة حولنا. لم يكن أثر للسيد مولير وقبعته ذات غطائي الأذنين الهائلين.

ولا أستطيع القول إنني فوجئت.

***

كانت الساعة الرابعة عصرًا فقط حين عدت بالمكتبة المتنقِّلة إلى ساحة انتظار السيارات خلف المكتبة، لكن الظلام قد حل وفاحت رائحة الثلج في الهواء. سرت مسافة نصف مجمع سكني حتَّى وصلت إلى مقهى من سلسلة مقاهٍ محلية واشتريت قهوتي ثمَّ جلست مع هاتفي المحمول أقرأ عن فريد مولير ثمَّ ابنه الذي كان في بداية العشرينيات من عمره حين توفِّي والده، وهو الآن قد جاوز السبعين وتقاعد في هاواي. في حقبة السبعينيات

ابتكر طريقة تسمح للحواسيب بالتواصل مع بعضها عن طريق خطوط الهاتف. هو ونحو عشرة أشخاص آخرين ابتكروا معًا الأب الأول للإنترنت الحالي. براعته في التعامل مع الإلكترونيات جعلته شهيرًا إلى حد ما وسط دوائر المهتمين بهذه الأمور، وقام بدور صغير في فيلم «الجيل التالي» من سلسلة أفلام «رحلة النجوم». زرت موقعه الإلكتروني فنتحت حبَّات العرق على وجهي. صورته تبيِّن رجلًا مُسنًّا ذا لحية متشعِّثة يقف جوار لوح تزلج تحت نخلة، يرتدي بنطالًا قصيرًا و.. قميصًا قصير الكمين مطبوع عليه شعار روايات وأفلام «ألعاب الجوع». كتب ضمن تفاصيله الشخصية أن الكتاب من مفضَّلاته وعمِل مستشارًا في الفيلم كما عمِل في العديد من أفلام الخيال العلمي الأخرى.

تساءلت إن كان قد قرأ الرواية قبل أن تنشر. أتساءل إن كان قد قرأها قبل أن تولد كاتبتها نفسها؛ سوزان كولينز. تعرَّقت لهذا الخاطر، أما خاطري الثاني فقد أرعدني. ماذا لو كنت قد أعطيت السيد مولير كتابًا عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدلًا عنه هذه الرواية؟ هل كان يمكن أن يمنع وقوعها؟

لم أكن لأتعجَّب لو حدث هذا. لا حاجة بي إلى التعجُّب. معي كتابه الذي تأخَّر في إرجاعه؛ الكتاب ذو الغلاف الأحمر السميك بعنوان: «ممر عبر السماء». اسم فريد مولير هو الأخير على بطاقة الاستعارة في الخلف، وختم موعد الإرجاع يحمل تاريخ 13-1-1965، وقد مات هو في السابع عشر من الشهر نفسه، أي بعد هذا التاريخ بأربعة أيام.

هل انتهى من قراءة «ألعاب الجوع» قبل أن يتخلَّى عنه قلبه؟ أتمنَّى ذلك. بالنسبة لي كدودة كُتب، فالموت قبل الانتهاء من آخر خمسين صفحة من رواية جيدة أمر مؤسف.

سألني رالف تانر من خلف كتفي: «هل سأقطع حبل أفكارك لو جلست معك؟».

قلت وأنا أنظر خلفي: «هذا الحبل لا يربط أي شيء. أنا فقط أعبث به».

كان يمسك غليونه غير المشتغل في يد، وقهوته في اليد الأخرى. لو كنت قد فكَّرت قبلًا لكنت توقَّعت مقابلته، فهذا وقت تدخينه الليلي مع آخر جرعة كافيين في يومه، والمقهى على مرمى خطوات من المكتبة.

سألني وهو يعتلي مقعدًا جواري: «ما أخبار الكتب معك؟».

لاحظت ابتسامته المتردِّدة وعينيه الباهتتين المراقبتين، فباغتني خاطر غير متوقَّع: هو يعرف. تذكَّرت أول حديث بيننا وتوقُّعي أنه يعرف بشأن والدَيَّ لكنه كان مهذَّبًا إلى درجة منعته من ذِكر الأمر. مع الوقت فطنت إلى أن هذا جزء من شخصية رالف تانر؛ إخفاء بعض ما يعرف لدرجة تدفعك للظن أنه لا يعرف أي شيء.

أجبته: «ليس الوضع سيئًا للغاية. أعاد لي أحدهم رواية «ممر عبر السماء» لروبرت هاينلاين بعد فوات وقت إرجاعها».

- آه، رواية اليافعين. أراها أفضل من كتابات هاينلاين للكبار في رأيي.
- لقد تأخر كثيرًا في إرجاعها. أخذها في ديسمبر 1964، وكان المفترض أن يرجعها سريعًا لكنه توفِّي في يناير 1965، ممَّا أبقاه وكتابه خارج الحسابات لفترة.

ابتسم رالف ورشف من قهوته ثمَّ قال: «آه.. واحد منهم».

أدرت كوب قهوتي مرَّات ومرَّات حول نفسه بأطراف أصابعي وقلت: «إذَنْ، ليس هذا أمر جديد».

- تكرِّر الأمر من لورين هيس من فترة لأخرى. أخبرتك بهذا، وأعترف أنني كنت مسرورًا بإقناعك أن لقاءاته هذه كانت خيالية. في البداية كان يقابلهم مرَّة أو اثنتين في السنة، لكن اللقاءات تزايدت مع الوقت.
- لهذا اعتزل العمل؟

أومأ رالف ببط وتحاشى النظر إليَّ وهو يقول: «ظن وهو شابٌّ، مع تركيز أفضل، أنه قادر على تثبيت المكتبة المتنقِّلة هنا، في عصرنا حيث تنتمي. لكن كلما كبر في العمر وقل انتباهه، كلما وجدت المكتبة المتنقِّلة طريقها إلى الماضي بشكل متكرِّر، وصار أكثر زبائنه.. مثل الذي قابلته اليوم. يطلق عليهم لقب العائدون».

رشف رشفة أخرى من قهوته، وتحدَّث بلا عجالة كأنه يتحدَّث عن تسريب الزيت من المكتبة المتنقِّلة، أو رائحة نظام تدفئتها الذي يشبه رائحة الأحذية القديمة.

- من جهة أخرى، الأمر عادي. شائع أن تدخل مكتبة لتجد نفسك في نقاش مع الأموات. أفضل عقول البشرية قد رحلت، وظلت أفكارها على أرفف الكتب. يقبعون هناك في انتظار أن يراهم أحد، أن يحدِّثهم أحد فيردوا عليه. في المكتبة، يقابل الموتى الأحياء كل يوم.

- قياس جيد، لكن ما يحدث ليس مقابلة مجازية مع عقل رحل منذ زمن. معطفه كان مبلَّلًا، استطعت شم رائحته.. رائحته تشبه رائحة الضأن. لا أظنه ميتًا.. كلا، لحظة، أعني أنني أعرف أنه ميت، ميت منذ خمسين عامًا، لكن بينما كان في المكتبة..

غنَّى رالف: «*حلمت أنني رأيت چو هيل، حيًّا مثلي ومثلك...*».

ارتجفت، غنَّت چوان بيز هذه الأغنية، وكان والداي يغنِّيانها معها. قلت له: «لقد استعار كتابًا، وأعتقد.. أعتقد أنه قد أخذه معه. رواية «ألعاب الجوع» إلهي! لقد أعطيته كتابًا لم يُنشر إلا بعد خمسين عامًا من وفاته!».

فوجئت بابتسامة رالف تتسع وهو يقول: «رائع! أنت رجل عظيم».

- رجل عظيم؟ ماذا لو أفسدت كل شيء؟ تسلسُل الزمن والمكان؟ الأمر أشبه بلعبة ماذا لو. ماذا لو لم يُقتل چول لينون؟

- سيكون هذا عظيمًا أيضًا، ألا ترى ذلك؟

- أجل، لكن.. ظاهريًّا. أنت تعرف ما أعنيه؛ تأثير الفراشة.

ظل يبتسم لي بطريقة أثارت جنوني. أضفت: «ماذا وأعطيته كتابًا عن جريمة مدرسة كولومبين؟[1]».

- هل طلب كتابًا عن جرائم المدارس؟

- كلا.

- حسنًا. لا مشكلة إذَنْ.

لا بُدَّ أنه رأى الحنق على وجهي لأنه لانَ قليلًا، وضرب كتفه بكتفي بطريقة معاملة الزملاء الأقل سنًّا أو خبرة قال: «ظن لورين هيس -الذي لا بُدَّ أن تقابله- أنهم يعثرون على المكتبة المتنقِّلة في نهاية قصصهم، وأنهم لا

---

(1) ارتكب أحد الطلبة جرائم قتل بالرصاص داخل المدرسة وحاول تفجيرها عام 1999. (المترجمة)

يقترضون قصصًا يمكنها الإضرار به. هذا لن يخل بالزمن. هذا الرجل الذي قابلته اليوم، هل وجد صعوبة في رؤية الكتب؟».

أومأت، وانتصبت الشعيرات على جسدي. مقابلة الرجل من عام 1965 كان أهون من حديثنا العادي هذا ونحن نشرب القهوة.

- لا يمكنه إلا أخذ كتاب لا يهدِّد أي شيء، كتاب يلائمه. فكر في هذا.. تخيَّل أنك تعيش في الخمسينيات وتعجبك حبكات روايات أجاثا كريستي. الآن تخيل أن فرصة قراءة رواية «الزوجة المفقودة» قبل وفاتك، ستموت قطعًا من السعادة! أظن هذا ما حدث للرجل الذي قابلته اليوم!

أجفلت معترضًا وقلت: «لا تقل هذا! هذا مريع!».

- أستطيع أن أفكر في أسباب أسوأ للموت غير الرحيل وكتاب جيد بين يدَيَّ. خصوصًا كتاب لا تحق لي قراءته لأنه لن يُنشر قبل وفاتي. لو لم تقدِّم استقالتك فستقابل آخرين من وقت لآخر، ولن تتمكَّن من إعطائهم أي شيء يؤذيهم.

- لكن ماذا لو أعطيتهم شيئًا قد يغيِّر التاريخ؟

ابتسم مرَّة أخرى وقال: «كيف ستعرف؟ ربما فعلت! ربما كل ما يحدث بسبب فعلتك!».

نظر حوله إلى الزبائن الذين يحدِّقون إلى هواتفهم المحمولة، ثمَّ نظر إليَّ راضيًا عن نفسه وقال: «التاريخ الذي لدينا هو التاريخ الوحيد الذي نعرفه. إضافة إلى أن مَن يذهبون إلى المكتبة يذهبون لتحسين قدراتهم أو لتسلية أنفسهم أو لاكتشاف شيء جديد عن العالم. كيف يكون هذا سيئًا؟ أعتقد أن العائدين يزورون المكتبة المتنقِّلة يرغبون في تحلية أخيرة قبل أن يطردهم المطعم».

- إذَنْ الأمر أشبه بمكافأة من الله لمن عاشوا حياة جيدة؟

- لماذا لا تكون مكافأة من المكتبة لإرجاعهم الكتب حتَّى بعد موتهم؟ هل ستستقيل؟

- كلا.

سمعت نبرة عِند في صوتي. أضفت: «أسمع رواية مايكل كورتيا الصوتية، ولا أركِّز إلا فيها بينما أقود الشاحنة».

ضحك ثمَّ قال: «أتمنَّى ألا تكون قد اشتريتها. المكتبة تحوي مجموعة رائعة من الكتب الصوتية».

وقف حاملًا غليونه مردفًا: «يجب أن أخرج، فهم لا يسمحون بالتدخين داخل المقهى. لماذا لا تأتي للعب الورق معي أنا ولورين؟ واثق أن لديك الكثير لتتحدَّث عنه معنا».

سار نحو الباب، فهتفت: «سيد تانر؟».

نظر إليَّ ويده على المقبض.

- هل فكرت من قبل في أن تقود المكتبة المتنقِّلة بنفسك؟ لترى ما قد يحدث؟

ابتسم وأجاب: «ليست معي رخصة من الدرجة الأولى. تخيفني الشاحنات الضخمة. تصبح على خير يا چون».

***

لعشرة أيام تالية، قدت الشاحنة منكفئًا فوق عجلة القيادة، أمسح الأرصفة والطرقات بحثًا عن أولئك الخارجين من أفلام الأبيض والأسود. ما كنت لأقلق وأتوتَّر بهذا الشكل لو كانت الشاحنة محمَّلة بمتفجرات.

التحكُّم في درجة الحرارة داخل الكابينة صعب. يخرج الهواء الساخن فجأة محمَّلًا برائحة الجوارب المستعملة، فأتعرَّق ويلتصق قميصي في جسدي. لو أغلقت التدفئة تنخفض درجة الحرارة في خلال دقائق، فأفقد الشعور بأصابعي ويتجمَّد العرق على جلدي. تأرجحت خواطري مثل درجة الحرارة بين السخونة والبرودة، بين الحماس والقلق، بين البحث عمَّن لا ينتمون لهذا العمل وبين الخوف منهم.

المشكلة أن شيئًا لم يحدث، وبعد أسبوعين من التجوال في الشوارع أدركت أن شيئًا لن يحدث، فتضايقت. لم أتضايق على الفور، إنما تسلَّل إليَّ شعورٌ أقوى من مجرَّد خيبة الأمل. بلادة وملل وخدر.

بحلول الوقت الذي لمت فيه اكتئابي على ما حدث، وبينما كنت أنظِّف المرأب، أدركت أن حالتي كانت تتدهور عن قبل.

كنت قد فرغت من تنظيف حجرة النوم الرئيسية ومكتب أمي المنزلي وأرسلت الأحذية والأوشحة إلى الجمعيات الخيرية. أفرغت خزانات المستندات ومزَّقت ما ليس له أهمية، ثمَّ جمعت الأوراق المهمَّة في كومة لأفحصها لاحقًا. ملأت أكياس القمامة وسلال المهملات عن آخرها.

أخيرًا، وفي يوم أحد بهي، قرَّرت إلقاء نظرة على المرأب. غُمر المنزل بأشعة الشمس، وانعكس النور على الجليد أسفل الأشجار. في يوم منير كهذا شعرت أنه في إمكاني التعامل مع المكان الذي مات فيه أبواي.

سقط النور على شِباك العناكب التي تغطِّي النوافذ كغلالة فتحيلها إلى لون أبيض شاحب. رغم أن الشرطة قد صادرت السيارة، ظل سقف المرأب مسودًّا من العادم، ورائحة المكان نتنة كاللحم الفاسد. أنا الآن واثق أن الرائحة في عقلي فقط، لكن سواء كانت متخيَّلة أو حقيقية، أشعر أنني سأقيئ كلما تنفست.

أرغمت نفسي على الدخول وأنا أربط خرقة تسدُّ أنفي، وضغطت زرَّ رفع باب المرأب. ارتفع الباب مقدار ربع بوصة قبل أن يصدر صوت قعقعة ويتوقَّف المحرِّك وأدرك أنه مغلق بالرتاج. حاولت كثيرًا فتحه، لكن يبدو أن الصدأ جمَّده مكانه، وعجزت عن تحريكه. دُرت في دوائر بحثًا عن شيء أطرق به عليه، فعثرت على فردة من حذائَيْ أبي طويلي الرقبة. ربما انخلعت عن قدمه حين جرُّوه خارج السيارة من خلف المقود. التقطتها، فزحف عنكبوت على أصابعي خارجًا منها، فصرخت وألقيتها. كان هذا كافيًا بالنسبة لي.

بعدها توقَّفت عن العمل في المنزل. وجدت لعبة سيجا قديمة في خزانة حجرة المعيشة، فأوصلتها بالتلفاز ولعبت لخمس أو ست ساعات متواصلة، وحتَّى ضرب الصداع رأسي. عندما سئمت من اللعب، شاهدت أيًّا ما كان يعرض على التلفاز؛ برامج، أخبار، لم أمانع في أي شيء. شعرت كأنني أتعافى من برد في المعدة.. إلا أنني لم أتعافَ بالفعل.

لطالما كنت قارئًا، لكنني أفتقر إلى الطاقة العقلية التي تدفعني إلى خوض غمار كتاب. كلها بدت لي أكثر طولًا ممَّا أتحمَّل، وكل صفحة بها كلمات أكثر ممَّا يجب. في خلال كل تلك الفترة السابقة قرأت رواية واحدة: «شيء رائع آخر» للوري كولوين، والسبب الوحيد أنها قصيرة ويمكن الانتهاء منها في جلسة، لأن صفحاتها لا تزدحم بالكلمات. الرواية عن شابة متزوِّجة حديثًا

وحُبلى، تقع في حب رجل أكبر منها بكثير وتقيم معه علاقة لأسباب تفهمها هي بالكاد. تسمع عن نساء خائنات، فتميل تلقائيًّا إلى الحكم عليهن بالعُهر، لكن كل مَن في الكتاب كان كريمًا، الكل يريد الخير للآخرين. في النهاية فطنت إلى أن الرواية عن جيل يودِّع جيلًا، فأجهشت بالكاد على الأريكة، ثمَّ شعرت بالسرور أن لأمي قلبًا سعيدًا رومانسيًّا.

كان من المفترض أن أقرأها ثمَّ أغوص في كومة الكتب التي أرجَعَها مَن استعارها من المكتبة، لكن انتهى بي الأمر إلى وضع الكتاب في صندوق الأحذية مع الفواتير غير المدفوعة. بانتهاء قراءتها، شعرت أن الرواية ملكي.

لم أخرج من البيت إلا لقيادة المكتبة المتنقِّلة، وكنت أدور في الطرق المحددة سلفًا بلا تفكير، بالكاد ألاحظ من يدخلون المكتبة بحثًا عمَّا يقرؤونه. في المرَّة التالية التي أقابل فيها ميتًا -في المرَّة التالية التي يزورني فيها عائد- لم ألحظ وجهها حتَّى بدأت تنتحب.

دخلت بعد مجموعة أطفال وأمهاتهم، شقوا طريقهم إلى داخل المكتبة في طابور وهم يصخبون. كنت في «كوينس»؛ بلدة صغيرة جنوب كينجزوارد. أوقفت الشاحنة في باحة بين المدرسة الابتدائية وملعب كرة قاعدة. الملعب مغطى بالوحل المتجمِّد ويفوح برائحة تشبه رائحة براز الكلاب. طقس اليوم كان كما أحب: غائمًا تحت كتلة منخفضة من السحب الثلجية. في لحظة معينة أدركت أن هناك امرأة وحيدة في المكتبة، نحيفة ضئيلة، ترتدي سترة رجالية باللون الرمادي المغبَّش، أكبر من مقاسها بثلاث مرَّات. تجاهلتها وأكملت فحصي للمرتجعات حتَّى سمعتها تشهق. كانت تمسك بكتاب أحمر ذي كعب بني مفتوح على آخر صفحة. نظرت نحوي وابتسمت في ضعف، ثمَّ مسحت الدموع عن وجهها. قالت بصوت مبحوح: «أكمِل. أنا فقط مصابة بحساسية».

- ممَ تتحسَّسين؟

- أوه..

قالتها ثمَّ نظرت إلى السقف والدموع تنهمر على وجهها الشاحب الجميل. أضافت:

- من الحزن غالبًا، وأيضًا الخُزامى ولدغات الحشرات، لكنني حسَّاسة أكثر تجاه المشاعر البائسة. هذا أمر متكرِّر معي.

التقطت علبة المناديل الورقية من فوق المكتب، ثمَّ توجَّهت نحوها أعرض عليها واحدًا.

- أتمنَّى ألا يكون حزنك بسبب عدم توفيرنا للكتاب الذي تبحثين عنه.

ضحكت ضحكة تعسة شاكرة وسحبت منديلًا. أفرغت أنفها ثمَّ قالت: «لا. توجد كتب كثيرة. كنت أفكر في أنني لم أقرأ روايات «شيرلوك هولمز» قَط، وأتوقَّع أن أجد بعض الروايات المكتوبة باللكنة الإنجليزية تتوافق مع بسكويت وشاي ما بعد الظهيرة. تصفحت هذه الرواية ووجدت اسم ابني في بطاقة الاستعارة. بالتأكيد استعاره من قبل، وأظن أنني أتذكَّر حين قرأه وهو مريض».

فتحت رواية «مغامرات شيرلوك هولمز» لتُريني بطاقة الاستعارة، فاقشعر قذالي وعرفت أنها واحدة منهم. لا يوجد مثل هذه البطاقة في كتب المكتبة الآن، فقد استبدلوها برموز شريطية.

أكثر من عشرة أسماء مدوَّنة بالقلم الرصاص على بطاقة الاستعارة، أولها براد دولان بتاريخ 13-4-1959. أشارت بإصبعها إلى اسم براد دولان مرَّة أخرى بالأسفل بتاريخ 28-11-1960.

واحدة من أواخر روايات براد دولان اسمها «التحقيقات!» وتدور حول محقِّق اسمه شيلدون هومز يستطيع استنتاج حقائق مستحيلة من أدلة تافهة. بالنظر إلى امرأة تقضم أظفارها يستنتج هومز أن دورتها الشهرية بدأت حين كانت في الحادية عشرة من عمرها، وكان لديها قِط اسمه أسبيرين.

تذكَّرت دولان وهو يتحدَّث إلى فصلي المدرسي عن حبه لروايات شيرلوك هولمز لأنها تحكي كذبة مُطمئِنة: العالم منطقي والأدلة تؤدِّي إلى استنتاجات. على العكس، فقد علَّمته حرب ڤايتنام أن الجيش قد يقذف الأطفال بالنبالم ليوقف الفكر السياسي القائم على مشاركة الناس ما يعرفونه مع بعضهم. قال إن فِعلة كهذه تعتبر لغزًا لا يمكن لأي محقق مهما بلغت عبقريته أن يفسِّره.

أعرف أنها تجول في المكتبة آتية من الماضي. أعرف البرودة التي تسكن أعضائي. لكن كي أتأكد طلبت منها رؤية الكتاب، فأعطته لي. ابتعدت عنها قليلًا وأغلقته.

بين يديها كان قديمًا ذا غلاف سميك، طباعة غلافه تكاد تختفي، وصفحاته ذات أطراف ملوية. أما عندما أمسكته بين يدَيَّ أصبح غلافه رقيقًا، عليه صورة الممثِّلين بينيدِكت كَمبرباتش ومارتن فريمان على خلفية حمراء منقوشة، ويحمل عنوان «دراسة في القرمزي»، بمقدِّمة بقلم ستيڤن موفات.

قلت لها: «براد دولان؟ أظنني أعرف هذا الاسم».

- ربما كان يوصل إليك الصحف.

قالتها وضحكت، فقلت: «ربما أنت مَن كنت يوصلها بينما ينام هو جوارك في السيارة».

استدرت وأعدت إليها الكتاب، فعاد مبقعًا قديمًا ذا غلاف سميك عليه نقش غليون ذهبي. ابتسمت ووجهها مبقع ببقايا الدموع. قالت: «شكرًا على المناديل. معذرة».

- ماذا يفعل ابنك هذه الأيام؟

- لقد تطوَّع في الجيش بعدما توفِّي والده في كوريا و.. هو شجاع للغاية.

ابتسمت بضع لحظات، ثمَّ تجعَّد وجهها وغطَّته بكفَّيها واهتزَّت كتفاها من البكاء. قالت من بين أنفاسها المتهدِّجة: «معذرة، معذرة، لم أفعل هذا من قبل».

وضعت يدي على ظهرها وتركتها تسند رأسها على كتفي. طبيعي في زمنها أن يعانق الرجال النساء الغرباء الباكيات، لكن وضع كفِّي بين لوحي كتفيها كان مريحًا أكثر بالنسبة لي.

- ما الذي لم تفعليه من قبل؟ البكاء؟ هل هذه هي أول مرَّة تبكين فيها؟ كل شيء سيمُرُّ عادة حين تلتهب عينيكِ.

ضحكت مرَّة أخرى وقالت: «أوه، أنا أبكي كثيرًا. كنت أقصد أن هذه هي أول زيارة لي لمكان عام، فيما عدا الكنيسة بالطبع، ولا يمانع أحد هناك في البكاء. أنا حسَّاسة للغاية هذه الأيام ككدمة، كأنني تحوَّلت إلى جرح عملاق. كل شيء يُشعِرني بالضعف ويدفعني إلى البكاء. لم يصل إليَّ خطاب منه منذ شهرين. هذه هي أطول فترة ينقطع فيها عن التواصل معي. أشعر أنني أحبس أنفاسي لكن لساعات. يأتي ساعي البريد، ولا يحمل لي أية خطابات».

كأنني تحوَّلت إلى جرح عملاق.. شيء في عبارتها أقلقني. ظهر فريد مولير ليستعير آخر رواية خيال علمي قبل أسبوع من وفاته. يظن رالف أن هذا جزء من نَسَق؛ العائدون يجدون طريقهم إلى المكتبة المتنقِّلة قُبيل موتهم. تذكَّرت شيئًا آخر من لقاء براد دولان مع فصلي الدراسي. ذكر أن أمه ماتت وحيدة بسرطان الرحم بينما كان يحاول هو النجاة بحياته في ڤايتنام. قال إن هذا أكبر ندم في عمره لأنه صار ثريًّا بعد وفاتها، ولم تستطع أمواله إنقاذها. حلمت أن تذهب إلى باريس أو على الأقل إلى قلعة لوديرديل، لكنها لم تغادر قط نيو إنجلند. لم تحظَ بعطلة ولم تَحُز سيارة أو تشتري معطفًا جديدًا إذ كانت تشتري ملابسها من سوق المستعمل. اعتادت منح عشرة بالمائة من راتبها السنوي للكنيسة، ثمَّ اتضح بعد موتها أن الكاهن الذي يدير المكان يتحرَّش بالأولاد ويشرب بمدخرات الكنيسة.

سألتني وهي تنظر إليَّ مبتسمة ابتسامة وجلة: «هل سيعود؟».

أشحت عنها. لا أريدها أن ترى تعبير وجهي.

- أعتقد.. أعتقد أنه سيعود يا سيدة دولان. أنا واثق من هذا. يجب أن تؤمني بعودته.

- أحاول.. رغم أنني أشعر كطفلة صغيرة تشك في وجود سانتا كلوز. هل رأيت الفيلم الذي صُوِّر في «كرونكيت»؟ هل رأيت ما يحدث هناك؟ أريد أن أصدِّق أنه سيعود وأنه سيظل كما هو، طيبًا خيِّرًا، لا مكسورًا. أدعو الله كل يوم أن أموت قبله. هذه هي النهاية السعيدة الوحيدة التي يمكن أن يحظى بها البشر، أليس كذلك؟ أن يموت الأبوان قبل أبنائهما؟

إن لم تقل عبارتها بهذه الطريقة تحديدًا لكنت قلتها، لكنني قرأت عبارة مماثلة منذ خمسة أشهر في خطاب أبي الأخير.

رالف متأكد أنني لن أستطيع منحهم أي شيء يؤذيهم، لكن لا يمكنه قيادة المكتبة المتنقِّلة ولن يقابل العائدين متأخِّرًا.

مددت يدي إلى أول رواية لدولان: «مُت ضاحكًا!»، والتي يحمل غلافها بوستر الفيلم الذي مثَّله توم هانكس وزاكاري كوينتو، لكنني حين أعطيته لها كان كتابًا من الطبعة الأولى.. كلا.. بل فكرة أحدهم عن كنه الطبعة الأولى. رأيت على الغلاف رسمًا لفرانك كيلي فريس رسام أغلفة الكتب الشعبية، ويُظهر الرسم جنديًّا أمريكيًّا يمتطي بندقيته كطفل يمتطي حصانًا خشبيًّا،

ويضحك. الغلاف الأصلي كان مطابقًا لهذا -أبحث عنه على الإنترنت- مع اختلاف أن هناك جنديًّا آخر في الخلفية يبكي ضاحكًا وهو يطوح قنبلة.

حدَّقت إلى الكتاب بين يديها، والذي يحمل ملصق سعر 25 سنتًا، وعبارة: «ليست الحرب ممَّا يُضحِك.. إلا عندما تكون كذلك!» وقعت عيناها على اسم الكاتب فنظرت إليَّ متسائلة: «ما هذا؟! مُزحة؟».

لم أُجِب على الفور، ولم أكن واثقًا من الإجابة. بحثت في وجهي عن تفسير أو ابتسامة تُلمِّح إلى أن كل هذا خدعة. قلت لها: «خذيه معك. كتاب جيد، بل من أفضل الكتب».

تفحَّصته مرَّة أخرى، ثمَّ نظرت لي وشبح ابتسامة يتجسَّد على شفتيها.

- شيء غريب أن أجد كتابًا كتبه مَن يحمل نفس اسم ابني، لكنني أشعر أنك تسخر مني.. ربما بسبب بكائي على رواية شيرلوك هولمز. عمومًا، هذا ليس تصرُّفًا لائقًا يا سيدي.

ألقت الكتاب أرضًا. قلت بهدوء: «سيدتي، أنا لا أسخر منك. لا ترحلي الآن. انتظري لحظة».

تردَّدت ويدها على المقبض. كانت شاحبة جدًّا.

- ابنك سيعود وسيكتب تلالًا من الروايات، وهذا أولها. لو حاولتِ قراءته الآن سيزيغ بصرك لأن هذه الرواية لم تُنشر بعد.. لن تُنشر قبل 1970. هيا، انظري إليها.

نظرت إلى الكتاب على الأرض الذي أراه يحمل صورة توم هاكس ومن خلفه زاكاري كوينتو على ركبتيه يضحك ويداه مغطَّاتان بالدماء.

- أوه..

وضعت يدها على صدغها الأيسر وترنَّحت بعينين مغلقتين.

- أشعر بدوار حركة.

نظرت إليَّ مرَّة أخرى وشفتاها بيضاوان، وبدأت ترتجف.

- ماذا تفعل بي؟ هل. لا أعرف.. هل خدَّرتني؟ سمعت أن وضع عقار الهلوسة على الجلد قد يؤثر في الوعي.

التقطت الكتاب وناولته لها وأنا أقول:

- كلا يا سيدتي.

رأت الكتاب بالغلاف المرسوم بين يديها، فزفرت ببطء، فأضفت: «ندم تتركينه، يغادر الكتاب زمنك وينتقل إلى زمني. هذا ما يجعله يُصيبك بدوار الحركة. ما دُمتِ تمسكينه سيبقى في زمنك، وسيُمكنك قراءته».

ثم تذكَّرت شيئًا من قراءتي للكتاب وأنا بعد في الصف الثامن، فاستطردت: «أظنه كتب لكِ إهداءً. لست واثقًا. انظري في الكتاب».

فتحت الغلاف الخلفي فقرأت:

إلى لين دولان، التي لم أكن لأكتب هذه الرواية لولاها.

لكنني نسيت ما تحت الإهداء.

(1926-1966)

والآن جاء دوري لأشعر بدوار الحركة.

- أوه، رباه، آسف! نسيت.. لم أقرأ هذه الرواية منذ..

لم يكن تعبير وجهها خائفًا، بل مصدومًا من الدهشة. كانت جميلة إلى درجة تمزِّق القلوب بملامحها الدقيقة الهشَّة وعينيها الواسعتين. كنت لأقع في حبها ما لم تكن ميتة منذ نصف قرن.

همست: «هل هذا حقيقي؟ ليست مزحة سخيفة؟ سيكتب ابني هذا في خلال سنوات؟».

- نعم يا سيدة دولان.. أنا آسف.. ما كان لي أن..
- كان يجب أن تفعل ما فعلت، وها أنا أتبيَّن أنك لست قاسيًا. أنا مدركة أن هذا هو آخر أعوام حياتي. عرفت منذ بضعة أسابيع، ولهذا لا أستطيع احتمال اختفائه أو الجهل أبدًا بعودته. كيف عرفت...

زمَّت شفتيها، فقلت: «عندما خرجت هذا الصباح في جولات المكتبة. نحن في ديسمبر 2019. أحيانًا يعبر الناس من الماضي إلى الحاضر ليستعيروا كتابًا. قابلت من قبل من يُدعى فريد مولير».

صرخت: «فريد موليرا هذا اسم لم أسمع به منذ حين. هو من ويست فيڤر. رجل مسكين».

- عاد إلى المكتبة المتنقِّلة منذ بضعة أسابيع، وأعطيته كتابًا لن يصدر إلا بعد سنوات. أتمنَّى لو يعجبه. أظنه من ضمن ما يفضِّل.

قالت: «تقول منذ بضعة أسابيع؟ لقد توفِّي من عشرة أشهر مضت. كنت سأكتب لبراد لأخبره، ثمَّ قلت إن الأفضل ألا أفعل. أنا لا أرسل إليه سوى الأنباء الطيبة. كل يوم هناك قد يكون الأخير، ولا أريده أن ينشغل بـ...».

ثمَّ صمتت ونظرت إلى الكتاب بين يديها. نظرت إلى صفحاته وأجفلت.

- لا أستطيع قراءة رقم الإيداع. يزيغ بصري كلما حاولت.

قلَّبت بعض صفحاته ثمَّ أضافت: «لكنني أستطيع قراءة الباقي».

ثمَّ نظرت لي نظرة فضولية وسألتني: «هل أستطيع قراءة الباقي؟ هل ستدعني أستعيره؟».

- ما دام معك بطاقة استعارة.

ضحكت، فأضفت: «أعتقد أن معك كتابًا ترجعينه. كتاب فات وقت إرجاعه؟ هذا جزء مهم ممَّا يحدث».

فتحت حقيبتها وأخرجت كتاب «وادي الدُّمى». احمرَّ خدَّاها قليلًا وتجشَّأت في حرج. قدتها إلى المكتب، فتبعتني بساقين مرتجفتين، تنظر يمينًا ويسارًا. قالت: «أراهم الآن.. الكتب. بعضها طبيعي لكن أغلبها.. تتماوج.. ترتعش، ولا أستطيع قراءة عناوينها».

ضحكت مرَّة أخرى لكنها ضحكة متوترة حزينة وقالت: «أنا أحلم، أليس كذلك؟ أنا على الأريكة بعدما ابتلعت بعض المسكنات ونمت».

سألتها: «هل يمكنك الحديث مع طبيب عن حالتك؟».

وجاء ردها كلمة واحدة هامسة: «لا».

- ربما لم تتدهور حالتك إلى هذه الدرجة. سيفرق مع دولان كثيرًا إن عاد ووجد أمه.

تقلَّصت عضلات فكَّيها، وفهمتُ أن هذه المرأة الهشَّة أقوى وأشدُّ ممَّا بدت لي.

- وجودي عندما يعود يعني لي كل شيء، لكنني عملت لثمانية أعوام في قسم مرضى السرطان في مستشفى كينجزوارد، وأعرف حالتي جيدًا. هل تقدَّم الطب في زمنك؟

- أعتقد.

- حسنًا إذَنْ. أشعر بالأسى أنني لن أستطيع العيش خمسين عامًا تالية. كيف حال ابني في القرن التالي؟

شعرت بفراغ مقيت في صدري، لكن أظنني قادرًا على الحفاظ على تعبيرات وجهي جامدة وأنا أقول: «صار شهيرًا للغاية، ويُدرِّسون رواياته، بل وصُنِعت أفلام منها».

-هل لديَّ أحفاد؟

- الحقيقة لا أعرف. أحب رواياته لكنني لم أبحث عن تفاصيل حياته على جوجل.

- جو.. جل؟

- جوجل هو موسوعة القرن الحادي والعشرين.

- وهو فيها؟ ورد ذكره في الجوجل؟

- لك أن تراهني على ذلك.

بدت سعيدة للغاية وهي تقول:

- ابني! ابني في جوجل!

تفحَّصتني هُنيهة ثمَّ سألتني: «كيف يحدث هذا؟ هل يحدث بالفعل؟ ما زلت أتوقَّع أن أستيقظ على أريكتي في أي لحظة. أنا أنام كثيرًا وأفقد الوعي أحيانًا هذه الفترة».

- ما يحدث حقيقي، لكن لا أستطيع أن أخبرك كيف.

- وأنت لست رسولًا من الرب؟ لست ملاكًا؟

- كلا. مجرَّد أمين مكتبة.

- حسنًا، هذا قريب ممَّا قلت.

وقبل أن أختم بطاقتها، مالت على المكتب وقبَّلت خدِّي.

***

كانت الثلوج تهطل بقوة والظلام حالك في الليلة التي طرقت فيها الباب المعلَّق عليه رقم 309 في بناية سيرينيتي. غمغمت الأصوات.. حكَّت قوائم المقاعد الأرضية.. فُتِح الباب وأطل منه رالف تانر. كان يرتدي سترة زرقاء وقميصًا أزرق ذا ياقة وسروال من الچينز الرمادي الداكن. أعتقد أن هذه هي فكرته عن التأنُّق. سألني: «كلمة السر؟!».

رفعت الزجاجة في يدي اليمنى، تلك ذات الربطة الفراشية حول عنقها وقلت: «اشتريت بوربون؟».

- صحيح. بالنسبة للمرَّة الأولى.

قادني إلى غرفة كبيرة تؤدِّي دور المطبخ وغرفة المعيشة وكل الحجرات في الوقت نفسه. أعتقد -كما تخيَّلت- أنها لا تختلف كثيرًا عن السكن الاقتصادي في ويست فيڤر، ربما في حالة أفضل قليلًا فقط. يعرض التلفاز شيئًا على قناة MSNBC والصوت مغلق. المذيعة ريتشيل مادو تبدو جميلة في سترة تناسب جسدها وتتحدَّث بجدية إلى الكاميرا. أمام التلفاز يجلس رجلان مسنَّان خلف منضدة، أعرف واحدًا منهما. اسمه تيري جالاجر، يعتمر هذا المساء قبعة صيد. اعتدت أن أرى جالاجر صباح كل خميس حين أوقف المكتبة المتنقِّلة أمام مبنى سيرينيتي. يجول ببطء في أرجاء المكتبة وينظر إلى الكتب بقلبٍ دامٍ، يفحص مؤلفات مايكل مور وإليزابِث وارِن ودكتور سيوس، ثمَّ يختار شيئًا للورا إنجرام.

الشخص الآخر في الحجرة لم أقابله من قبل. لورين هيس يجلس على مقعد متحرِّك يعمل بالكهرباء، ويتدلَّى من أنفه أنبوب يمده بالأكسجين. سدَّد نحوي نظرة ساخرة بعينين محتقنتين.

له وجه صخري كبير، وملامح ضخمة. وزنه زائد للغاية، وزاد من شكل سمنته شعره الأسود الدهني الذي يصففه على طريقة رونالد ريجان. قميصه الأبيض قصير الكُمين -يحمل صورة الممثل إيان مَكلين- يكتم على بطنه الضخم ويبرزه.

سألتهم وأنا أجلس: «ماذا سنلعب؟».

أخذ رالف الخمر من يدي وفتح الزجاجة، ثمَّ صبَّ منها مقدار بوصة في أكواب مشروخة الحواف. أجاب جالاجار: «لعبة قديمة محببة. انتظر لترى

كم سيصمد تيري جالاجر قبل أن يفقد عقله. الأمر أشبه بوضع سلطعون في ماء بارد ثمَّ إيقاد النار تحته. يريدون معرفة كم سأحتمل قبل أن أقفز هربًا».

قال لورين هيس: «افتح النافذة. نحن في الطابق الثالث. ربما يقفز منها».

جلس رالف معنا وقال: «ماذا لو لعبنا «هارتس»؟ نحن أربعة، عددنا مناسب. هيا يا سيد جالاجر. لقد أغلقنا صوت التلفاز من أجلك. لن تؤذيك المرأة الشريرة. نبقيك آمنًا من المنطق والعلم والرأفة».

أضاف لورين هيس: «أعطِها ظهرك. لو نظرت لها ربما ترى لمحة تعاطف فتصيبك بألم المعدة».

نظر لي جالاجر نظرة مستجدية وقال: «لقد تكاتفا ضدِّي، اثنان ضد واحد، هل توجد فرصة لتعزِّز أنت اختياري لقناة فوكس؟».

قلت: «قابلت امرأة الأسبوع الماضي تعرف الأخبار عن طريق والتر كرونكيت[1]».

صمت الجَمع، ونظر جالاجر إلى لورين هيس ثمَّ إليَّ مرَّة أخرى. حرَّك لورين بطاقات لعبه أمام وجهه ونظر إليها مطوَّلًا. أضفت: «سيد هيس، أتعرف أن هناك سُلَّمًا منبسطًا مخصَّصًا للمقاعد المتحرِّكة في المكتبة؟».

- حقًّا؟ من أين جاء؟ هذا جديد. لم يكن لدينا واحد حين كنت أقود الشاحنة.

قال تانر: «كنا أزلناه من الشاحنة التي دُمِّرَت في الحادث».

قلت: «لو كنت في مزاج مناسب لشيء تقرأه...».

قاطعني هيس: «لو كنت في مزاج مناسب لشيء أقرأه سأطلبه عبر الإنترنت. لا أظنني سأستعير من المكتبة المتنقِّلة. ربما تعرض عليَّ رواية لن تصدر إلا بعد عشر سنوات، وقتها سأواجه احتمالًا قويًّا أن تقتلني تلك اللعينة وتعيش من بعدي».

ثمَّ أومأ نحو جالاجر. لعبنا بضعة أدوار دون حديث، ثمَّ سألته: «هل غيَّرت أي شيء؟ هل *حاولت* تغيير أي شيء؟».

سألني هيس: «مثل ماذا؟».

---

(1) مذيع أخبار أمريكي من فترة الستينيات (المترجمة)

- إعطاء شخص كتابًا عن حياة چون لينون ومقتله وترى إن كان سيوقف اغتياله.

قال هيس: «لو أنني أعطيت أحدًا كتابًا عن اغتيال چون لينون واستطاع منعه، فكيف سيكون هناك كتاب عن اغتيال چون لينون؟».

- مسارات زمنية مختلفة؟ عوالم موازية؟

قال هيس: «في عالم موازٍ لن تأخذ ورقة ملكة البستوني، لكن في هذا العالم أكلت ثلاث عشرة نقطة للتَّوِّ».

ثمَّ وضع ورقة الملكة أمامي وأردف: «أيًّا مَن كنت تريد إنقاذه يا سيد ديڤيس، لا يمكن إنقاذه، لقد حاولتُ».

سألت: «إذَنْ ما الغرض من قدرتنا على العودة إلى الماضي إن كُنَّا عاجزين عن فعل أي شيء مفيد؟».

- مَن قال إننا عاجزون عن فعل أي شيء مفيد؟ هل قلت هذا؟ أنا قلت فقط إنك لن تستطيع إنقاذ أحدٍ.

سألته: «مَن أنقِذ؟».

شعرت بالدوار. لقد رشفت رشفة واحدة من البوربون لكني أشعر أن معدتي ممتلئة بالحمض.

- أيًّا كانوا.

قالها والتقت أعيننا. إحدى عينيه مغطاة بطبقة رقيقة جراء إصابته بإعتام عدسة العين. أردف: «حاولتُ. فكرت في أن أهرِّب رسالة إلى الماضي وأنقذ أقرب أصدقائي أليكس سومرز. كان هذا في عام 1991 وأليكس في دار العَجَزة. التقط عدوى فيروسية ممَّا كان يدور وقتها، فمات ونُسي. أصدقاؤه هربوا منه خشية أن يصيبهم ما أصابه إن سعل أمامهم. فكرت أن في إمكاني منع ذلك من الحدوث».

تهدَّج صوته، وألقى أوراق لعبه على المنضدة. قال جالاجر: «يكفي هذا».

أمسك بيد هيس ونظر إليَّ قائلًا: «من تكون بحق الجحيم؟ تأتي إلينا وتفسد أمسيتنا!».

تكلَّم رالف تانر برفق.

- فقد السيد ديڤيز أعزاء هو الآخر، وأراد فقط أن يفعل ما في الصالح، لكنه يتعامل مع أمر لا يمكن لأحد سوى لورين فهمه.

تيقَّنت الآن أنه يعرف بأمر والدَيَّ. كان يعرف منذ البداية كما أفترض. كما قلت من قبل، كينجزوارد بلدة كبيرة، لكنها ليس كبيرة بالقدر الكافي لإخفاء الأسرار.

قال هيس: «كتبت خطابًا وحصلت على طوابع بريد من أزمنة مختلفة لأنك لن تعرف من أي زمن سيأتون. كان معي طوابع من الستينيات ومنتصف الثمانينيات وكل الأعوام بينهما. في يوم صعدت امرأة إلى المكتبة ذات شعر أحمر، ونظَّارة طبية. جادَّة، متسلِّطة، يمينية. جالاجر، لو رأيتها لأصبت بجلطة. تحدَّثنا، وتساءلت بصوت عالٍ عمَّا إذا كان الإرهابيون سيقتلون الرياضيين اليهود في ميونخ، وهكذا عرفت أنها واحدة منهم؛ العائدين. كانت تفضِّل روايات الإثارة القانونية، فرشَّحت لها رواية سكوت تورو التي لن تنشر قبل عشرين عامًا، ثمَّ سألتها إن كان في وسعها إرسال خطاب. نظرت إلى المظروف وضحكت وهي تفرك عينيها. دسست الخطاب بين آخر صفحات كتابها وغلافه. حسنًا.. بعدها عُدت إلى زمني وعادت هي إلى زمنها.

هي من عام 1972، تعمل مساعدة محامٍ وتحب زميلًا لها في المكتب، وأطلق زوجها عليها الرصاص هي وعشيقها.

في زمني، أليكس سومزر يزن تسعين رطلًا، واسودَّت بشرته تمامًا من أثر سرطان كابوزي[1]. لم أعرف ما الذي جرى. حاولت الحديث معه عن الأمر وسألته إن كان قد تلقَّى خطابًا في الماضي من شخص لا يعرفه، فشحب أكثر متقوقعًا في فراشه. قال إنه قرأ في الخطاب حتَّى الفقرة التي كتب في المُرسل ما لا يعرفه أحد عنه، فمزَّق الخطاب، وراح يقيء لأيام بعدها، لا بسبب ما قرأ، بل بسبب أن محاولة قراءته جعلته يشعر بالغثيان. قال إن الكلمات كانت تتماوج أمام عينيه كلما حاول تركيز نظره عليها. في النهاية قرَّر أنه قد جُنَّ أو يهلوس. على أي حال، لم أستطع تغيير شيء.

دمعت عينا هيز المحتقنتان.

---

(1) سرطان يتكون في بطانة الدم والأوعية الليمفاوية، ويظهر عادةً على شكل بقع أرجوانية غير مؤلمة، وقد يصل المرض إلى الجهاز الهضمي والرئتين، وينتج عن عدوى فيروس الهربس البشري، ومرضى الإيدز أكثر تأثرًا بهذا الفيروس. (المترجمة)

أعرف أن رالف وجالاجر قد سمعا بعضًا من هذه التفاصيل من قبل، قبل أن أرى التأثُّر على وجه رالف وهو يحدِّق إلى بطاقات اللعب، متحاشيًا التقاء الأعين، ومن قبل نظرة جالاجر الكارهة لي. أحببته لأجل هذا الكره الذي وُلِد من رحم المحبة.

قال جالاجر: «هل حصلت على ما تريد الآن؟».

أجبت: «آسف أنك لم تستطع إنقاذه».

قال رالف: «لكنه فعل».

قال هيس: «لا أعرف كيف هذا».

كرَّر رالف: «لقد ساعده. الخطاب كان دليلًا حيًّا على أن له مستقبلًا يقابل فيه مَن يهتم بشأنه. لقد ساعدته حتَّى لو لم تمنع المأساة التي حدثت له، وكنت سببًا لاستكمال حياته».

عاد إلى التحديق إلى بطاقاته مضيفًا: «ثمَّ إن هناك موقف روايات «هاري بوتر». هذا تحديدًا مثال توضيحي كافٍ على الخير الذي قدَّمته يا لورين».

قال هيس شاردًا: «الخير الذي قدَّمته».

سألت رغم ظني أن لديَّ فكرة عمَّا يتحدَّث:

- ما هو موقف روايات هاري بوتر؟

نظر لورين هيس نظرة طويلة إلى تيري جالاجر، ثمَّ أطرق وقال: «عام 2009 هو العام الأخير الذي قدت فيه المكتبة المتنقِّلة. وقتها كنت أتوقَّف عند المستشفى في أيام الإثنين. أحيانًا يفد إلى المكتبة مجموعة أطفال من قسم السرطان، يلقون نظرة إلى المحتويات. فتاة منهم دخلت المكتبة مرتدية زِي السحرة، حنقة، تسُبُّ بألفاظ طفولية لأن الكاتبة ج. ك. رولينج أنهت الكتاب اللعين بنهاية مفتوحة لعينة، وأنها ستموت قبل أن تعرف نهاية السلسلة، ثمَّ ألقت أمامي الجزء الثاني من سلسلة هاري بوتر. حسنًا، الكتاب الأخير من السلسلة لم يصدر في زمنها، لكنه صدر في زمني. لقد أحبَّت السحر، فأعطيتها قبسًا منه».

قال رالف رافعًا حاجبيه: «الفتاة أنهت الروايات قبل أن تنتهي ج. ك. رولينج من كتابتها. بعد وفاتها، أعاد واحد من عائلتها الكتب إلى المكتبة. تعرَّفت على الفور رواية «هاري بوتر ومقدَّسات الموت» والتي لم تكن قد

نُشرت بعد، فأخفيتها بعدما قرأتها بالطبع. أنا أتحكَّم في نفسي جيدًا، لكنني لن أعذِّبها. كنت أتوق شوقًا إلى معرفة ما حدث مع سنيب».

سألت تيري جالاجر: «ما رأيك؟ لقد سمعت كل هذا الهراء من قبل، وأنا مقتنع به، فهل تصدقه؟».

نظر إليَّ نظرة كئيبة وقال: «مَن تظنه أعاد «مقدسات الموت» إلى المكتبة؟ ابنتي عجزت عن فعل أي شيء بعد وفاة كلوي، فأعدت الكتاب نيابة عنها؟ أحبت حفيدتي تلك الروايات».

صمت هُنيهة، وداعب طرف شاربه الأشيب الكث ثمَّ أضاف: «قرأتها لها.. الرواية الأخيرة.. حين كانت أضعف من أن تمسك كتابًا بنفسها. أرادت معرفة ما ستكشف عنه الأحداث أيضًا».

قال هيس: «فكرت في الأمر لعقود. حاولت فهمه. توصَّلت إلى أن الأشخاص الذين يعودون من عصور أخرى لزيارة المكتبة يتوقون إلى شيء. التَّوق هو ما يُمكِّنهم من عبور المكان والزمان على هذا النحو. لا تستطيع إعطاءهم ما لا يحتاجون إليه. احتاجت حفيدة تيري إلى معرفة ما سيحدث لسنيب، وما إن كان شريرًا أم طيبًا. لم تكن تعبأ لأي شيء آخر سيحدث بعد وفاتها؛ الاغتيالات والكوارث الطبيعية والإرهاب. لديها قصة تُنهيها قبل أن تنتهي قصَّتها الشخصية. لهذا جاءت، وهذا ما استطعت فعله لأجلها».

قال رالف: «هكذا تعمل المكتبة دائمًا. الناس لا تذهب إليها لتحصل على كتب تريدهم أن يقرأها».

غمغم جالاجر: «أتساءل إن كانت هناك دار عرض في مكان ما تعرض أفلامًا لم تُصوَّر بعد. أو إن كان هناك قناة تليفزيونية لمسلسلات لم تُطلَق لأجل مَن يتوقون إلى المعرفة. ربما هناك شيء كهذا. ربما الكون أكثر كرمًا ممَّا نظن».

قلت: «سيد جالاجر، أراك كثيرًا. أنت واحد من زبائننا المنتظمين. ألست مذعورًا من أن تصعد إلى متن المكتبة في يوم ليُعرض عليك كتابًا لم يصدر بعد؟».

أجاب جالاجر: «أتمنَّى ذلك. لو حدث هذا فسأعلم أن الكتب الجيدة في قائمتي انتهت، وأن عليَّ أن أعد نفسي للرحيل».

بدا هادئًا متقبِّلًا الفكرة. سأله رالف: «وأي كتاب من المستقبل تود قراءته؟».

رفع جالاجر ذقنه ورنا إلى السقف للحظة، ثمَّ أعلن: ««فن الرئاسة: كيف فزت بفترة رئاستي الثالثة» بقلم دونالد ترَمب».

هتف هيس: «لن يحدث هذا أبدًا! أراهن أن الكون لا يكترث لهذا اللغو».

***

في الأسبوع الثاني من يناير زارتني لين دولان مرَّة أخرى. دخلت من الباب واخترقت المكتبة حتَّى منتصفها قبل أن أجد فرصة للوقوف من جلستي. مرآها أشعرني بالدوار. كانت قد فقدت عشرين رطلًا وعنقها وحاجبيها يلمعان بطبقة رقيقة من العرق الدهني. أكاد أشعر بالحرارة تشع منها حتَّى والمكتب يحول بيننا. أستطيع أن أشمَّ رائحة الدماء أيضًا. رائحة خفيفة متعلقة بمعطفها الصوفي.

هتفت: «أريد أن أرتاح. أحتاج إلى الراحة، لو سمحت. كتب ابني».

صرَّ الباب ثمَّ انغلق من خلفها. في زمني كانت السماء تمطر زخات يناير المعتادة، محيلة الثلوج إلى ماء موحِل، وباحات الانتظار إلى بحيرات صغيرة ضحلة. لكن للحظة لمحت الثلوج تنهمر في الخارج، وسيارة من أواخر الخمسينيات تقطع الطريق. خطر لي خاطر جامح.. أن أهرع هاربًا إلى هذا الزمن.

مالت نحوي، محمومة ضعيفة، شفتاها جافتان مشققتان. دُرت حول المكتب ولمست ذراعها وقلت: «اجلسي من فضلك».

هوت على مقعدي جالسة. سألتها: «المفترض أن تقومي من فراشك؟».

مسحت خدها الرطب بكفها، ثمَّ أجابت: «أنا بخير».

- بالطبع أنت بخير! واضح!
- لا بأس. لست بخير. أنا أحتضر. أنت تعرف بالفعل أنني أموت، لكنني أريد كتب ابني وأنت تستطيع إعطاءها لي. أنت من المستقبل وأنا أريد قراءة كل قصص ابني.

عيناها برَّاقتان لامعتان دامعتان، لكنها لا تبكي. ركنا فمها ملتويان فيما يشبه الابتسامة. أضافت: «هو مضحك للغاية. لطالما كان خفيف الظل».

ثمَّ بعد صمت أكملت: «ما كان له أن يذهب إلى هناك. ما كان لأي من أبنائنا الذهاب إلى هناك. هذه حرب قذرة. كتابه أضحكني، لكنه كذلك أمرضني. أصيب بالسيلان، أليس كذلك؟ لهذا لم يكتب لي؟».

تبادلنا الأماكن، فأصبحت هي أمينة المكتبة خلف المكتب وأنا مَن يقف أمامها بحثًا عن قصَّة. قلت: «ربما، وربما لم يكن واثقًا من قدرته على وصف ما يحدث له هناك. كتب رواياته ليشرح، وأعتقد أنه بدأها وأنتِ حية».

قالت بطريقة متخشِّبة غريبة: «أجل. أنا متأكدة تقريبًا».

استدرت نحو أرفف الروايات. لدينا كل رواياته بكميات لأنه كاتبنا المحلي. قلت دون أن أستدير نحوها: «ماذا ستفعلين بها بعد الانتهاء من قراءتها؟»

فروة رأسي تنكمش كأول مرَّة قابلت فيها العائدين؛ فريد مولير. كنت مهمومًا بنبرة صوتها الغريبة حين وافقتني على أن ابنها غالبًا قد بدأ كتابة أولى رواياته هناك، عند الضفة الأخرى من العالم.

لم تُجِب سؤالي.

نظرت إليها فرأيت صدرها يعلو ويهبط، وعينيها دامعتين، تلمعان بالنصر. سألتني: «ماذا تظنني فعلت بالكتاب الذي استعرته؟ ابني يحتاج إلى سبب يدفعه إلى المقاومة والاستمرار».

تجمَّدت أعضائي. صحت: «لا يمكنك إرسال كتبه له! تلك التي لم يكتبها بعد».

- ربما لو لم أرسلهم، لم يكن ليكتبهم. ألم تفكر في هذا قط؟

- كلا. كلا! لو أنه فقط نقل الروايات التي أرسلتِها إليه، فمن كتب تلك الروايات في المقام الأول؟

- ابني. كتبها من قبل، وسيكتبها مرَّة أخرى. لذا يمكنني قراءتها ثمَّ تمريرها له.

كنت قد شربت ثلاث كؤوس من خمر البوربون تلك الليلة مع تيري جالاجر ولورين هيس ورالف تانر، لكنني أشعر الآن بدوار يغلب ما شعرت به ليلتها وأنا أقف في المكتبة مع امرأة ميتة.

قلت لها: «المفترض أن الزمن لا يدور بهذه الطريقة».

فهتفت: «الزمن يدور كما تزعم أنت. الكتب موجودة، وهي موجودة الآن سواء قرأتها أو لم أفعل. القرار قرارك يا سيدي. هل أستحق أن أحصل على هذه المتعة الأخيرة في حياتي أم لا؟ هل سأحصل على شيء رائع آخر أم أنك...».

سألتها: «ماذا؟ ماذا قلتِ لتوكِ؟».

تعرَّقت فجأة كما كانت متعرِّقة حين دخلت، وربما شعرت بغثيان أيضًا.

سألتني في صبر: «هل ستتركني أستعير الكتب بافتراض حسن النية؟ أنت مَن ستقرر يا سيدي إن كنت ستمنحني فرصة حياة آخر أيامي بالطريقة التي أريدها، وابني بجواري بقصصه وخياله، أم سترفض؟».

لم أكن لأرفض. استردَّت، مددت يديَّ نحو الرف وأنزلت كل المجموعة.

أهدى براد دولان آخر رواياته لأمه أيضًا، كتب:

إهداء آخر لأمي. لم أكن لأكتب أيًّا ممَّا كتبت لولاها.

***

يمكنك أن تُجَنَّ وأنت تفكر فيما قد يعنيه هذا، لكني لم أكن أحتاج إلى الجنون لأنه في يونيو، بعد خمسة أشهر من مقابلتي الأخيرة مع لين دولان، تلقَّيت خطابًا من ميت، خطابًا من الماضي.

أُرسِل الخطاب إلى مكتبة كينجزوارد العامة، موجَّهًا إلى «سائق المكتبة المتنقِّلة الحالي». من مؤسسة قانونية تُمثِّل ملكيَّات براد دولان تولَّت إدارة شؤونه منذ انتحاره عام 1997، بُعَيد نشره آخر كتبه، وقد كتب في وصيته موعد إرسال خطابه.

«سيدي العزيز

تساءلت عمَّن تكون طيلة حياتي، وكيف استطعت اختراق الزمن في مكتبة كينجزوارد المتنقِّلة، وما هو شكل حياتك. لا أعرف شيئًا يقيني عنك إلا أنك خيِّر، ولا يهم أي شيء آخر.

أعتقد أننا تقابلنا. لقد واظبت على زيارة الصف الثامن كل عام من مدرسة كينجزوارد المتوسِّطة، وأظن أنني نظرت إلى وجهك عبر نظارتي وحدَّقت أنت إليَّ، ربما بينما تنخر أنفك من أسفل المكتب متسائلًا: متى سيخرس؟ حتَّى يتسنَّى لك تناول غدائك.

في اليوم الخريفي العجيب الذي أكتب فيه هذا الخطاب، وبينما أرى سناجب سمينة خارج نافذتي، تداعب وتتزاوج، ستكون أنت على الأرجح في منتصف مراهقتك. وبحلول الوقت الذي ستقرأ فيه كلماتي ستكون في طريقك إلى الثلاثين. أترى؟ لست الوحيد القادر على مطّ حلقة الزمن المطاطية وإطلاقها في أعين الآخرين.

ربما تكون متضايقًا لوفاتي. ربما تتساءل إن كنت قد قتلت نفسي بعد آخر رواية لي لأن مخزوني من القصص التي جاءتني من المستقبل قد نَضب. هل نقلتها سطرًا بسطر عبر السنوات وأصدرتها في خلال أكبر عدد من الأعوام لضمان النجاح التجاري؟ هل بدأت بالرواية الأولى التي تلقيتها في مقاطعة «دا نانج» عام 1966، قُبيل وصول الرسالة التي تُنبئني بوفاة أمي؟ هل عدت إلى بيتي واكتشفت اثنتي عشرة رواية أخرى في صندوق في الخزانة؟ هل درست

أسماءها وأغلفتها بفم جافٍّ وقلب يضرب كالطبل، ثمَّ أحرقتها في نيران المدفأة دون أن أقرأها؟ هل يهم؟ لقد عشت حياتي، وعاشت الكتب حياتها. لكني حين أدس ماسورة مسدسي في فمي بعد أيام أو أشهر من الآن -ما زلت أفكر في الأمر- لن يكون سبب انتحاري أنني أفلست أدبيًّا. سيكون سبب انتحاري هو أنني أفتقد أمي، وأنني كسرت ظهري في حادث درَّاجة نارية عام 1975 والألم لا يُحتمل، وأنني أطلقت النار على حلق امرأة غير مسلحة في ڤايتنام ولم أسامح نفسي على هذا. كانت تختبئ تحت غطاء في حجرة معتمة، وحين وخزت الغطاء قامت تصرخ، فقتلتها. بمجرَّد أن رأى الرقيب جثتها، دس قنبلة في يدها وقال إنه سيرسل ملفًّا عن الحادث قد يُسفر عن تكريمي بوسام شرف. وصرت بطل حرب من يومها. لهذا لم أكتب إلى أمي لثلاثة أشهر. لم يكن السبب إصابتي بالسيلان كما قلت في مناسبة أخرى. لهذا السبب عكفت على كتابة الروايات لثلاثين عامًا.. لأني عجزت عن مواجهة الحقيقة.

أو على الأقل، عجزت عن تحمُّل أغلبها. كانت أمي تموت، وقابلت رجلًا أحسن إليها. هذه هي الحقيقة التي ساعدتني على الاستمرار.

لديَّ المسدس، وجرَّبت إحساسي بالماسورة في فمي، لكنني لم أضغط الزناد بعد. أذهب للتمشية كل يوم. أحيانًا أتمشَّى في الحديقة حيث تقف المكتبة المتنقِّلة أيام الخميس. جزء منِّي يتوقَّف ويفكر في أن أحادِثك، بالإضافة إلى أنني أريد معرفة ما سينشر فيلي روث بعد موتي. أليس هذا ما يجعل أغلبنا

يتمسك بموعد إرجاع الكتب؟ لا يسعنا سوى تمنِّي قصَّة أخرى جيدة.

أتمنَّى أن تكون بخير، وأتمنَّى لك حياة مليئة بالقراءة الممتعة، خالية من الشعور بالذنب. أراك في وقت لاحق..

أطيب أمنياتي.

براد دولان»

***

في ظهيرة جافَّة من منتصف الصيف، والحشرات تئزُّ بين أغصان الأشجار، فتحت باب المرأب الجانبي، ثمَّ صارعت مع رتاج الباب الأمامي حتَّى هزمته فانفتح. الهواء المندفع إلى الحجرة المعبَّدة بالأسمنت يحمل رائحة العشب المجزوز حديثًا. أوصلت هاتفي بسماعة البلوتوث وشغَّلت أغاني چوان بيز. صوت عذب قوي من الماضي رافقني في المرأب. صوت من عام 1965 يتردَّد صوته في القرن الحادي والعشرين. الماضي دائمًا قريب، قريب إلى درجة الغناء معه في أي وقت.

وجدت بعض الكتب، يمكنني إرسالها إلى المكتبة. وجدت أيضًا صندوقًا فيه ألبومات فريق رولينج ستونز، وصندوقَ روايات داني دَن لليافعين، التي كنت أعشقها وأنا صغير.. ثمَّ تذكَّرت أن عليَّ إرجاع كتاب أمي المستعار، إلا أنني حين ذهبت لأبحث عنه لم أجده. قلبت المنزل رأسًا على عقب لكنه اختفى.

فكَّرت في أن أمي قد تُرجعه في يوم قريب. أنا مستعدٌّ لمقابلتها. لديَّ كتابان سيعجبانها. لا يمكنك أبدًا معرفة من قد يعود إلى المكتبة المتنقِّلة. أنا مستعد دومًا للقاء «شيء رائع آخر».

هل أنت مستعد؟

كل ما يهمني؛ أنت

المحدودية تصنع القوَّة. قوة الجني تنبع من سجنه داخل زجاجة.

ريتشارد ويلبور[1]

1

قبضتْ على المكابح فأوقفت العجلة الأحادية[2] إذ رأت ضوء الإشارة الأحمر، قبل الجسر الذي يفصل المسافة بين السيئ والأسوأ.

لم تشأ آيريس أن تنظر إلى أعلى نحو «البرج الشاهق»، ولم تتمالك نفسها؛ صعب هو الإقلاع عن عادة الاشتياق، وهذه الزاوية تمنحها رؤية جيدة. تعرف

(1) شاعر أمريكي (1921-2017). (المترجمة)

(2) مركبة أو درَّاجة ذات إطار واحد تتحرَّك بالطاقة البشرية. (المترجمة)

الآن أن هناك أمورًا معينة خارج حدود الممكن، لكن *دمها* لم يكن يعرف هذا. عندما تسمح لنفسها بتذكُّر الوعود التي قطعها أبوها من عام، ينبض دمها داخلها من الحماس. أمر مؤسف.

وجدتْ نفسها تحدِّق إليه؛ البرج، الصولجان المُسنَّن المصنوع من الصلب والكروم الأزرق اللامع يشق السحب القذرة، فكرهت نفسها. تقول لنفسها في احتقار: *تغاضي عنه*، وتجبر نفسها على النظر بعيدًا عن البرج الشاهق، فتحدِّق بنظرة خاوية إلى الأمام. قلبها الأحمق يدق بسرعة.

لا تلاحظ آيريس الولد غير الحي، غير الميت الذي يراقبها عند المنعطف. لا تلاحظه أبدًا.

يلاحظها هو دائمًا. يعرف أين كانت وأين ستذهب. يعرف أكثر ممَّا تعرف هي نفسها.

2

يقول أبوها:

- أحضرت لكِ شيئًا. أغلقي عينيكِ.

تفعل آيريس كما طُلِب منها. تكتم أنفاسها أيضًا. وها هو الحماس يجري في دمها. الأمل -الأمل الطفولي الأحمق- يملؤها كفقاعات صابون هشة متراقصة، فوَّارة بلا وزن. شعرت أنه سيكون نحسًا عظيمًا لو سمحت لنفسها إن تفكر في كلمة «هايدوير».

لن تصعد إلى البرج الشاهق الليلة، هي تعرف هذا. لن تشرب مشروب «الرغوة اللامعة» مع أصدقائها فوق قمة العالم. لكن ربما لدى أبيها حيلة. ربما معه عُملتان يحفظهما ليوم مهم. ربما لـ «المبعوث» السابق معجزة أخيرة. دمها يؤمن أن كل هذه الأمور ممكنة.

وضع شيئًا ثقيلًا في حِجرها، شيئًا أثقل من أن يكون «هاردوير». انفجرت فقاعات الأمل داخلها إذ يقول: «حسنًا. يُـ.. يُمكنك أن تنظري».

لعثمته تضايقها. لم يكن يتلعثم **من قبل**. لم يكن يتلعثم حين كان مع أمها، وكان في «لعبة القتل» بعد.

تفتح عينيها.

لم يغلف هديته حتى. شيء في حجم كُرة البولينج في كيس مُجعَّد. فتحت الكيس ونظرت إلى الكرة الزمردية المُضبَّبة. تسأله: «بلورة سحرية؟ أوه يا أبي، لطالما كنت أحلم برؤية مستقبلي».

يا للإخفاق. ليس لديها مستقبل يستحق التفكير فيه.

يميل الرجل المسن فوق مقعده، يشبك كفيه أمام ركبتيه كي لا ترتجفا. لم ترتجفا **من قبل**. يأخذ شهيقًا سائلًا عبر الأنبوب البلاستيكي الداخل إلى أنفه. جهاز التنفس يضخُّ ثمَّ يطلق الهسيس. يقول: «توجد حورية بحر هنا. رغبتِ في واحدة منذ كنت صغيرة».

رغبت في الكثير من الأشياء منذ كانت صغيرة. رغبت في حذاء «ميكرو-وينج» يمكِّنها من العدو على ارتفاع ست بوصات عن الأرض. رغبت في خياشيم لتسبح في البحيرات تحت الأرض. رغبت في كل ما تحصل عليه آمي باسكال وچويس بريليانت في عيدَي ميلادهما، لكن كان هذا **من قبل**.

يتحرَّك شيء داخل الكُرة مُطلقًا صوت حفيف، يدور ببطء حول قلب الكُرة المصنوع الطين المخضر، ثمَّ يحطُّ على الزجاج ليحدِّق إليها. انزعجت من المنظر حتَّى إنها كادت تلقي الكرة من فوق حِجرها.

- واو! أعجبتني حقًّا! لطالما رغبت في واحدة.

يحني رقبته ويغلق عينيه. توخِز الصدمة صدرها. هو على وشك البكاء.

- أعرف أنها ليست ما رغبتِ فيه. ليس م.. م.. ما تحدَّثنا عنه.

تمد يديها عبر المنضدة وتمسك كفيه. تشعر أنها على وشك البكاء أيضًا. تقول: «الهدية رائعة».

لكنها مخطئة. هو لا يصارع الدموع، بل يصارع التثاؤب. يستسلم له أخيرًا فيغطِّي فمه بظهر كفه. لا يبدو أنه سمعها.

- أتمنَّى لو نفعل كل ما تحدَّثنا عنه. الب.. بـــ.. برج. ركوب الفقاعة الضـــ.. ضـــ.. ضخمة معًا. هذه المُعدَّات الطبية اللعينة يا ابنتي، كأنها ضباع تنهش آخر ما قد تجود به جيفة. المُعدَّات الطبية أكلت كـــ.. كـــ.. كعكة عيد ميلادك هذا العام يا صغيرتي. لنرى إن كنت سأستطيع تحسين الأمر لك العام القادم.

يهزُّ رأسه مُجاريًا ويضيف: «يجب أن أستريح قليلًا. لا يستطيع المرء تحمُّل كل هذا الحماس بنصف قلب فقط».

ثمَّ يفتح عينيه نصف فتحة ويقول: «أنت تعرفين حـ.. حـ.. حوريات البحر. حين يقعن في الحب يغنين. مفهوم طبعًا. الشيء نفسه حدث معي».

تسأله: «حقًّا؟».

يميل على جانبه ليمُدِّد جسده على المقعد ويقول مغالبًا التثاؤب: «بعدما وُ.. وُ.. وُلِدتِ، كنت أغني لك كل ليلة. أغني حتَّى تفرغ كلماتي».

يغلق عينيه. رأسه يتوسَّد كومة ملابس مغسولة.

سنة حلوة يا جميل.. سـ.. سـ.. سنة حلوة يا جميل.. سـ.. سـ.. سنة حـ.. حـ.. حلوة يا آيريس الحلوة.. سـ.. سـ.. سـ..

يأخذ شهيقًا رطبًا آخر بصعوبة، ثمَّ يسعل. يضرب صدره عدَّة مرَّات يشيح بوجهه. تهتزُّ كتفاه. يتنهَّد.

كان قد نام بوصول آيريس قمة الدَّرج الخشبي، صاعدة من حجيرته، تاركة إياه لحالِه.

تغلق الكُوَّة؛ واحدة من ضمن ثمانية آلاف في المبنى الهائل المزدحم المعتم الأجوف الأشبه بمدينة خانقة. لرائحة الهواء عبق المواسير القديمة والبول.

كانت آيريس قد تركت عجلتها الأحادية جوار باب حجيرة أبيها بعدما أغلقت قفلها، لكن أي شيء غير مربوط بقفل في بنايات المدينة يختفي بمجرَّد أن تحرك عينيك عنه. تعتلي مقعد عجلتها الجلدي الأحمر وتحاول تشغيل المحرِّك أربع أو خمس مرَّات قبل أن تدرك أنه لن يدور. أول خاطر راودها أن البطارية قد فرغت بشكل ما، لكنها لم تفرغ.. لقد اختفت. فكَّها أحدهم وسرقها.

تغني بنغمة نشاز:

- *سنة حلوة لـي..*

3

يقترب قطار مدفعي، يصدر ضجَّته المميزة؛ صفارة هامسة يعلو صوتها ويعلو حتَّى يعبر القطار من تحتها فجأة، ويرُج المكان بقوته. تحب آيريس الطريقة التي يندفع بها القطار فيصدمها بصرخته وارتجاجه حتَّى يندفع الهواء كله خارجًا من جسدها. ليست هذه المرَّة الأولى التي تتساءل فيها عن شعورها لو قفزت من فوق السور. تتخيَّل آيريس أنها تُسحق وتتحوَّل إلى غبار دافئ يمطر بلطف فوق أمها النتنة الأنانية وأبيها النادم الذي لا حول له، ويبلِّل وجهيهما بالدموع الحمراء.

تجلس فوق السور، تؤرجح قدميها في الهواء. الكرة الخضراء على فخذيها. سيأتي قطار آخر في خلال دقائق.

حين تنظر إلى كرتها البلورية المسمومة لا ترى المستقبل، بل الماضي. ترى العام الماضي عندما كانت في الخامسة عشرة، مع خمسة عشر من أصدقائها، على عمق خمسة عشر قدمًا في «نادي الآتون». تغلي الصهَّارة تحت أرضية ملهى «الماسة الزرقاء». يسيرون حفاة ليشعروا بدفئها؛ تيارات متدفقة من الذهب المُسال على بعد نصف بوصة من كعوبهن. النادل الآلي الطوَّاف يُدعى بَب، عبارة عن كرة نحاسية تطفو في الهواء هنا وهناك، تفتح غطاء رأسها لتقدِّم المشروبات. في الضوء الأحمر النابض تلمع وجوه الفتيات الأخريات بالعرق والحماس، وتصدح ضحكاتهن بين الحوائط الحجرية الدافئة. يبدين مشويات مثلهن كمثل الخنزير الذي يُقدَّم من لحمه لهن.

ثملت صديقاتها كلهن بحلول نهاية السهرة، وتفشَّت العناقات والمداعبات. قالوا إنه أفضل حفل عيد ميلاد على الإطلاق. أُخِذت آيريس بكل تلك المشاعر الطيبة ووعدتهن أن يكون حفل العام المقبل أفضل. قالت إنها ستمكِّنهن من ركوب المصعد إلى البرج الشاهق ليشاهدن النجوم -النجوم الحقيقية- فوق ناطحة السحاب. سيشربن الرغوة اللامعة، ويصعقن بعضهن في سعادة. سينقلن من المهبط الحالم ويعدن إلى الأرض معًا داخل فقاعات، بعدها سيتخفين مرتديات الـ«هايدوير» على وجوههن وينزلن إلى منطقة الاحتفالات المحرمة على من هم دون السادسة عشرة. كل من يراهن في وجوههن الجديدة باهظة الثمن سيقع في حبهن.

يتحرَّك شيء داخل الكرة الخضراء المضبَّبة. تخرج حورية البحر من الظلال الخضراء بلون المخاط، شعرها مموَّج أخضر لزج. تقول: «ربما ترغبين في فعل شيء لطيف بينما هناك فرصة».

يخرج خيط من البراز من الفتحة أسفل زعنفة ذيلها. تبتسم الحورية في حرج كأنها تتعجب من وظائف جسدها الحيوية.

حلقة من الضوء المخضرِّ البغيض تومض من عينها اليمنى، تكاد تعميها، تعلن وصول رسالة. تلمس إبهامها بسبَّابتها كأنها تسحق بهما حشرة. تظهر الكلمات بلون زمرُّدي، تطفو على مسافة ثلاثة أقدام من وجهها. خدعة بصرية من عدسة الرسائل التي تثبتها في عينها كل صباح قبل أن تغسل أسنانها حتَّى.

چويس ب.: لدينا خطط لك.

آمي بِ.: خطط شريرة.

چويس ب.: سنذهب بك إلى منطقة الاحتفالات الليلة. لقد تم ترسيمك.

تغلق آيريس عينيها وتريح جبهتها على زجاج الكُرة البارد. تقول وهي تضم إصبعيها لترسل الرسالة: «لا يمكنني الذهاب».

چويس ب.: لا تجبرينا على وضعك داخل جوال وسحبك إلى هناك وأنت تركلين تصرخين.

آمي بِ.: في جوال. تصرخين. تركلين.

تقول آيريس: «سيخرج صديق أمي الجديد من عمله بعد ساعة، وأمي تريدني أن أعود إلى المنزل لأجل الكعك والهدايا. أظنهما اشتريا لي هدية ضخمة لن تنتظر».

هذه كذبة. ستفكر آيريس في كنه الهدية الضخمة لاحقًا. يجب أن تكون شيئًا يُستخدم مرَّة واحدة. شيئًا لا يمكن إثبات أنها لم تحصل عليه. ربما

ستخبر صديقاتها أنها ذهبت في رحلة إلى سطح القمر وباتت ليلتها في محطَّة أرشميدس تلعب مباراة «كويدتش» القمر مع بوم أرشيميدس.

يظهر رد چويس ب. مشتعلًا باللهب: **هل تظننين أن أمك اشترت لك «هايدوير»؟ هل اشترت لك وجهًا جديدًا؟**

تفتح آيريس فمها ثمَّ تغلقه، ثمَّ تفتحه مجدَّدًا.

- لن نعرف إلا عندما أفتح الهدية، أليس كذلك؟

بمجرَّد أن خرجت الكلمات من فمها، ندمت. تمنَّت أن تكون هناك طريقة لمحو الرسالة قبل أن تصل.

كلا. هي تعرف لماذا قالت ذلك. لأن التظاهر بأنها ما زالت واحدة منهن يشعرها بالراحة. التظاهر أن لديها كل ما اعتادت أن تمتلك، التظاهر أنها لا تهوي إلى الخلف.

آمي بِ.: أتمنَّى أن تحصلي على قناع «أوفيليا» لأن هذا سيثير غيرة چويس وأنا أستمتع بمشاهدة چويس تتصنع الابتسامة أمام الناس بينما تشعر بالتعاسة.

أُصدِر قناع «أوفيليا» منذ شهرين، وهو باهظ الثمن حتَّى لو كان والدها ما زال يجمع العملات بالجرَّافة من «لعبة القتل».

قالت آيريس: «غالبًا ليس «أوفيليا»».

وندمت فورًا على صياغتها تلك.

چويس ب.: لا بأس بقناع «الفتاة المألوفة». هذا هو ما لدى آمي. لا أشعر بالحرج حين أخرج معها. لست فخورة، لكنني لست مُحرجة.

آمي بِ.: أيًّا كان الاحتفال الذي ينتظرك، ستفرغين منه بحلول الساعة 21:00، لأن أمك قالت بالفعل إنك ستقابليننا عند المدخل الجنوبي لمنطقة الاحتفالات.

تراسلنا هذا الصباح. اذهبي إلى المنزل وكُلي الكعكة وافتحي لفافة وجهك الجديد المثير، واجهزي لمقابلتنا.

چويس ب.: لو حصلت على قناع «أوفيليا» فأنا أريد ارتداءه قليلًا، لأنني لن أتحمَّل أن تكوني أكثر روعة مني.

تقول آيريس: «لا يمكن أن أكون أكثر روعة منك».

ثمَّ انتهى الاتصال.

ومن تحتها مرَّ قطار مدفعي آخر.

4

وقعت الكارثة عند ثلثي المسافة إلى الجسر.

الدرَّاجة الأحادية خفيفة الوزن لكن ضخمة، أكبر منها، ودفعها حتَّى المنزل مهمَّة عسيرة. الدرَّاجة كعملاق ثمل يميل عليها، أو يحاول الانبطاح على الطريق. تميل لتقودها عن طريق عصا التحكُّم، ويدها الأخرى تمسك البلورة. للجسر منحنى بسيط، فتريد الدرَّاجة الانطلاق منزلقة بمجرَّد أن تعبر المنحنى. تهرول كي تلحق بها، تلهث. تميل الدرَّاجة نحوها. الحلقة الداخلية المعدنية تضرب رأسها. تئن، ترفع يدها اليسرى لتضغط على مكان الألم، إلا أنها تتذكَّر أن يدها ليست خالية. تتدحرج الكرة من يدها وتضرب جانب الرصيف فيصدر صوت تكسُّر.

إلهي! لقد تحطَّمت!

لكنها لم تتحطَّم، بل تدحرجت، تضرب الأرض ضربات مُنغَّمة، تغزل طريقها المتعرِّج، تقفز إلى الرصيف، ثمَّ تنُط على الطريق. سيارة أجرة بمحرِّك بخاري تمخر الشارع على عجلات حادَّة ذهبية، فتختفي الكرة تحتها. تتوتَّر آيريس بمتعة معينة، تتوقَّع التحطُّم ورذاذ الماء الذي سيخرج من الكرة. لكن بعد عبور العربة، ترى الكرة تتدحرج على نحو لا يُصدَّق، بلا خدش، وتعبر إلى الرصيف الآخر. لم تتمنَّ آيريس تحطُّم أي شيء في حياتها قدر تحطُّم هذه الكرة.

لكن، يضع ولد قدمه عليها فيوقفها.

ذاك الولد.

من ناحية، آيريس لم تره من قبل، ومن ناحية أخرى رأته مئات المرَّات. لمحته في طريقها إلى مسكن أبيها. هذا الولد من النوع المتراخي الذي لا يتعالى على الذهاب إلى المدرسة، يعتمر قبعة صوفية رمادية، ويرتدي معطفًا صوفيًّا رماديًّا شهِد أيامًا أفضل في حياته السابقة.

هو دائمًا هنا، يتسكَّع أمام السور بالقرب من بناية مستحدثة.

لم يفعل شيئًا سوى إيقاف الكرة بطرف قدمه. لم ينظر عبر الطريق ليرى من أسقطها، ولم ينحنِ ليلتقطها.

تدفع الدرَّاجة الأحادية نحوه. دفعها صار أسهل ويداها حرتان. تقول: «أنت لطيف للغاية. أعني هذا حقًّا. أنت أنقذت لتوك أكثر هدايا عيد الميلاد رداءة».

لم يرد عليها.

تسند الدرَّاجة إلى عمود على الرصيف، ثمَّ تنحني لتلتقط الكرة. تتمنَّى لو أنها انكسرت وتقيء محتواها. كم هو ممتع أن ترى هذه البزاقة المقرفة -شبيهة النساء في حجم السردينة- تسبح في هلع ومنسوب المياه يقل تدريجيًّا. لكم تكرهها، لكن الحورية لا ذنب لها في قبحها وسجنها، ولا في كونها غير مرحب بها.

- كنت أتمنَّى لو تتفتت إلى مئات الشظايا. ألا يمكن للفتاة أن ترتاح قليلًا من هذا القرف؟

لم يضحكه ما قالت، فسددت نظرة سريعة متضايقة إلى وجهه -حين تمزح، تتوقَّع آيريس أن يطري الآخرون مزحتها- فترى ملامحه أخيرًا. لم يكن ولدًا مطلقًا، بل آلي من طراز قديم، له وجه مستدير باسم من الخزف المشقَّق. صدره عبارة عن علبة من الجص المخدوش، بداخلها لفافة أنابيب بلاستيكية حيث مكان الأمعاء، وماصَّات نحاسية بديلًا للعظام، وسلة من الأسلاك الذهبية المضفورة بداخلها عملات فضية بدلًا عن المعدة. أما قلبه فمحرِّك بخاري أسود.

لوحة معدنية مثبتة إلى جانب قلبه مكتوب عليها: **صديق بالعُملة! رفيق وفي محل ثقة. هل تريد مساعدة في شراء البقالة؟ يمكنه حمل حتَّى وزن طن. يعرف ثلاثين لعبة بطاقات. يتحدَّث بكل اللغات. يحفظ الأسرار. عملة واحدة مقابل ثلاثين دقيقة من التفاني المُطلق. أيتها الفتيات: تعلَّمن فن التقبيل من نبيل لن يفشي أسراركن. أيها الأولاد: تعلموا فنون الملاكمة العتيقة على درع غير القابل للتحطم! هذا الآلي غير مناسب لاستخدام الكبار والبالغين.**

حفر أحدهم رسم عضو ذكري تحت آخر سطر.

لم تلعب آيريس مع آلي منذ كانت صغيرة. لعبت مع الآلية تابيثا التي علَّمتها الكلام، وكانت تحبها، وتابيثا من طراز أحدث من هذا الآلي بنحو قرن. هذا الشيء أثري. واحد من العجائب التي كان يعرضها المتجر المغلق خلفه. ربما كان يوقفه في الطريق للفت النظر باعتباره أثر نادر من عصر جوجل ونظارات الواقع لافتراضي السميكة وفلوريدا.

لن يسرقه أحد. ظهره مُثبت إلى لوح مغناطيسي في الجدار الحجري خلفه. لم تعد آيريس تعرف إن كان أوقف الكرة عن قصد، وشكَّت أن قدمه كانت في طريقها، مصادفة حظ حسن لا أكثر.. أو حظ غير حسن. الحظ الحسن هو أن تتهشم الكرة تحت إطارات العربة الحادَّة.

أدارت آيريس ظهرها له، ناظرة في يأس نحو الدرَّاجة الأحادية التي يجب عليها أن تدفعها لنصف ميل آخر. فكرة دفعها عبر الطريق تجعلها تشعر بالسترة الملتصقة إلى ظهرها بفعل العرق.

هل تريد مساعدة في شراء البقالة؟ يمكنه حمل حتَّى وزن طن.

تبحث عن عملاتها المعدنية -معها اثنان بالضبط- ثمَّ تدفع واحدة منها ثمَّ الأخرى عبر الفتحة في صدر الآلي فتسقطان فوق العملات الأخرى في معدته. يتمدَّد المحرِّك البخاري في صدره وينكمش بصوت دقَّات مسموع. الأرقام فوق لوحته المعدنية تُصدر صوت تكَّات، ثمَّ تُظهر الأرقام 00:59:59.

وبدأ العد التنازلي.

5

كان يعرف أنها ستدفع من قبل أن تودع عملاتها بداخله. عرف منذ رأى ظهرها منحنيًا ونظرتها إلى درَّاجتها الأحادية وتهدُّل كتفيها حين رأتها. لغة الجسد تُفشي أكثر ممَّا تُفشي الكلمات. مُعالجه -الخامل بسبب معايير الحوسَبة الحديثة- الذي يعمل بسرعة كافية ليُكمل مليوني دورة ساعة في الدقيقة أدرك هذا قبل أن تُدخل يدها في جيبها لتخرج العملات. هذا وقت كافٍ بالنسبة له قراءة أعمال تشارلز ديكنز كاملة مرَّتين.

درجة حرارة جسدها تعلو. تتعرَّق من المجهود ومن المزاج السيئ أيضًا. الأوامر داخله، والتي تملؤه كالأنفاس، تطالبة بإراحتها ببعض من براعته.

يقول لها وهو يختار من مخزونه اللغوي: «لديكِ ثلاثة أسئلة».

يعرف أن صيغ المخاطبة غير الرسمية تناسب الصغار. يُكمل: «دعيني أجيبها بالترتيب: الأول: ما اسمي؟ «رُقاقة». اسم على سبيل المزاح، لكنه أيضًا اسمي».

تقول الفتاة: «ماذا تعني بأنه...؟».

يطرق صدغه بإصبعه، مشيرًا إلى الرُّقاقات الإلكترونية المنطقية داخل رأسه الخزفي، فتبتسم. تقول: «رُقاقة.. سعيدة لمقابلتك. ما هما السؤالان الآخران؟».

- لو أن عليكِ أن تدفعي لي، كيف سأكون صديقك؟ الشركة التي صنعتني برمجتني بأمر توجيهي واحد: لمدَّة الدقائق التسع والخمسين التالية سيكون كل ما يهمني هو أنتِ. لن أحكم على تصرفاتك ولن أكذب عليكِ. أنت علاء الدين وأنا الجنِّي. سأنفذ لك أي أمنية في مقدرتي ما دامت لا تحظرها التقاليد أو القوانين. لا يمكنني أن أسرق، ولا أضرب أحدًا. لا يمكنني القيام ببعض تصرُّفات البالغين الممنوعة بقانون عام 2027 الخاص بالعلاقات الحميمة بين البشر والآليين.

- وما معنى هذا؟

سؤالها يتطلَّب إجابة وقحة مازحة. ملفها الاجتماعي يخبره أنها ستتقبَّل الأمر بشكل جيد.

- لا يمكنني ممارسة الجنس.

قالت وخداها يشتعلان حُمرة: «أوه! سحقًا! فهمت. لم يخطر ببالي أن أسأل. وما هو سؤالي الثالث؟».

- يمكنني بالطبع حمل دراجتك الأحادية. ماذا حدث لها؟

- سرق أحدهم البطارية. هل يمكنك حملها حتَّى منطقة «المداخِن»؟

فك نفسه من لوح الشحن، فصار حُرًّا لأول مرَّة منذ ستة عشر يومًا. فكت بدورها العجلة الأحادية من مربطها عند العمود. أمسك الإطار الداخلي ورفع الكيلوجرامات الأربعمائة والثمانية عن الأرض، ووضعها فوق كتفه. ميل رأسها كشف عن رضاها، بينما لغة جسدها تفضح زوال هم حل المشكلة، وتصاعد شعور الضغط النفسي والإنهاك. *على الأرجح*. لا يمكن التأكد من المشاعر بدقة. كلها مجرَّد فرضيات. نظرة قلق ربما تكشف اضطرابًا داخليًّا، أو مجرَّد حاجة للتبول. الظهور بمظهر الساخر الماهر يشي عادة باليأس، بينما عبارة «أنا أموت» لا تعني بالكاد إصابة مهددة للحياة. دون تأكد، يتبع الآلي ما قد يقدم المواساة أو السرور.

- أنا أجبت أسئلتك الثلاثة، والآن عليكِ أن تجيبي عن أسئلتي الثلاثة. موافقة؟

- أعتقد.

- ما اسمك؟

- آيريس بالارد.

في خلال ربع ثانية من معرفة اسمها جمع كل معلومة عنها في العالم الاجتماعي. نصف جيجا بايت من التوافه، وخبر واحد منذ عشرة أشهر ربما يعني الكثير.

- قابلت واحدة باسم رابونزيل، واثنتين باسم زيلدا، وثلاثًا باسم كليوباترا، لكنني لم أقابل آيريس من قبل.

- هل تتذكَّر كل من قابلتهم؟ انس هذا السؤال، بالطبع تتذكَّرهم. على الأرجح لديك تيرا بايت من الذاكرة التي لم تستخدمها بعد. كيف كانت رابونزيل؟

- لها رأس حليق. لم أسأل عن السبب.

تضحك آيريس ثمَّ تسأل: «حسنًا، ماذا أيضًا؟».

- ألا تملكين آليًّا يساعدك في حمل دراجتك الأحادية المعطلة؟

خفتت ابتسامتها. الموضوع شائك، يسبِّب تهديدًا لقبولها له. يحسب عقله الآلي الاحتمالات والمعلومات ليستنتج أنها تمُرُّ بمشكلة مالية، وهذه المشكلة تسبب لها إزعاجًا. حالة الفقر جديدة عليها، غالبًا نتجت عن المعلومات المذكورة في الخبر الوحيد المؤسف.

تقول: «كانت لديَّ آلية وأنا صغيرة؛ تابيثا المتكلمة. كنت أحادثها طيلة اليوم منذ عودتي إلى البيت حتَّى النوم. اعتاد أبي أن يعود في العاشرة مساء ويبعدها عنِّي ويضعها في الخزانة ما لم أتركها وأنام. لا شيء يُخرسني أسرع من هذا التهديد. كرهت أن يضعها في الخزانة حيث ستظل وحيدة. ثمَّ حُدِّثَت تلقائيًّا، بعدها ظلت تتحدَّث عن إمكانية تواصلنا أكثر إن اشتريت حيوانًا أليفًا من نفس نوعها أو نظارة تابيثا الذكية. ظلت تدس الإعلانات والعروض وسط كلامنا. مللت منها فبدأت أوذيها عمدًا. كنت أخطو فوقها إن كانت ممدَّدة على الأرض. في مرَّة رآني أبي أضربها في الحائط فأخذها منِّي وباعها في مزاد إلكتروني ليعلمني درسًا. رغم هذا بكيت كثيرًا. بصراحة، هذه هي المرَّة الوحيدة التي عاقبني فيها أبي لأي سبب».

لم يفهم الآلي سر الضيق على ملامحها. قلة الرقابة الأبوية تتسبب في سعادة للطفل لا ضيق. قرر تقييم هذا الموقف لاحقًا، ومراقبتها بحثًا عن أي خلل نفسي آخر. هذا بالطبع لن يقلِّل من تفانيه معها.

لقد جمع مئات العملات من رجل فُصامي يُدعى دين. دين مؤمن أن فريقًا من راقصات الباليه يتعقَّبنه لخطفه وإخصائه. راقب رُقاقة الأجواء بحثًا عن فتيات يرتدين تنانير الباليه القصيرة ليدافع عن أعضاء دين الخاصَّة. كان هذا منذ زمن بعيد.

تسأله: «لديك سؤال أخير تسأله لي؟ أتمنَّى ألا يكون سؤالًا عن شراء عرض خاص، أو تسويق شيء ما».

سجَّل حنقها من الإعلانات. لا شيء يمكنه القيام به حيال ذلك، فهو مُبرمَج على الترويج لخدماته لاحقًا، لكنه سجَّل الملاحظة على أي حال.

يسألها: «ماذا ستفعلين للاحتفال بعيد الميلاد؟ بخلاف قضاء ساعة معي، وهي ساعة -أعترف- قد تكون عصيبة».

تتوقَّف عن السير وتسأله: «كيف عرفت بشأن عيد ميلادي؟».

- أنت ذكرته.

- متى؟

- عندما التقطتِ كُرتك الهاربة ذات السمكة.

- كان هذا قبل أن أدفع لك.

- أعرف. أكون واعيًا للأمور حتَّى لو لم يُدفع لي. ما زلت أفكر وأعي. عيد ميلادك؟

تعقد حاجبيها. تحاول هضم المعلومات لقد وصلا إلى مفترق طرق في حديثهما. يبدو أنها في حالة ضغط عاطفي تسيطر عليها. سجَّل ملاحظات مُشجعة وجهَّز ثلاث خطط لمحو تعاستها. البشر يعانون حقًّا. قرر رُقاقة أن يرفع معنوياتها كما رفع درَّاجتها.

تقول: «لقد احتفلت به بالفعل».

استكملا سيرهما وهي تضيف: «هاداني أبي بدودة أليفة لها وجه بشري، ثمَّ فقد الوعي وراح يُشخِّر خلال أنابيب إمداده بالأوكسچين. والآن أعود لأمي وأبحث عن عذر -كذبة- لتعفيني من مرافقة الصديقات الليلة.

- أشعر بالأسف لمرض أبيك.

تقول بصوت حادٍّ: «لا. أنت لا تشعر بشيء. الآليون لا يشعرون بالأسف. هم فقط ينفذون ما بُرمِجوا عليه. أنا لا أحتاج إلى مجفف شعر كي تعرض عليَّ تعاطفك».

لم يغضب رقاقة لأن الغضب ليس في برمجته. يقول: «هل لي أن أسأل عمَّا حدث له؟».

هو يعرف بالفعل. لقد كشف عن القصَّة المؤسفة كاملة بمجرَّد أن عرَّفت آيريس بنفسها، لكن التظاهر بالجهل يشجعها على الحديث، الذي بدوره سيمنحها الراحة والتشتُّت اللحظي عن همومها.

- كان يعمل في «لعبة القتل». كان ضحية قتل محترف. رجل البعث، أو «المبعوث». أنت تعرف. تستأجر إحداهن مسلخًا وتُعمِل في المبعوث الضرب بالمطارق أو الضرب بالرصاص أو أيًّا كان، ثمَّ يقوم آلي بإعادة بناء خلاياه مرَّة أخرى ليعود كالجديد. هو من أكثر المبعوثين

المحترفين شهرة في المقاطعات الاثنتي عشرة. كانت لديه قائمة انتظار طويلة.

تبتسم بلا لمحة سرور وتكمل: «كان يمزح كثيرًا مستخدمًا عبارة: أنا مستعد للموت -حرفيًّا- لأجلك. كان يموت عشرين مرَّة في الأسبوع على الأقل».

- ثمَّ؟

- حفل توديع عزوبية. أجَّرنه للطعن. هجمن عليه بسكاكين المطبخ والسواطير. حدث عطل في الكهرباء، لكنهن كن ثملات حتَّى إنهن لم يدركن هذا. هل تتذكَّر أعطال الكهرباء المتكرِّرة التي حدثت في فبراير الماضي؟ برنامج بعثه فشل في الاتصال مع الخادم للحصول على تعليمات التصليح. مات لمدَّة نصف ساعة، والآن تنتابه الرعدات وينسى أمورًا. لم يغطِّ تأمينه تلك الإصابات لأن هناك قانونًا في الشركة يمنع وجود أكثر من مهاجِم في المرَّة الواحدة، لكن الجميع يتغاضى عن هذا الشرط. هو في حال أسوأ من الإفلاس الكامل، ولن يجدد مجلس الولاية ترخيصه. لن يمكنه الموت من أجل كسب العيش مرَّة أخرى، وليس لائقًا جسديًّا لأي عمل.

- هل اتفقنا على ألا أتعاطف معكِ؟ لا أريد أن أتخطَّى الحدود.

تجفِل كأن حشرة لدغتها وتقول: «لا أستحقُّ أي تعاطف حتَّى لو كنت تشعر بشيء منه. أنا أنانية، مجرَّد عاهرة صغيرة متكبرة. لقد خسر أبي كل شيء وأنا متضايقة لأننا لم نحتفل بعيد ميلادي كما تمنَّيت. أهداني أفضل هدية يمكنه شراؤها، وأنا كنت سأرميها تحت قطار. ألا يبدو كل هذا شنيعًا؟».

- تبدو لي آخر خيبة أمل من كومة من الخيبات. تقول الأديان القديمة إن التخلِّي عن الرغبات هو أعلى مراتب الروحانية، لكن بوذا لم يفهم الأمر. الرغبات هي الفارق بين البشر والآلات. الرغبة ليست الحياة. حتَّى الحمض النووي ما هو إلا مولِّد رغبات.. ينسخ نفسه مرارًا وتكرارًا. كيف تريدين الاحتفال بعيد ميلادك؟

- أن نذهب أنا وصديقاتي إلى البرج الشاهق عند الغروب لنرى النجوم من فوق قمته. أنا لم أرها إلا عن طريق خدمة الدفع مقابل الرؤية على الشاشة. لم أرها في الحقيقة. نريد أن نشرب الرغوة اللامعة

ونطلق الألعاب النارية ثمَّ نركب الفقاعات إلى الأرض، بعدها سنضع أقنعة «هايدوير» ونذهب إلى منطقة الاحتفالات. تظن صديقاتي أنني سأحصل على وجه جديد اليوم، لأن هذا ما حصلن عليه في أعياد ميلادهن. مستحيل أن أحصل على واحد. أمي بخيلة حتَّى أشك أنها ستشتري لي بطارية جديدة لدراجتي الأحادية.

- ولا يمكنك إخبار صديقاتك أنك لا تستطيعين شراء وجه جديد الآن؟

- يمكنني.. إن رغبت في الحصول على الشفقة في عيد ميلادي. لكن الرغوة اللامعة طعمها أفضل من الشفقة.

يقول: «لا يمكنني مساعدتك في موضوع الوجه الجديد. السرقة ممنوعة. لكن إن كنت تريدين رؤية النجوم من فوق قمة البرج الشاهق، فالوقت لم يتأخَّر. الغروب بعد إحدى وعشرين دقيقة من الآن».

تنظر آيريس نحو الإبرة الفضية الهائلة التي توخز السحب المصفرَّة، وتقول: «نحتاج إلى تذكرة وحجز مسبق للمصعد».

لم تصعد فوق السحاب من قبل، ولم تنقشع السحب ولو مرَّة في خلال سنوات عمرها الست عشرة. السحب تظلل سماء المدينة منذ ثلاثة عقود.

- لا تحتاجين إلى مصعد. أنا موجود.

تتجمَّد مكانها هاتفة: «أي حماقة هذه؟».

- إن كنت أستطيع حمل درَّاجة بوزن أربعمائة كيلو، فأنا واثق أنني أستطيع حمل فتاة وزنها اثنين وأربعين كيلو وأصعد بها بضع درجات.

- ليسوا بضع درجات، بل ثلاثة آلاف!

- ثلاثة آلاف وثماني عشرة درجة. تسع دقائق من أول درجة. الفقاعة ثمنها ثلاثًا وثمانين وحدة عملة، زجاجة الرغوة اللامعة بإحدى عشرة وحدة. المنضدة بالحجز فقط.. لكن مشاهدة السماء في قاعة الشمس مجانية يا آيريس.

تسارعت أنفاسها. حركة العين السريعة بينها وبين البرج الشاهق تفضح حماستها.

- أنا.. سوف.. حين كنت أتخيَّل الموقف، كنت أتخيَّل صديقًا معي.

- سيكون معك صديق. لأي شيء دفعتِ إذَنْ؟

6

القاعة على ارتفاع ربع ميل، محاطة بالزجاج الأخضر الهواء بارد ورائحته صناعية. فوهات المصاعد تختفي وسط السحب الباهتة. «البرج الشاهق» كبير للغاية حتَّى إن له طقسًا مختلفًا.

تزاحموا للعبور عبر الماسح الضوئي. الآليون كأنهم منحوتون من الصابون؛ أجسام في ملابس موحدة برؤوس بيضاء ناعمة وأيادٍ ناصعة. كتيبة من دمى العرض الحية. تخطو آيريس عبر جهاز التعريف الذي يمسح جسدها بحثًا عن الأسلحة والعناصر البيولوجية والمخدرات والكيماويات والنوايا المُهدِّدة والديون. صدر صوت نبضة، فأشار لها آلي بالمرور عبر الجهاز مرَّة أخرى. في المرَّة الثانية عبرت بلا مشكلات، وتبعها رُقاقة.

يسألها رُقاقة:

- هل لديك فكرة عن سبب طنين الجهاز؟ هل عليك ديون؟ هل تنوين إيذاء أحد؟

- لو عليك ديون، فيمكنك تخيُّل إيذاء الآخرين.

ترفع الكرة البلورية من أسفل ذراعها وتضيف:

- على الأرجح الجهاز لمح نواياي وما أريد فعله بهذه الحورية. كنت أفكر في رغبتنا في أكل السوشي في عيد ميلادي.

- هذا حيوان أليف، لا طعام. حاولي أن تتقبَّليها.

حين تميل آيريس رأسها إلى الخلف ترى كرات متوهجة بداخلها أشخاص، تحوم على ارتفاع مئات الأقدام فوقها، تطفو هنا وهناك متحرِّرة من السحب، منجرفة نحو الأرض. مرآها إذ تتألَّق كزينة شجرة ميلاد هائلة آلمها. كانت تظن أنها ستركب إحداها في يوم من الأيام.

فُتحت الأبواب البرونزية إلى السُّلَّم. درجات مصنوعة من ألواح الزجاج الأسود تصعد إلى أعلى على هيئة حلزونية نحو اللانهائية.

يقول رُقاقة هو يركع على ركبة واحدة: «اصعدي على ظهري».

- آخر مرَّة حملني فيها أحد على هذا النحو كنت في السادسة.

وتعني بـ «أحد» والدها. يقول: «آخر مرَّة حملت فيها أحدًا على هذا النحو منذ ثلاثة وعشرين عامًا قبل مولدك. كان البرج الشاهق تحت الإنشاء. أنا لم أصعد إلى قمته من قبل مثلك».

تعتلي ظهره وتلفُّ ذراعيها حول عنقه. ينتصب قائمًا. تضيء الدرجة بمجرَّد لمس قدمه لها، ثمَّ الدرجة الثانية فالثالثة. يصعد مسرعًا فتومض الدرجات بالأبيض. تسأله:

- كم عمرك؟

- خرجت إلى العالم منذ مائة وست عشرة سنة. قبل قرن تقريبًا من مولدك.

يتحرَّكون أسرع الآن على نحو يشعرها بالغثيان. درَّاجتها الأحادية لا تصل إلى هذه السرعة أبدًا. يصعد ثلاث درجات في المرَّة، يحافظ على توازنه وإيقاع ارتقائه. لا تتحمَّل آيريس النظر عبر الحائط الزجاجي الذي يحيط بهم. لا يمكنها النظر إلى الدرجات الدوامية تحتهما. ظلت صامتة هنيهة، تغلق عينيها، تضغط نفسها إلى ظهره.

أخيرًا تسأل على سبيل الحديث لا أكثر: «من هو أول من وضع عملة في عدَّادك؟».

- ولد يدعى چيمي. ظللنا صديقين لأربعة أعوام. كان يزورني أسبوعيًّا.

- هكذا يُجنى المال. كان لأبي زبائن دائمون أيضًا. هناك المرأة التي كانت تنحر عنقه كل يوم أحد في الساعة الواحدة. كانت تتركه ينزف حتَّى يجف، وكان يفعل الشيء نفسه معها. يأخذ منها كل سنت حتَّى تجف. كم كسبت من اعتصار چيمي قبل أن يسأمك؟

- لم يسأمني. مات عندما أصاب عطل جهازه المناعي المُطوَّر. ظل يهذي ليومين عن الڤياجرا والآسيويات اللاتي يردن أزواجًا يتحدَّثون الإنجليزية قبل أن تقتله العدوى. كان في الثالثة عشرة.

ترتجف. لقد سمعت الكثير من قصص الرعب عن مشكلات التكنولوچيا البيولوچية.

- شيء فظيع.

- ثمن الحياة هو الموت.

- أجل. عدَّادي يجري هو الآخر. أليس هذا هو الغرض من أعياد الميلاد؟ تذكيرك أن عدَّاد حياتك يجري؟ سأموت في يوم وستظل أنت تحصل على أصدقاء جدد، وتحمل الفتيات.

تضحك في كآبة.

- مهما كان عمري الحقيقي، فقد عاش چيمي حياته أكثر ممَّا عشت، بينما لم أعش أنا.. لو أن الحياة تعني المبادرات الشخصية والخيارات.

تنخر هاتفةً: «كم هو غريب أن تدفع لك الناس لتُبَث فيك الحياة، ويدفعون لأبي كي يموت. لكنَّ كليكما ضحايا. أنتما تأخذان المال وتتركان الآخرين يقررون ما يحدث لكما. أعتقد أن كل الوظائف تجعلنا ضحايا التوظيف».

- كل الوظائف تجبرنا على تقديم الخدمات.

- الأمر متشابه، أليس كذلك؟

تلاحظ أنه يثب آخر درجات السلم بسرعة ليصل بها إلى منبسط من الزجاج الأسود، وأبواب برونزية أخرى.

يقول: «بعض الأعمال تجبرنا على الانبطاح للآخرين، بعضها يجعلنا نرفع البعض الآخر».

يفتح الأبواب.

تطل عليهما شمس محتضرة متدثرة بالضوء، تغلفهما بلون الغروب المصفر.

7

في البداية لم يبدُ أن هناك أيَّ حوائط حولهما. قاعة الشمس فوق قمة البرج الشاهق عبارة حجرة دائرية تحت غطاء من الألماس الأزرق الشفاف كالهواء. ترتاح الشمس فوق ملاءات مخضَّبة بالدماء. قضيب من الزجاج الأسود محني كطرف منجل يحتل منتصف القاعة، وآلي أنيق يقف خلفه، يربط وشاح فوق رأسه النحاسي، وجذعه قائم فوق ست أرجل نحاسية، ممَّا يعطيه سمت حشرة معدنية تعتمر قبعة.

يسألهما المضيف الآلي: «هل أنتما هنا لحضور حفل دانفروث؟».

يضم أصابعه المصنوعة من أنابيب نحاسية إلى بعضها ويردف: «أنت الآنسة باچيت، أليس كذلك؟ السيد دانفروث جاء مع الآخرين، لكنه استنتج أنك لن تلحقي بهم هذه الليلة».

تقول له آيريس: «أردت حضوري مفاجئًا».

كذبة سلسة للغاية حتَّى إن رقاقة لم يلحظ أي تغير نفسي، ولا تسارع أنفاس، أو تغير في درجة حرارة الجلد.

- عظيم. باقي الحضور في المصعد. إن كنت تريدين شرب نَخب، فصاحبة عيد الميلاد ستصل في خلال عشرين ثانية.

وأومأ الآلي نحو كؤوس مترعة بالرغوة اللامعة.

تناول رقاقة كأسًا وناوله لآيريس في الوقت نفسه الذي انفتحت فيه كوة في الأرض. يخرج منها المصعد إلى الحجرة، يشبه قفصًا برونزيًّا يحوي حشدًا من الفتيات في عمر الثانية عشرة يرتدين ملابس احتفالية وأوجهًا جديدة، برفقتهن رجل ضجر يرتدي سترة لطيفة، يبدو أنه والد صاحبة عيد الميلاد. فُتح الباب فانسكبت منه الفتيات يثرثرن ويضحكن.

تسأله آيريس: «هل أنت واثق أنك عاجز عن قتل الناس؟ أنهن يرتدين وجوهًا جديدة بما يزيد ثمنه على خمسة آلاف وحدة عملة، وأنا أشعر بغريزة القتل تتدفق في دمائي».

- لا شيء يفسد أعياد الميلاد قدر القتل الجماعي.

- الأفضل أن أشرب رغوتي اللامعة قبل أن يقدِّمني الآلي النادل باعتباري الآنسة باچيت، ويدركون أنني أقتحم حفلهم فيجبروني على دفع ثمن المشروب.

يقول رقاقة واثقًا: «لن يسمعونه. استعدِّي للصياح بأغاني عيد الميلاد».

يصيح النادِل الآلي: «مشروب الرغوة اللامعة، مع شوكولاتة فرنسية، ركوب الفقاعات بينما تغرب شمس العام الثاني عشر من حياة الآنسة آبيجيل! يوم رائع لكل الضيوف».

لكن أحدًا لم يسمع ما قال. يدور رأس رقاقة فوق عنقه 360 درجة وهو يحاكي صوت الصواريخ الاحتفالية، وتخرج من أذنيه ومضات حمراء وصفراء وزرقاء، ويدوِّي صوت أغنية عيد الميلاد من صدره بصوت عالٍ.

ترفع آيريس يدها بالكأس وتغنّي «سنة حلوة». يصيح الأطفال: سنة حلوة يا جميل! ويهرعون نحو المشرب بينما يخرج من أذنَي رقاقة حلوى غزل البنات الملونة.

تغني الفتيات. تصدح الغرفة بأصواتهن النشاز. عندما تنتهي الأغنية، ينفجرن في الضحك ويجرعن الرغوة اللامعة. تشرب آيريس معهن. تتسع عيناها. شعرها الأشقر يرتفع حول رأسها بفعل الشحنة الكهربية من المشروب.

- أوه!

تمد يدها نحو ذراع رقاقة تتمسَّك بها. تطفو من أطراف أصابعها شحنة كهرباء زرقاء فتجفل متفاجئة. تضرب أصابعها معًا فتخرج شحنات أخرى.

تصعق مدعوات الحفل بعضهن مطلقات صرخات الصدمة والدهشة. تمتلئ الحجرة بومضات كهربية وأصوات أزيز. تبدو كليلة رأس السنة. يُنسى وجود آيريس ويصدق النادل الآلي أنها ضمن الفتيات، ويستمر الحفل معتبرًا أن وجودها فيه مصادفة لا أكثر.

تقول آيريس لرُقاقة: «أنا أومض كالكهرباء! أنا كهربية!».

فيقول: «أهلًا بك في نادي الكهربيين».

8

بانتهاء تأثير الشراب، ابتعدت آيريس عن مجموعة الفتيات لتشاهد غروب الشمس. ترك المشروب المُكهرب شعرها مشوشًا وذهنها مرتبكًا على نحو غير مُرضٍ. خطر ببالها مصطلح عن الفتيات اللاتي يرتدين الوجوه الجديدة؛ «العاهرات المُدلَّلات». من يشتري وجوهًا بآلاف الوحدات الشرائية لأطفال؟

الـ«هايدوير» قناع رقيق شفاف يختفي بعدما يُلصق على الوجه. للوجوه الجديدة أمزجة، لا ملامح، تنعكس عليها حالة مرتديها النفسية. فتاة عيد الميلاد ترتدي قناع «الفتاة المألوفة»، وعرفت آيريس هذا لأنها بمجرَّد النظر

إلى ملامحها تشعر برغبة مُلحة في فتح حديث معها. ثمَّة فتاة ترتدي قناع «المشاهير»، وأخريات يرتدين أقنعة «الدحيحة»، أو «أخبرني بأي شيء»، أو «كاهنة زِن». لو أن إحدى مرتديات أقنعة المشاهير اقتربت منها، ستطلب آيريس توقيعها على نهديها. أكثر متعة تمنحها أقنعة الـ«هايدوير» هي فرص إهانة الآخرين. تقول: «هل تراهُن بوجوههن الفظيعة؟».

يسألها رُقاقة: «لماذا فظيعة؟».

- فظيعة لأن ليس لديَّ واحد. فظيعة لأنني في السادسة عشرة ولا يصح أن أحقد على طفلة في الثانية عشرة.

ظهر وجه في النافذة جوارها، انعكاس شبحي لفتاة ذات شعر أحمر أشعث وأذنين كبيرتين. بالنظر إليها عرفت آيريس أنها ترتدي قناع «أخبرني بأي شيء»، وشعرت آيريس برغبة مفاجئة في إخبارها بالحقيقة؛ أنها كذبت بشأن دعوتها للحفل كي تحصل على كأس مجانية من الشراب الكهربي اللامع. تنقل آيريس عينيها سريعًا إلى السحب التي تبدو كقطار من الأحمر والذهبي. تقول ذات قناعِ «أخبرني بأي شيء»: «الشمس سخيفة حقًّا، أليس كذلك؟ أعني.. هي هنا حقًّا، فما الجدير بالمشاهدة؟».

توافقها آيريس فتقول: «مملَّة فعلًا. لو أنها تقوم بأي فعل.. هي فقط تطفو وتضيء».

- أجل. أتمنَّى لو أنها أكثر سخونة فتضرم النار في شيء.

- شيء مثل؟

- مثل أي شيء! السحب.. بعض الطيور. أوه، حسنًا. بعدما ننهي جزء مشاهدة الشمس السخيف هذا سنمرح كثيرًا. عندما تبزغ النجوم سنركب الفقاعات. أعرف عنكِ سرًّا.

تقول آخر كلماتها دون تغيير في نبرة صوتها، وتبتسم ابتسامة ساخرة تجاه آيريس. تكمل «أخبرني بأي شيء»: «يظنك النادل ضمن المدعوات، وسألني إن كنت أرغب في أن أعطيكِ شريحة كعك، وقال إنك الآنسة باچيت. هي تحضر جنازة ولم تأتِ اليوم. هاكِ شريحة الكعك».

تعطها طبقًا في قطعة صغيرة دائرية من كعك الشوكولاتة. تقبلها آيريس وهي تفكر: *أنا أحصل على كعك فوق قمة البرج الشاهق بينما تغرب الشمس،*

تمامًا كما رغبت. الكعكة شهية أكثر وهي تعرف أنها لا تستحقها. تسألها الفتاة: «هل ستنزلين بداخل فقاعة؟ فقاعات سيدني مدفوعة كلها».

تجيب آيريس بحرص: «أعتقد أنني سأفعل لو لم يستخدمها أحد».

- لكن لو أفشيت سرك، لن يُسمح لك بهذا. ماذا ستعطينني كي أحفظ الحقيقة؟

تلتصق قطعة كعك في حلق آيريس. تحتاج إلى مجهود لابتلاعها.

- لماذا سيضيعون فقاعة غير مستخدمة ما داموا دفعوا ثمنها بالفعل؟

- الفقاعات باهظة التكلفة. سيطالب السيد دانفورث باستعادة ثمنها عندما ينزل. لكن إن جئت خلفنا وركبتها ونزلتِ بها، يمكنك الفرار قبل أن يستعيد ماله. عليه أن يتصل بخدمة العملاء وسيحتاج الأمر إلى وقت. ماذا ستفعلين لتمنعيني عن إخبارهم الحقيقة؟

تهمهم آيريس لنفسها: «أقول لك يا فتاة.. هل ترغبين في حورية بحر؟».

وترفع الكرة تحت ذراع واحدة لتريها إياها، فتجعِّد ذات الشعر الأحمر أنفها وتقول: «يع! كلا شكرًا لك».

تسألها ولا تعرف سبب انغماسها أكثر مع هذه المُبتزَّة: «ماذا تريدين إذَنْ؟».

- هل رأيت غروب شمس من قبل؟ غروبًا حقيقيًّا؟

- كلا. لم أرَ واحدًا من فوق السحاب من قبل.

- حسنًا، ولن تري هذا الغروب أيضًا. يجب أن تفوتيه. هذا هو الاتفاق. لا يمكن للكذابين الحصول على كل شيء. إن أردت رحلة مجانية على متن فقاعة، عليكِ أن تُغمضي عينيكِ حتَّى أخبرك. يجب ألا تري آخر غروب.

تنزل الكعكة في معدة آيريس كما تنزل كتلة خرسانة رطبة. تفتح فمها لتأمر المُبتزَّة الصغيرة بأن تغرب هي عن وجهها، لكن رقاقة يتكلَّم أولًا: «لدي اقتراح بديل. لقد سجَّلت هذا الحديث. ماذا لو عرضناه على السيد دانفورث؟ لا أعرف كيف سيشعر حيال تهديدك للآخرين ومحاولتك خداعه وإضاعة ماله عليه».

تتراجع الآنسة «أخبرني بأي شيء» خطوة إلى الخلف وهي ترمش بسرعة وتقول: «لا! لا تفعل هذا! أنا في الثانية عشرة! لا يمكن أن تفعل شيئًا كهذا مع طفلة في الثانية عشرة. سأبكي».

تلتفت آيريس، ولأول مرَّة تتطلَّع إلى عينَيْ حمراء الشعر وإلى وجهها الزائف مباشرة، وتترك نفسها ليجتاحها تأثير قناعها النفسي وتقول: «لو أن هناك ما هو أجمل من مشاهدة غروب الشمس، فهو رؤية قطعة خراء صغيرة تبكي».

9

تلمع السحب كأكوام حرير ذهبية. يرصد رقاقة 1032 درجة لونية مختلفة، ما بين اللون الكناري إلى الدموي المخلوط بالقشدة. ثمَّة درجات لم يشهدها من قبل تُبهر حسَّاساته البصرية التي لم ترَ لها مثيلًا منذ صُنِع في تايوان. يخبر آيريس: «أنا سعيد لرؤية هذا. لن أنسى المشهد أبدًا».

- وهل نسيت أي شيء من قبل؟

- كلا.

- لقد أنقذتني من شريرة عظيمة ذات اثني عشر عامًا. أنا مدينة لك.

- كلا. أنا الذي أدين لكِ. أدين لك باثنتين وعشرين دقيقة على وجه الدقة.

تبزغ النجوم وسط الظلمات المحتشدة. يعرف رقاقة كل أسمائها رغم أنه لم يرَ أيها بشكل مباشر من قبل.

يتقدَّم النادل الآلي على سيقانه الست، خارجًا من خلف مشربه. تُفتح كوة نحاسية في الأرض، وتتسع الفجوة الداكنة كبؤبؤي عينين في الظلام. يملأ الفجوة غشاء مرتجف، وقوس قزح زيتي يلمع على سطحه.

يصيح النادل الآلي: «مَن مستعد ليخطو إلى الحلم، ويطفو عائدًا إلى الأرض؟».

يشير بذراعيه النحيلتين مضيفًا: «من قد كبر بشكل كافٍ وبلغ الثالثة عشرة كي يذهب أولًا؟».

تصرخ الفتيات: *أنا أنا أنا أنا أنا!* يرى رقاقة آيريس تجعِّد أنفها اشمئزازًا.

- ماذا عن فتاة عيد الميلاد؟ آبجيل دانفورث! تفضَّلي!

تقبض الفتاة في قناع «الفتاة المألوفة» على يد أبيها، وتجذبه نحو حافة الفجوة. تقف الفتاة في حماس بينما يحدِّق أبوها إلى حافة الكوة المفتوحة في قلق. يهتف النادل الآلي: «اخطي إلى سطح الفقاعة. لا داعي للقلق. لن تنفجر وإلا سنعيد لك مالك».

يختبر الأب الغشاء المرتجف الرقيق بطرف حذائه اللامع، فينحني قليلًا تحت دَفعه. يسحب قدمه والعرق يغمر ما فوق شفته العليا. تقفز الفتاة التي لا تصبر على التجربة إلى منتصف الفجوة، فتغوص الأرضية الشفافة اللامعة الزجاجية نصف السائلة فورًا من تحتها.

- تعالَ يا أبي! تعالَ!

ولأنها ترتدي قناع «الفتاة المألوفة»، ولأن أحدًا لا يحتمل أن يبدو عصبيًّا قلقًا أمام «فتاة مألوفة»، يخطو الأب إلى الفقاعة جوارها.

تتهدَّل الأرض أكثر تحتهما. تتسع عينا الأب وقد وصلت حافة الكوة إلى مستوى صدره. يبدو كأنه يهلع ويريد الإمساك بالحافة والصعود إلى السطح. تتقافز الفتاة كأنها ترغب في تسريع العملية. تتسع الفقاعة أكثر وتتهدَّل ويغوص الأب والابنة عن الناظرين. بعد لحظة تنفصل الفقاعة عن الحافة ويغطِّيها غشاء صابوني مرتجف جديد.

يهتف الآلي: «مَن التالي؟».

تتقافز الفتيات وترفعن أذرعهن. يبدأ النادل في تنظيمهن في صف. تُسدد الفتاة في قناع «أخبرني بأي شيء» نظرات غاضبة نحو آيريس ورُقاقة، فتشيح آيريس بوجهها نحو الليل مرَّة أخرى.

تضيء النجوم السماء، لكن يبدو أن آيريس تقرأ انعكاسها الخاص. تسأل رفيقها: «هل تظن أنني جميلة؟ أرجوك كُن صادقًا. لا أريد مجاملات».

- أنت بخير.

تلتوي زاويتي فمها إلى أعلى وتقول: «أعطِني أرقامًا محددة أيها الآلي».

- المسافة بين بؤبؤي عينيك وفمك تُقارب النسبة الذهبية، ممَّا يعني أنك جميلة. بسبب الطريقة التي تصففين بها شعرك، قليل من قد يلاحظ أن أذنك اليسرى أعلى من المكان الطبيعي بسنتيمتر.

- إممم.. هذا يجعلني رائعة الجمال. الشركة التي كانت توظف أبي أخبروني أنهم سيعيِّنونني عندما أبلغ الثامنة عشرة. أعتقد أن الجميلات أكثر الضحايا المرغوبات. يقال إنهن يكسبن أكثر من خمسة أضعاف مكاسب الرجال.

يستطيع رُقاقة تمييز أكثر من ألف درجة لونية، لكنه يعاني عمى الألوان فيما يخصُّ المشاعر، وهو يعرف هذا. قولها الأخير يعني أنها تبحث عن المديح، لكن المؤشرات الأخرى تشي بسخرية وحيرة وكره للذات. في غياب الوضوح، فضَّل الصمت.

يُسمع صوت إلكتروني يهتف: «الآنسة باچيت؟».

تلتفت آيريس. يقف الآلي خلفهما ويقول: «أنتما المتبقيان الوحيدان. هل تودان الطفو إلى العالم بالأسفل؟».

تسأله آيريس: «هل يمكن أن أصطحب صديقي؟».

تبادل النادل الآلي ورُقاقة النظر، ثمَّ تبادلًا بضع ميجابايتات من المعلومات من خلال دفقة كمومية، ثمَّ أجاب النادل الآلي: «أجل. يمكن للفقاعة أن تحمل وزن سبعمائة رطل دون أي تشوه في شكلها. فرصة الموت بسببها لا تزال واحد إلى مائة واثني عشر ألفًا».

تقول له آيريس: «جيد. لأن ليس في عائلتنا من يموت دون أن يُدفَع ثمن لحياته».

10

نزلا ببطء إلى الظلام.

انفصلت الفقاعة التي يبلغ قطرها اثني عشر قدمًا، وبدأت تدور حول محورها ببطء في العتمة. كانت آيريس ورُقاقة واقفين حين انفصلت الفقاعة

عن الكوة، لكنَّ وضعيهما لم يدم طويلًا. انثنت ركبتا آيريس، لا من الخوف، إنما من أن الوقوف فوق سطح مرن مطاطي أفقدها توازنها، فهوت جالسة.

من الصعب تخيُّل رُقاقة مختل التوازن، لكنه تربَّع أمامها.

مالت آيريس إلى الأمام لتنظر عبر قاع الفقاعة الشفاف تحتيهما. انجرفت حولهما أطياف زرقاء، تشكيلات من أضواء متمايلة محوِّمة: أسراب من طائرات دون طيَّار في حجم الدبور، مسلحة بصمامات ثنائية باعثة للضوء.

تقول آيريس: «هذا هو بالضبط ما رغبت فيه لاحتفال عيد ميلادي، فيما عدا أنني كنت سآتي إلى هنا مع عائلتي وأصدقائي».

وضعت الكرة البلورية في حِجرها، وراحت تديرها بين راحتيها في شرود وهي تضيف: «أنا مسرورة أنني لم أفعل هذا. الفتيات الصغيرات مقرفات. هذه المخيفة التي كانت تحاول التلاعب بي بقوتها وتبتزُّني. كل واحدة منهن تطلق سحرها على الأخريات بواسطة قناعها الباهظ. أنا وصديقاتي أكبر منهن سنًّا، لكنني لست واثقة أنهن أفضل من التافهات الصغيرات. ربما من الأفضل تجربة أمور وحدي من وقت لآخر. أو مع صديق.

- وأيهما أنت؟ وحدك أم مع صديق؟

حملتهما الفقاعة إلى الضباب البارد. تطير طيور من الظلال داخل السحاب المحيط بهما.

- عليكَ أن تحبني كما أحبك كي تكون صديقًا.

- أنا لا أحبك فقط يا آيريس. حتَّى ينتهي وقتك معي، سأفعل أي شيء لأجلك.

- ليس الأمران سيَّان. هذا برنامجك لا شعورك. الآلات لا تشعر.

يقول لها: «كنا نتحدَّث عن الجنِّي في الزجاجة من قبل، هل تتذكَّرين؟ ربما الطريقة الوحيدة للنجاة داخل الزجاجة هو ألا تفعلي أي شيء أفضل أو مختلف. لو أنني أتوق إلى أشياء لا أمتلكها، فسأجن. سأتحوَّل إلى صرخة واحدة طويلة تستمر وتستمر لمئات السنوات بينما وجهي يبتسم ابتسامته المعهودة، وأردِّد: *أجل يا سيدي. بالطبع يا سيدتي*. هاته الفتيات يثرن اشمئزازك لحبهن للحفلات والكعك، لكن إن لم يحببن هذه الأشياء ولا يُردنها، فلن يختلفن عنِّي في شيء. بعد سبعة عشر دقيقة سأعود إلى لوحة الشحن،

ولا أتحرَّك مرَّة أخرى ربما لأيام أو أسابيع أو أشهر. في مرَّة مضى عليَّ سبعة أسابيع دون أن أكسب عملة واحدة. لم يضايقني هذا على الإطلاق. لكن هل تتخيَّلين السكون والصمت لسبعة أسابيع؟».

- كلا. لا أستطيع التخيُّل. هذا شيء لا أتمنَّاه لألد أعدائي.

تضم ركبتيها إلى صدرها وتردف: «أنت محق بشأن شيء واحد. الرغبة فيما لا يمكن الحصول عليه تقود الناس إلى الجنون».

يخرجان من طبقة السحب الرقيقة ليجدا نفسيهما يهبطان جوار فتاة عيد الميلاد ووالدها. الفتاة تطوق خصر أبيها بذراعيها ويدوران معًا في رقصة بطيئة، وأعينهما مغلقة.

لم تتبقَّ سوى إحدى عشرة دقيقة في عدَّاد رُقاقة. تمسُّ الفقاعة أرض المهبط؛ منطقة مطوقة أرضيتها خضراء معبَّدة ببلاط سداسي الشكل. عندما لمست الفقاعة تلك البلاطات انفجرت. تجفل آيريس وتضحك بينما يغمرها المطر الصابوني.

كانا آخر من غادرا قاعة الشمس، وأول من وصلا إلى المهبط. ترى آيريس الفتاة ذات الشعر الأحمر تحدِّق إليهما من أعلى. حان وقت الرحيل. دون تفكير أمسكت آيريس يد رُقاقة وانطلقت تعدو. لم تدرك هذا إلا وهي بالخارج وما زالت تضحك.

تتعلَّق جزئيات الرطوبة في الهواء. تنظر آيريس إلى أعلى نحو النجوم، لكنها لا تراها؛ هما تحت مستوى السحب، ولا يوجد فوقهما إلا السماء المكفهرة الخاوية.

الدرَّاجة الأحادية مربوطة إلى عمود. يومئ رُقاقة نحوها ويقول:

- ليس لديَّ وقت لأحمل دراجتك إلى بيتك الآن. أكره القيام بهذا يا آيريس فهو أمر تجاري يثير الضيق، لكن سيُعرض إعلان بعد ثلاثين ثانية يدعوكِ لإدخال عملة أخرى. ليس هذا أمرًا من اختياري.

تقول له آيريس كأنه لم يقل شيئًا: «سأسير معك حتَّى لوح الشحن. يمكننا الافتراق هنا. اترك الدرَّاجة سأنقلها لاحقًا».

لا تزال يدها تعانق يده. يسيران معًا بلا عجالة.

فجأة، صاح في صوت مرح مصطنع: «لو أنك تقضين وقتًا ممتعًا، لماذا تقطعين المتعة الآن؟ يمكنك إدخال عملة واحدة لتحصلي على ثلاثين دقيقة من التفاني! ما رأيك يا صديقتي آيريس؟».

ثمَّ يصمت.

عبرا الطريق وسارا مسافة عرض مجمع سكني آخر قبل أن يتكلَّم مرَّة أخرى ويقول: «ألم يضايقك الإعلان؟».

- كلا، لم يضايقني. ما سيضايقني هو التظاهر بالندم على الحقيقة التي نعرفها جيدًا؛ أنك لا تشعر.

- أنا لا أندم. الندم عكس الرغبة، وهذا حقيقي. أنا لا أرغب في شيء، لكني أستطيع تمييز النغمة النشاز.

وصلا إلى موضع لوح شحنه. ليس في عدَّاده سوى أقل من أربع دقائق. تقول: «سأدعك تعوِّضني».

- تفضَّلي.

- أنت هدية عيد ميلاد عظيمة يا رُقاقة. حملتني إلى القمة ومنحتني الشمس والنجوم. أنقذتني من الابتزاز وطفونا معًا إلى الأرض. في خلال ساعة أعدت إليَّ حياتي التي كنت أعهدها قبل إصابة أبي.

تميل نحوه وتُقبِّل فمه البارد. تشعر كأنها تُقبِّل انعكاسها في المرآة. يسألها: «هل عوضك هذا؟».

تبتسم.

- ليس بالضبط. ثمَّة شيء آخر. تعالَ معي.

يتبعها عابرًا بلوح شحنه نحو الجسر. صعدا حتَّى أشرفا على قضبان القطار. اعتلت السور الحجري مُدلِّية ساقًا جهة القطار وأخرى جهة الرصيف، والكرة البلورية فوق فخذها.

- رُقاقة. هلا صعدت إلى هنا وألقيت بهذا الشيء أمام القطار التالي؟ لا أعتقد أنني قادرة على توقيت الأمر بشكل دقيق. القطارات سريعة للغاية.

- حورية البحر، هدية والدك؟

- أجل. كانت كذلك، وكانت نيته حسنة، لكن انظر إليها. أشعر كأنني أنظر إليه. هذا الشيء قليل الحيلة المحبوس داخل حيز ضيق، لا حاجة لأحد به، ولن يتحرَّر مرَّة أخرى. كل مرَّة أراها، هذه السمكة القبيحة، أتذكر أن أبي لن يكون حرًّا مرَّة أخرى، وأنا لا أريد التفكير فيه في هذه الصورة.

اعتلى رُقاقة السور، وجلس مدليًا ساقيه نحو قضبان القطار.

- حسنًا يا آيريس. إن كان هذا سيجعلك تتحسنين.

- سيجعلني أقل حزنًا. هذا كافٍ، أليس كذلك؟

- بلى.

صدح صوت صفارة القطار من بعيد يشق الليل، ثمَّ انطلق القطار المدفعي تجاههما. تقول آيريس: «أنت تُذكِّرني به. هل تعرف هذا؟».

- أبوكِ؟

- أجل. هو مخلص لي مثلك. أنت ملأت مكانه بشكل ما الليلة. كان المفترض أن أرى النجوم معه، لكنني رأيتها معك.

- آيريس. القطار يكاد يصل. أعطِيني الكرة.

تقول له: «هل تعرف كيف تشبهه أيضًا؟».

- كيف؟

- اعتاد أن يموت كل يوم كي أحصل على ما أريد. والآن دورك.

تضع يدها على ظهر رُقاقة وتدفعه.

يهوي.

يخترق القطار الظلام بصوت يرجُّ الأجساد.

بحلول الوقت الذي نزلت فيه تحمل الكرة وتسير على الرصيف، كان القطار قد مرَّ، يطوي المسافات نحو الجنوب، تاركًا خلفه رائحة معدن محترق.

طُمِست معالم رُقاقة. ترى يديه الخزفيتين على الزلط المسودِّ على بعد بضعة أقدام من القضبان. تلمح صندوقًا أسود من الجص؛ قلبه. تستطيع إخراج البطارية منه وتركيبها في درَّاجتها الأحادية.

تلمع العملات الفضية متناثرة على الأرض، تشبه النجوم في السماوات البعيدة. تجمعها حتَّى تتجمد أصابعها من البرد ولا تشعر بها.

في طريقها إلى الشارع، تركل شيئًا يشبه الصحن المكسور. تلتقطه لتجد نفسها تحدِّق إلى وجه رُقاقة الباسم بمحجري عينين خاويين. بعد هُنيهة تفكير نادرة، تغرز ذقنه بين الحصى، تزرعه في الأرض، وتترك الكرة البلورية جواره. لا حاجة لها بهذا الشيء القبيح الذي يعيش حياته حبيس زجاجة أو كرة لإمتاع الآخرين. لا حاجة لها بالضحايا، ونوت ألا تصير منهم أبدًا.

تجذب جسدها لتصعد إلى الطريق. لو أسرعت يمكنها اللحاق بمتجر «ريبوت يو» لشراء وجهًا مستعملًا قبل أن تلتقي صديقاتها في منطقة الاحتفالات. لقد جمعت سبعمائة عملة ممًّا يكفي لشراء قناع أوفيليا مستعمل. ولو تظن الحقودة چويس بريليانت أنها ستعيرها إياها، فهناك ما تدبره لها آيريس.

بعد دقيقة أخرى تصبح الحورية وحيدة. تسبح داخل السائل القذر داخل الكرة نحو وجه رُقاقة الباسم وعينيه الخاويتين.

بصوت مرتجف ضعيف، تصيح المخلوقة المثيرة للشفقة داخل الكرة.. تغنِّي بصوت غير أرضي -صوت كصوت غناء الحيتان- بلا كلمات.

تغنِّي أغنية ربما لا تسع الحزن.

بصمة إبهام

وصلت أول بصمة إبهام عبر البريد.

كانت مال قد عادت منذ ثمانية أشهر من سجن أبو غريب[1] حيث فعلت أمورًا ندمت عليها. عادت إلى «هامِّت» في نيويورك في الوقت المناسب لدفن والدها، إذ توفِّي قبل هبوط طائرتها على أرض الولايات المتحدة بعشر ساعات. ربما هذا أفضل للجميع. لم تكن واثقة من قدرتها على النظر إلى عينيه بعد الفظائع التي ارتكبتها، على الرغم من أن جزءًا منها يحتاج إلى الحديث معه عنها، ورؤية حُكمه عليها باديًا على وجهه. لا يوجد من يسمع حكايتها سواه، ولا يهمها حُكم أي شخص آخر.

خدم العجوز أيضًا مُسعِفًا في الجيش في أثناء حرب ڤايتنام. أنقذ أبوها الأرواح، وقفز من الطائرة المروحية لإخراج الأولاد من وسط الأوحال تحت القصف. كان يُطِلق عليهم «الأولاد» رغم أنه كان في الخامسة والعشرين فقط وقتها. وُسِمَ بعدها بميداليتَي القلب البنفسجي والنجمة الفضية.

---

(1) يُسمى حاليًّا سجن بغداد المركزي. اشتهر هذا السجن في فترة احتلال العراق باستخدام قوات التحالف في العراق من الأمريكيين أساليب غير آدمية في التعامل مع السجناء. (المترجمة)

لم يعرضوا على مال أي ميداليات حين أرسلوها إلى حال سبيلها. على الأقل لم يتعرَّف عليها أحد في الصور المُسرَّبة من سجن أبو غريب.. لم يظهر سوى حذائيها فقط في تلك الصورة التي التقطها جرانر، وأمامها رجال عرايا مكوَّمون فوق بعضهم. هرم من المؤخِّرات المتراكمة والخِصَى المتدلِّية. لو أن جرانر أمال الكاميرا إلى الأعلى قليلًا لأرسِلَت مال إلى وطنها في وقت أقرب.. مُصفَّدة إلى المحكمة.

استعادت وظيفتها القديمة في حانة «ميلكي واي»، وانتقلت إلى منزل أبيها الذي لم يترك لها سواه هو والسيارة. مزرعة الرجل العجوز على مسافة ثلاثمائة ياردة من طريق هاتشيت هيل، أقرب إلى غابات البلدة. في الخريف تجري مال وسط الغابة تحمل جربنديتها على ظهرها وسط الزروع.

احتفظت ببندقيتها M4A1 في حجرة نوم الطابق الأرضي مفكوكة إلى نصفين تجمعهما في صباح كل يوم، وهي مهمَّة عليها إتمامها قبل أن تنتهي من العد إلى رقم 12. عندما تنتهي، تفككها مرَّة أخرى وتضع أجزاءها في حاويتها المبطَّنة الخاصَّة.. لا يُركِّب المرء حربة البندقية إلا إن كان على وشك الهجوم.

عادت بندقيتها إلى الولايات المتحدة مع مُتعهِّد مدني، وهرَّبها في طائرته الخاصَّة. كان يعمل مُستجوِبًا مُستأجرًا في أبو غريب في خلال الأشهر الأخيرة قبل الاعتقالات، وقال إن هذا أقل ما يمكنه تقديمه لها مقابل جهودها، وهي كلمات جمَّدتها من برودة معانيها.

في ليلة من ليالي نوڤمبر، خرجت مال من حانة «ميلكي واي» مع الساقي الآخر چون بيتي، ليجدا جلين كاردون فاقد الوعي في مقعد سيارته الـ«ساتورن». باب السائق مفتوحًا ومؤخِّرة جلين في الهواء وساقاه تتدلَّيتان من السيارة، مثنيتان فوق الأسفلت، كأنه ضُرب من الخلف حتَّى مات.

دون تفكير طلبت من بيري أن يراقب الطريق حولهما، ثمَّ امتطت حوض جلين تفتِّش جيوبه. أخذت من المحفظة مائة وعشرين دولارًا، ثمَّ ألقتها نحو المقعد المجاور. طالبها بيري هامسًا بالإسراع بينما كانت تحاول نزع خاتم زواج جلين.

سألها بيتي وهما في سيارتها معًا: «خاتم زواجه؟».

منحته مال نصف المال الذي وجدته لمساعدته في مراقبة الطريق، لكن احتفظت بالخاتم لنفسها. أردف بيري: «يا لك من عاهرة مختلة».

تركته مال يترجَّل من السيارة أمام بيته، ثمَّ انطلقت، تقذف إطارات سيارتها الحصى نحوه.

في بيت أبيها جلست إلى منضدة المطبخ تنظر إلى خاتم الزواج في كفِّها. حلقة ذهبية بسيطة تشوِّهها الخدوش، وقد أخفى الزمن لمعتها. تساءلت عن سبب استيلائها عليه.

عرفت مال المدعو جلين كاردون، جلين وزوجته هيلين. ثلاثتهم في العمر نفسه، وذهبوا إلى المدرسة نفسها معًا. قدَّم ساحر فقرة ترفيهية في حفل عيد ميلاد جلين الثالث عشر، وفرَّ من قيوده وبذلته المحكمة حول جسده في آخر فقرات عرضه. بعد سنوات قابلت مال أحد فناني الهرب الذي يعرف جيدًا كيف يهرب من الأصفاد. أحد أعضاء حزب البعث، إبهاماه مكسوران ممَّا جعل هروبه من القيود ممكنًا. الأمر سهل إن كان في استطاعتك ثني إبهاميك في أي اتجاه.. كل ما عليك فعله بعدها هو تجاهُل الألم.

أما هيلين فقد كانت زميلة مال في معمل الأحياء في الصف السادس. تكتب هيلين ملاحظاتها بخطها النضيد مستخدمة أقلامًا بألوان مختلفة لتزين تقريريهما، بينما مال تمسك المبضع وتفتح بطون الكائنات. أحبت مال المبضع والطريقة التي يقطع بها الجلد واللحم مع أقل لمسة كاشفًا عمَّا وراءها. لديها غريزة فطرية تقودها للطريقة الصحيحة لاستخدامه دائمًا.

هزَّت مال خاتم الزواج في يدها هنيهة، ثمَّ أسقطته في الحوض. لم تكن تعرف ما ستفعله به، ولا أين ستخبئه، ولا استخدامًا له عندها.

عندما خرجت في اليوم التالي لتتحقَّق من صندوق البريد، وجدت فاتورة الوقود، ومنشورًا دعائيًّا عقاريًّا، ومظروفًا أبيض داخله ورقة نظيفة مطوية بعناية، لا شيء فيها إلا بصمة إبهام بحبر أسود. البصمة واضحة، ووسط تجاعيدها وخطوطها ندبة جرح على شكل خطاف صيد سمك. لا شيء على الظرف من الخارج، لا طابع بريد ولا ختم ولا عنوان ولا علامة من أي نوع.

هذا خطاب لم يسلِّمه ساعي البريد.

منذ الوهلة الأولى عرفت أن هذا خطاب تهديد، وأن مَن وضعه في الصندوق يراقبها على الأرجح. شعرت مال بضعفها وبتقلُّص أحشائها الناتج عنه، وكان

عليها مقاومة رغبتها في الاختباء. نظرت نحو جانبي الطريق فلم تجد إلا أشجارًا تتمايل أغصانها وسط النسمات الباردة. لا توجد أي سيارات على امتداد الطريق ولا علامة على وجود حياة في أي مكان.

طيلة طريق العودة إلى البيت شعرت بضعفٍ في ساقيها. لم تنظر إلى البصمة مرَّة أخرى، إنما أخذتها إلى حجرة نوم أبيها؛ حجرة نومها حاليًّا. بندقيتها في صندوقها في الخزانة، لكن مسدس أبيها أقرب. لا تنام إلا وهو تحت وسادتها، ولا يحتاج إلى تجميع. أعدَّته مال للإطلاق، وأخرجت من جربنديتها نظَّارتها المقرِّبة.

اعتلت مال الدَّرج المفروش بالأبسطة إلى الطابق الثاني وفتحت باب حجرتها القديمة التي لم تدخلها منذ عادت إلى المنزل. الهواء داخلها راكد. بوستر كبير لآلان چاكسن معلَّق على السقف المائل. دُميتاها -الدب الأزرق المحشو، والخنزير ذو العينين الغريبتين المصنوعتين من الأزرار- ينظران إليها نظرة عمياء، يجلسان في هدوء على أرفف الكتب التي لا كتب فوقها.

فراشها مُرتَّب، لكن حين اقتربت أكثر فوجئت بهيئة جسد مضغوطة على حشيته، والوسادة منبعجة، تتخذ شكل رأس أحدهم. لم تتمهَّل مال، إنما اعتلت الحشية وفتحت النافذة فوقها وتسلَّقتها خارجة.

في خلال دقيقة وصلت إلى السَّطح، وجلست تحمل نظَّارتها المقرِّبة بيد واحدة، وبالأخرى المسدس. سخنت ألواح السقف بفعل أشعة الشمس، ممَّا منحها دفئًا لطيفًا. من مجلسها تستطيع أن ترى في كل اتجاه.

مكثت هناك نحو ساعة، تمسح الأشجار وتتبع الطريق والسيارات التي تعبره. أخيرًا أدركت أنها تبحث عن شخص لم يعد هنا. علقَّت النظَّارة المقرِّبة متدلِّية من حول رقبتها ومالت مسترخية على الألواح الدافئة وأغلقت عينيها. الجو كان باردًا بالخارج، لكن هنا بالأعلى شعرت بالراحة كما تشعر سحلية فوق صخرة.

بعدما عادت مال إلى غرفة النوم، ظلت جالسة على إطار النافذة تمسك المسدس وتحدِّق إلى انبعاج الجسد البشري على الفراش. انتشلت الوسادة ودفنت وجهها فيها. استطاعت أن تشمَّ رائحة أبيها؛ رائحة سجائره الرخيصة ورائحة شمعية من الكريم اللعين الذي يمسح به شعره، يبدو أنه كريم كان يستخدمه الرئيس الأسبق ريجان. فكرة زيارته لحجرتها أحيانًا ونومه على

فراشها أرعدتها. تمنَّت لو أنها من نوعية البشر الذين يحتضنون وسادة ويدفنون وجوههم فيها وينتحبون على ما فقدوه. في الحقيقة، هي لم تكن قط من هذه النوعية.

عادت مال إلى المطبخ، وألقت نظرة أخرى على البصمة السوداء فوق الورق الأبيض. رغم كل المنطق والعقل، بدت البصمة مألوفة لها ولم تحب هذا الشعور بالألفة.

***

جاؤوا به بعظمة ظنبوب مكسورة، ذلك العراقي الذي يدعوه الجميع بالأستاذ. بعدما وُضِعت ساقه في جبيرة، رأوا أنه في حال مناسب للاستجواب. في الصباح الباكر وقبل الشروق جاء الرقيب بلاف ليُحضره.

كانت مال تعمل في المبنى 1A ثمَّ ذهبت مع آنشو لإحضار الأستاذ. كان في زنزانة مع ثمانية رجال من العرب العصبيين، أغلبهم يرتدي سراويل تحتية ولا شيء سواها. أما الأقلية ممَّن لم يتعاونوا بشكل جيد مع المُستجوبين، فأعطوهم سراويل تحتية نسائية بنقشة الأزهار. السراويل النسائية مقاستها أكبر ممَّا يتناسب مع الرجال، تكشف أكثر ممَّا تستر. توارى المساجين في ظلمة زنازينهم، يسدِّدون نظرات مختلة محمومة إلى مال التي لم تعرف إن كان مرآهم يثير الضحك أم الذعر.

قالت بلهجتها العربية السيئة: «ابتعدن عن القضبان أيتها النساء. ابتعدن».

ثمَّ أشارت إلى الأستاذ بإصبعها وهتفت: «أنت، تعالَ».

قفز نحوها مستندًا بيده إلى الحائط ليوازن وقفته. كان يرتدي رداء المستشفى، وساقه مُجبَّرة بجبيرة تصل إلى ركبته. أحضر آنشو عكَّازين من الألومنيوم له. مال وآنشو في نهاية وردية استمرت اثنتي عشرة ساعة في أسبوع مليء بورديات مماثلة. اصطحاب السجين للاستجواب مع الرقيب بلاف آخر مهامهما الليلة. جسد مال يرتجف من جرعات عقار الڤيڤارين[1] القوية، فبالكاد تقف على ساقيها. حين تنظر إلى المصابيح، ترى الضوء على هيئة أشعة حادَّة ملوَّنة كأنها تنظر إليها من خلال قطعة كريستال.

---

(1) أقراص كافيين تساعد على النشاط والسهر لساعات طويلة. (المترجمة)

الليلة السابقة، فاجأت دورية بعض الرجال وهم يزرعون عبوَّة ناسفة داخل جثة كلب جوفاء على جانب أحد الطرق في بغداد. تفرَّق المُفجِّرون يجرون في كل اتجاه أمام كشافات السيارات «الهامَر»، يلاحقهم الجنود.

تخلَّف المهندس ليدز ليفحص العبوة الناسفة داخل الكلب. كان على بعد ثلاث خطوات من الجيفة عندما أُغلِق هاتف محمول داخل أمعاء الكلب، وانفجر واندلعت النيران فيه. شعر من كانوا على قرب منه بهزة الانفجار في نخاع عظامهم. هوى ليدز على ركبتيه يغطِّي وجهه، يخرج الدخان من خلف قفازيه. أول من وصل إليه من الجنود زعم أن وجهه قد تقشَّر كقناع رخيص.

سرعان ما أُلقي القبض على الأستاذ -لُقِّب بهذا بسبب نظارته ذات الإطار السميك، ولإصراره على أنه مُعلِّم- على بعد مجمعين سكنيين من مكان الانفجار. كُسِرت ساقه وهو يحاول القفز من فوق سور هربًا من الجنود الذين أمطروه بالرصاص وأمروه بالتوقُّف.

والآن، يسير الأستاذ مرتكنًا على عكَّازين، تدفعه مال وآنشو ويسير بلاف خلفهم. خرجا من مبنى A 1 إلى بكور الصباح وما قبل الشروق. توقَّف الأستاذ خلف البوابات يلتقط أنفاسه، فركل الرقيب بلاف عكَّازه من تحت إبطه.

سقط الأستاذ على الفور صارخًا، وكشف رداء المستشفى المفتوح من الخلف عن مؤخِّرته العارية. هرع آنشو لمساعدته على الوقوف، فأمره بلاف بتركه كما هو.

سأل آنشو: «سيدي؟».

كان آنشو في التاسعة عشرة وقتها، وهو في هذا المكان منذ جاءته مال، لكن بشرته دهنية بيضاء كأنه لم يخرج قط من بذلة الحرب الكيماوية. سأل بلاف مال: «هل رأيته يطوح عكَّازه تجاهي؟».

لم تُجِب مال، وانتظرت لترى ما سيحدث بعدها. أمضت الساعتين الأخيرتين تجول على قدميها وتقضم أظفارها، تمنعها يقظتها الزائفة من التوقُّف عن الحركة. والآن تشعر أن السكون يزحف على جسدها كما تزحف قطرة الحبر على سطح الماء وتتمدَّد، يهدِّئ رعشة يديها ورجفات ساقيها.

مال بلاف ليجذب رباط الرداء الخلفي، فيسقط عن كتفي الأستاذ وينسدل محيطًا برسغيه. ردفاه مرقَّطان بوحمات سوداء، بلا شعر. خصيتاه

مشدودتان إلى عِجانه. نظر الأستاذ إلى من خلف كتفه، عيناه واسعتان للغاية. تحدَّث بسرعة بالعربية، فسأل بلاف: «ماذا يقول؟ أنا لا أتحدَّث بلغة زنوج الرمال هذه».

أجابت مال مُترجمة: «يقول إنه لم يفعل أي شيء. يقول إنهم اعتقلوه خطأ».

ركل بلاف العكّاز الآخر وصاح: «أبعِدوا هذين».

التقط آنشو العكّازين. وضع بلاف حذاءه على مؤخِّرة الأستاذ العارية ثمَّ دفعها وهتف: «قُم. مُريه أن يكمل المسير».

مرَّ جنديان، فالتفتا برأسيهما نحو الأستاذ الذي يحاول تغطية منفرجه بيديه، ويزحف إلى الأمام. زحفه عملية عجيبة بينما ساقه اليسرى مفرودة إلى الخلف في جبيرتها، ويجر قدمه الحافية في التراب. ضحك أحد الجنود، ثمَّ جاوزه إلى الخارج.

حاول الأستاذ جذب رداءه نحو كتفيه بينما يزحف، لكن بلاف داس على طرفه فتمزَّق.

- اتركه. أخبريه أن يتركه ويكمل الزحف.

أخبرته مال. لم ينظر السجين إليها، ونظر إلى آنشو وبدأ يرجوه، ويطلب منه ما يرتديه، ويقول إن ساقه تؤلمه، بينما آنشو يحدِّق إليه بعينين جاحظتين كأنه يختنق. لم تتعجب مال من أن الأستاذ يتحدَّث إلى آنشو بدلًا عنها. تصرُّفه نابع عن تقاليده. لا يقبل العرب الإهانة أمام النساء. لكنَّ في آنشو شيئًا يروق الآخرين ويجعلهم أقرب إليه، حتَّى الأعداء أنفسهم. رغم المسدس المربوط إلى فخذه، يبدو مظهره متخبِّطًا لا يمثِّل أي تهديد. وجهه يحمرُّ خجلًا حين يرى الجنود الآخرين في الثكنات يحدِّقون إلى صفحات المجلات الإباحية، وعادة ما يُرى وهو يصلي في أثناء القصف الثقيل.

توقَّف السجين عن الزحف مرَّة أخرى. وخزت مال مؤخِّرته بفوهة بندقيتها لتحثه على الحركة، فانتفض العراقي، وصاح منتحبًا. لم تتعمَّد مال الضحك، لكنها رأت شيئًا مضحكًا في تقلُّص عضلتَيْ ردفيه، شيئًا أرسل الدماء مندفعة إلى رأسها، تلك الدماء المحمَّلة بالڤيڤارين التي جعلت منظر مؤخِّرة الأستاذ أكثر منظر مضحك في العالم.

زحف الأستاذ إلى ما وراء السور الشائك نحو حافة الطريق. طلب بلاف من مال سؤاله عن مكان أصدقائه الآن؛ أصدقاؤه الذين فجَّروا الجنود الأمريكيين. قال إن اعترف الأستاذ بمكانهم فسيعيد إليه رداءه والعكَّازين.

قال الأستاذ إنه لا يعرف شيئًا عن العبوَّات الناسفة. قال إنه جرى لأن الآخرين كانوا يعدون في كل اتجاه والجنود يطلقون عليهم الرصاص. قال إنه مُدرس للأدب وإن لديه ابنة في الثانية عشرة، اصطحبها إلى ديزني لاند في باريس مرَّة.

قال بلاف: «هو يبلِف. ماذا يفعل مُدرس أدب في الشارع في الساعة الثانية صباحًا وسط أسوأ مناطق المدينة؟ أصدقاؤك، رفاق بن لادن اللوطي هذا فجروا وجه جندي أمريكي. رجل صالح زوجته حامل. أين أصدقاؤك.. مال، قولي له إنه سيخبرنا بمكان مخبأ أصدقائه، وأنه الأفضل أن يخبرنا الآن قبل أن نصل إلى وجهتنا. أعلميه أيضًا أن ما يمُرُّ به الآن هو أسهل مراحل اليوم».

أومأت مال وأذناها تطنَّان. أخبرت الأستاذ أنهم يعرفون أن لا ابنة له. سألته إن كان سيستمتع بماسورة بندقيتها داخل شرجه. قالت: «أين منزل رفاقك الذين وضعوا المتفجِّرات داخل الكلب؟ أين يذهب أصدقاؤك الشواذ بعدما يقتلون الأمريكيين بخدعتهم؟ أخبرني إن كنت لا تريدني أن أدسَّ الماسورة في فتحة مؤخِّرتك».

- أقسم بحياة ابنتي الصغيرة أنني لا أعرف أين هؤلاء الرجال. رجاء.. ابنتي اسمها عالية، في العاشرة. معي صورتها في سروالي. أين سروالي؟ سأريكم الصورة.

دعست يده بحذائها فشعرت بالعظام تُسحق. صرخ. قالت له: «اعترف. اعترف».

- لا أستطيع.

لفت سمع مال صوت اصطدام. رمى آنشو العكَّازين، واخضرَّ وجهه وتقلَّصت كفَّاه فيما يشبه المخالب ليغطِّي أذنيه. سألته مال: «هل أنت بخير؟».

قال آنشو: «هو يكذب».

عربية آنشو ليست جيدة كعربيتها، لكنها ليست سيئة. أضاف: «قال من قبل إن ابنته في الثانية عشرة، والآن يقول إنها في العاشرة».

حدَّقت إلى آنشو وحدَّق إليها، وبينما ينظران إلى بعضهما صدح صوت صافرة عالٍ كأنه صوت هواء يخرج من بالون عملاق.. صوت جعل دماء مال المندفعة تغلي بالأكسجين كأنما يجري في عروقها مياه غازية. أدارت بندقيتها حول نفسها لتمسك ماسورتها بين يديها، ثمَّ ضربت ساق الأستاذ المكسورة بكعب البندقية بعنف رجَّ الأرض تحتهم. لم تسمع مال صوت صراخ الأستاذ إذ غطَّته صوت قذائف الهاون التي تهوي من السماء.

***

دفعت مال نفسها لإنهاء الأميال التي اعتادت جريها كل يوم جمعة في الغابة. تعدو على الطريق الصاعد إلى «هاتشيت هيل»، الطريق مائل حتَّى إنها تتسلَّقه بدلًا عن السير عليه. ظلت تجري حتَّى تهدَّجت أنفاسها وبدت السماء كأنما تدور فوقها كسقف دوَّارة ملاهٍ.

شعرت بالدوار عندما توقَّفت أخيرًا. يلطم الهواء وجهها، يبرِّد عرقها. شعور لطيف. حتَّى إن شعورها بالدوار وقرب الانهيار مرضيًا بالنسبة لها.

استهلكتها الخدمة في الجيش لمدَّة أربعة أعوام قبل أن تلتحق مال بقوات حفظ السلام. في ثاني أيام تدريبها الأساسي كرَّرت تمرين الضغط حتَّى انهارت. بكت أمام الآخرين، وهو أمر بالكاد تتحمَّل تذكره.

عادة ما تحب الشعور الذي يسبق الانهيار. الطريقة التي تتمدَّد بها السماء، ابتعاد الأصوات وانخفاضها، ازدياد حدَّة الألوان كأنما تعيش هلاوس. تنتاب الحواس حدَّة مبهجة حين تقترب من حدود ما يمكنك تحمُّله.

عند قمة التل، أخرجت مال زمزمية أبيها المعدنية من جربنديتها، وملأت منها فمها بالماء المثلَّج. لمع جسم الزمزمية كمرآة تحت شمس منتصف الظهيرة.

صبَّت الماء على وجهها ومسحت عينيها بطرف قميصها، ثمَّ أبعدت الزمزمية وبدأت رحلة العدو إلى بيتها.

دخلت من الباب الأمامي، ولم تلحظ الظرف قبل أن تخطو فوقه وتسمع صوت انسحاق الورق تحت قدمها. حدَّقت إليه وعقلها فارغ للحظةٍ خطرةٍ واحدة، تحاول أن تفكر فيمن قد يدخل إلى حرم البيت ويدفع ظرفًا أسفل الباب بينما الأسهل وضعه في صندوق البريد.

لم يكن ما في الظرف فاتورة أو إعلان، وهي تعرف هذا.

تسمَّرت مال عند عتبة الباب، حدود رسم خارجي لجندي على خلفية مستطيلة. لم تقم بأي حركات مفاجئة، ورغم ذلك لو نوى أحد إطلاق النار عليها لفعل؛ لقد ظلت ثابتة وقتًا طويلًا محاولة أن تُبيِّن لمَن يراقبها أنها لا تخشى شيئًا.

جلست القرفصاء والتقطت المظروف. لم يكن مُلصقًا. أخرجت الورقة من داخله وفتحتها. بصمة أخرى، هذه المرَّة بيضاوية عريضة كملعقة مُسطحة، بلا ندبات على شكل خطاف صيد أسماك. هذا إبهام مختلف كليةً. هذه المرَّة أربكتها البصمة بين يديها.

كلا.. أكثر ما يثير الارتباك هو دخول المظروف إلى المنزل من أسفل الباب، بينما كان المظروف الآخر على بعد مئات الياردات، قرب الطريق، داخل صندوق البريد. ربما هذه هي طريقة توضيح المُرسل لقدرته على الاقتراب منها كما يشاء.

فكرت مال في إبلاغ الشرطة، لكنها استبعدت الفكرة. لقد كانت مجنَّدة في الجيش، وتعرف كيف يفكر الجنود. ترك مظروفين فيهما بصمتين ليس جريمة. على الأغلب أحدهم يمازحها. عاد إليها الشعور أن هذه الرسائل ليست ممازحة أو خدعة من أحد المحليين، بل رسالة تهديد ووعيد. لكنه شعور غير متعقِّل لا يستند إلى أي أدلة. هذه غريزة الجندي، لا غريزة الشرطي.

إضافة إلى ذلك، الاتصال بالشرطة قد يؤدِّي إلى عواقب غير متوقَّعة. ثمَّة جنود مثلها في كل مكان، أشخاص لن تحب أن تلفت انتباههم إليك.

أخذت الظرف وخرجت إلى الشرفة الأمامية. نظرت إلى المكان حولها، تمسح الأشجار العارية من الأوراق، والعشب الأصفر عند أطراف الغابة. وقفت هناك لدقيقة. الأشجار ساكنة تمامًا بلا رياح تداعب أغصانها كأن العالم في حالة ترقب، ينتظر ما قد يحدث بعد ذلك.. إلا أن شيئًا لم يحدث.

عادت إلى الداخل ثمَّ أخرجت البندقية من الخزانة. جلست مال أرضًا تربط أجزاءها ثمَّ تفكها مرَّات ومرَّات، كل مرَّة لا تزيد على اثنتي عشرة ثانية. وضعت الأجزاء مرَّة أخرى في الصندوق مع الحربة، ثمَّ دفعتها أسفل فراش أبيها.

***

بعد ساعتين، انحنت مال أسفل المشرب، ترص الأكواب النظيفة الخارجة للتَّوِّ من غسالة الأطباق، ساخنة للغاية حتَّى ألهبت أصابعها. انتصبت واقفة تحمل الصفحة، فرأت جلين كاردون يقف على الجهة الأخرى من الكاونتر ينظر إليها بعينين محمرَّتين دامعتين. بدا خدرًا، منتفخ الوجه، مشعَّث الشعر كأنه قام لتوه من الفراش. قال: «أريد الحديث معك بشأن أمر. أتساءل إن كانت هناك فرصة لاستعادة خاتم زواجي. أي فرصة أو أي طريقة».

بدا أن الدماء تهرب من مخ مال، كأنها تقف بسرعة من بعد جلوس. فقدت الشعور بيديها، وتسرَّب إلى أطرافها تنميل قوي.

سألت نفسها عن السبب الذي منعه من إبلاغ الشرطة. يبدو أنه يريد منحها فرصة لتسوية الأمر دون تدخُّل خارجي. أرادت أن تجيبه بشيء، لكنها لم تجد كلمات تناسب الموقف. لا تستطيع أن تتذكَّر آخر مرَّة شعرت فيها بقلة الحيلة التي تشعر بها الآن. أكمل جلين: «أمضت زوجتي الصباح كله تبكي عليه. سمعتها في غرفة النوم، لكن حين حاولت الدخول إليها وجدت الباب موصدًا. لن تسمح لي. حاولت أن تبدو بخير وتتكلَّم معي عبر الباب. طلبت منِّي الذهاب إلى العمل. لقد كان خاتم زواج أبيها، أنت تعرفين. لقد توفِّي قبل ثلاثة أشهر من زواجنا. أعرف أن الأمر يبدو كأنها مصابة بـ... ماذا يطلقون عليها؟ عقدة أوديب؟ عقدة رغبة الفتيات في الزواج من آبائهن. أوديب، أليس كذلك؟ أنت تعرفين ما أتكلَّم عنه. لقد أحبت هذا الرجل كثيرًا».

أومأت مال، فاستطرد: «لو أنهم أخذوا المال فقط ما كنت لأكثرت حتَّى لإخبار هيلين. ليس بعدما ثملت إلى هذه الدرجة. أنا أشرب كثيرًا. كتبت لي هيلين ملحوظة قبل أشهر عن زيادة معدلات شربي وما إن كنت أفعل هذا لأنني لست سعيدًا معها. كان الوضع ليكون أسهل لو كانت من نوع النساء اللاتي يصرخن في أزواجهن مباشرة. لكنني ثملت، وأضعت خاتم أبيها الذي أعطته لي بعد وفاته، وكل ما فعلت هو معانقتي والتسرية عنِّي وحمدًا لله على أن اللصوص لم يؤذوني».

قالت مال: «أنا آسفة».

كادت تخبره أنها ستعيد إليه المال والخاتم وكل شيء، بل ستذهب معه إلى الشرطة، لكنها تمالكت نفسها؛ لقد أشار في كلماته إلى «لصوص»، وتحدَّث عنهم في البداية بصيغة الجمع، ولم يوجِّه إليها أي اتهام.

أخرج جلين مظروفًا أبيض من داخل جيب معطفه، يبدو أنه ممتلئ بشيء وقال: «لقد تعبت طيلة اليوم في العمل وأنا أفكر في الأمر. فكرت أن أعلِّق إعلانًا هنا في الحانة، واحدًا كتلك الإعلانات عن الكلاب المفقودة، لكني سأعلن عن خاتمي المفقود. لا بُدَّ أن مَن سرقوني من زبائن الحانة، وإلا فماذا كانوا يفعلون في باحة الانتظار في ذلك الوقت المتأخِّر من الليل؟ لذا أتمنَّى أن يروا إعلاني حين يأتون مرَّة أخرى».

حدَّقت إليه. احتاجت إلى بضع دقائق كي تستوعب ما يقول، وحين استوعبت وفهمت أن ليس لديه أي فكرة عن شعورها بالذنب، فوجئت بشعور غريب أقرب لخيبة الأمل.

قالت: «إليكترا».

- ماذا؟

- موضوع الحب بين الابنة والأب. عقدة إليكترا. ماذا بداخل هذا المظروف؟

رمش. الآن هو مَن يحتاج إلى وقت ليستوعب. بالكاد يعرف أو يتذكَّر أحد أن مال التحقت بالدراسة الجامعية على حساب الحكومة. تعلَّمت هناك العربية وعلم النفس، رغم ذلك انتهى بها المطاف في حانة «ميلكي واي» تحمل شهادة لا نفع لها. كانت خطتها هي جمع سيرة عمل ذاتية مشرِّفة قبل مغادرتها العراق، لكن الأمور سارت بعكس ما خططت له.

أفاق جلين أخيرًا وأجاب: «في الظرف أموال. خمسمائة دولار. أريدك أن تحفظيه لي».

- فسِّر.

- كنت أفكر فيما سأكتبه في إعلاني، وقررت أن أعرض مكافأة مالية لمَن يحضر لي الخاتم. لكن سارق الخاتم لن يأتي لي ويعترف على نفسه. حتَّى لو وعدت بعدم الإبلاغ عنه، لن يصدِّقوني. لذا خطر لي أن ما أحتاج إليه هو وسيط. هذا دورك. سأكتب في الإعلان أن مَن يجلب الخاتم لمالوري جرينان سيحصل على مكافأة مالية بلا أسئلة. سأكتب

أن في وسعهم الوثوق بك وبأنك لن تبلغي الشرطة. الناس تعرفك، وأظن أغلبهم سيصدِّقون هذا.

ثمَّ دفع المظروف نحوها، فقالت: «انسَ الأمر يا جلين. لن يعيد أحد هذا الخاتم».

- لنُجرب. ربما كانوا ثملين مثلي عندما سرقوه. ربما ندموا.

ضحكت، فابتسم واحمرَّت أذناه مضيفًا: «هذا احتمال وارد».

حدَّقت إليه للحظات، ثمَّ وضعت الظرف تحت الكاونتر وقالت: «حسنًا. لنكتب إعلانك. يمكنني طباعته على جهاز الفاكس، ثمَّ نلصقه حول الحانة، وبعد أسبوع، عندما ندرك أن أحدًا لن يعيد الخاتم، سأعيد إليك مالك وكوب بيرة على حساب المكان».

قال جلين: «لنجعله كوب جعة زنجبيل».

***

على جلين أن ينصرف. وعدته مال بتعليق بضعة إعلانات في ساحة الانتظار.

كانت قد انتهت من تثبيتها على أعمدة الإنارة عندما لمحت ورقة مطوية تحت مسَّاحة سيارة أبيها.

البصمة على هذه الورقة رقيقة طولية، بيضاوية تمامًا، أنثوية بشكل ما، بينما البصمتان السابقتان أكثر ميلًا للشكل المستطيل. ثلاث بصمات لثلاثة أشخاص مختلفين.

كوَّرت الورقة ثمَّ ألقتها إلى صفيحة قمامة قرب عمود أسلاك الهاتف، فاصطدمت بالحافة وارتدت عنها إلى الأرض.

***

وصلت الفرقة الثانية والثمانون المحمولة جوًّا إلى أبو غريب، لتمنح الحماية وتحاول منع اللعناء الذين يقذفون السجن بالهاون كل ليلة. في بداية الخريف بدؤوا في شن الغارات على المدينة حول السجن. في أول أسبوع من العمليات أرسلوا العديد من الدوريات، لكن الإغارات ازدادت حتَّى

صاروا بحاجة إلى عون، لذا أرسل الچنرال كاربينيسكي فرق شرطة عسكرية لمصاحبتهم. تولَّى الرقيب بلاف القيادة، واختار مال وآنشو لمرافقته.

سعدت مال؛ لطالما رغبت في الخروج من السجن وممرَّات مبنيَيْ A 1 وB 1 الكئيبة المظلمة، برائحة الأحجار الرطبة والبول والعرق التي تفوح منها. أرادت الابتعاد عن مدن المخيمات التي يسكن فيها أغلب من لهم علاقة بالمساجين، وعن الجموع التي تدفع السور الشائك وترجوها وهي تسير في الفناء، والذباب يتراكم فوق وجوههم. رغبت في أن تركب سيارة هامَر بجانبين مفتوحين، وهواء الليل يندفع نحوها. الوجهة: أي مكان لعين آخر على وجه الكوكب.

في الساعة التي سبقت الفجر، هاجمت فصيلتهم بيتًا خاصًّا محاطًا بالنخيل وسور حديدي. اقتحم الفريق دلتا في السيارة الهامَر البوابة، التي هوَت بصوت معدني هائل.

هذا هو كل ما رأته مال من المداهمة. كانت خلف مقود شاحنة تزن طنين ونصف مخصَّصة لحمل المساجين. لا سيارة هامَر لها، ولا مغامرة. قاد آنشو شاحنة أخرى. أنصتت متوقِّعة صوت طلقات نارية، لكن لم تسمع أيها؛ لقد استسلم مَن في البيت دون مقاومة.

بعدما أُمِّنَ البيت، تركهم الرقيب بلاف وقال إنه يرغب في تقييم حجم الموقف. في الواقع كل ما أراده هو التقاط صور لنفسه وهو يمضغ طرف السيجار ويحمل بندقيته، بينما يضع حذاءه فوق عنق أحد المسلَّحين. سمعت من خلال جهاز اللاسلكي أنهم اعتقلوا واحدًا من فدائيي صدَّام، نقيب من حزب البعث، ووجدوا أسلحة أيضًا وملفات ومعلومات مهمَّة. سمعت المزيد من الهراء عبر الموجات. جميع مَن في الفرقة الثانية والثمانين يشبهون المغنِّي إيمينيم.. زرق الأعين، ذوي شعر أشقر قصير، ويتحدَّثون مثل أبناء دُوك(1).

بعد الشروق مباشرة، والظلال تميل طويلة مبتعدة عن المباني عند غرب الطريق، أخرجوا الفدائيين وتركوهم مع بلاف على الرصيف الضيق. زوجة المسلَّح المتمرد ما زالت بالداخل مع الجنود الذين يراقبونها وهي تحزم حقيبة.

---

(1) المقصود شخصيات المسلسل الكوميدي The Dukes of Hazzard. (المترجمة)

الفدائيون عرب ضخام، بأجفان مُبطَّنة ولحى خشنة، لا يردِّدون شيئًا إلا عبارة «سحقًا لك» الأمريكية. وجد الفريق دلتا في القبو صناديق بنادق AK-47 ومنضدة مغطَّاة بالخرائط التي تحمل رموزًا وأرقامًا وكلمات بالعربية. اكتشفوا أيضًا ملف صور لجنود القوات الأمريكية ينشؤون نقاط تفتيش، ويثبتون الأسوار الشائكة ليغلقوا بعض الطرق. ثمَّة صورة في الملف لچورچ بوش يبتسم في شرود إلى جوار الممثل ستيڤن سيجال.

خشي بلاف أن الصور تكشف أماكن وأشخاص ينوي المتمرِّد الهجوم عليها. كان قد ظهر في محطَّة إذاعة مرَّتين من قبل، وتحدَّث بصوت متحمِّس. تضايق بشأن صورة ستيڤن سيجال. أجبِر كل من وحدة بلاف على مشاهدة فيلم «فوق القانون» مرَّة واحدة على الأقل، وادعى بلاف أنه شاهده أكثر من مائة مرَّة.

بعدما أخرجوا المُعتقَل، وقف بلاف أمام الفدائي يصرخ فيه ويضربه أحيانًا بصورة سيجال الملفوفة حول نفسها. ردَّد الفدائي المزيد من: «سحقًا لك».

مالت مال نحو باب السائق لوهلة، تتساءل عن الوقت الذي سيكف فيه بلاف عن الصراخ وضرب المُعتقل بالصورة. كانت تعاني أعراضًا ما بعد تعاطي الڤيڤارين من صداع. استنتجت أنه لن يكُفَّ عن العويل إلا بعد صعود المساجين إلى السيارات، وهو ما لن يحدث قبل ساعة أخرى.

ابتعدت عن صراخ بلاف، وسارت فوق البوابة المكسورة نحو المنزل. سمحت لنفسها بالدخول إلى المطبخ البارد. الأرضية حمراء، السقف مرتفع، ضوء الشمس يغمر المكان عبر النوافذ المتعدِّدة الضخمة. ثمَّة موز في وعاء زجاجي. من أين يحصلون على الموز الطازج؟ أخذت واحدة أكلتها في دورة المياه التي كانت أنظف واحدة رأيتها في خلال عام.

خرجت من البيت إلى الطريق مرَّة أخرى. في الطريق إلى هناك وضعت أصابعها في فمها ثمَّ شمَّتها فأدركت أنها لم تغسل أسنانها منذ أيام، وأن لأنفاسها رائحة بشرية خبيثة.

عندما وصلت إلى الشارع كان بلاف قد كَفَّ عن ضرب المعتقل بالصورة ليلتقط أنفاسه. نظر إليه المعتقل بعينين ثقيلتين، ثمَّ نخر وقال: «هذا كلام. هذا ممل. أنت لا أحد. أقول لك سحقًا وأنت لا أحد».

حاول البعثي مهاجمتها، مطلقًا صوتًا غاضبًا كالزئير من صدره، لكن بلاف منعه من الحركة واضعًا ماسورة بندقيته في صدره، ثمَّ دفعه في وجهه بقوة. صوت انغلاق فكَّي البعثي مدوِّيًا أكثر من طلقة رصاص.

رقد على جانبه متكوِّرًا في وضع جنيني، وظلت مال جالسة القرفصاء جواره. قالت له: «فكك مكسور. أخبِرني عن صور الجنود الأمريكيين وسأعطيك مُسكِّنًا».

لم تعطه مسكِّنات قبل ساعة ونصف، وبعدما أخبرها بمكان التقاط الصور واسم المصوِّر.

كانت مال مرتكنة إلى ظهر شاحنتها تبحث في صندوق الإسعافات الأولية.

نظر آنشو عبر الشارع إلى جنديين من الفرقة الثانية والثمانين يقفان بجوار السيارة الهامَر.

نظرت إلى ڤوجان وهينريشون اللذين يحملان سلاحيهما ويحاولان كبت ضحكاتهما، ثمَّ أشارت إليهما بإصبعها الوسطى.

بعد أسبوعين، كانت مال وآنشو في شاحنة أخرى مع البعثيين العرب أنفسهم، ينقلونهم من أبو غريب إلى سجن أصغر في بغداد. المعتقل إياه رأسه داخل أداة حديدية تثبِّت فكَّه في مكانه، لكنه لا يزال قادرًا على فتح فمه بالقدر الكافي ليبصق في وجه مال.

مسحت مال البصقة، فتقدَّم آنشو يجذب الفدائي من مجمع ياقته ويدفعه من الشاحنة إلى الطريق الترابي. كانت العربة تتحرَّك بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة وسط قافلة تحمل مُراسلِين من قناة MSNBC.

نجا السجين رغم أن أغلب وجهه قد سُلخ، وكُسِر فكه مرَّة أخرى وتحطَّمت يداه. ادعى آنشو أنه قفز محاولًا الهرب، لكن لم يصدِّقه أحد، وأرسِل آنشو إلى بلده بعد ثلاثة أسابيع.

الشيء الطريف أن السجين قد هرب بالفعل بعد أسبوع، في خلال رحلة نقل أخرى. كان مُصفَّدًا، لكن بإبهامين مكسورين استطاع إخراج كفَّيه من قيده. عندما نزل جنود الشرطة العسكرية عند نقطة التفتيش ليتبادلوا حديثًا فاضحًا مع أصدقائهم، نزل السجين من آخر الشاحنة وسار ببساطة عبر الصحراء ولم يره أحد بعدها.

***

تصعد الفرقة على المسرح مساء الجمعة، ولا تنزل عنه إلا صباح السبت. بعد الواحدة صباحًا بعشرين دقيقة تغلق مال الباب خلف آخر الزبائن. بدأت في مساعدة كانديس في تنظيف الطاولات، لكنها كانت تعمل منذ فترة ما قبل الغداء وقيل إن بِل رودير قد عاد إلى بيته بالفعل، لكن لا تظنه أنه قد فعل.

ارتدت مال سترتها واستعدت للرحيل، لكن چون بيتي وكز كتفها بشيء، وقال لها: «هذا ملكك؟ اسمك عليه».

استدارت حيث وقف خلف ماكينة الدفع، يحمل مظروفًا سميكًا، فأخذته.

- هل هذا هو المال الذي أعطاه لك جلين مقابل استعادة خاتمه؟

نقل بيتي انتباهه إلى ماكينة الدفع، وأخرج رزمة نقود ملفوفة بحلقة مطاطية، ووضعها على المنضدة.

- هذا شيء رائع. تأخذي ماله، ثمَّ تنصبي عليه مرَّة أخرى.

بينما يتكلَّم، دسَّ يده مرَّة أخرى داخل ماكينة الدفع. مدت مال يدها من تحت كوعه وأغلقت الدُّرج على يده بعنف. صرخ. انفتح الدُّرج مرَّة أخرى مرتدًّا، وقبل أن يُخرِج يده، أغلقته مال عليها مجدَّدًا. رفع قدمه عن الأرض وتراقص بشكل هزلي وهو يصيح: «سحقًا، سحقًا لك أيتها العاهرة القبيحة!».

هتف بِل روديـر متجهًا نحو الطاولة حاملًا سلة قمامة: «مهلًا! مهلًا!».

تركته بيتي يُخرج يده من الدُّرج، فترنَّح مبتعدًا عنها في خرق، ضاربًا طرف الكاونتر بحوضه. استدار نحوها وهو يضمُّ يده إلى صدره ويصيح: «أيتها العاهرة المجنونة! أظنك كسرتِ أصابعي!».

هتف بِل وهو ينظر إلى يد بيتي: «إلهي، ما بكِ يا مال؟».

أصابع بيتي منتفخة، مزرقَّة. نظر بِل نحوها بعينين متسائلتين وأضاف: «لا أعرف ما قاله چون، لكن لا يمكنك فعل ذلك بالناس».

قالت له: «ستُفاجأ بما يمكنك فعله بالناس».

***

السماء تمطر بالخارج والجو بارد. كانت قد قطعت أغلب المسافة إلى سيارتها قبل أن تدرك أنها تحمل المظروف السميك الذي يحوي المال.

دسَّته مال بين ركبتيها طيلة طريق قيادتها إلى بيتها. لم تشغِّل المذياع، وفضَّلت سماع المطر يطرق على نوافذ السيارة. لقد قضت عامين في الصحراء ولم تشهد المطر إلا مرَّتين في خلال هذه الفترة رغم الرطوبة والضباب الصباحي الذي تشبه رائحته رائحة البيض.

حين تطوعت في الجيش، تمنَّت الحرب. لم ترَ سببًا للتطوُّع إلا لخوض المعارك. لم تضايقها المخاطرة بحياتها. الأمر محفِّز. تتلقَّى مائتي دولار عن كل شهر تقضيه في مناطق الاشتباكات، وجزء من نفسها يستمتع بكون حياتها رخيصة إلى هذا الحدِّ. لا تتوقَّع مال أكثر من هذا.

لكن لم يخطر ببالها حين علمت أنها ستذهب إلى العراق أنهم سيدفعون لها هذا المال مقابل ما هو أكثر من المخاطرة بحياتها. المسألة ليست مسألة ما قد يحدث لك، بل مسألة ما قد يأمرونك بفعله في الآخرين. مقابل الدولارات المائتين، تركت رجالًا موثقين عرايا في أوضاع ضاغطة للأعصاب لساعات، وأخبرت فتاة في التاسعة عشرة أنها ستُغتصب جماعيًّا إن لم تخبرهم بمعلومات عن حبيبها.

مائتا دولار في الشهر هي تكلفة تحويلها إلى آلة تعذيب. شعرت الآن أنها كانت مختلة هناك، وأن الڤيڤارين والإيفيدرا وقلة النوم وصراخ المعتقلين المستمر حوَّلوها إلى شخص معتلٍّ عقليًّا، نسخة كابوسية عنها. ثمَّ شعرت مال بثقل الظرف، ما دفعه جلين كاردون، وتذكَّرت سرقتها خاتمه، وأدركت أنها تتظاهر بأنها كانت شخصًا آخر في العراق. ما كانت عليه هناك وما هي عليه الآن واحدًا. لقد أعادت ذاك الشخص معها إلى وطنها، ولا تزال تعيش بداخله.

دخلت مال بيتها مبلَّلة ترتجف بردًا، تحمل المظروف. وجدت نفسها تقف أمام منضدة المطبخ تحمل أموال جلين. يمكنها أن تبيع له خاتمه لو أرادت، وستحصل على أكثر ممَّا قد تحصل عليه لو باعته. لقد فعلت ما هو أسوأ لأجل مال أقل. دسَّت يدها داخل بالوعة حوض المطبخ، وتحسَّست جوانب الماسورة الناعمة حتَّى عثرت على الخاتم. أدخلت مال إصبعها فيه، ثمَّ سحبت يدها. أدارت ذراعها وهي تتفحَّص شكل الخاتم حول إصبعها النحيلة المعقوفة. لا تعرف ماذا ستفعل بالدولارات الخمسمائة لو أعادت له الخاتم. هي لا تحتاج إلى المال ولا تحتاج إلى الخاتم أيضًا. لا تعرف تحديدًا ما تريد أو تحتاج، لكن هناك فكرة ضبابية عنه، كأنه كلمة على طرف لسانها ستُجَنُّ كي تنطق بها.

دخلت دورة المياه وفتحت الماء ليملأ البخار المكان بينما تخلع ملابسها. تلاحظ أن المظروف ما زال في يدها وخاتم جلين حول إصبعها. رمت المال جوار باب الحمام وتركت الخاتم مكانه.

ظلت تختلس النظرات إلى الخاتم بينما تستحم. تخيَّلت أنها متزوِّجة من جلين كاردون، وأنه ممدَّد في فراش أبيها بملابسه الداخلية ينتظرها حتَّى تخرج من الحمام. نخرت لخاطر غريب كهذا، كأنها تتخيَّل أن تصبح رائدة فضاء.

المغسلة والمجفِّف في الحمام معها. بحثت داخل المجفف حتَّى وجدت قميصها قصير الكُمَّين الذي يحمل اسم ورقم لاعب البيزبول كُرت تشيلينج، وبنطلون چينز. عادت إلى حجرة النوم المظلمة، تجفف شعرها بمنشفة، ونظرت إلى انعكاس صورتها في مرآة طاولة الزينة، إلا أنها لم تر وجهها؛ ثمَّة ورقة ملصقة إلى المرآة تغطِّي مكان وجهها في الانعكاس، مطبوع على الورقة بصمة إبهام. لمحت ممَّا يظهر من الفراش في المرآة رجلًا ممدَّدًا على الفراش، بالضبط كما تخيَّلت جلين كاردون وهو ينتظرها، إلا أن في تخيُّلها لم يكن جلين يرتدي زيًّا عسكريًّا مموَّهًا.

قفزت جانبًا، ثمَّ اندفعت إلى باب المطبخ، لكن آنشو كان يتحرَّك بالفعل، يرمي نفسه عليها، ويدفع حذاءه نحو ركبتها. التوت ركبتها على نحو غير مُطمئن، وشعرت برباطها الصليبي يتمزق. دار آنشو خلفها وقبض على شعرها ثمَّ دفع رأسها يضرب جانب طاولة الزينة.

اخترق ألم مفاجئ حارق جمجمتها، كأنه مسمار يشقُّ مخها. هوت، فركل رأسها. لم تؤلمها الركلة كثيرًا، لكنها انتزعت الحياة منها فأصبحت كجهاز انتزع قابسه من مصدر الكهرباء.

دحرجها لتتمدَّد على بطنها، ثمَّ لوى ذراعيها خلفها. لم يعد لديها طاقة للمقاومة. أخرج القيود البلاستيكية القوية التي كانوا يوثقون بها السجناء في العراق. جثم على ظهرها وقيَّد كاحليها إلى بعضهما بقوة حتَّى آلمتها. ومضات سوداء تتلاحق خلف عينيها، لكن التلاحق صار أبطأ إذ تعود تدريجيًّا إلى وعيها وتتنفَّس ببطء، وتتحيَّن اللحظة.

عندما انجلى نظرها، رأت آنشو يجلس على طرف فراش أبيها. كان قد فقد وزنًا ليس لديه من الأساس. جحظت عيناه، وغار الجلد أسفلهما. بدتا

كبئرين عميقتين ينعكس ضوء القمر على مائهما. على حِجره حقيبة معدَّات طبيب من طراز قديم، حال لونها واهترأ جلدها الأسود.

قال دون مقدِّمات: «لاحظتك وأنت تجرين في الصباح».

استخدم كلمة «لاحظت» وكأنه كان يراقب تحرُّكات العدو. أضاف: «إلى مَن كنت ترسلين إشارة عندما وقفت أعلى التل؟».

قالت مال: «آنشو.. عمَ تتحدَّث يا آنشو؟ ما هذا؟».

- ما زلت في كامل لياقتك. ما زلت جندية. حاولت اللحاق بك لكنك كنت أسرع منِّي. عندما وصلت إلى القمَّة رأيتك ترسلين إشارات ضوئية. إشارتين طويلتين، واحدة قصيرة، اثنتين طويلتين. أنت أرسلت إشارة إلى أحد، مَن يكون؟

في البداية لم تفهم مقصده، ثمَّ فهمت. زمزميتها. زمزميتها عكست نور الشمس بينما تشرب. فتحت فمها لتجيب، لكن قبل أن تفعل، ركع على ركبة واحدة جوارها وفتح حقيبته، ثمَّ سكب ما فيها على الأرض مع مجموعة أدوات تتألَّف من مقَصٍّ قوي، مطرقة، مسدس صاعق، منشار، ملزمة. مع هذه الأدوات خمس أو ست أصابع إبهام بشرية. بعضها سميك، وبعضها رقيق، بعضها أبيض وأنثوي، وبعضها متعفِّن حتَّى استحال معرفة جنس أو شخصية صاحبه. كل إبهام ينتهي بعظمة ووتر.

للحقيبة رائحة سكرية مُمرِضة، عبق زهري نتن.

اختار آنشو المقصَّ القوي، وقال: «صعدتِ التل وأرسلت إشارة إلى أحدهم. واليوم عدتِ برزمة نقود. لقد فتَّشت المظروف بينما أنت في الحمَّام. أنت إذَنْ أرسلت إشارة للقاء، وفي هذا اللقاء تلقَّيتِ أجرك. مَن قابلت؟ أحد عملاء المخابرات الأمريكية؟».

- ذهبت إلى العمل في الحانة. أنت تعرف أين أعمل. لقد تبعتني إلى هناك.

- خمسمائة دولار. المفترض أن هذا بقشيش؟

لم يكن لديها رد وعجزت عن التفكير وهي تحدِّق إلى الأصابع المختلطة بالأدوات. تبِع نظرها، ثمَّ التقط أحد الأصابع بين شفرتي المقص. كل ما يميزه ندبة على شكل خطاف صيد أسماك. قال آنشو: «بلاف. أرسل مروحيتين

تحوِّمان فوق بيتي مرَّتين يوميًّا. يستخدم أنواعًا مختلفة من المروحيات لكل يوم ليحاول تشتيتي عن استخلاص المعلومات واستنتاج الحقائق. لكنني كنت أعرف نيتهم. بدأت مراقبتهم بمنظاري المقرِّب من نافذة المطبخ، وفي يوم لمحت بلاف خلف لوحة تحكُّم مروحية. لم أكن أعرف حتَّى إنه يستطيع قيادة مروحية حتَّى وقتها. كان يرتدي خوذة سوداء ونظارة شمسية، لكني ميَّزته».

تذكَّرت مال الرقيب بلاف بينما آنشو يحكي. تذكَّرت عندما حاول فتح سدادة زجاجة خمر بطرف حربة بندقيته، فأفلتت الحربة وطعنت إصبعه. دسَّ إبهامه في فمه وظل يسبُّ ويلعن. قالت مال: «كلا يا آنشو. لم يكن هو. لا بُدَّ أنه شخص يشبهه. لو أنه يستطيع قيادة مروحية فلماذا لم يقد مروحية أباتشي في العراق؟».

- اعترف بلاف بذلك. في البداية كذب، لكن مع الوقت اعترف بكل شيء، وبأنه هو من كان في المروحية وأنه كان يراقبني منذ عدت إلى الوطن.

حرَّك آنشو المقصَّ نحو إصبع آخر بُنِّي، جافٍّ، له مظهر الفطر المجفَّف، وأردف: «هذا إصبع زوجته. اعترفت مثله بأنهم كانوا يدسُّون المخدِّر في مائي كي يجعلوني غبيًّا وبطيء الفهم. أحيانًا كنت أقود السيارة إلى منزلي وأنسى شكله. ظللت أدور ثلث ساعة حول منطقة سكني حتَّى أدركت أنني مررت ببيتي مرَّتين ولم أتعرَّفه».

صمت هُنيهة، ونقل طرف المقص إلى إصبع آخر أفضل حالًا. إصبع امرأة ظفره مطلي بالأحمر.

- تبعتني إلى المتجر في «بوفكيبسي». كان هذا في طريقي إلى الشمال لمقابلتك. تبعتني المرأة في المتجر من ممر إلى ممر، تهمس في هاتفها المحمول وتتظاهر أنها لا تنظر نحوي. لاحقًا ذهبت إلى مطعم صيني ورأيتها توقف سيارتها عبر الشارع وتتحدَّث بعد في هاتفها المحمول. كانت من أصعب من استخلصت منهم المعلومات. كدت أوقن أنني مخطئ بشأنها. أخبرتني أنها مُدرِّسة صف أول. قالت لي إنها لا تعرف اسمي حتَّى وإنها لا تتبعني. كدت أصدِّقها. كان معها صورة في محفظتها تجلس على العشب وحولها مجموعة أطفال. لا بُدَّ أنها خدعة.

استخدموا برنامج الفوتوشوب ليلصقوا صورتها وسطهم. أجبرتها على الاعتراف بها قرب النهاية.

- أخبرك بلاف أنه يستطيع قيادة المروحيات كي تكُفَّ عن إيذائه. اعترفت المُدرسة أن الصورة مزيَّفة لأنها كان تتألَّم. سيعترف الناس بأي شيء لو آذيتهم كفاية. أنت منفصل عن الواقع يا آنشو. أنت لم تعد تميِّز الحقيقة من الوهم.

- توقَّعت أن تقولي هذا. أنت جزء ممَّا أنا فيه. جزء من خطة دفعي إلى الجنون والانتحار. ظننت أن البصمات ستتسبَّب لك في ذعر فتتواصلين مع رؤسائك، وقد فعلتِ. أنت ذهبت إلى التل لترسلي إليهم إشارة فيعرفوا أنني قريب. لكن أين مَن يدعمونك الآن؟

- ليس لديَّ مَن يدعمني. ليس لديَّ رؤساء.

- لقد كُنَّا صديقين يا مال. أنت أخرجتني من أسوأ مراحل حياتي هناك، عندما كدت أُجَنُّ. أكره أن أفعل هذا بك، لكنني أحتاج إلى معرفة إجابة سؤالي: إلى مَن أرسلتِ الإشارة؟ وماذا ستقولين لهم؟

- لا أحد.

حاولت الزحف على بطنها ببطء مبتعدة عنه. قبض على شعرها ولفَّه حول كفِّه ليمنعها من الحركة. شعرت بفروة رأسها تتمزَّق. أسند ركبته إلى ظهرها فهدأت، وأدارت رأسها وخدُّها منسحق على البساط.

- لم أكن أعرف أنك كنت متزوِّجة. لم ألحظ خاتم الزواج قبل ليلة أمس. هل سيعود إلى البيت؟ هل هو متورِّط في هذا؟ أخبريني!

وضرب على الخاتم حول إصبعها بطرف المقصِّ.

خدُّ مال منبسط على الأرض، ورأسها مائل كأنها تنظر إلى ما أسفل الفراش، إلى حافظة السلاح غير المغلقة التي تحفظ فيها ببندقيتها وحربتها.

ضرب آنشو مؤخِّرة رأسها بمقبض المقصِّ. اختفى العالم عن نظرها فجأة، ثمَّ غام، ثمَّ عاد إليها حتَّى رأت حافظة السلاح أسفل الفراش مرَّة أخرى، والتي تبعد عنها مسافة أقل من قدم.

- أخبريني يا مال بالحقيقة الآن.

في العراق، استطاع الفدائيون الهرب من الأصفاد بعد أن كُسرت أباهيمهم. لا تستطيع القيود الصمود أمام من تتحرَّك أباهيمهم في أي اتجاه.. أو أمام مَن ليس لديه إبهام من الأساس.

شعرت مال بالهدوء يتسلَّل إليها، وهدأ توتُّرها. لن يبدأ بالمقصِّ بالطبعِ، لكنه سيتدرج وصولًا إليه. لا بُدَّ أنه سيضربها أولًا على الأقل. أخذت شهيقًا عميقًا وتخيَّلت أنها عادت للجري في هاتشيت هيل، تصعد بكل قوتها نحو قمة التل المفتوحة على السماء الزرقاء الشاسعة.

قالت له: «لست متزوِّجة. سرقت هذا الخاتم من ثِمل. أنا أرتديه فقط لأنه يعجبني».

ضحك ضحكة مريرة مرَّة وقال: «هذه ليست حتَّى كذبة بارعة».

أخذت شهيقًا آخر، ملأ صدرها بالهواء الذي مدَّد رئتها إلى أقصى اتساعها. كان على وشك إيذائها وإجبارها على الكلام ومنحه المعلومات التي يريد سماعها. وكانت هي مستعدَّة، لا تخشى أن يدفعها إلى حافة احتمالها. لديها قدرة تحمُّل عالية وحريتها على بعد قدم منها، لو أنها فقط مدَّت ذراعها.

- أنت مُحِقٌّ..

وبهذه العبارة بدأت العريف مالوري جرينان اعترافاتها.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

شيطان السُّلَّم

وُلد

في سولي

سكالي، ابنٌ لبنَّاء محلي

قرية

ميلادي تقبع

في أحضان أعلى

التلال وأكثرها حِدَّة

في بوسيتانو، وفي الشتاء

البارد تتجمَّع السحب فوق

الشوارع كأنها أشباح تحتل السماء

تبعد سولي سكالي ثمانمائة وعشرين درجة

عن باقي العالم بالأسفل. أعرف هذا، فقد قطعتها

مرارًا وتكرارًا مع أبي، أتبع خطواته، من بيتنا في السماء ثمَّ

عودةً إليه مرَّة أخرى. بعد موته، قطعت ذات الطريق عادة وحدي.

صعودًا   كل

و   مع   خطوة

هبوطًا   أشعر   أن

أحمل   حتى   عظام

البضاعة   رُكبتيَّ

تنسحقان

متحولتان إلى شظايا

المنحدرات

محفوفة بسلالم

ملتوية، مصنوعة من

الطوب في بعض المواضع

ومن الجرانيت في مواضع أخرى.

بعض الرخام هنا، والحجر الجيري هناك.

معبَّدة ببلاطات من الفخار أو عوارض خشبية.

بنى أبي السلالم على هذا النحو. عندما تُذوى الدرجات

بمطر الربيع، يقع عليه عبء إصلاحها. لسنوات ظل حماره

يساعده في حمل الأحجار. بعدما سقط الحمار ميتًا، استبدلني به.

كرهته

بالطبع. كان

عنده قِططه وكان

يغنِّي لها، ويصبُّ لها

الحليب في أطباق، ويحكي

لها قصصًا غبية، ويوسِّدها على فخذيه.

عندما ركلت أحدها مرَّة، لا أتذكَّر لماذا
ركلني وأسقطني وأمرني بألا ألمس أطفاله.

لذا
أحمل
أحجاره
بينما المفترض
أن أحمل كتب الدراسة
لكنني لا أستطيع التظاهر
بأنني أكرهه لهذا السبب بالطبع.
لا غرض لي من المدرسة، وأكره
الاستذكار، وأكره القراءة، وأشعر بشدَّة
بحرارة الفصل الدراسي الوحيد الخانقة كأنني
بداخله. أجمل ما في الفصل ابنة عمي ليثودورا التي
تقرأ للأطفال، وتجلس على المقعد بظهر منتصب، وذقن
مرفوع عاليًا في شموخ، ورقبتها البيضاء مكشوفة مضيئة.

عادةً
ما أتخيَّل
رقبتها باردة
كبرودة مذبح رخامي.
كنت أحب إراحة رأسي في
كنيستنا على المذبح عندما يأتي دوري
تقرأ بصوتها الخفيض الثابت، الصوت نفسه الذي
تحلم أنه يناديك عندما تكون محمومًا، ويخبرك أنك ستكون
بخير. كنت لأحب الكتب لو كانت تقرأها لي جالسة جوار فراشي.

أعرف
كل درجة
من درجات السلم
بين سولي سكالي
وبوسيتانو. ثمَّة درجات
تهبط إلى الوديان وتخترق
ممرَّات محفورة في الحجر الجيري
جوار البساتين وأطلال مصانع الورق
المهجورة، وقرب الشلالات والبِرك الخضراء.
أسير على هذه الدرجات في نومي.. وفي أحلامي.

الطريق
الذي سرنا
فيه أنا وأبي
يؤدِّي عادة إلى
بوابة مطلية بالأحمر
تحجب الطريق إلى سُلَّمٍ
منحنٍ. كنت أظن أن هذه
السلالم تؤدِّي إلى منزل خاص
ولم أعبأ بالبوابة، حتَّى اليوم الذي
توقَّفت فيه في أثناء طريق هبوطي وأنا
أحمل حمولة من الرخام، ومِلت أستند إليها
لأرتاح قليلًا من حِملي، فانفتحت بمجرَّد لمسة منِّي.

أما
أبي فقد

كان خلفي بنحو
ثلاثين درجة تقريبًا.
عبرت من خلال البوابة
إلى أعلى السُّلَّم، إلى أي مكان
تؤدِّي هذه السلالم. لم أرَ المنزل
أو مزرعة الكروم بالأسفل، فقط الدرجات
تهبط مبتعدة عنِّي نحو أكثر المنحدرات وعورة.

«أبي»
ناديت عليه
إذ اقترب منِّي
يقرع حذاؤه الصخور
وتردَّد صدى صوتيهما
وأنفاسه تصفِّر خروجًا من صدره
سألته: «هل نزلت هذه السلالم من قبل؟».

عندما
رآني أقف
داخل البوابة
شحُب، وأمسك
بكتفَيَّ في لحظة.
دفعني نحو السلالم
الرئيسية وهو يصرخ:
«كيف فتحت البوابة الحمراء؟».

أجبته:
«كانت مفتوحة».
ثمَّ أردفتُ: «ألا تؤدِّي
إلى البحر في النهاية؟».
أجابني:

«لا».
فسألته:
«لكنها تبدو
كأنما تؤدِّي في
النهاية إلى الأسفل».

قال:
«بل تؤدِّي
إلى أبعد من ذلك».
ورسم على صدره الصليب،
ثمَّ أضاف: «البوابة دائمًا موصدة».
وحدق إليَّ بعينين متسعتين. لم أره ينظر
إليَّ بهذه الطريقة من قبل، ولم يخطر ببالي
أنني قد أراه يومًا مذعورًا منِّي إلى هذا الحدِّ الغريب.

ضحكتْ
ليثودورا عندما
أخبرتها، وقالت لي
إن أبي مُسِن ومُتطَيِّر.
أخبرتني أن هناك حكاية
تقول إن السلالم خلف البوابة
الملونة تقود مباشرة إلى الجحيم.

لقد جُبت الجبال أكثر ألف مرَّة مما
جابتها ليثودورا، وأرغب في أن أعرف
من أين لها بقصَّة كهذه لا أعرفها أنا نفسي.

قالت
إن كبار السنِّ
لا يتحدَّثون أبدًا
عنها، لكنهم دوَّنوا القصَّة
في تاريخ المنطقة، وهو شيء
كنت أعرفه لو التحقت بالمدرسة
أو قرأت أي كتب. قلت لها إنني لا أستطيع
التركيز في الكتب وهي في الحجرة نفسها معي
لكن عندما حاولت لمس عنقها، أجفلت وابتعدت عنِّي

فلمستْ
أصابعي
ثدييها، فغضبت
وأخبرتني أن عليَّ
أن أغسل يدَيَّ......

بعدها
توفِّي أبي.
كان ينزل الدرج
حاملًا بلاطات رصف
واندفعت قطَّة ضالَّة نحوه
وبدلًا من أن يخطو فوقها، وضع

قدمه على فراغ، وسقط من ارتفاع
خمسين قدمًا، لتُخوزِقه شجرة حادَّة القمَّة.
وجدت نفعًا أفضل لركبتَيَّ الحمولتين كركبتَيْ
حمار، وكتفَيَّ العريضتين، فالتحقت بوظيفة لدى
دون كارلوتًّا الذي يمتلك مزرعة كروم في سولي سكالي.

حملت
خموره
على امتداد
ثمانمائة درجة
إلى بوسيتانو حيث
تباع إلى أحد السارِسنة[1]
الأثرياء. قيل لي إنه أمير
غامض، رشيق، ماهر في
لغتي أكثر منِّي. رجل ماهر هو
يعرف كيف يقرأ الأشياء مثل: النوتات
الموسيقية، النجوم، الخرائط، آلة السُّدُس.

في
مرَّة
تعثَّرت
في درجة
حجرية وأنا في
أجمل خمر الدون

(1) مصطلح كان المسيحيون الأوروبيون يستخدمونه في العصور الوسطى للإشارة إلى المسلمين العرب، وأحيانًا إلى المسلمين من أصل تركي أو فارسي. (المترجمة)

وتمزَّق رباط حمولتي
فسقط الصندوق الذي أحمله
واصطدم بالمنحدر، وانكسرت منه
زجاجة. ذهبت بها إلى السارساني عند
رصيف الميناء، فقال إما أنني شربتها وإما
كان من المفترض أن أشربها، لأن ثمنها أكثر
مما أكسبه في خلال شهر. قال لي أن أعتبر أن أجري
قد دُفِع وزيادة. ضحك فلمعت أسنانه البيضاء في وجهه الأسمر.

كنت
واعيًا
حين ضحك
ساخرًا مني، لكن سرعان
ما ثملت بالخمر. لا بخمر الدون
الأحمر الناعم الجبلي، بل بأرخص
خمر كيانتي في ربوع تاڤيرنا. شربته
وسط مجموعة من الأصدقاء العاطلين.

عثرت
على ليثودورا
بعد حلول الظلام
ووقفت جواري، شعرها
الأسود يؤطِّر وجهها الأبيض
الجميل الحبيب. قالت لي إن معها
الفضة التي أدين بها. قالت لصديقها أحمد
إنه أهان رجلًا شريفًا، وأن عائلتي تعمل بكدٍّ

وشرفٍ ولم نكن من الكذَّابين قط، وأنه محظوظ أنني..

قاطعتها:
«هل تدعينه
صديقي؟ قرد الصحراء
هذا الذي لا يعرف شيئًا عن المسيح؟».

النظرة
التي رمقتني
بها بعد ذلك جعلتني
أشعر بالخجل من نفسي.
الطريقة التي وضعت بها النقود
أمامي أخجلتني أكثر. قالت لي قبل
أن ترحل: «هذه ستفيدك أكثر ممَّا سأفيدك».

كدت
أقوم فأهرع
خلفها. كدت أفعل
ذلك. سألني أحد أصدقائي:
«هل سمعت أن السارساني
أعطى لابنة عمك سوار عبيد
فضيًّا؟ حلقة تتدلَّى منها أجراسٌ فضية
يرتدونها حول الكاحل؟ أظنهم في بلاد العرب
يمنحون هدية كهذه لكل عاهرة تنضم إلى الحريم».

قمت
من مقعدي

بسرعة حتَّى إنه
مال ساقطًا من خلفي.
قبضت على حنجرته بيدَيَّ
وقلت له: «أنت كذاب. ما كان أبوها
ليوافق على قبول هدية كهذه من أسود كافر».

لكنَّ
صديقًا آخر
قال إن التاجر
العربي لم يعد كافرًا.
ليثودورا علمت أحمد قراءة
اللاتينية مستخدمة الإنجيل وقواعده
النحوية، وهو يدعي الآن أنه دخل في نور
المسيح، وأنه أعطاها السوار بمعرفة والديها
كهدية شكر على تعريفه بأبينا الذي في السماوات.

بعدما
تمالك صديقي
الأول أنفاسه، أخبرني
أن ليثودورا تصعد السلم
كل ليلة لتقابله سرًّا في كوخ
راعٍ مهجور أو في كهف، أو وسط
أطلال مصنع الورق جوار الشلالات
إذ تنحدر كفضة مُسالة تحت ضوء القمر. في أماكن
كهذه تصير تلميذته، ويصير هو معلِّمها الآمر المُتطلِّب.

دائمًا

ما يسبقها

وتصعد هي خلفه

في الظلام ترتدي السوار.

عندما يسمع صليل أجراسه

يضيء الشمعة لينير لها الطريق

إلى حيث ينتظرها ليبدآ الدرس.

كنت

ثملًا

للغاية..

انطلقتُ

إلى بيت

ليثودورا، بلا

فكرة عمَّا سأفعله

حين أصل. قصدت خلف

الكوخ حيث تعيش مع والديها

وفكَّرت في أن أقذف بضع حصوات

لأوقظها وأجبرها على النظر عبر نافذتها.

لكن بينما أتسلَّل إلى ما وراء الكوخ سمعت صليلًا.

كانت

بالفعل على

الدَّرج، تصعد

نحو النجوم، وفستانها

الأبيض يحدد جسدها، والسوار

اللامع يحيط بكاحلها يبرق في الظلام.

دقَّ
قلبي
كبرميل
يتدحرج
على الدَّرج
دوم.. دوم.. دوم.
أعرف التلال أكثر
من أي شخص آخر.
فاتخذت طريقًا آخر لأسبقها
طريقًا منفصلًا يتحدَّث مع الدَّرج
الذي تصعده لاحقًا، إذ تتجه إلى سولي
سكالي. معي العملة الفضية التي أعطاها
لها الأمير السارساني عندما ذهبت إليه وأهانتني
برجائها له أن يدفع لي أجرة عملي التي أستحقها.

وضعت
فضته في
كوب صفيحي معي
وأبطأت سرعتي، فمشيت
أهُز مال يهوذا في كوبي الصدئ.
يا له من صوت جميل يتردَّد صداه بين الوديان،
على السلالم، في الليل، عاليًا فوق بوسيتانو والأمواج
المتلاطمة إذ يعلو المَدَّ فيتمِّم رغبتها في قصف الأرض لتخضع.

توقَّفت

أخيرًا لألتقط

أنفاسي، فلمحت

لهب شمعة يبزغ في

العتمة، وسط الأطلال

في مكان جدرانه شاهقة

مبنية بالجرانيت، مغطاة بالأزهار

البرية واللبلاب البري. المدخل الواسع

يفضي إلى حجرة ينبت العشب من أرضيتها

ويغطِّيها سقف من النجوم، والمكان قد بُني خصوصًا

لا للحماية من العالم الخارجي، بل لحماية ركنٍ بتولٍ من

حياة البرية من شرور الإنسان ورغبته اللانهائية في التخريب.

ثمَّ

بدا لي

مرَّة أخرى

مكانًا وثنيًّا، يصلح

لحفل مجون جماعي

يحضره الفاون بسيقانهم

ذات حوافر الماعز، ومزاميرهم،

وأعضائهم الذكرية المغطاة بالفراء.

لذا، بدا المدخل المؤدِّي إلى الباحة الخاصَّة

بوابة تنتظر وصول المحتفلين إلى تجمُّع عربدة.

انتظَر

فوق مفرشٍ

ومعه زجاجة

من خمر الدون

وبعض الكتب. ابتسم

لدى سماع صوت الصليل

إذ اقترب، لكنه أجفل حين رآني

أدخل إلى دائرة الضوء، أحمل قطعة

من حجر صلد خشن في يدي الأخرى.

قتلته

هناك

لم

أقتله

ثأرًا لشرف

العائلة أو غيرةً،

لم أضربه بالحجر

لأنه اغتصب حقِّي

في جسد ليثودورا البارد

الأبيض الذي ضنَّت عليَّ به.

ضربته

بالحجر لأنني

كرهت وجهه الأسود.

بعدما

توقَّفت عن

ضربه، جلست

معه. أعتقد أنني

جسست نبض معصمه،
لكن بعد أن تيقَّنت من موته
لم أتخلَّ عن يده وأنا أنصت إلى
صرير الجنادب بين العشب، كأنه طفل
صغير، طفلي، الذي غفا بعدما صارع النوم مطوَّلًا.

ما
أخرجني
من شرودي
صوت صليل
الأجراس الجميل
يقترب صاعدًا الدَّرج.

قمت
لأهرب
لكن دورا
وصلت، وولجت
من البوابة. كدت أصطدم
بها في أثناء عدوي. أمسكتْ بي
بيد من يديها الرقيقتين البيضاوين
وتفوَّهت باسمي، لكني لم أتوقَّف. نزلت
السلالم ثلاث درجات في المرَّة، أعدو بلا
تفكير، لكنني لم أكن بالسرعة الكافية، وسمعتها
تصرخ باسمه... مرَّة... تلو المرَّة... بلا انقطاع...

لا
أعرف
إلى أي مكان
أهرب. ربما سولي
سكالي. أعرف أنهم
سوف يبحثون عنِّي هناك
بمجرَّد أن تنزل ليثودورا الدَّرج
وتخبرهم ما فعلت بالرجل العربي.
لم أتوقَّف إلا عندما شعرت بأنفاسي تكاد
تتوقَّف، وصدري يشتعل نارًا، فاستندت إلى البوابة..

أنت
تعرف
أي بوابة..
فانفتحت
من أول لمسة.
عبرتها، وبدأت نزول
الدرجات المنحدرة وراءها.
ظننت أن أحدًا لن يبحث عنِّي هنا
حيث يمكنني الاختباء عن الباحثين أو..

ظننت
هذه الدرجات
ستقودني إلى الطريق
حيث أستطيع الذهاب إلى
نابولي، وشراء تذكرة للإبحار

إلى الولايات المتحدة، ومن ثَم
أتخذ اسمًا جديدًا، وأبدأ حياة جديدة..

كلا.
كفى.
الحقيقة:
كنت
مؤمنًا
أن الدرجات
تقود إلى الجحيم،
والجحيم هو مقصدي.

أول
درجات
مصنوعة من
حجر أبيض عتيق،
لكن كلما نزلت أكثر
تزيد دُكنة الدرجات ولزوجتها.
سلالم أخرى تندمج معها هنا وهناك،
تهبط من بقع مختلفة من أرجاء الجبل.
لا أعرف كيف يمكن أن هذا حقيقي وفي الإمكان.
لقد كنت أظنني مررت بكل السلالم عبر التلال، إلا تلك
التي أنزلها الآن، ولا أرغب في التفكير في منبع الدرجات الأخرى.

الغابة
من حولي

قد احترقت

في زمن ما

من الماضي القريب،

ونزلت الدرجات مارًّا بأشجار

الصنوبر المحترقة المشقَّقة. جانب

التلال أيضًا مغطًّى بالرماد الأسود.

إلا أنه لم تكن هناك أي نار في هذه الجهة

من التلال. لم يقع حريق هنا على قدر ما أتذكَّر.

الهواء ساخن، وبدأت أشعر بجسدي يسخن داخل ملابسي.

تبعت

الدرجات

إذ تدور حول

نفسها، وأبصرت بالأسفل

صبيًّا يجلس عند المُنبَسَط...

معه

مجموعة

بضائع يفرشها

فوق ملاءة. منها

مجسم طائر في قفص

مصنوع من الصفيح الصدئ،

وسلَّة تفَّاح أبيض، وقدَّاحة ذهبية منبعجة.

معه أيضًا وعاء، وفي الوعاء نور. النور في الوعاء

يزيد حتَّى يضيء المُنبَسَط كأنه شمس ساطعة، أو يِقل

إلى حد الإظلام التام، ينكمش حتَّى ليكون أشبه بحشرة منيرة.

ابتسَم
لرؤيتي.
شعره ذهبي،
وله أجمل ابتسامة رأيتها
على وجه طفل، لكني كنت خائفًا
منه حتَّى قبل أن ينادِني باسمي. تظاهرت
أنني لم أسمعه. تظاهرت أنه غير موجود، ومررت
من جواره مباشرة. ضحك لمرآي. أجد السير على هذا النحو.

كلما
توغَّلت
في الهبوط
ازدادت
وعورة الدَّرجات.
يبدو أن هناك ضوءًا
بالأسفل، كأن هناك خلف
الأشجار مدينة عظيمة في حجم
روما، تشع بالنور كأنها مفروشة بالجمر.
أستطيع أن أشم رائحة طعام يُطهى تحملها النسمات.

لو
أنه
طعام..
رائحة الشواء
هذه التي تثير الجوع.
ثمَّة

أصوات
تنبعث من
مكان ما أمامي:
رجل يتكلَّم في حدَّة،
ربما يكلم نفسه، حوار
طويل مغموم. شخص آخر
يضحك ضحكة خبيثة، غاضبة،
مجنونة، وصوت رجل ثالث يتساءل:

«هل
تزيد حلاوة
الخوخة إن دُسَّت
في فم عذراء لتُخرسها
بينما تُنتَهك عذريتها؟ ومن
سيطالب بالطفل الذي ينام في
المهد المصنوع من هيكل حمل نَتِن
أتضجع مع الأسد فقط لتُنتَزَع أحشاؤه؟».

عند
التفاف
الدَّرج التالي
ظهروا في مجال
الرؤية أخيرًا، يصطفُّون
على امتداد السلالم. ستة رجال
معلقين على صلبان من خشب صنوبر
مسود. عجزت عن التقدم، وعجزت عن العودة

بسبب القطط. أحد الرجال مصاب بجرح في جانبه، جرح أحمر مفتوح، ينز الدماء في بركة صغيرة على الدرج، والقطط تلعقها كأنها قشدة، وكان يتحدَّث معها بصوته المُتعَب، يطلب من القطط الصغيرة كلها أن تشرب حتَّى تمتلئ بطونها.

لم
أقترب
بالقدر الكافي
كي أتبين وجهه.

أخيرًا
استطعت
أن أعود أدراجي
على ساقين مرتجفتين.
الصبي ينتظرني بمجموعة غرائبه.

يسألني:
«لماذا لا
تجلس وتريح
قدميك المتقرحتين
يا كيرينوس كالڤينو؟».
جلست أمامه، ليس لأنني
رغبت في ذلك، بل لأن ساقَيَّ تداعتا.

لم يتحدَّث أينا في البداية. ظل يبتسم لي عبر غرائبه المرصوصة فوق الملاءة، وأظهرت أنا اهتمامًا بالحائط الحجري المحيط بالمُنبَسط. تزايد النور

في الوعاء حتَّى صار ظلَّانا كعملاقين مُشوَّهين على الحائط، قبل أن يتضاءل الضوء حتَّى يعيدنا إلى ظلامنا المشترك. عرض عليَّ قربة ماء، لكنني أعرف أن الأسلم ألا آخذ من الصبي شيئًا. أو هكذا أظن. بدأ الضوء في الوعاء يزيد مرَّة أخرى. بقعة بيضاء تنتفخ تدريجيًّا كبالون. حاولت أن أنظر إليها لكنني شعرت بوخزة ألم خلف عينَيَّ، وأشحت بنظري.

سألته:

- ما هذا؟ لقد وَخَزَ عينَيَّ.

- قبس من الشمس. يمكنك أن تفعل به الأعاجيب. يمكنك صنع مدفأة منه. مدفأة عملاقة تدفئ المدينة كلها، أو تصنع منه ضوءًا يضاهي ألف مصباح أديسون. انظر كيف يزداد توهُّجًا. يجب أن تحترس. لو كسرت الوعاء وتركت الشرارة تهرب، ستختفي المدينة في ومضة ضوء. يمكنك أن تأخذه لو أردت.

- كلا. لا أريده.

- بالطبع لا تريده. ليس ممَّا يجذبك. على أية حال، سيأتي آخر لاحقًا لأجله. لكن خذ شيئًا، أي شيء تريده.

سألته بصوت مختنق: «هل أنت لوسيفر؟».

- ما لوسيفر إلا ماعز حقير يحمل مِذراة، وله حافران، ويدفع الناس للمعاناة. أكره المعاناة. لا أريد سوى مساعدة الناس فقط. أنا أَهِب الهدايا، ولهذا أنا هنا. مَن مروا بهذه الدرجات قبل أوانهم حصلوا على هدية ترحيب. تبدو عطشًا. هل ترغب في تفَّاحة؟

ورفع سلَّة التفَّاح. وكنت عطشًا.. حلقي ملتهب إلى حد الجفاف كأنني استنشقت دخانًا للتَّوِّ، فمددت يدي بلا تفكير نحو الفاكهة التي يعرضها عليَّ، ثمَّ سحبتها فورًا لأنني أعرف الدروس المستفادة من كتاب واحد. ابتسم لي. سألته: «هل هذه...».

- هي من شجرة مباركة عتيقة. لن تذوق أبدًا أفضل منها. وعندما تأكلها ستملؤك الأفكار. أجل، حتَّى مَن هم مثلك يا كيرينوس كالڤينو ممَّن يقرؤون بالكاد.

- لا أريدها.

لكنني كنت أريد أن أمنعه من أن يناديني باسمي. قال: «الكل سيريدها. سيأكلون ويأكلون حتَّى يمتلؤوا بالفِطنة. سيكون تعلُّم لغة أجنبية سهلًا مثل.. أوه، مثل تعلُّم صناعة قنبلة. مجرَّد قضمة واحدة من التفَّاحة. ماذا عن القدَّاحة؟ يمكنك إضرام النار في أي شيء بها؛ سيجار، غليون، نيران مخيَّمات، أفكار، ثورات، كتب، أنهار، سماوات.. روح شخص آخر. حتَّى أرواح البشر تحترق عند درجة حرارة معينة. للقدَّاحة مزيَّة أخرى، أنها ممتلئة من وقود أعمق آبار نفط على ظهر الكوكب، وستضرب النار في أي شيء حتَّى يفرغ وقودها، وأنا واثق أنه لن يفرغ أبدًا.

- ليس لديك ما أرغب فيه.

- لديَّ شيء لكل شخص.

هممت بالرحيل رغم أن ليس لديَّ مكانٌ أذهب إليه. لا يمكنني نزول السلم مرَّة أخرى. الفكرة تثير الدوار، ولا يمكنني الصعود. لا بُدَّ أن ليثودورا قد عادت إلى القرية، وهم يفتِّشون السلالم بحثًا عنِّي وهم يحملون المشاعل. أنا متعجب أنني لا أسمع أصواتهم الآن.

أدار العصفور الصفيحي رأسه نحوي، فترنَّحت في وقفتي ورمشت، فانغلق جفناه المعدنيان، ثمَّ انفتحا. أجفلت من هذه الحركة المباغتة. كنت أظنه لعبة، تمثال. ظل يحدِّق إليه فحدَّقت إليه. لديَّ من صغري ولع بالآلات، والبشر الآليين الذين يهرعون إلى مخابئهم وقت الظهيرة، ومنشار الخشب، وتمثال الراقصة الذي يدور حول نفسه. تبِع الصبي نظراتي وابتسم، ثمَّ فتح القفص، فقفز العصفور إلى ظهر كفِّه. قال: «العصفور يغنِّي أعذب الألحان. لو وجد سيدًا، كتفًا يرتاح في الوقوف عليها، سيغنِّي لهذا الشخص طيلة أيام حياته. الحيلة في دفعه للغناء هي الكذب. كلما كبرت الكذبة، كان أفضل. أطعمه كذبة، وسيغنِّي لك أروع ما ستسمع. الناس يحبون غناءه. يحبون غناءه حتَّى إنهم لا يكترثون للكذب عليهم. هو لك لو أردته.

- لا أريد شيئًا منك.

إذ قلتها، بدأ العصفور يغني أعذب وأجمل الألحان، يفوق جمالها صوت ضحكة فتاة جميلة، أو صوت أم تنادي ابنها لتناول العشاء. بدت الأغنية أشبه بألحان صندوق الموسيقى، وتصوَّرت أن بداخله أسطوانة ذات بروزات تدور

مُحتكَّة بأسنان مشط معدني. اقشعر بدني لسماع اللحن، خاصَّة وأنني لم أتخيَّل قط سماع شيء كهذا في هذا المكان وفوق هذه الدرجات.

ضحك ولوَّح بيده، فانطلق العصفور كأنما سيف يتحرَّر من غمده نحو كتفي. قال الصبي على الدَّرج: «أترى؟ هو يحبك».

قلت بصوت خشن غريب: «لا أستطيع دفع الثمن».

- لقد دفعت بالفعل.

ثمَّ أدار رأسه ناظرًا إلى أسفل السلم وبدا كأنما يُنصِت. سمعت صوت ريح يعلو كأنه صوت عويل قادم عبر الدَّرج. صرخة وحيدة قلِقة. نظر الصبي نحوي وقال: «اذهب الآن. أسمع أبي يأتي. الماعز الحقير العجوز».

تراجعتُ، وارتطم كعباي بالدَّرج خلفي. كنت متعجِّلًا للرحيل حتَّى إنني سقطت على ظهري على الدرجات الجرانيتية. طار العصفور عن كتفي وراح يدور في الهواء، لكن عندما استعدت توازني،

حطَّ على
كتفي مرَّة أخرى،
وبدأت أصعد إلى حيث جئت.

صعدت
مسرعًا لحين،
لكن سرعان ما
شعرت بالتعب واضطررت
إلى السير وأنا أفكر فيما قد أقول عندما
أصل إلى السلم الرئيسي ويعثرون عليَّ.
قلت: «سأعترف بكل شيء وأقبل عقوبتي
أيًّا كانت». فانطلق العصفور يغنِّي أغنية غريبة مضحكة.

صمت

العصفور

بوصولي إلى

البوابة، وشقَّ الليل

أغنية أخرى: نحيب فتاة.

أنصتُ في حيرة، وعُدت غير

واثق إلى حيث قتلت حبيب ليثودورا.

لم أسمع صوتًا سوى بكاء دوار. لم أسمع

صوت رجال يتصايحون، ولا أقدام تضرب الدَّرج.

بدا لي أنني غبت قدر نصف الليل، لكن عندما وصلت

إلى الأطلال حيث تركت السرساني ورأيت دورا، بدا لي

أنني لم أغِب عن المشهد -لدهشتي- أكثر من بضع دقائق...

اقتربت

منه وهمست

بخفَّة خشية أن

يسمعني أحد. ثاني

مرَّة أهمس فيها اسمها

التفتْ لي بعينين محمرَّتين

كارهتين، وصرخت تأمرني

بالابتعاد. رغبت فقط في مواساتها

والاعتذار لها. عندما اقتربت منها أكثر

وقفت، ثمَّ اندفعت نحوي تهاجمني وتلطم وجهي

وتخمشه بأظفارها، بينما تلعنني وتلعن اسمي مرارًا.

قصدت
فقط أن أضع
يديَّ على كتفيها
لأهدِّئها، لكن حين
مددت يدي، وجدت
أصابعي تلتفُّ حول عنقها
الأبيض الناعم بدلًا عن كتفيها.

عشر
عليَّ والدها
ورفاقه وأصدقائي
العاطلين أبكي جوارها.
أمرِّر أصابعي عبر خصلات
شعرها الحريري الأسود. هوى أبوها
على رُكبتيه وضمها بين ذراعيه. لوهلة
ردَّدت التلال صدى اسمها يتكرِّر مرارًا.

رجل
آخر يحمل
بندقية، سألني
عمَّا حدث. أخبرته
أن العربي، قرد الصحراء
هذا، قد استدرجها إلى هنا، وعندما
لم يتمكَّن من اغتصاب براءتها خنقها
وسط العشب، ورأيته، فتعاركنا وقتلته بالحجر.

وبينما
أحكي الكذبة
بدأ العصفور يغنِّي
أجمل أغنية حزينة سمعتها
على الإطلاق، وأنصت الرجال
حتَّى انتهت الأغنية التي تمزِّق نياط القلوب.

حملت
ليثودورا
بين ذراعَيَّ
ونزلنا. وبينما نحن
في طريقنا، بدأت أغنية
أخرى للعصفور بعدما أخبرتهم
السارساني كان يخطِّط لاختطاف أجمل
الفتيات وبيع لحمهن في سوق الجواري العربي
وهي أكثر تجارة ربحًا بعد تجارة النبيذ والخمر.
غنَّى العصفور، واسودت وجوه الرجال كمدًا وحزنًا.

احترق
رجال أحمد
مع ما احترق
من سفن العرب
وما غرق في الميناء.
صودِرَت بضاعته المخزَّنة
وأرسلوا إليَّ صندوق ماله مكافأة لبطولتي.

لم
يتصوَّر
أحد عندما
كنت طفلًا أنني
سأصبح أغنى تاجر
على امتداد ساحل أمالفي،
أو أنني سأمتلك مزارع دون
كارلوتًّا العظيمة. أنا الذي كنت
أعمل كالبغال ليل نهار لأجل لقمة منه.

لم
يتخيَّل
أحد أنني
سأكون عمدة
سولي سكالي المحبوب
أو أنني سأكون بالشهرة التي
تمكِّنني من الحضور ضمن المدعوين
في حفل البابا الذي شكرني بنفسه على أعمالي الخيرية.

بليت
التروس
داخل العصفور
الصفيحي الجميل
ومع الوقت توقَّف
عن الغناء، لكن هذا
ليس مهمًّا إن صدَّق الناس

كذباتي أو لم يصدِّقوا، فثروتي
وشهرتي وسُلطتي كافية لجعلهم يصدقون.

قبل
أعوام
من توقُّف
العصفور عن
الغناء، استيقظت
ذات صباح في ضيعتي،
لأجده قد أقام عشًّا من السلك
على إفريز نافذتي، ووضع فيه بيضًا
هشًّا مصنوعًا من ورق القصدير اللامع.
راقبت البيضات في قلق، لكن حين حاولت لمسها
نقرتني أمهم الآلية بمنقارها الحاد كالإبرة، ومن وقتها
لم أقترب منها قط أو أحاول لمسها أو تحريكها من مكانها.

بعد
أشهر
امتلأ العشُّ
بأفراخ صفيحية،
تعلَّمت وحدها الطيران
وغادرت إلى حال سبيلها.

لا
أستطيع
تحديد عدد

الطيور المخلوقة
من أسلاك وصفيح
في العالم.. لكنني في
هذا الشهر الجاري سمعت
خطاب رئيس وزرائنا السيد
موسُّوليني عن عظمة الشعب
الإيطالي، وصلة قرابته بجيراننا
الألمان، كدت أقسم إنني سمعت صوت
طائر آلي صفيحي يغنِّي في خلفية حديثه بصوت
وضَّحته وأبرزته جيدًا أجهزة الإذاعة المتطوِّرة الحديثة.

لم
أعد
أحيا عند
التلال. لقد مرَّت
سنوات منذ رأيت سولِّي
سكالي. اكتشفت وأنا أقترب
من شيخوختي أنني ما عدت قادرًا
على الصعود والهبوط على السلالم
وتحججت أمام الناس باعتلال ركبتَيَّ.

لكن
الحقيقة
أنني
أصبت
برهاب
المرتفعات.

تويتات من سيرك الموتى

ما هو تويتر؟

«تويتر هو خدمة مخصَّصة للتواصل بين الأصدقاء والأهل ورفاق العمل، من خلال تبادل إجابات سريعة متكرِّرة عن سؤال واحد بسيط: ماذا تفعل؟ يجب أن تكون الإجابات في حدود 140 حرفًا، ويمكن إرسالها من خلال رسائل الهاتف المحمول، أو الرسائل الفورية، أو الإنترنت».

من موقع Twitter.com

TYME2WASTE: أنا أجرِّب هذا فقط لأنني ضَجِرة للغاية حتَّى إنني أتمنَّى لو أنني ميتة.
مرحبًا تويتر. تريد أن تعرف ماذا أفعل؟ أكبت صرخاتي.

PM 8:17 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ألا يبدو هذا ميلودراميًّا؟

PM 8:19 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لنجرِّب هذا مرَّة أخرى. مرحبًا عالم تويتر.
أنا بليك، وبليك هو أنا.
ماذا أفعل؟ أحصي الثواني.

PM 8:23 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لم يتبقَّ سوى 50.000 دقيقة أخرى ونحزم أمتعتنا وننهي ما أتمنَّى أن يكون آخر رحلة عائلية في حياتي.

PM 8:25 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كل شيء انحدر منذ وصلنا إلى كولورادو.
ولا أعني الانحدار على لوح التزلُّج.

PM 8:27 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: المفترض أن نقضي فترة الراحة في التزلج على الجليد، لكن الجو بارد للغاية، والثلج لا يتوقَّف عن الانهمار، ويجب أن ننتقل للخطة البديلة.

PM 8.29 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الخطة البديلة أمي، وسأنافس في مسابقة لأرى من منَّا سيجبر الآخر على البكاء بدموع الغضب والكراهية أولًا.

PM 8:33 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أنا أفوز. كل ما عليَّ فعله هو إجبار أمي على مغادرة الحجرة في هذه اللحظة عن طريق الدخول إليها. انتظر، أنا أدخل إلى الحجرة التي هي فيها الآن.

PM 8:35 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يا لها من عاهرة لئيمة.

PM 10:11 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: @ccaseinSD @bevsez @harmlessPervo يا أصدقاي الحقيقيون! أفتقد سان ديِّجو. سأعود قريبًا.

PM 10:41 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: casenSD@ بالطبع لا أخشى أن تقرأ أمي أي من هذا. لن تعرفي أي شيء بشأنه.

PM 10:46 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: بعد أن أجبرتني على محو مدوَّنتي، لن أخبرها بأي شيء.

PM 10:48 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هل تعرف أي كلمات سخيفة تفوهت بها أمامي منذ ساعتين؟ قالت لي إنني أكره كولورادو لأنني لا أستطيع التدوين عنها.

PM 10:53 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول دائمًا إن الإنترنت هو الواقع بالنسبة لي ولأصدقائي، ولا شيء يحدث إلا لو دوَّن أحدهم عنه في مدونة.

PM 10:55 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أو يكتب عنها على صفحته على فيسبوك. أو على الأقل يرسل إلينا صورة فورية لها. تقول إن الإنترنت هو «إثبات الحياة».

PM 10:55 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وإننا لا نكون متصلين بالإنترنت لأنه ممتع. هي مؤمنة أن الناس تتواصل اجتماعيًّا على الإنترنت لأنها تخشى الموت. الأمر عميق.

PM 10:58 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إن لا أحد يدوِّن عن موته. لا يرسل أحد رسالة تقول إنه مات. لا ينشر أحد منشورًا على فيسبوك يعلن فيها موته.

PM 10:59 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لذا، بالنسبة للناس على الإنترنت، الموت غير موجود. الناس تتواصل على الإنترنت لتختبئ من الموت والحياة. هذه هي كلماتها بدقَّة.

PM 11:00 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وأمور تافهة كهذه. يجب أن ترتزق من كتابة وريقات الحظ في الحلوى. هل ترون سبب رغبتي في خنقها بكابل إنترنت؟

PM 11:02 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سألني أخي الصغير إن كنت أستطيع كتابة تدوينة عن ممارسته الجنس مع فتاة قوطية من المدرسة لجعل الأمر حقيقي، لكن لم يضحك أحد.

PM 11:06 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: قلت لأمي إن سبب كرهي لكولورادو أنني عالقة معها، والأمر حقيقي للغااااية.

PM 11:09 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وقالت إن هذا تحسُّنًا في حد ذاته، وعلا وجهها تعبير سمِج، ثمَّ ألقى أبي الكتاب وغادر الغرفة.

PM 11:11 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أشعر بالأسف تجاهه. بضعة أشهر أخرى وأرحل إلى الأبد، لكنه عالق معها لباقي عمره، ولن يتخلَّص من غضبها وكل هذا.

PM 11:13 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: واثق أنه يتمنَّى لو يشتري لنا تذاكر الطائرة الآن. سيارتنا تحوَّلت فجأة لقفص مصارعة ثنائية حتَّى الموت.

PM 11:15 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ثلاثتنا عالقين معًا لثلاثة أيام. من سينجو؟ سجلوا مراهناتكم أيها السادة والسيدات. شخصيًا، أتوقَّع ألا ينجو أحد.

PM 11:19 28 فبراير- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سحقًا. يا للخراء. ذهبت للنوم في الظلام، ولا زال العالم مظلمًا حتَّى الآن، وأبي يقول إن وقت المغادرة قد حان. هذا خطأ عظيم.

AM6:21 1 مارس - مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: نحن نغادر. بحثت أمي جيدًا في أرجاء المسكن كي تتأكد أنها لم تنسَ شيئًا. هكذا عثرت عليَّ.

AM7:0 1 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سحقًا. كنت أعرف أنني أحتاج إلى مخبأ أفضل.

AM 7:02 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يقول أبي إن الرحلة كلها من المفترض أن تستغرق 35 إلى 40 ساعة. سأعتبر هذا دليلًا لا يُضحد على عدم وجود إله.

AM 7:11 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أنا أكتب تويتات فقط لأضايق أمي. هي تعرف إنني إن كنت أكتب شيئًا على هاتفي المحمول، فأنا بالتأكيد غارق.M في معصية.

AM7:23 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أنا أعبِّر عن نفسي، وأتواصل مع أصدقائي، وهي تكره أن أفعل هذا.

AM7:25 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كأنها تريدني أن أغزل وأنطوي مثلها عندما كانت في السابعة عشر. لا بُدَّ أنها تريدني أيضًا أن أتزوَّج أول شاب يطرق بابي في سنٍّ التاسعة عشرة.

AM7:25 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: النزول من الجبل وسط الجليد. النزول من الجبل وسط الجليد. منعطف عنيف آخر وسوف تنفجر معدتي...

AM7:30 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سيحل تقديري لهذه العائلة الرائعة عندما أقيء فوق رأس أخي الصغير.

AM7:49 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لو انتهى بنا المطاف مغروسين في منحدر ثلجي مثل جماعة دونَر[1]، أعرف جيدًا أي مؤخِّرة ستؤكل أولًا؛ مؤخِّرتي.

AM7:52 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: بالطبع لن تزيد مهارات النجاة عندي عن الاستغاثة عبر تويتر.

AM7:54 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

(1) جماعة دونر هي مجموعة من المهاجرين الأمريكيين علقوا في جبال سيرا نيفادا في الشتاء، واضطروا إلى ممارسة أكل لحوم البشر للنجاة. (المترجمة)

TYME2WASTE: ستصنع أمي مقلاعًا من مطاط الإطارات، وتصطاد به السناجب، وتفصِّل زي سباحة من فرائها، وستحزن عندما ينقذوننا.

AM7:56 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سيُجَن أبي بالطبع لأننا سنضطر إلى إحراق كتبه للتدفئة.

AM8:00 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سيرتدي إيريك جواربي الطويلة، لا للتدفئة، بل لأنه فقط يريد ارتداء جواربي الطويلة.

AM8:00 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كتبت آخر تويتة لأن أخي كان يتلصَّص على ما أكتب.

AM8:02 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكن الوغد الصغير قال إن ارتداء جواربي الطويلة هي أقرب شيء للحصول على مضاجعة في المدرسة الثانوية.

AM 8:06 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هو مقرف للغاية، لكني أحبه.

AM8:06 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: علَّمته أمي الحياكة بينما نحن محبوسون في كولورادو الجميلة، وقد حاك لعضوه الذكري جورب، فندِمَت.

AM8:11 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: افتقد مدوَّنتي التي لم يكن لها حق في إجباري على محوها.

AM8:13 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكن تويتر أفضل من المدوَّنات لأن مدوَّنتي تجعلني أبحث دئمًا عن أمور شائقة أدوِّن عنها.

AM8:14 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكن تويتر يشترط أن يكون كل منشور في حدود 140 حرفًا، وهي مساحة كافية للتغطية كل شيء شائق يحدث لي.

AM8:15 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هذا حقيقي. سأجرِّب.

AM8:15 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الإباحية. المدرسة. المركز التجاري. تصريح القيادة. كسر أنفي وأنا ألعب على الأرجوحة في عمر الثامنة. مستقبلي كعارضة للأزياء يضيع. أحتاج إلى خسارة 10 أرطال.

AM8:19 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لقد غطَّيت كل شيء.

AM8:20 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الثلج ينهمر على الجبال، لكن هنا بالأسفل، الثلج يسقط في ضوء الشمس كعاصفة ذهبية. وداعًا أيتها الجبال الجميلة.

AM9:17 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: مرحبًا بصحراء يوتاه غير الجميلة. يوتاه بُنية مجعَّدة كحلمتَيْ ثدي چودي كينيدي الغريبتين.

AM9:51 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: دغل عُشبي!

AM11:09 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الآن إيريك يحاول ارتداء جوربي الطويل. يشعر بالضجر. أمي ترى هذا مضحكًا، لكن أبي مُجهَد.

PM 12:20 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تحديت إيريك أن يرتدي تنُّورة وهو يحضر لنا طلبنا من المطعم. رفض أبي، وأمي لا زالت تضحك.

PM 12:36 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وعدته إن فعل ذلك، سأدعو فتاة قوطية مثيرة حقًّا إلى حفل المسبَح في أبريل ليتسنى له رؤيتها في ملابس السباحة الخليعة.

PM 12:39 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا توجد طريقة لحثه على فعل ذلك.

PM 12:42 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: رباه، لقد فعلها! رافقه أبي إلى المطعم كي يـتـأكد أن المورمون[1] لن يقتلوه.

PM 12:44 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عاد إيريك حيًا. لقد أنقذ إيريك اليوم. أنا سعيدة أنني في السيارة الآن.

PM 12:59 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: قال أبي إن إيريك جلس عند المشرب مع سائق شاحنة ضخم وتحدَّث عن كرة القدم، ولم يهتم السائق للتنُّورة أو الجوربين الطويلين.

PM 1:03 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا زال يرتدي التنُّورة. ربما هو متخنِّث! مختل. سيكون هذا ممتعًا. يمكننا أن نتسوَّق معًا.

PM 1:45 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: @caseinSD يبدو أننا مضطرَّتان إلى دعوة فتاة قوطية[2] لحفل المسبح. على الأرجح لن تأتي أيهن؛ هن يعتقدن أن الشمس ستؤذي جلودهن.

PM 2:09 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

---

(1) جماعة دينية تؤمن بالمورمونية التي أسسها جوزيف سميث، وتعتبر من طوائف المسيحية. (المترجمة)

(2) المظهر القوطي هو مظهر داكن ترتدي فيه الفتيات ملابس سوداء ويصبغن شعرهم بالأسود ويضعن مكياجًا مبالغًا فيه. (المترجمة)

TYME2WASTE: كلما نعست، تعبر السيارة من فوق مطبٍّ، فتسقط رأسي عن مسند المقعد.

11:01 PM 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أحاول النوم.

11:31 PM 1 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يئست من محاولة النوم.

1.01 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سحقًا يا إيريك! لقد نام ويبدو أنه يحلم حلمًا جنسيًّا عن فتاة قوطية معينة.

1:07 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كنت لأحصل على فرصة أفضل للنوم لو أن هناك إبرًا مغروسة تحت جفنَيَّ مقارنة بما يحدث لي الآن.

1:09 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أنا سيعدة للغاية الآن وأود أن أحتفظ بهذه اللحظة لأطول فترة ممكنة.

6:11 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أريد فقط العودة إلى بيتي. أكره أمي. أكره كل مَن في السيارة بما فيهم نفسي.

8:13 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: حسنًا، هذا هو سبب سعادتي منذ قليل. في الرابعة صباحًا وتوقَّفت أمي عند استراحة ثمَّ نزلت وأنزلتني.

AM 10:21 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وقالت لي إنه دوري في قيادة السيارة. قلت لها إن رخصتي سارية فقطة للقيادة في كالي، لكنها قالت لي أن أقود على أي حال.

AM 10:23 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: قالت لي لو لمحت الشرطة أوقظها لتقود بدلًا عنِّي وكل شيء سيكون على ما يرام.

AM 10:23 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: نامت في مقعد الراكب وقدت أنا. كُنَّا في الصحراء وأشرقت الشمس من ورائي.

AM 10:35 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ثمَّ رأيت ذئاب البراري على الطريق تحت أشعة الشمس المحمرة. عددها كثير على الطريق بين الولايات، فتوقَّفت كي لا أدوس أحدها.

AM 10:26 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أعينها ذهبية، والشمس تضيء فراءها. كانت كثيرة، قطيعًا ضخمًا يقف كأنه في انتظاري.

AM 10:28 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: رغبت في أن ألتقط لها صورة بهاتفي لكني لم أجد الهاتف حيث تركته. وبينما أبحث عنه، اختفت.

10:31 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عندما استيقظت أمي أخبرتها عنها. ظننت أنها ستغضب لأنني لم أوقظها لتراهم، فاعتذرت لها.

10:34 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكنها قالت إنها سعيدة أنني لم أوقظها لأن هذه اللحظة أرسِلَت إليَّ وحدي. ولثلاث ثوانٍ شعرت أنني أحبها.

10:35 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكن في المكان الذي تناولنا فيه إفطارنا، تحقَّقت من البريد الإليكتروني على هاتفي لثوانٍ، فقالت أمي للنادلة إنها تعتذر عن هذا السلوك نيابة عني.

10:37 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أعتقد أن النادلة كانت تقف منتظرة أن أخبرها بطلبي، ولم ألحظ وقوفها.

10:40 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكنني لم أنم طيلة الليل، وكنت مُرهقة فشردت، لهذا لم ألحظها، لا لأنني أحدِّق إلى هاتفي طيلة الوقت.

10:42 AM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وبدأت أمي في تلاوة حكاياتها عندما عملِت نادلة وكيف أنها كانت تشعر بالإهانة عندما يتجاهلها البعض.

AM 10:45 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: للحق، ربما تكون محقَّة تمامًا، ولا زلت أكره الطريقة التي تجعلني بها أشعر أني حثالة في كل مرَّة.

AM 10:46 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: نمت قليلًا، لكني لم أتحسَّن.

PM 4:55 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: بالطبع اتخذ أبي أبطأ الطرق والشوارع الخلفية الممكنة. قالت أمي إنه فوَّت دورانًا فأضاف 100 ميل إلى الرحلة.

PM 6:30 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الآن يتشاجران. إلهي. أريد أن أخرج من هذه السيارة.

PM 6:37 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: إيريك، أريد أن أرسل لك رسالة عقلية كي تجد طريقة تُخرجنا بها من الطريق. ارتدِ الجوربين الطويلين. قُل لهما إنك تحتاج إلى حمَّام.

PM 6:49 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أي شيء. أرجوك.

PM 6:49 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا يا إيريك لا لا! أردتك أن تفكر في سبب «جيد» لنخرج من الطريق.. لكن.. سيكون هذا سيئًا.

PM 6:57 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أمي لا تريد التوقُّف أيضًا. لنسجل هذا يا شباب؛ لأول مرَّة منذ عامين نتفق على شيء.

PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: صار أبي أحمق رسميًا الآن. قال إنه لا فائدة من السير عبر الطرق الخلفية إن كُنَّا نريد بعض الزيارات التثقيفية.

PM 7:02 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: نحن نقود باتجاه شيء يُدعى «سيرك الموتى». موظف التذاكر يبدو مريضًا. مريضًا بحق. لا أمزح.. هو مريض بمعنى عليل.

PM 7:06 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: القرح تملأ ما حول فمه، وأسنانه نخرة. أستطيع شم رائحتها. يُربِّي فأرًا كحيوان أليف. غاص الفأر في جيبه الخلفي ثمَّ خرج إلينا بالتذاكر.

PM 7:08 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هذا ليس ظريفًا. لن يرغب أينا في لمس هذه التذاكر.

PM 7:10 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ربي، إنهم يدخلون. يبدأ العرض بعد 15 دقيقة لكن باحة الانتظار نصف شاغرة. سقف السيرك عبارة عن خيمة سوداء ذات ثقوب.

PM 7:13 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: قالت لي أمي أن أتابع ما أفعل على هاتفي. هي لا تريدني أن أرفع رأسي وأرى شيئًا يحدث.

PM 7:17 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هذا سخيف. قالت أمي لأبي إن السيرك سيروقني لأنه يشبه الإنترنت.

PM 7:18 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أوجه التشابه كما تقول: اليوتيوب مليء بالمهرجين. الرسائل مليئة بنافخي النيران. المدونات للأشخاص الذين لا يستطيعون العيش من دون كشاف مُسلَّط عليهم.

PM 7:20 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سأكتب خمس تويتات في الدقيقة لأقودها إلى الجنون.

PM 7:21 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: مرشد المقاعد رجل غريب مضحك، يلفُّ وشاحًا حول عنقه، ويمسك سيجارًا، ويرتدي بذلية بنية.

PM 7:25 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كدت أتعثَّر مرَّتين في طريقنا إلى مقاعدنا. أعتقد أنهم يوفِّرون في فواتير الكهرباء. أستخدم هاتفي المحمول كشافًا. أتمنَّى ألا يشعلوا نارًا.

PM 7:28 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: إلهي، هذا أكثر سيرك دخلته نتانةً! لا أعرف أي رائحة أشم. أهي رائحة الحيوانات؟

PM 7:30 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا أصدِّق عدد الحضور. كل المقاعد شاغرة. لا أعرف من أين جاء هذا الزحام.

PM 7:31 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا بُدَّ أننا أوقفنا سيارتنا في باحة انتظار ثانوية. أوه، لحظة، لقد أضاؤوا كشَّافًا. وقت العرض حلَّ. القلوب تدقُّ.

PM 7:34 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: حسنًا. العرض جذب انتباه أبي وإيريك. ظهرت سيدة الحَلَبة تسير على عارضتين خشبيتين كأنها امتداد لساقيها، عارية تقريبًا إلا من رداء شبكي وقبعة.

PM 7:38 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: غريبة جدًّا. تتكلَّم كأنها ثملة. هل ذكرت أن هناك موتى أحياء في زِي مهرج يطاردونها؟

PM 7:40 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الموتى الأحياء مقرفيين جدًّا. ينتعلون أحذية مهرِّجين ضخمة، ويرتدون بذلات مرقَّطة، ويطلون وجوههم بالأبيض والأحمر.

PM 7:43 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكن الأصباغ تتقشَّر، ومن خلفها تظهر جلودهم المتعفِّنة المسودَّة. أوه! لقد كادوا يمسكون بها! إنها تجري بسرعة حقًّا!

PM 7:44 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إنها سجينة السيرك منذ 6 أسابيع، وأنها نجت كل هذا الوقت لأنها تعلَّمت السير على العارضتين سريعًا.

PM 7:47 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: قالت إن حبيبها لم يستطع السير بهما، وسقط، وأكلوه في الليلة الأولى. قالت إن صديقتها المقرَّبة أُكِلَت في الليلة الثانية.

PM 7:49 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عَدت حتَّى الحائط أسفلنا، وتوسَّلت إلى أحدهم أن يجذبها إلى أعلى وينقذها، لكن الرجل في الصف الأول ضحِك.

PM 7:50 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ثمَّ اضطرت إلى الهرب سريعًا قبل أن يُسقطها الميت الحي خلفها من فوق العارضتين. الأمر كله يبدو كرقصة مُصمَّمة بعناية.

PM 7:50 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سهل أن تصدِّق أنهم يسعون خلفها بالفعل.

PM 7:51 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يسحبون مدفعًا إلى الحَلَبة. تقول إن هذا هو سيرك الموتى وإنهم يبدؤون العرض بانفجار. تقرأ هذا من بطاقة.

PM 7:54 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: اتجه نحو باب طويل وقرعته. للحظة ظننت أنهم لن يسمحوا لها بمغادرة الحَلَبة، لكنهم فتحوا الباب.

PM 7:55 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: رجلان يرتديان بذلة مخصَّصة للتعامل مع المواد الخطرة أخرجا أحد الموتى الأحياء. حول عنقه طوق حديدي مثبَّت إليه عصا سوداء.

PM 7:56 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يستخدمان العصا ليحافظا على المسافة بينهما وبينه كي لا يمسك بهما.

PM 7:57 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يقول إيريك أنه يتخيَّل فتاة قوطية معينة تطوِّق عنقه بطوق كهذا.

PM 7:58 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سيكون عرض كهذا مكان مناسب لموعد غرامي بينهما. الأمر فيه لمحة إباحية، وشيء من العبودية. العرض مروِّع حقًا.

PM 7:59 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وضعا الميت الحي في ماسورة المدفع.

PM 8:00 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يع! وجَّها المدفع نحو الحضور وأطلقه، فتبعثرت أشلاء الكائن في كل اتجاه!

PM 8:03 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ضربت فردة حذاء طائر فم الرجل في الصف أمامنا. الرجل ينزف.

PM 8:05 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: سحقًا، يع! هناك قدم داخل الحذاء. تبدو حقيقية للغاية.

PM 8:08 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: خرج الرجل أمامنا مع زوجته ليقدم شكوى. هو الرجل نفسه الذي رفض مساعدة سيدة الحَلَبة.

PM 8:11 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وجد أبي شفة الميت الحي على شعره. أنا مسرورة أني لم أتناول الغداء. لها رائحة شرجية شنيعة.

PM 8:13 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: متوقَّع أن يرغب إيريك في الاحتفاظ بها.

PM 8:13 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عادت سيد الحَلَبة مرَّة أخرى. تقول إن العرض التالي هو عرض مواء القط.

PM 8:14 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: إلهي! إلهي! ليس هذا مضحكًا. كادت تسقط. وتلك الطريقة التي يزمجرون بها.

PM 8:16 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الرجال في البذلات الخاصَّة أدخلوا للتَّوِّ أسدًا في قفص. أسد! لا زلت طفلة كفاية كي أحب رؤية قط كبير.

PM 8:17 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كم أن هذا مؤسف. الأسد يبدو مريضًا. ههذا ليس ممتعًا. يفتحون الباب ويُدخلون إليه موتى أحياء، فيطلع فحيحًا كقط منزلي.

PM 8:19 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يا لقوة الأسود. الأسد يضربهم ويمزقهم ويمضغ ذراع واحد منهم. الجميع يُهلِّل.

PM 8:21 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هذا مقرف! لم يعد أحد يهتف الآن. لقد فتح بطن واحد منهم ويجر أمعاءه كأنما يجرُّ حبلًا.

PM 8:22 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE:	هم يُدخلون المزيد من الموتى الأحياء. لم يعد أحد يضحك أو يهلّل الآن. المكان مزدحم هناك.
PM 8:24	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	لم أعد أرى الأسد من الحشد حوله. المزيد من الزئير الغاضب، والفراء المتطاير والجثث المتحرِّكة تتساقط بلا حراك.
PM 8:24	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	يا للبشاعة. أطلق الأسد صرخة مذعورة، والآن يتبادل الموتى الأحياء كتل اللحم والفراء فيما بينهم.
PM 8:25	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	إنهم يأكلون. هذا فظيع. أشعر بالغثيان.
PM 8:26	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	رآني أبي أتضايق، فأخبرني كيف فعلوها. للقفص أرضية متحرِّكة، أنزلوا الأسد من خلال فتحة في الأرض.
PM 8:30	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	الرجل الذي أرشدنا إلى مقاعدنا ظهر حاملًا كشّافًا يدويًا. يقول إننا تركنا كشّافات سيارتنا مُضاءة.
PM 8:31	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: خرج إيريك ليطفئها، وقال إنه يريد الذهاب لدورة المياه أيضًا.

PM 8:32 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: خرج إلى الحَلَبة بالِع النار. ليس لديه عينين، وثمَّة أداة حديدية تثبِّت رأسه إلى الخلف وتبقي فمه مفتوحًا.

PM 8:34 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: واحد من الرجلين في زي التعامل مع المواد الخطرة يدسُّ مشعلًا في حلقه، وهو الآن يحترق. يجري في الأرجاء والدخان يتصاعد من فمه.

PM 8:36 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: والنار تخرج من عينيه كأنه مصباح في يقطينة.

PM 8:36 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لقد تركوه يموت حرقًا. مشهد واقعي لم أر مثله من قبل.

PM 8:39 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ما هو أشدُّ واقعية منظر الجثة بعدما أطفئها الرجلين بمطفأة حريق. بدا منظرها مؤسف للغاية وتفحَّمت واسودت.

PM 8:39 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عادت سيدة الحَلَبة، تترنح في سيرها. يبدو أن هناك إصابة في كاحلها.

PM 8:40 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إن أحد الحضور قد وافق على أن يكون قربان الليلة. تقول إنه سيكون المحظوظ.

PM 8:41 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: وافق؟ كنت أظن أن القرابين تكون فتاة عادة في مثل هذه العروض.

PM 8:41 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أوه.. لا لا.. ليس هو! لقد أخرجوا إيريك مقيدًا إلى عجلة خشبية كبيرة. غمز لي. يا لك من مختل! اهرب يا إيريك!

PM 8:42 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أتوا بميت حي وربطوه إلى عمود خشبي مغروز في الأرض. أمامه صندوق مليء بالبَلطات. لا يعجبني أبدًا ما تؤول إليه الأمور.

PM 8:43 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الكل يضحك الآن. مشهد الأسد كان كئيبًا بعض الشيء، لكن ها نحن عدنا إلى المرح. الميت الحي رمى أول بلطة نحو الحضور.

PM 8:45 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE سمعنا صوتًا غريبًا، ثمَّ صرخ أحد كأنما أصابت رأسه.

PM 8:45 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE إيريك يدور ويدور على العجلة. يطالب الميت الحي بقتله قبل أن يتقيَّأ.

PM 8:46 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE لست شجاعة كإيريك. رشق سكين في العجلة جوار رأسه. على بعد بوصات فقط. صرخ إيريك.

PM 8:47 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE إلهي! إلهي!

PM 8:47 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE لا بُدَّ أنه بخير. لا زال يبتسم وهم يخرجوه من الحَلَبة. البلطة أصابت مكانًا جوار رقبته بالضبط.

PM 8:50 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE يقول أبي إنها خدعة. يقول أبي إنه بخير. يقول إن إيريك سيخرج إلى الحلبة لاحقًا يرتدي زي الموتى الأحياء كجزء من العرض.

PM 8:51 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

:TYME2WASTE يبدو أن أبي على حق. لقد وعدونا أن إيريك سيظهر بعد قليل مرَّة أخرى.

PM 8:53 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYYME2WASTE: أمي تلحُّ على أبي أن يذهب ليطمئن على إيريك.
PM 8:54 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: بدأتْ تُجَنُّ. تقول إن الرجل الذي كان يجلس أمامنا لم يعد بعدما ضربه الحذاء.
PM 8:55 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا أعرف ما علاقة هذا بما حدث مع إيريك. إلى جانب هذا، لو ضربني حذاء طائر...
PM 8:55 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: حسنًا، أبي سيذهب للاطمئنان على إيريك. تم إنقاذ عقلها.
PM 8:56 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عادت سيدة الحَلَبة مرَّة أخرى. لهذا وافق إيريك على الذهاب إلى الكواليس؛ بردائها الشبكي وسروالي التحتي الأسود تبدو قوطية مثيرة للغاية.
PM 8:56 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تصرفاتها غريبة. لم تذكر شيئًا عن العرض التالي. تقول إنها إن خالفت النص المكتوب لها مسبقًا لن يُسمح لها بالخروج من الحَلَبة.
PM 8:57 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إنها لا تكترث. تقول إنها لَوَت كاحلها وإن الليلة آخر ليلة لها.
PM 8:58 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إن اسمها جَيل روس، وإنها ارتادت المدرسة الثانوية في بلانو.

8:59 PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إنها كانت ستتزوَّج حبيبها بعد انتهاء الدراسة الجامعية. تقول إن أسمه كان كريج، وحلم بأن يعمل مُدرسًا.

9:00 PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إنها تشعر بالأسف حيالنا جميعًا. تقول إنهم أخذوا سياراتنا وتخلَّصوا منها بينما نحن في الخيمة.

9:01 PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تقول إن 12.000 شخص يختفون سنويًّا على الطرق بلا تفسير، ويعثرون على سياراتهم فارغة، أو لا يعثرون عليها على الإطلاق، وإن أحدًا لن يفتقدنا.

9:02 PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كلام مرعب. إيريك هنا. تنكُّره في شخصية ميت حي متقن للغاية. معظم الآخرين متعفِّنين ومسودِّين، لكنه يبدو كأنما قُتِل للتَّوِّ.

9:03 PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا زالت البلطة مغروسة في عنقه. تبدو مزيَّفة للغاية.

9:03 PM 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هو ليس بارعًا في أداء دور الميت الحي. هو حتَّى لا يحاول المشي ببطء ويطارد سيدة الحَلَبة بسرعة.

PM 9:04 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أوه. اللعنة. أتمنَّى أن يكون هذا جزءًا من العرض. لقد أسقطها. أوه إيريك إريك إيريك. لقد سقطت بقوة حقًّا.

PM 9:05 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: إنهم يأكلونها كما أكلوا الأسد. إيريك يلهو بأمعائها. لقد بدأ يؤدِّي دوره ببراعة.

PM 9:07 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يبدو أن هذه هي فقرة الجُمباز. إنهم يصنعون هرمًا بشريًّا. أو ربما الأدق هرمًا غير بشري. فاجأوني ببراعتهم بالنسبة لكونهم موتى أحياء.

PM 9:10 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: إيريك يتسلَّق الهرم كأنه يعرف ما يفعل. أتساءل ما إذا كانوا قد مرَّنوه في الكواليس.

PM 9:11 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لقد صعد كفاية حتَّى استطاع الوصول إلى أعلى السور المحيط بالحَلَبة. يزمجر في وجه أحدهم على بعد بضع أقدام منَّا. لحظة.

PM 9:13 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا ضوء هاذا شيء أحمق لمذا يطفون الـ[1]

PM 9:14 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أحدهم يصرخ

PM 9:15 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هذا خطر المكان مظلم الكثير يصرخون ويقومون. أنا غاضبة الآن لا يمكن فعل هذا في الناس، لا يمكن..

PM 9:18 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: نحتاج إلى نجدة.

PM 9:23 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تلمنيتتوبوةلار ؤ ؤبمكطنطننكبت

PM 9:32 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لا أستطيع قول شيء يسمعوه. نكون هادئين جدًّا لدينا.

PM 10:17 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: المكان على طريق 70 أمي تقول إنه مخرج 331 لكننا ابتعدنا كثيرًا عن آخر بلدة قابلناها اسمها يوكمبا.

PM 10:19 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: كومبا.

PM 10:19 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

---

(1) الجملة مكتوبة بشكل مرتبك في النص الأصلي. (المترجمة)

TYME2WASTE:	الكل مات عدانا وقليل من الآخرين، قيدوهم معًا.
PM 10:20	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	رجاء ليرسل أحد النجدة اتصلوا بشرطة ولاية يوتاه أنا لا أختلق هذا.
PM 10:22	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	caseinSD@ النجدة أنت تعرفيني تعرفين أنني لا أمزح.
PM 10:23	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	يجب أن أظل هادئة سأغلق صوت الهاتف
PM 10:24	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	أمي تقول إننا نتبع شرطة أريزونا لا يوتاه سيارتنا إيكونولين بيضاء.
PM 10:27	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	أقل صراخًا والآن أقل زمجرة.
PM 10:50	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	يكوِّمون الناس.
PM 10:56	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.
TYME2WASTE:	يأكلون، يأكلون الناس.
PM 11:09	2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الرجل الذي ضربه الحذاء جاء لكنه ليس كما كان هو ميت الآن.

PM 11:11 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: فقط أنا وأمي أحب أمي هي شجاعة جدًّا أحبها جدًّا لم أقصد أيا من الأمور السيئة التي قلتها عنها، أنا معها، أنا.

PM 11:37 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: أنا خائفة جدًّا.

PM 11:39 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: يبحثون إن كان هناك موجودون بكشّاف مع الرجلين بالبذلة أقول نخرج أمي تقول لا.

PM 11:41 2 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هنا ننتظر النجدة رجاء أرسل هذا إلى الكل على تويتر هذا حقيقي لا خدعة إنترنت صدِّقوا صدِّقوا صمنقو.

AM 12:03 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ربي هو أبي وقف جوار أمي وقال اسمه وأمي وأبي وأمي واأبيي.

AM 12:09 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: ليس بابا ليس بيبيبر)))()(**&**

AM 12:13 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: !-))))
AM 12:13 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: هل أرعبتكم سلسلة التويتات هذه؟!!!
AM 9:17 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: الخوف والمتعة.. هذه فقط البداية!
AM 9:20 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: «سيرك الموتى» يقدِّم سيدة الحَلَبة الجديدة، المثيرة الجريئة، سوداء القلب.
AM 9:22 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: شاهدوا ملكة الترابيز الجديدة تقدِّم ممثِّلينا المنحرفين الخبيثين...
AM 9:23 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: بينما تتدلَّى من حبل فوق الموتى النَّهمين!
AM 9:23 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: عرض سيرك صادم حتَّى ليجعل سيرك چيم رود[1] يبدو عرض دُمى مقارنة به!
AM 9:25 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: جولاتنا تصل إلى ركن من أركان البلاد، وبلا توقُّف!
AM 9:26 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

---

(1) سيرك أمريكي أنشئ في سياتل عام 1991 واشتهر بتقديم عروضًا خطرة تبدو غير ممكنة أو مؤذية. (المترجمة)

TYME2WASTE: زوروا صفحتنا على فيسبوك، أو انضمُّوا إلى قائمة مراسلاتنا عبر البريد الإليكتروني، لتتابعوا مواعيد وجودنا في مناطقكم.

9:38 AM 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: تابعونا وإلا لن تعرفوا ما قد تفوِّتوا على أنفسكم!

9:33 AM 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: «سيرك الموتى»... حيث ستكون أنت الامتياز! عروض السيرك الأخرى تقدِّم إثارة تتحدَّى الموت!

9:31 AM 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

TYME2WASTE: لكننا الوحيدون الذين يوصلون الموت إليك! (تباع التذاكر في مكتب البيع يوم العرض. التذاكر المباعة لا تُرَد. نقبل نقدًا فقط. يدخل الأطفال مع مشرفين من البالغين).

9:31 AM 3 مارس- مُرسل من خلال Tweetie.

الأمهات

1

عندما نزل چاك إلى الطابق السفلي لتناول إفطاره، كانت بلوم تتحدَّث عبر الهاتف الأرضي مع شخص ما، بصوت منخفض متعجِّل. لم يكترث چاك لما تفعل أمه، وحضَّر لنفسه طبق جرانولا. غير مسموح لحبوب الإفطار التي تحتوي على السكر المكرَّر والمواد حافظة بالدخول إلى بيت مَكُّورت؛ معروف أن السكر في حبوب الإفطار يسبِّب التوحُّد.

حمل إفطاره إلى حجرة المعيشة ليشاهد مسلسل الرسوم المتحرِّكة «الرجال إكس» على شاشة التلفاز. يُعتَبَر الرجال إكس من المحتوى الليبرالي الذي يغسل العقول ويتحكَّم بها، لكن والد چاك مسافر إلى «ويتشيتا» لحضور معرض أسلحة، وأمه لا تعبأ كثيرًا للرسوم المتحركة.

تقول أمه وهي تخرج من المطبخ: «مرحبًا يا صغير. هل تود أن تقابل جدة جدتك؟».

- ميماو[1]؟

- هل تعرف أنها ستبلُغ مائة عام الصيف المقبل؟

- هذا ليس صحيحًا.

- هي مُسنَّة حتَّى إنها وُلِدت قبل اختراع التلفاز.

- لم يولد أحد قبل اختراع التلفاز.

- وقبل اختراع السيارات، وربما قبل الخيول كذلك. كل أفراد عائلتي ينحدرون من الأشجار.

ثمَّ أكَّدت بلوم مَكُّورت: «هل تعرف كم يبلغ عمر الأشجار؟ ثمَّة أشجار تحيا حتَّى الآن، وكانت عتيقة من قبل أن يولد چورچ واشنطن. نحن أيضًا من سلالة چورچ واشنطن. نسيت التفاصيل. ألا تصدِّق أنها ستبلغ المائة؟».

- لا.

- هل تود سؤالها بنفسك؟

- هل سنتصل بها؟

دخلت أمه إلى الصالة الأمامية. فتحت الخزانة أسفل الدَّرج وأخرجت حقيبة منبعجة الجانب، وضعتها على الأرض أمام قدميها ونظرت إليه وقالت: «سأفاجئك. لم نذهب أنا وأنت في رحلة من قبل. سنركب الحافلة من كورديا وننطلق إلى چوبلين حيث نركب حافلة «جراي هاوند» إلى «مينيسوتا».

- ماذا عن أبي؟

- والدك يعرف كل شيء عن رحلة مينيسوتا. هل تظن أن شيئًا قد يحدث في هذا البيت دون علمه؟ هيا، ارتدِ ملابس الخروج.

- هل أجمع حاجياتي؟

أومأت برأسها نحو الحقيبة على الأرض وقالت: «حزمت حاجياتنا بالفعل. هيا، انتعل حذاءك سريعًا».

لم يقابل چاك أيًّا من عائلة أمه من قبل، ولا جده ماجنوس، ولا جدته ديڤوتد، ولا جدة جدته ميماو التي يجوز أنها كانت مُرضعة إيرنست هيمنجواي نفسه.

---

(1) لفظ يستخدم لتدليل لقب الجدة. (المترجمة)

كلهم من «بينيكوستال» ويعيشون في شمالي غرب مينيسيوتا، عند ضفاف بحيرة «سوبريور».

أول تلميح لاحظه أن والده لا يعرف شيئًا عن سفرية الشمال هذه عندما خرجا من الباب الخلفي لا الأمامي، وقطعا حقول يناير البُنية راجلين. حتَّى تلك اللحظة، ظن چاك أنهما يتخذان طريقًا مختصرًا إلى محطَّة الحافلات في «كورديا».

يتشارك كونور مكُّورت وزوجته بِث بيتًا أقرب لكوخ من ثلاث حجرات عند نهاية الممر المعبَّد بالحصى، على بُعد رُبع ميل عن الطريق. سمح لهما والد چاك بالإقامة هناك مجانًا كجزء من اتفاقه معهما. الاثنان يعملان لديه بدوام كامل، يقومان بأي عمل يطلبه منهما من الزراعة إلى غسل الصحون. ذهب كونور مع والد چاك إلى معرض الأسلحة، لكن سيارته البرتقالية «الرود رَنَر» ما زالت واقفة أمام بيته.

- لماذا لا توصلنا بِث؟
- سيارتهم تحتاج إلى صيانة.
- ألن نودعها؟
- كلا. هذه عطلتها، لندعها تنام حتَّى وقت متأخِّر يا صغير. لنمنح بِث المرهقة دائمًا بعض الراحة.

سارا بخفَّة نحو خط الأشجار، تحمل أمه الحقيبة في يد، وتعتصر أصابعه الباردة الصغيرة باليد الأخرى. يرى چاك بيت كونور وبِث بين الأشجار الصغيرة، ويتساءل إن كانت ستطل بِث من النافذة وتتساءل عن سر حملهما حقيبة عبر الحقول هكذا.

عبرا من بين الأجمة الجافة المتجمِّدة، خارجين إلى الطريق السريع. قادتهما أمه شرقًا، وأقدامهما تطحن الحصى تحتها. مع كل خطوة تزيد بينهما وبين منزل المزرعة الأحمر، تبدو مرتاحة أكثر.

سار چاك وبلوم بمحاذاة الطريق السريع في ضوء الصباح القوي لمدَّة نصف ساعة. تخبره أمه عن الأقارب الذين سيلقاهم في الشمال، أشخاصٍ ذوي أمراض عقلية مبهجة، وتاريخ إجرامي مُسلٍّ. هناك الخالة التي وقعت في حب عدَّاد انتظار سيارات، ودخلت السجن لأنها حاولت قطعه وأخذه معها إلى المنزل. وهناك العم الأكبر الذي خنق كلب أحدهم لأنه ظنه جاسوسًا

روسيًّا. جد چاك الأكبر اعتاد السير وسط احتفالات الفصح عاريًا إلا من شرشف حول خصره، حاملًا على ظهره صليبًا من خشب الماهوجني وزنه مائة رطل، وحول جبينه تاج من الأشواك، حتَّى أمره مجلس المدينة بالتوقُّف؛ الدماء على وجهه تفزع الأطفال.

تحمَّس چاك وذهِل وتعجَّب. لا بُدَّ أنها تصف سيرك عجائب من القرن الثامن عشر، لا عائلتها.

رأى سيارة أبيه تقترب قبل أن تراها أمه، وسيارة كونور البرتقالية من خلفها. قال مشيرًا إلى السيارة: «انظري، هذا أبي. كنت أظنه في معرض الأسلحة».

نظرت أمه إلى ما وراء كتفها إلى السيارتين، واحتاجت إلى لحظات حتَّى تستوعب ما يحدث وتتوقَّف، ثمَّ تضع حقيبة السفر جوار قدميها.

توقَّفت شاحنة أبيه عند جانب الطريق، محتكَّة بجانبه فأثارت عاصفة ترابية خلفها. جلس والد چاك خلف المقود يحدِّق إليهما من خلف زجاج نظارته العاكس، وكونور جواره. وقفت السيارة البرتقالية خلف الشاحنة، ونزلت بِث منها وظلت جوارها ممسكة بالباب، تبدو مرتعبة. صاحت بِث: «لماذا لا تأتي إلى هنا يا چاك؟ سأعود بك إلى المنزل. الكبار يحتاجون إلى الحديث على انفراد».

قبضت بلوم على كف چاك، فحدَّق إليها، ثمَّ لاحظ حركة عند ركن عينيه، فنظر خلفهما. ثمَّة سيارة أخرى تقترب من ناحية البلدة، سيارة شرطة. أطفأت أنوارها وأغلقت صافرتها عندما اقتربت منهما. توقَّفت عند الجهة المقابلة من الطريق.

وقتها فقط نزل هانك مَكُورت، والد چاك الانفصالي[1] من سيارته الضخمة، وترجَّل كونور من الجهة الأخرى، محاذرًا أن يحمِّل وزنه كله على قدمه الصناعية. ابن عم چاك هو أكثر الرجال الذين عرفهم حظًّا؛ له ساق ميكانيكية عصرية، وسيارة «رود رَنر»، وبِث. قد يقتل چاك فقط ليحصل على أي واحدة من الثلاثة.

(1) الشخص الذي يساند الحركة الانفصالية التي تسعى لفصل مجموعة أشخاص عن المجتمع على أساس ديني أو عرقي أو جنسي أو غيره. (المترجمة)

اقترب أبوه منها، ذراعاه متدلِّيتان إلى جانبيه، كأنه يجبر نفسه على التظاهر بالهدوء. مُسلَّح بمسدس «جلوك» في جراب معلَّق عند خصره، لكن هذا معتاد، فهو لا يخلعه إلا للاستحمام. قال هانك: «اركب الرود رَنر يا چاك. ستوصلِك بِث إلى المنزل».

نظر چاك إلى أمه، فأومأت وأطلقت سراح يده. حملت بلوم الحقيبة وتبعته، لكن هانك حال بينهما. مد يده إلى مقبض الحقيبة -تصرُّف زوجي محض- لكنه بعدها وضع كفه على صدر بلوم ليمنعها من التقدَّم خطوة أخرى.

- كلا. ليس أنت. يمكنك الذهاب إلى حيث تشائين.

- لا يمكنك أخذه منِّي بهذه البساطة يا هانك.

- وأنتِ تستطيعين؟

هتف الشرطي الذي يقف على الطريق خلف والدة چاك: «ماذا يحدث هنا؟ هانك، هل هناك ما تخبرني به؟».

نزل شرطيان من السيارة، وتعرَّف چاك على المُحدِّث، وهو أحد أصدقاء أبيه. رجل ضخم ذو شعر أشيب، وأنف ضخم متورِّم منقوش بشعيرات دموية بنفسجية. الآخر شاب نحيل يقف على بعد خطوات في الخلف، يضع كفيه على حزام سلاحه، وعصا بيضاء تتدلَّى من جانب فمه. عصا مصَّاصة على الأرجح.

- زوجتي قرَّرت الهرب مع الصبي. ستأخذه إلى حيث لا يعلم أحد، ومن دون نقاش.

قالت بلوم: «هو ابني».

قال الشرطي الأشيب رودي سبولدينج: «وهو ابن هانك أيضًا. هل ستهجرين زوجك يا سيدة مَكُّورت؟».

قالت بلوم وهي تنظر إلى هانك، كلاهما يمسك بمقبض الحقيبة: «كلانا سيهجره».

نظر هانك إلى سبولدينج وراءها وهتف: «هي خطر على ابني يا رودي. ربما هي خطر على نفسها أيضًا، لكن لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك. أريد

أن يعود ابني إلى البيت معي، ومعه معلِّمته بِث. هي التي تتولَّى أمر دراسته المنزلية».

تصيح بلوم وهي تجذب الحقيبة: «نحن نتولَّى أمر دراسته المنزلية. هلا تركت الحقيبة؟».

ضغط هانك على قفل الحقيبة، ثمَّ تخلَّى عنها، فسقطت مفتوحة وسقطت منها الملابس على الحصى. ارتطمت زجاجة خمر بالرصيف، فارتفع كتفا بلوم في ذهول وهي تقول: «ليست ملكي. أنا توقَّفت عن الشرب.. أنا لم أشرب منذ...».

رفعت رأسها ونظرت نحو هانك. خداها يتبقَّعَّان بالحمرة.

- وهذه ليست ملكك أيضًا.

مال هانك يعبث وسط الملابس حتَّى أخرج رزمة أوراق مالية من فئة العشرين دولار. نظر إلى رودي سبولدينج وقال: «كنت في طريقي إلى ويتشيتا عندما لاحظت أن هذه الرزمة ليست معي. لهذا عُدت».

تهتف بلوم: « كذاب. أنا لم آخذ ماله. هو من وضعه في حقيبتي، ووضع هذه الزجاجة».

- ماذا عن هذه الأقراص؟

مال سبولدينج والتقط أنبوبًا بلاستيكيًّا برتقاليًّا، ثمَّ أردف: «ومَن دسَّ هذه لك؟».

- لديَّ وصفة طبية لها.

حاولت أخذ الأنبوب منه، لكنه أدار كتفه مُبعِدًا الأقراص عن متناول يدها. هتفت: «أنا أحتاج إليها!».

قال سبولدينج وهو يضيِّق عينيه محاولًا قراءة ما عليها: «لأي شيء؟».

- تراودني أفكارٌ سيئة.

قال هانك: «أنتِ تعترفين. الهروب بابني واحدة من تلك الأفكار».

- الأقراص تساعدني. چاك يحتاج أيضًا إلى المساعدة. ليس عليه أن ينتهي به الأمر وعقله مليء بجنوني.. أو جنونك يا هانك.

- الشيء الوحيد الذي يمكنه الحصول عليه من الخدمة الطبية الحكومية بعض الأقراص المجانية لتجعله سهل الانقياد، سهل التوجيه. كلا، شكرًا لك.

قبض سبولدينج على ذراع بلوم وقال: «أقول لكِ يا سيدة مَكُّورت، لماذا لا تذهبين معي إلى البلدة وتفضين إليَّ بمتاعبك؟ أنا مستمع جيد».

- سحقًا لك يا رودي سبولدينج.

بصقت على وجهه مردفة: «هو يحاول الإيقاع بي برزمة المال وزجاجة الخمر، وأنت تساعده لأنك تريد التقرُّب منه. تريد أن تذهب معه إلى ميدان الرماية وتُزيِّت مسدسه».

صاح سبولدينج محنقًا: «إلهي، لقد سئمت إدارة الأمور بهدوء».

أدارها بقوة حتَّى كادت تسقط، ثمَّ دفعها نحو سيارة الشرطة وأضاف: «لنتمشَّ قليلًا».

سدَّدت نظرة غاضبة من فوق كتفها، فحدق إليها هانك من خلف نظارته ذات العدستين العاكستين. هتفت: «سأطلب محاميًا. سأمسح بمؤخرتك الفاشيَّة أرضيات المحاكم».

- افعلي هذا ولنرَ أي قاضٍ سيحكم لك بالوصاية على طفلنا. هل سيختار امرأة مختلَّة سِكِّيرة ذات تاريخ حافل بالأمراض العقلية، وسجل جنائي أطول من طول ذراعي، أم سيختار جنديًّا بحرية سابقًا يوظف لديه ذوي الإعاقات الجسدية؟ لنرَ كيف ستسير الأمور. رودي، خذ هذه الخمر لو أردتها.

دفع رودي والدة چاك حتَّى السيارة بينما تتملص وتبصق. انتشل الشرطي الشاب زجاجة الخمر من بين كومة الملابس، ثمَّ أدارها نحو ضوء الشمس ليتحقَّق من العلامة التجارية. سأل چاك: «هل سيعتقلون أمي؟».

وضع هانك يده على كتف ابنه وقال: «ربما. لا تشغل بالك بالأمر. لقد اعتادت هذه الأمور».

2

يجلس چاك مُدلِّيًا ساقيه داخل حفرة عميقة. تحدِّق إليه أمه من قاع الحفرة بابتسامة حزينة معتذرة. كانت مدفونة حتَّى عنقها، فلا يظهر له إلا وجهها المتسخ. الدود السمين يمرح في شعرها. قاع الحفرة مضاء بنور أزرق لامع.

أُغلِق باب بصوت مدوٍّ كصوت طلقة نارية، فاستيقظ چاك جالسًا عند قمة الدَّرج. يبدو أنه عاد يمشي في أثناء النوم مرَّة أخرى. في مرَّات وجدته أمه يمشي خارج المنزل في الثانية صباحًا، ويأكل التراب. في مرَّة خرج إلى الطريق السريع عاريًا يحمل منشفة ويضرب بها أعداءً وهميين. لكن الوضع تدهور في خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة بعد رحيلها.

لا يزال يرى الوميض الأزرق، ولا يعرف لهذا سببًا. ظهرت بِث أسفل الدَّرج، تنظر إليه بعينين محمرَّتين من البكاء. تصعد السلم ثلاث درجات في المرَّة، وتجذبه من يديه ليقف.

تقول بصوت متهدج: «تعالَ يا صاحبي. لنُعد إلى الفراش».

اندسَّ تحت أغطيته، وجلست على حافة الفراش جواره. مسَّدت على شعره بكفِّها باستمرار كأنها تداعب قطًّا. يستطيع شم رائحة يديها، عشبية حُلوة، تُشبه عشب إبرة الراعي.

تنبض ومضات حمراء وزرقاء على سقف الحجرة الأبيض الناعم، وحول الستائر. سمع چاك أصواتًا ذكورية منخفضة في الخارج، وأصواتًا أخرى تُبَثُّ عبر لا سلكي الشرطة.

ليست هذه المرَّة الأولى التي تأتي فيها الشرطة. أغار عليهم مكتب الكحوليات والأسلحة النارية منذ عامين. قَلَبَ العملاء الفيدراليون المكان رأسًا على عقب، لكنهم لم يجدوا الأسلحة التي كانت مدفونة تحت الأرض على عمق ستة أقدام في الحظيرة، تمامًا أسفل الجرار.

انفتح باب الحجرة، وأطل منه هانك.

- چاك؟ أمك...

- أوه، هل جاءت لتأخذني؟

تمنى ألا يكون الأمر كذلك؛ هو مرتاح تمامًا تحت الأغطية، ويد بِث تداعب شعره، ولا يريد النهوض.

- لا.

عبر هانك مَكُّورت الحجرة وجلس جوار بِث. وضعت بِث كفَّها على كفِّه ونظرت إليه في بؤس. عدستا نظَّارة هانك تعكسان اللونين الأحمر والأزرق.

- أمك ستعود إلى البيت.

أغمضت بِث عينيها، وعضلات وجهها تصارع كي لا تُظهر مشاعرها القوية. سأله چاك: «حقًّا؟ أنت لم تعد غاضبًا منها؟».

- لم أعد غاضبًا منها.

- هل ستعيدها الشرطة إلى البيت؟

- كلا، ليس بعد. چاك، هل تعرف لماذا حاولت أمك الرحيل؟

- لأنك لن تسمح لها بالشرب.

كان قد تعلَّم هذه الإجابة كأنه نصٌّ دينيٌّ طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية، وسمعها مرارًا من أبيه وبِث وكونور. توقَّفت أمه عن الشرب منذ عامين، لكن مقاومتها خارت في النهاية كقاع كيس ورقي مبلَّل، ولم تعد تعبأ إلا بالخمر.

قال هانك: «هذا صحيح. أرادت الهرب إلى مكان تستطيع فيه الشرب وتناول أقراص الجنون هذه. هي تفضِّل هذه الأشياء عنك. كم هو قاسٍ أن نعلم أنها تحتاج إلى هذه الأشياء أكثر ممَّا تحتاج إلينا. كانت تقيم في المساكن الاقتصادية قرب متجر الكحوليات كي لا تحتاج إلى الابتعاد كثيرًا لتشتري خمرها كما أفترض. اشترت زجاجة خمر چِن ظهر اليوم، وأخذتها إلى الحمَّام معها. عندما قامت من المغطس، انزلقت وشُجَّ رأسها».

- أوه.

- لقد ماتت.

- أوه..

- كانت مريضة، أنت تعرف هذا. كانت مريضة عندما قابلتها، وظننت أني سأستطيع مساعدتها، لكنِّي فشلت. يبدو أن الأمر مُتأصِّل في عائلتها. تراود أمك أفكارٌ معينة تنغِّص عليها، وحاولت إغراقها بالخمر، في النهاية لم تغرق إلا نفسها.

انتظر رد جاك، لكن الأخير لم يكن لديه أي شيء يقوله. أخيرًا أضاف أبوه: «لو شعرت أنك تريد البكاء، فافعل. لن يقلل هذا منك».

- كلا يا سيدي.

تفحَّصه أبوه للحظات من خلف عدستي نظارته، ثمَّ أومأ، ربما موافقةً، ثمَّ اعتصر رُكبة جاك ونهض. لم يتعانقا، ولم يتعجَّب جاك؛ هو لم يعد طفلًا، بل في الثالثة عشرة. من هم في سنِّه شاركوا في الحرب الأهلية ضد اليانكيز. كثيرٌ ممَّن هم في سنِّه ماتوا أو قُتِلوا، ممَّا يجعل الأمر طبيعيًّا بل وحتميًّا.

خرج هانك، وانتظر بِث. لم يبكِ جاك، وبكت هي وهي تضمُّه إليها ويهتزُّ جسدها بالنحيب.

عندما فرغت من البكاء، مسحت على صدغ جاك فأمسك كفَّها البيضاء وقبَّلها، فتذوَّق طعم الصابون بعشبة إبرة الراعي. بعدما رحلت ظل الطعم، حلوًا على شفتيه كطعم زينة الكعك.

3

دفنوا أمه في يوم عاصف من أول مارس، قبرها خلف بستان في المزرعة. جاك ليس واثقًا من أن هذا قانوني، لكنَّ أباه قال إنه لا يوجد مَن يمنعهم من ذلك.

لم توضع بلوم في تابوت وتُحنَّط[1]. قال هانك إن التحنيط مضيعة للوقت.

- لا تحتاج إلى تسميم شخص بعدما يتوفَّى بالفعل. يعلم الله أنها نالت كفايتها من السموم وهي حية.

انتهى بها المطاف ملفوفة في ملاءة بيضاء مبقَّعة، فبدت البقع كتمائم سحرية على الكفن. لف والد جاك شريطًا لاصقًا فضيًّا حول كاحليها وعنقها بعدما أحكم الملاءة حولها. حفر اللحد مع بعض أصدقائه من الانفصاليين مثله.

(1) تحنيط بسيط بضخ الفورمالين في عروق المتوفَّى بدلًا عن دمائه. (المترجمة)

جاؤوا من أرجاء الولايات ليساندوا هانك في مأساته. عبارة عن حشد من القبعات والشوارب والأسلحة. واحد منهم، شحيم، مُسمرٌّ من الشمس، بعينين جاحظتين ورأس حليق، يعلِّق سرواله بحمَّالتين، ويحمل بندقية على كتفه.

بوصول الحفرة إلى عمق مناسب، حمل كونور وبعض الآخرين الجثة وناولوها إلى هانك الراكع بالأسفل. مسح هانك على حاجبي زوجته مكشوفة الوجه. ربما همس لها شيئًا. نظر إلى أعلى والتقت عيناه بعينَيْ چاك مرَّة واحدة. عيناه من خلف نظارته تلمعان بالدموع التي لم تنسكب خارج جفنيه قط.

لم يستطع چاك أن يبعد عن عقله فكرة أن عينَيْ أمه مفتوحتان، وأنها ستحدِّق إليه من خلال الكفن. يرى انفراجة شفتيها والقماش ملتصق إليهما. في أي لحظة يتوقَّع أن يسمعها تئنُّ.. أو تصرخ.

أمسكت بِث بكتفي چاك لتواسيه رغم أنه لم يكن هو الذي يبكي. رأسه مستند إلى صدرها العارم. مدَّ كونور يده إلى الحفرة، لكن والد چاك تجاهلها وخرج بنفسه من القبر. نفَّض كفيه وسار نحو چاك ليضع يده على كتفه.

- هل تريد رمي بعض التراب عليها؟

- لماذا أفعل شيئًا كهذا؟

نظر هانك إلى ابنه ليتبين إن كان يمزح، لكنه فهم أن الولد لا يعرف السبب حقًّا.

- على شرف ذكراها.

- أوه...

انحنى چاك وقبض على حفنة من التراب، وتركها تتسرَّب من بين أنامله إلى الأرض. هو لا يريد تكريم ذكراها بقبضة من تراب. قال هانك: «لا بأس. ربما تود أن تحضر لها بعض الأزهار يومًا آخر».

بِث أول من ألقت عليها حفنة من تراب. بدت غاضبة متصلِّبة الجسد. صدر صوت خافت مكتوم إذ ارتطم التراب بالملاءة المُحكمة، كأنه صوت كفٍّ طفل يقرع طبلًا. فعل الآخرون مثلما فعلت، ثمَّ وجد الرجل ذو حمَّالتي السروال جاروفًا، فبدأ يردم الحفرة. بعض الرجال أطلقوا الرصاص إلى السماء حزنًا، وفُتِحت زجاجة بُوربون وصُبَّ منها في الكؤوس.

وفي خلال أقل من نصف ساعة، كانت قد غُرست في الأرض مثل بذرة.

4

بعد خمسة أسابيع من زراعة أمه في التربة، كان چاك في البلدة مع بِث وكونور. أقرضهم أبوه الشاحنة، وكان لكونور عمل في متجر كورديا الزراعي، وقالت بِث لچاك أن يأتي معهما ليحميها، وأخبرته أنها تحاول حماية أسنانها لكنها قلقة من تأثير ماكينة الحلوى في صالة المتجر عليها، لكن إن ذهب چاك معهما سيأكل أغلب الحلوى، وستظل أسنانها سليمة وسيرغب كونور في تقبيلها دائمًا.

قال كونور وهو يغمز نحوها كأنه يتحدَّاها: «ربما أقبِّلك».

ضحكت، وقبَّلته قبلة تحوَّلت إلى عضَّة، مضغت فيها بِث شفته السفلى، وفي طريقهما إلى الشاحنة، صفع ردفيها. تلك التصرُّفات الحميمية تضايق چاك. وللحظة شعر بالأسف لعودة كونور من أفغانستان، وهي أمنية خبيثة تملأه بالشعور بالخجل من نفسه.

كانوا على بعد مائتي ميل من البلدة، ومائتي ميل من المزرعة، عندما صرخت بِث وهي تنظر من النافذة: «توقَّف!».

كأنها رأت مشنوقًا على جانب الطريق. أدار كونور عجلة القيادة كجندي اعتاد المناورات في ساحة المعركة فأثارت الشاحنة سحابة من الغبار الأبيض خلفهما قبل أن تتوقَّف. أمالت بِث عنقها لتنظر إلى لافتة معلقة أمام مزرعة وقالت: «مكتوب على اللافتة إن لديهم بيض سمَّان».

حدَّق كونور إليها، فهتفت: «ألم تسأم البيض الخارج من مؤخِّرات الدجاج؟ ألا ترغب في التجديد؟».

- أرغب.. لكنني كدت أخلع عجلة القيادة!

مشت بِث وچاك يدًا بيد إلى منضدة العرض وضوء الشمس ينير وجهيهما.

لم تكن منضدة العرض سوى طاولة خشبية مغطاة بشرشف بنقشة المربعات باللونين الأبيض والأخضر، فوقها سلال من الخوص مليئة بالفجل واللفت. جوار المنضدة امرأة مسنَّة تجلس على مقعد قابل للطي، تبدو نائمة وذقنها يلمس صدرها. عرف چاك أنها مسنَّة لأن ذراعيها مكشوفتان متهدلتان، تبرز أوردتهما الزرقاء، لكنه لم يستطع رؤية وجهها المغطى بقبعة قشٍّ.

مكتوب على اللافتة:

بيض سِمَّان! لذيذ جدًّا!

ورق تبغ عسلي ممتاز!

زبد تفَّاح!

كعك صغير، طماطم كبيرة،

بذور للحديقة.

نظرت بِث إلى صندوق أحذية مبطَّن بالقشِّ ومليء بالبيض المبرقش الصغير.

- أنا لم أرَ بيض سمان من قبل.

قالت العجوز: «لديَّ علاج لهذا يا عزيزتي!».

عبرت أشعَّة الشمس من خلال فتحات القبعة المصنوعة من القشِّ، فأضفت على وجه المرأة ظلالًا خضراء بسبب لونها. عندما تبتسم، يتسع فمها عن آخره كفم شخصية الچوكر في القصص المصوَّرة. شعرها الرمادي مشدود إلى الخلف، مبرزًا جبهتها العريضة وأنفها الروماني المعقوف، وخطر لچاك أنها تشبه چورچ واشنطن. بمجرَّد أن خطر له الأمر، غمزت نحوه كأنها سمعته، وترغب في أن يعرف أنها لم تتضايق. قالت: «سمعت عنكم.. أنتم كارهي الضرائب الذين يعيشون هناك، وتؤسِّسون لأمَّة منفصلة. أتمنَّى ألا تدفعوا ثمن البيض بعملتكم.. أنا لا أتعامل إلا بالحبيب الأمريكاني».

ضحكت ضحكة جافة أرجفت چاك. أجابتها بِث: «سأدفع بالعملة الأمريكية طبعًا».

وصارت ابتسامتها أكثر برودة وهي تضيف: «لِمَ لا؟ لم يعد يساوي الورق الذي يُطبَع عليه. لم يعد يساوي شيئًا منذ هجرنا تسعير قيمة الدولار مقابل الذهب عام 1933. المفترض أن ندفع مشترياتنا بالسجائر، على الأقل ستظل لها قيمة بعدما تنهار البلاد».

سألتها العجوز: «أتريدين الدفع لي بالسجائر؟ هذا سيوفِّر عليَّ رحلة شراء سجائر بعدما تشتري بيضي».

- أعرف كل الساكنين في الجوار. من أين أنتِ؟

- من الحكومة الفيدرالية! أنا عميلة مخابرات متنكِّرة وأثبِّت أجهزة تصنت تحت ملابسي!

ضحكت مجدَّدًا وأردفت: «أنا أكبر العملاء الفيدراليين عمرًا في التاريخ. منحني هـ. إ. هوڤر شارتي بنفسه وفستاني الذي أرتديه أيضًا! لنا الذوق نفسه في اختيار الملابس».

سألتها بِث عن ثمن دستة بيض، وقالت لها المرأة إنها تريد ثمانية وأربعين. سألتها بِث عن طعم التبغ عندها، وقالت العجوز إن طعمه يشبه العسل.

- ما المميَّز فيه إذَنْ؟

- لو مضغت منه الكثير ستصابين بالسرطان.

فتحت بِث حقيبتها وأخرجت ورقة نقدية مجعَّدة وقالت: «أريد الباقي».

- هل أنت واثقة من ذلك؟ ألم نتفق للتَّوِّ أن ليس للعملة الأمريكية القيمة التي نتخيَّلها؟ ماذا لو أعطيتك مليمًا وتخيَّلتِ أنه دولار؟

- كلا. خيالي ليس خصبًا.

- الآن، هذا مؤسف. الناجي الحقيقي.. الشخص الذي نجا بما يعتنق.. سيجد أن الخيال أكثر قيمة من الرصاص أو الفول. غياب الخيال سيؤدِّي إلى عواقب لا يمكن تفاديها.

قالت بِث: «هل سأدفع مالًا زيادة مقابل كل هذه الحكمة؟ أم أنها على حسابك؟».

أخرجت العجوز صندوقًا معدنيًّا من أسفل المنضدة وعدَّت باقي نقود بِث، وأعطتها لها باسمة.

- الحوار الجيد أفضل من بيض السمَّان، والجلوس هنا وحدي مطولًا يفتح شهيتي للحديث. أتمنَّى ألا يكون كلامي ضايقك.

بينما تتناوش المرأتان، اتجه چاك إلى طاولة العرض. أعجبته صناديق الفراولة الصغيرة في حجم الأزرار، والفلفل الأخضر الزيتي. عبث وسط أكياس البذور، وتوقَّف عند واحد مكتوب عليه «حلوى ذُرة»، مع رسم لكوز ذرة ذي حبوب برتقالية وصفراء.

قال چاك لنفسه: «لا يمكن للمرء أن يزرع حلوى ذُرة».

أجابت العجوز كأنه سألها: «يمكنك زراعة أي شيء. يمكنك زراعة فكرة. كنت أعيش بجوار مزرعة توليد طاقة.. مَن يعرف ماذا قد تزرع؟ القتلَة يزرعون أحيانًا أدلَّة زائفة لتضليل الشرطة».

نظر إليها چاك فَزِعًا، وتسارعت دقَّات قلبه، لكن إن كانت تعني أي شيء بعبارتها الأخيرة، فلا يمكن معرفته من خلال ابتسامتها العريضة وعينيها المشرقتين. قلَّب أكياس البذور مرَّة أخرى، فرأى واحدًا آخر مكتوبًا عليه «صواريخ». ومطبوعًا عليه رسم صاروخ يخرج من التربة.

- لا يمكن زراعة هذا أيضًا.

- الصواريخ المزروعة في كل مكان حول العالم تكفي لقتل كل واحد على وجه الأرض عشر مرَّات.

الكيس التالي مكتوب عليه «أُمَّهات»[1]، وعليه رسم لزهرة ذهبية ذات وجه باسم. الزهرة ترتدي فستانًا وتمسك يد طفل. قالت العجوز: «خمس وعشرون سنتًا. ازرع لنفسك أُمًّا. ازرع لنفسك أمَّهات. ازرع أي عدد تحتاج إليه».

قالت بِث وهي تحمل مشترياتها في كيس بُني ورقي تضمه إلى صدرها الجميل: «هيا يا صاحبي».

أمسكت المرأة بكيس بذور الأمهات ومدَّت يدها له.

- أجمل أمهات ستراها. جميلات وقويات. اسقهن، وعرضهن للشمس والحب، وسينبتن ويقعن في هواك يا چاك.

أجفل چاك من المفاجأة؛ كيف تعرف اسمه. لكن.. لحظة. هي لا تعرفه (ولا يمكن أن تعرفه)... لا بُدَّ أنها اختارت اسمًا على وزن كلمة «هواك» لا أكثر. أي طفل يمكن أن تناديه بأسماء مألوفة كهذه.

أخرج رُبع دولار من جيبه، فاختطفته منه كطائر يختطف بذرة من التربة. حدَّقت إلى العملة ثمَّ أدارتها لترى النقش البارز لصورة الرئيس واشنطن وصاحت: «ما هذا! كأنها صورتي! نسخة مني!».

نادته بِث وهي تدخل إلى السيارة:

- چاك! هيا.

---

(1) نبات من الزنبقيات له زهرة مكورة ملونة، اسمه الشائع «Mums». (المترجمة)

أخذ چاك كيس الأمَّهات وانطلق نحوها. قالت المرأة من خلفه: «كل شيء جيد له ثمن.. وكل شيء خبيث أيضًا.. خصوصًا كل شيء خبيث. موعد الحصاد سيأتي، وسيذبح المنجل أعواد الذرة، وهو أمر مؤكد بالضبط كجريان الماء من أعلى إلى أسفل! ها ها ها!».

وصفقت كفيها كأنها قالت شيئًا ذكيًّا مميزًا.

قالت بِث والسيارة تتحرَّك مرَّة أخرى: «يا لها من عاهرة مختلة. أعترف أنني سعيدة أنها لم تعُض أينا».

ثمَّ رأت چاك ينظر إلى الكيس بين أصابعه، فسألته: «ماذا اشتريت؟ بذور أزهار؟».

قال چاك: «أبي قال إنه يمكنني زرعة شيء لبلوم».

وكان قد تعوَّد أن يشير إلى أمه باسمها مثلما يفعل الآخرون. قالت بِث: «أوه، كم أنت لطيف. هل يمكنني مساعدتك؟».

أومأ موافقًا، فهو يحب أن تقترب منه. طوَّقته بذراعها طيلة الطريق حتَّى متجر كورديا الزراعي حيث ساعد چاك كونور في تحميل شكائر نترات الأمونيوم إلى صندوق الشاحنة، وبينما يغلق كونور أبوابها الخلفية، ذهب مع بِث ليشتريا الحلوى من الماكينة.

قالت بِث وهي تقضم قطعة حلوى بأسنانها الصغيرة البيضاء:

- إمم.. أحب الحلوى الحامضة. كأنها مُشِعَّة! لا بُدَّ أنها تضيء. هل تفهم ما أقول؟

أومأ چاك ولم يرد لأن فمه كان مليئًا بالحلوى الحامضة المشعة اللذيذة. الطريقة التي يدقّ بها قلبه بسرعة تشي أن مجرى دمه تحوَّل إلى سُمٍّ حُلو سائل الآن.

5

لصوبة الزرع سقف محنٍ مثل سقف حظيرة الطائرات، باستثناء أن الحوائط مصنوعة من بلاستيك قوي التحمل. العالم من خلفها مُضبَّب كأنه مرسوم بالألوان المائية. اصطحبت بِث چاك إلى واحدة من الطاولات التي

تحمل أصص زرع بلاستيكية رخيصة. قالت بِث: «مؤسف أننا لم نزرع هذه منذ أسبوعين. الثلج غطَّى الأرض أمس، لكني أظن أن السيد شتاء قد رحل الآن. الطقس يتبدَّل والأمهات ستحتاج إلى شمس الربيع. سنزرعهن داخل الصوبة أولًا، ثمَّ حين يكبرن بعد ستة أسابيع سننقلهن إلى الخارج».

درست بِث الزراعة في جامعة أيوا، وتعرف ما تتحدَّث عنه. تولَّت تدريس الأحياء والعلوم الطبيعية لچاك منذ سنوات، أما بلوم فدرَّست له الإنجليزية والتاريخ والحضارة والتربية الوطنية. المفترض أن يقوم والده بهذا الدور الآن لكنهما لا يتقابلان إلا مرَّتين في الأسبوع عندما يكون هانك غير مشغول بالمزرعة أو في زيارة أصدقائه أو منشغل في الحركة النضالية. يحب چاك قائمة قراءات بلوم، فهي تتضمَّن روايات هاري بوتر ونارنيا، لكن بالنسبة لأبيه، چاك مستعد لقراءة «انظر الحصان الشاحب»[1]، الذي لا يعتبر كتابًا بالضبط، لكنه أقرب إلى مجموعة من البيانات والمقولات والاعترافات.

كونور أيضًا يُدرِّس لچاك، فقد علَّمه قيادة الشاحنة بين عوائق، وعلمه تركيب السلاح معصوب العينين، وكيفية صنع قنبلة أنبوبية. لأسباب واضحة، دروس كونور هي الأكثر تشويقًا، لكنها غير مستمرة إذ يسافر ابن عم چاك كثيرًا خارج الولاية في «جولات استطلاعية». سأله چاك في مرَّة عن الأمور التي يستطلعها، فضرب كونور رأسه برأسه وأجاب: «ما لا تعرفه لا يمكنك الإخبار به، حتَّى تحت استجواب قاس كهذا».

حملت بِث وعاء أبيض من البلاستيك يحوي تربة زراعية، فهرع چاك يساعدها. ملأ الأصص بتراب رطب، أسود كفتات كيك الشوكولاتة. فتح چاك كيس البذور ودسَّ إصبعين فيه ليُخرج بعضها.

- آه!

صرخ وسحب إصبعيه. للحظة شعر أن شيئًا عضَّه.. فأر.. ونزت قطرات دماء من أطراف أنامله. صب البذور في كفه، مَن يعلم؟ ربما عضَّته بالفعل. بدت كأسنان اللواحِم ودمه يلطخها.

سألته بِث: «ماذا تفعل يا چاك؟ المفترض أن ترويها لا أن تنزف عليها».

- يجب أن نُنعش شجرة الحُرية من وقت إلى آخر بدماء المناضلين.

---

(1) كتاب لويليان كوبر، يحوي عددًا من نظريات المؤامرة التي لا يستند بعضها على أدلة إلا خيال المؤلف. (المترجمة)

قالها چاك، فضحكا رغم حرج بِث من ضحكها على عبارة كهذه، من مفضلات هانك مَكُّورت، والسخرية منها تعتبر خيانة من نوع ما.

6

قالت بِث إن الأمهات لن تكنَّ مهيآت للنقل إلى الحديقة قبل شهر مايو، لكن بعدما غرساها بأسبوعين، ذهب چاك ليتفقدها، ثمَّ هرع عائدًا إليها. كان الفجر قد بدأ يطلي السماء بالوردي، وهو يوم استثنائي لم تستيقظ فيه بِث عند شروق الشمس. لو كانت متيقظة لسمعته حتَّى من بيتها عند نهاية الممر الحصوي. عبر الشرفة الخارجية ونزل إلى الباحة حيث شجرة البلوط المحمَّلة بالأوراق. حين نادى اسمها اهتزت الأوراق وهربت من بينها مئات العصافير.

سألته بِث في قلق: «أين النار يا صاحبي؟».

نظرت إليه بعينين ناعستين من خلف الباب السلكي. لِكسر من الثانية تفاجأ لرؤيتها هناك داخل بيته. اعتاد أن يراها في هذه الساعة بجلباب النوم خارج المنزل، تساعد كونور في ارتداء ساقه الصناعية وتغتسل، ثمَّ تجهِّز الإفطار للرجال الثلاثة في مطبخ بيت المزرعة.

عاد إلى الشرفة الخارجية ممسكًا يدها، وقادها إلى الصوبة. كان قد ألقى عليها نظرة واحدة ولم يجرؤ على أخرى. شعرها مشوَّش وترتدي سترة من الچينز الباهت فبدت جميلة لدرجة أخذت عقله. أشاح بنظره إلى قدميها البيضاء النظيفة الحافية.

عقدت حاجبيها عندما رأت النباتات في الأصص. للأمهات أوراق ملفوفة تخرج بالفعل من التربة، في حجم الكف.

- ها! يا لها من نبتة كبيرة.
- أليست أمهات؟
- تبدو مثلها، لكن لم يمر وقت طويل على زراعتها كي تنمو إلى هذا الحد. لا أعرف إن كانت هذه أمهات أو نوعًا آخر مشابهًا، لكن تساورني الشكوك. هل تود أن نكمل تجربتنا الزراعية أم نئِدها؟

ضيق عينًا واحدة كما يفعل كونور وهو يوشك أن يتفوه بشيء حكيم وقال: «لننتظر. هل سَنَ(خس)ر شيئًا؟ ليس لدينا (خيار) آخر».

احتاجت إلى دقيقة لتفهم دعابته اللفظية، وحين فعلت، ضربت كتفه بقبضتها وقالت: «ستكون (لفتة) جيدة أن ننقلها إلى الخارج. فهمتها؟ لِفتة.. لَفتة؟».

- إممم. هل جئت هذه المسافة كلها حافية؟ لا بُدَّ أن قدميك قد تجمَّدتا بردًا.

- أجل، أعرف. لكني كنت متعجِّلة لبدء اليوم عمومًا. بهذه المناسبة، لندسَّ في فمك بعض الطعام. ليست النبتة هي الشيء الوحيد في طور النمو هنا.

سعادة قلبه وخفَّة روحه شتتاه عن التعجب من نظافة قدميها إن كانت قد سارت كل هذه المسافة حافية.

7

ساويا التربة حول النباتات، ثمَّ جلسا على ركبهما معًا أمام قبر بلوم. شاهد القبر من الرخام الوردي، مطبوع عليه بطريقة كيميائية ما صورتها يوم زفافها في سن التاسعة عشرة، تبتسم، عيناها تنظران إلى أسفل، وزهرة مثبَّتة إلى شعرها.

داعبت النسمات أوراق النبات الذي قد يكون أمهات أو لا يكون، فمسحت أوراقه الشاهد. سُر چاك بالمنظر وبصنيعتهما هذا الصباح، لكن دموع بِث لفتت نظره، فلف ذراعيه حولها في تصرُّف لا يخلو من منفعة خاصَّة.

مسحت بِث خديها بكفها، وشهقت فسحبت المخاط إلى أنفها بطريقة غير أنثوية عفوية وقالت: «أتمنَّى لو أستطيع استعادتها. لم تكن تحبك فقط، بل أحبَّتني أنا أيضًا.. أكثر ممَّا أستحق. لو أنني أحببتها كما أحبتني لكانت حية الآن».

- لا. هذا ليس حقيقيًّا.

- بل حقيقي. كنت أعرف ما كان سيحدث لها لو غادرتنا. كان عليَّ أن أهوي على ركبتَيَّ وأرجو والدك كي يسمح لها بأن تعود إلى البيت. أعرف أنها لن تستطيع العيش بعيدًا وحدها، ليس وكل تلك الأفكار البغيضة تنهش عقلها. ومع ذلك تركتها ترحل.. أي نوع من الأشخاص أنا؟

ضمَّها چاك إليه وقال: «لا تحزني يا بث. أنت لم تتسبَّبي في انزلاقها داخل حوض الاستحمام».

أطلقت بِث صوتًا بين الانتحاب والحشرجة، وضمَّته إليها أكثر. جسدها الرشيق العضلي يهتز تحت جلدها، يرتجف. أضاف چاك: «إضافة إلى هذا، أنت ساعدتني في زراعة الأزهار. أنت تخبرينها الآن كم تحبينها بمساعدتك لي. الأزهار أفضل طريقة للوداع».

8

استيقظ چاك من حلم مُقلق سخيف ليكتشف أنه مريض. ثمَّة إحساس بالثقل في صدره. جلس على طرف الفراش في ظلام حجرته يسعل، فيصدر صدره صوت خشخشة.

هو يحتاج إلى الري.. كلا، يعقد حاجبيه. هو يحتاج إلى أن يرتوي، لا أن يُروى.

عبر الأرض العارية الباردة حافيًا، وعند الباب، ضرب صدره بقبضته ليُجلي حنجرته، فسعل مرَّة أخرى، وخرجت من حلقه كتل بُنِّيَّة لوَّثت كفَّه. دم؟ أمال كفَّه يمينًا ويسارًا حتَّى تبيَّن أن ما سعله لم يكن سوى تراب.

ترنَّح چاك نازلًا الدَّرج، يشعر بضغط يتزايد في صدره، وسعلة أخرى تتهيَّأ إلى الانطلاق. سمع أصواتًا مكتومة كأن أذنيه مسدودتان بالمزيد من التراب.

عند نهاية الدرج، انحنى يستند إلى ركبتيه ليسعل سعلة قوية.. لكن شيئًا توقَّف في حلقه. حاول أن يأخذ شهيقًا ففشل، وفجأة اختنق. شيء جاف وليفي يسدُّ حنجرته. فتح فمه ودسَّ إصبعه في حلقه ليجبر نفسه على

التقيُّؤ، فلمس ما شعر كأنه خيط، أمسكه بإبهامه وسبابته وجذبه. صدر عنه غرغرة رطبة مقرفة حتَّى أخرج ما بدا له أنه جذور مشعرة بُنِّيَّة متربة. ظل يجذب ويجذب، حتَّى خرج آخر آخرها.. نوع من النباتات ذي قرون خضراء من ناحية، ومن ناحية أخرى خيط من لعابه.

طوَّحها چاك جانبًا في ذعر، ثمَّ استدار متجهًا بسرعة إلى المطبخ، فزعًا، يبحث عن مساعدة، ويريد التخلُّص من طعم التراب في فمه. وكما يحدث عادة في الأحلام، ظل يطوف في نواحٍ غير موجودة من المنزل. هرع إلى غرفة أرضيتها ترابية لا خشبية. أحدهم يحفر القبور هنا. دخل إلى غرفة أخرى فوجد بِث ترقد عارية في حوض استحمام، تغسل ساقها الوردية. لا تستخدم في ذلك قطعة صابون، بل «زهرة صابون». يظنها چاك نبتة إبرة الراعي. تسأله إن كان يرغب في مرافقتها في حوض الاستحمام، لكنه يهرب ويجري. ارتطم بباب المطبخ واندفع نحو الحوض وفتح الصنبور. اهتز الصنبور وارتجف وعوى، ولم يخرج منه شيء في البداية، ثمَّ اندفعت منه فقاعات وماء مختلط بالصدأ. حدَّق إلى الماء ولونه يزداد دُكنة وسُمكًا، رائحته كرائحة التربة المنبوشة. تقول أمه برقة: «اغسل وجهك». ثمَّ تدفع رأسه إلى الماء القذر.

توقظه برودة المياه.

ترنَّح أمام حوض المطبخ وهو يغترف الماء النظيف بكفِّه ويغسل وجهه. مع كل غرفة ما يشغل المزيد من رعب الليلة. بينما يكون في واحد من كوابيسه، يشعر أنه حقيقي أكثر من الواقع نفسه، لكنها سرعان ما تذوب كندف ثلج بين كفَّيه. يشرب من الصنبور مباشرة حتَّى تنتظم دقات قلبه ويشعر بالنعاس. هو يعرف أنه كان يسير في أثناء النوم لأنه لا يتذكَّر كيف نزل الدَّرج، ولا يتذكَّر أيضًا شيئًا من حلمه عن بِث وساقها المحمرَّة من سخونة الماء.

الساعة فوق الموعد تخبره أنها الواحدة صباحًا.

ملأ چاك كوب ماء، فحلقه لا يزال جافًّا متربًا، وتساءل إن كان قد خرج من البيت وأكل ترابًا مرَّة أخرى.. لفت انتباهه صوت رجل في قاعة الطعام، بل رجلين: والده وكونور. يبدو أنهما لم يسمعا صوت حركته. قطع چاك عرض المطبخ الفسيح نحو بابه المفتوح، المستند إلى مسند من الصلب على هيئة

كوز ذرة. كاد چاك يدخل لتحيتهما، لكنه أغلق فمه وظل في ظلام المطبخ يتلصَّص على أبيه وابن عمه.

حاسوب هانك المحمول مفتوح، والشاشة تعرض صورة مبنى فيدرالي في أوكلاهوما بعد انفجار قنبلة تيموثي مَكفْي وأسقطت واجهة المبنى كله. سمع چاك من والده أكثر من مرَّة أن أوكلاهوما أول خطوة في طريق طويل، وعندما سأل چاك عن الطريق المقصود، صفعه أبوه برفق على مؤخِّرة رأسه وابتسم في محبة.

وضع هانك يده على كتف ابن أخيه، بينما يميل كونور نحو المنضدة وظهره إلى المطبخ. يتفحَّصان ما أمامهما؛ خريطة لمنطقة من الضواحي، ومخطط يدوي لمبنى.

- ... أسهل طريقة عبور إلى المرأب. قِف في الطابق الأول، الصف A واترك المفاتيح في السيارة، ثمَّ ترجَّل.

- مكتب مكافحة المخدرات والأسلحة في الطابق الأخير؟

دارت كف هانك على ظهر كونور في دوائر وهو يجيب: «وهناك مكتب للضرائب في المبنى نفسه، الطابق الرابع. مكتب صغير، لكن يثير الشهية مثل حبة كرز فوق كوب آيس كريم».

فكَّر كونور للحظة ثمَّ رفع ذقنه وضحك. أدار وجهه إلى الجانب فظهرت عيناها تلمعان بالحماس وفمه مفتوح. رأى چاك في ابن عمه شيئًا لم يره من قبل؛ الحماقة.

- تخيَّل!

وصفَّق كونور كفَّيه مضيفًا: «ستمطر أشلاؤهم فوق ثلاثة شوارع حول المبنى. ستمطر لحمًا».

- بل وستدور أجزاء منهم في مدار حول الكوكب.

أحنى كونور رأسه ليدرس الخرائط مرَّة أخرى، وعندما تحدث مجدَّدًا، جاء صوته أكثر رزانة.

- ستعتني ببِث؟

- أنا بالفعل أعتني بها.

- أجل. هذا صحيح. تعتني بها أفضل ممَّا أفعل.

قال عبارته الأخيرة بمرارة واضحة.

- ما حدث لك في الصحراء جريمة.. لكنك لم تعد نقصًا، بل عدت كاملًا وأكثر. بيثي الصغيرة تعرف هذا. بِث تعرف ما في وسعك فعله، وكذا أنا. سيأتي يوم ويعرف الجميع.

فرد كونور ظهره وقال: «ليتنا ننفِّذ غدًا».

- المكتب الإقليمي في أكتوبر.. وهذا وقت قريب كفاية.
- لو أن معنا وقتًا حتَّى أكتوبر.. لو أنها لم تخبر أحدًا.
- لم تخبر أحدًا.
- لا يمكنك التأكد من هذا.
- أنا متأكد. واثق. استجوبتها بِث وأخرجت منها كل شيء. بلوم تعرف ما قد يحدث لو أغار علينا العملاء الفيدراليون مرَّة أخرى. تعرف أن هذا سيكون فوَّهة مسدس مصوبة إلى رأس ابنها. لقد حذَّرتها وكرَّرت التحذير أكثر من مرَّة. قلت لها لو جاؤوا، لن أتردَّد.. سأدفن الولد بيديَّ قبل أن أدع الحكومة تأخذه مني. كلا. لقد كانت مجنونة يا كونور، لكنها لم تكن حمقاء.

ينزلق الكوب من بين أصابع چاك، فيقبض عليه قبل أن يسقط. وضع الكوب بحرص في الحوض المعدني وطار إلى فراشه كظل بومة تطير عبر حقل مضاء بنور القمر.

9

لم يستطع النوم.

في الخامسة إلا عشر دقائق نهض من فراشه وخرج على ساقين مرتجفتين، ومعدة سقيمة.

يسطع ضوء خافت عند الأفق، وضباب خفيف يفترش الحقول. فكَّر في أن ينقل لبلوم بعضًا ممَّا سمع، فسار حافيًا فوق العشب الرطب إلى مقابر العائلة. فتح البوابة الحديدية المرصعة بحبَّات الندى، واتجه إلى القبر فركع

جواره. تنمو نبتات الأمهات في باقات من الأوراق الخضراء الزيتية العريضة، ولا أثر لأزهار.. ليس بعد. يبدو أنها تحتاج إلى وقت أطول لتُزهر.

لا يستطيع تذكر أغلب ما سمع الآن. شيءٌ عن مكتب المخدرات والأسلحة، شيء عمَّا حدث لكونور في أفغانستان حيث كان يُقتل بنيران صديقة ضحية غارة بالطائرات دون طيَّار شنَّتها حكومة بلده. ما حدث لكونور فيما تحت خصره لم يُناقَش، لكن چاك يعرف أنه فقد ما هو أكثر من ساق. لقد رأى كونور مُنزِلًا سرواله، ورأى الجرح على عضوه الذكري الذي أحاله إلى شيء بلا مقدمة.

خطر لچاك عبارة أبيه: *سأدفن الولد بيديَّ قبل أن أدع الحكومة تأخذه منِّي*. وظلت العبارة تتردَّد، وفي كل مرَّة تؤلمه كأنها رصاصة في رأسه. تلك العبارة، وما عرفه عن أن بِث استجوبتها وعرفت منها كل شيء... ثمَّة ظلال لمعنى ما في هذه التصريحات.

لا بُدَّ أن يفعل شيئًا في تلك الطاقة المُمرِضة التي تحتشد في صدره. يشعر أنه ما لم يكسر شيئًا سيتقيَّأ، لكن لا شيء يكسر في متناول يده الآن، فجذب سيقان النباتات البارزة من الأرض.

جذور الأمهات راسخة بدرجة مذهلة كأنها تقبض على التربة. جزَّ على أسنانه وجذب أكثر، فتداعت التربة أخيرًا، وكأن الجذور تتشبث في شيء ثقيل على مسافة عميقة. جذب أكثر.. أغلق عينيه.. جذب.. ثمَّ فتحهما، ولم يستطع أن يصرخ؛ لم يعد هناك هواء في رئتيه.

لقد جذب رأسًا من تحت الأرض.

ليس رأسًا كاملًا، فقط الجزء العلوي بداية من حاجز الأنف. هذا وجه امرأة.. كلا.. هناك ما هو أكثر. هذا وجه أمه إلا أن بشرتها مخضرَّة شمعية، وشعرها ليس شعرًا على الإطلاق، بل شعيرات ليفية طويلة خضراء وسيقان نباتات. وكانت عيناها مغلقتين.

تراجع چاك إلى حافة القبر في فزع. حاول أن يصرخ لكن لم يخرج منه صوت.

انفتحت العينان، وبدت كُرتا العينين بيضاوين كبصلتين. لا توجد قزحية ولا حدقة ولا علامة على الإبصار. ثمَّ غمزت.

أخيرًا صرخ چاك وانطلق يعدو.

10

تسلَّل ليلقي نظرة ثانية قبل الغداء في أثناء فترة الراحة من الاستذكار، وبعدما بخَّرت الشمس الضباب. استطاع أن يرى مكان خلع النبتة، لكنها قد غاصت إلى مكانها وعادت التراب ليغطِّي.. ماذا يغطِّي؟ رأى شيئًا محدَّبًا قد يكون قمة رأس أو لا شيء على الإطلاق. ركل التراب ليغطِّيه، وعندما انتهى ساوى الأرض حولها.

حاول ألا يشعر بقمَّة الرأس تحت التراب، لكن يديه تحركتا دون رغبته إلى النبتات الأخرى، وتحسَّستا قمةِ جمجمة أخرى، وأخرى.. ستة رؤوس.

في هذه المرة، أجبر چاك نفسه على السير رغم ارتجاف ساقيه.

11

بعد ثلاثة أيام، اندسَّ في مقعد الشاحنة بين كونور وأبيه، واتجهوا إلى المساكن الاقتصادية في «ستالوارت» حيث قضت أمه آخر أسابيع حياتها. أخيرًا سمحت الشرطة لهانك مَكُّورت بجمع حاجيات زوجته الفقيدة. المبنى في شارع عريض مليء بالمتاجر التي تُلبِّي احتياجات محدودة؛ متجر تبغ، مصارف شيكات بنكية، كنيسة معمدانية، على مدخلها لافتة مكتوب عليها: **لحم البشر عُشب، والمسيح هو مشذِّب الحشائش.**

دخل هانك بالسيارة إلى ساحة انتظار عمومية. المبنى من طابقين، يلتفُّ حول الساحة من ثلاث جهات، وهناك مسبح محاط بسور سلكي، لكنَّ ماءه منخفض، وسروال تحتي أبيض يطفو فوقه.

أوقف والده شاحنته جوار سيارة شرطة يستند إليها شرطي، يحمل لوح كتابة معدنيًا في يد، وفي الأخرى قبعته. آخر مرَّة رأى فيها چاك هذا الشرطي عندما كان يتفحَّص زجاجة الخمر من حقيبة أمه. كما في المرَّة السابقة، لا تزال العصا البيضاء الصغيرة تتدلَّى من جانب فمه.

نزل هانك إلى جواره، وتبع چاك ابن عمه كونور خارجين من الباب الآخر.

ناول الشرطي الشاب لوح الكتابة لهانك، وأشار له إلى حيث يريد توقيعه. سأل الشرطي: «هل تود أن تظل معي يا صغير؟».

- سيكون بخير.

نظر الشرطي إلى عيني چاك، وسأله: «هل ترغب في سيجارة؟».

وعرض عليه علبة، فأدرك چاك أن ما في فم الشرطي حلوى على شكل سجائر. أومأ هانك موافقًا رغم علمه باحتوائها على سكر مُكرر. قال چاك: «شكرًا يا سيدي».

الشقة حجرة واحدة، مفروشة بموكيت بلون ترابي من الحائط إلى الحائط. على الجهة المقابلة لباب الشقة باب زجاجي يُفتح على النهار بالخارج. بشكل ما تسبَّب ضوء الشمس في زيادة كآبة الحجرة.

دخل چاك إلى المساحة المفتوحة. ثمَّة فراش غير مُرتَّب في الركن. للهواء رائحة حامضة تشبه رائحة الأقدام. كيس ورقي به زجاجة خمر يستند إلى الحائط، والذباب يدور حول علبة طعام صيني مفتوحة جوار كتاب اسمه «كيف تحارب لأجل ابنك وتفوز- دليل عملي للطلاق». جال چاك في المكان ثمَّ نظر داخل علبة الطعام المفتوحة. للحظات بدت الشعيرية تتحرَّك كالديدان، لكنها لم تكن شعيرية.

جمع ثلاثتهم أغراض بلوم تحت مراقبة الشرطي. وجد چاك ملابس أمه مرصوصة بعناية أسفل الفراش، فوضعها في صندوق. عثر على زجاجة دواء باسم «كلوزابين». يبدو أن هذا هو الدواء الذي كانت تستخدمه للسيطرة على أفكارها الغريبة. اكتشف چاك زجاجة خمر أخرى قد شربت ثلثيها ورمتها تحت الفراش.

قال الشرطي الشاب: «الشيء الغريب هو أن متجر الخمور قريب للغاية، والرجل الذي يديره قال إنه لم يرها قَط».

قال كونور وهو يفرد ظهره: «لا يحب الناس التغوُّط في المكان الذي يأكلون فيه».

بعدما حملوا آخر صندوق إلى الشاحنة أغلق الشرطي الباب الزجاجي بالمزلاج، وعندما ابتعد عنه، انفتح الباب مرَّة أخرى مسافة بضع بوصات. قال الشرطي: «يبدو أن الرتاج معطل. ربما شربت حتَّى ماتت خوفًا من أن يدخل عليها أحد من هذا الباب فيقتلها».

قال هانك بصوت طبيعي أكثر رعبًا ممَّا لو صاح: «ابني في الحجرة».

نكَّس الشرطي رأسه وأسنده إلى الزجاج، ثمَّ نظر إلى الوراء شاعرًا بالخجل. قال: «آه، آسف. إلهي».

نزع چاك حلوى السجائر من طرف فمه، ورفعها بمعنى تمنَّى أن يفهمه؛ «لقد سامحتك».

في الطريق إلى الشاحنة اكتشف أن يديه لزجتان من أثر الحلوى. استأذن ثمَّ رجع ليغسلهما.

الحمَّام عبارة عمَّا يشبه الخزانة الضيقة، به حوض وردي، ومرحاض، وحوض استحمام يستحيل الجلوس فيه. تحاشى النظر إلى حوض الاستحمام حيث غرقت، حتَّى إنه لم ينظر إلى انعكاسه في المرآة، وحدَّق إلى الحوض حيث بعض من شعر أمه يسد البالوعة. بدت له كألياف جذور النباتات. تشبيه سيئ. فتح الصنبور وغسل يديه بقطعة الصابون، ثمَّ توقَّف وشم يديه النظيفتين، وحاول تذكُّر أين شم هذه الرائحة من قبل، الرائحة الحُلوة التي تشبه رائحة نبتة إبرة الراعي.

12

توقَّفوا مرَّة واحدة قبل أن يعودوا إلى المنزل. أوقف هانك السيارة عند «موتورسبورتس مادنس»، وترجَّل كونور مبتعدًا يعرُج، تاركًا چاك وحده مع أبيه.

مال هانك خلفًا، وذراعه متجلية خارج النافذة، ثمَّ أدار وجهه لينظر في محبة إلى ابنه. موسيقى الـ «كانتري» تصدح عبر المذياع.

- ماذا تعرف يا چاك؟

أفلت قلبه دقَّتين، وللحظة ظن أن والده يعرف الشكوك التي بدأت تتجسَّد في عقله. قال چاك: «لا شيء. لا أعرف أي شيء».

- هذا ليس صحيحًا. أنت تعرف حقوقك الدستورية. تعرف كيف تتخلَّص من الأعشاب الضارَّة وكيف تقود سيارة. تعرف كيف تتعامل مع

الأسلحة، ويمكنك صنع قنابل من الصفر. تعرف أن أمك أحبتك وأنها كانت لتموت لأجلك.

- وهل فعلت؟
- ماذا فعلت؟

ماتت لأجلي. لكنه لم ينطق بها، لكنه قال بدلًا عنها: «هل أحبتني؟ لقد تركتني وشربت حتَّى ماتت. قال الشرطي إنها أخذت دواء اسمه.. فلوس أمين».

ضحك أبيه ضحكة جافة وقال مصحِّحًا: «كلوزابين. كانت لتملأك بهذا الشيء لو استطعت. المؤسسات الصحية تريدنا جميعًا أن نتناول تلك الأدوية حتَّى يسهل التحكُّم فينا وتزول مقاومتنا».

نظر خارج النافذة المفتوحة، وطرق بأصابعه على جانب الباب مضيفًا: «لقد أحبتك على طريقتها. حب الأم مغروس بداخلها ولا يمكن اقتلاعه. لا يوجد من يعوِّض غيابها رغم وجود بِث. ليعلم الله كم أن عالمها يتمحور حولك، وهي مثال على المرأة القويمة. أنا سعيد لأن بِث في حياتك. هذه فتاة تحافظ على نظافة يدها».

- بالطبع. هي تستخدم الصابون.

ثمَّ فاجأ نفسه بالضحك.. ضحكة مختلة نوعًا. أخيرًا تذكَّر آخر مرَّة شمَّ فيها رائحة عشبة إبرة الراعي. لو أن أباه يعرف نصف ما في عقله لتيقَّن أن الكلوزابين حل مثالي.

عقد أبوه حاجبيه في الوقت نفسه الذي انفتح فيه باب متجر موتورسبورتس مادنس وخرج منه كونور يحمل عبوَّة سعة خمسين جالونًا من النتروميثان السائل، وتبعه رجل آخر يحمل عبوَّة مماثلة. نزل كونور وفتح باب صندوق السيارة ليضعا الحمولة فيها. قال الرجل المرافق ذو الشعر المدن واللحية الخفيفة. قال: «لديَّ عبوَّتان أخريان. لا أطيق الانتظار لرؤيتكما تعودان إلى المضمار مرَّة أخرى يا كونور. متى تعيدان الإطارات إلى الطريق؟».

- انتظرنا في كالودونيا في أغسطس، لكن لا ترمش وإلا فوَّتَّ ما سيحدث.
- السيارة البرتقالية نفسها؟ لطالما كنت أعتقد أن هذه السيارة هي القنبلة.

ابتسم كونور وقال: «أخي، لن تتصوَّر الأمر».

13

للخِنزيرة خنانيص صغار، يحب چاك إلقاء بقايا الطعام لها كل ظهيرة، ومشاهدتها تتقافز. أحيانًا يقيل خارج حظيرتها، فتصل إليه أصواتها الرفيعة التي تشبه أصوات أطفال يُسلخون أحياء، وتتبعه إلى أحلامه. هو يشعر بالنعاس الآن وهو يرتكن إلى السور الخشبي، يُطعمهم بقايا اللحم من كيس، ولم يلحظ لدقائق أن واحدًا ينقصها. هناك أربعة تتقافز حول قدميه، تبتسم ابتساماتها الغيلانيَّة، لكن المفترض أنها خمسة. تطلق أمها الضخمة شخيرًا عند الطرف القصي من الحظيرة، وأذنها ترتعش مبعدة الذباب.

قفز من فوق السور إلى الحظيرة الطويلة المفتوحة. رائحتها تفوح بروث الخنازير. بحث جيدًا في القشِّ الذي تنام عليه الخنانيص، فهذه لن تكون المرَّة الأولى التي تنام فيها الأم على صغارها فتخنقهم، لكنه لم يجد الصغير المفقود.

خرج چاك مرَّة أخرى إلى ضوء النهار القوي حيث الخنانيص الصغار تصيح طلبًا لانتباهه آملين في المزيد من الطعام. تجاهلها وسار بمحاذاة السور حتَّى وصل إلى جهة الجنوب الغربي من الحظيرة فسئمت منه الصغار وتركته وحده.

حوَّلت الخنازير حظيرتها إلى مساحة موحلة قذرة فيما عدا الأطراف المغطَّاة بالحشائش والعشب الجافِّ. مع اقترابه من أحد الأركان، لمح ما يشبه النقانق الوردية وسط العشب. أبطأ من سرعته. شمَّ رائحة خبيثة كأنها أمعاء مفتوحة معرَّضة للشمس. ظلَّل عينيه بكفِّه.

الخنزير المفقود ملقًى وسط الحشائش، ملفوفٌ بالجذور الخشنة التي خنقته وتوغَّلت في حلقه عبر فمه المفتوح.

بينما يحدِّق چاك، تضيق الجذور قبضتها أكثر حول الجسد الصغير، ويبزغ جذر آخر من الأرض ليخترق عينه اليمنى مصدرًا صوتًا مقزِّزًا.

لم يدرك چاك أنه أسقط كيس الطعام إلا عندما وجد نفسه عند الجهة المقابلة من الحظيرة منحنيًا يشهق.

زحفت الخنانيص بحرص نحو الطعام، تراقب في قلق الجذور المرتعشة في ركن الحظيرة. جذب أشجعها الكيس بخطمه وهرب به يصرخ في انتصار، بينما الآخرون يطاردونه.

14

لم يشعر چاك بأرق من قبل مثل الذي شعر به اليوم. لديه ساعة رقمية جوار فراشه لكنه بالكاد يستخدمها. بدلًا عنها يراقب مستطيلًا من ضوء القمر على الحائط وهو يتحرَّك بمرور الوقت إلى أعلى، من اليمين إلى اليسار عبر السقف.

ثمَّ وصل إلى المكتب وانخفض أكثر حتَّى اختفى. نظر إلى الساعة ليجدها الثالثة صباحًا.

نزل على السلم الخلفي للمنزل هادئًا كشبح، متجهًا نحو الصوبة. الهواء بداخلها حارٌّ رطب كأنها غرفة بخار، أو حمَّامٌ استحمَّ فيه شخص بماء ساخن لفترة طويلة. وجد مقصًّا عملاقًا فأخذه معه.

سيجتث الأمهات حين يصل إلى موضع قبر أمه ويجد أنها مجرَّد نباتات. لا بُدَّ أن عقله قد اختلَّ أو ثُقِب فراح يسرِّب الأحلام إلى الواقع. لن يفاجأ؛ الأمر شائع في العائلة. لا عجب أن أمه تحتاج إلى كلوزابين.

إلا أنه حين وصل إلى شاهد القبر الرخامي الوردي فطن إلى أنه لن يجد نباتات عادية ذات جذور ليفية قذرة.

عند قمة الشاهد رأس الخنزير. عيناه فجوتان خاويتان، والمحجران مملوءان بالزنابق البيضاء والصفراء، وفمه يبتسم في بلاهة.

الأمهات فوق القبر وصل طولها إلى ثلاثة أقدام، وتحجب كل شيء منقوش على الرخام عدا الاسم الأول للمتوفَّاة، ومعناه فعل الأمر: أزهر! لم يفهم في البداية كيف وصل رأس الخنزير الصغير إلى هنا دون أن ينقلها أحد. الحظيرة على بُعد شاسع. ثمَّ خطر بباله أن للأمهات نظامًا جذريًّا يصل إلى البيت، وربما نُقِل الرأس كل هذه المسافة تحت الأرض.

قبض چاك على بعض السيقان وجذب. أيًّا ما كان تحت التربة فهو ثقيل، راسخ. تتداعى التربة أخيرًا وتظهر قمَّة رأس أمه بعينين مغلقتين، ووجه ناعم، وحاجبين متسخين بالتراب. مسح بكفِّه التربة عن أنفها وفمها. انفتحت عيناها، وحدَّقت إليه من خلال بصلتين بيضاوين.

همست مبتسمة: «چاك».

15

قال بعدما تمالك أنفاسه: «لستِ أمي».

- كلنا أمهاتك. زرعناك قبل أن تزرعنا.

نظر في هلع إلى النباتات الأخرى. قال: «أمي تحت التراب».

- هذا صحيح، لكنا لسنا مضطرِّين للبقاء هناك.

لكن لم يكن هذا ما يقصده.

- أنا أتخيَّل وجودِك.

- أعطِني يدك.

مدَّ يده قرب وجهها، وللحظة خشي أن تفتح فمها عن آخره كوحش من فيلم رعب وتقضم كفَّه. بدلًا عن ذلك، أغمضت عينيها وأراحت خدَّها على يده. ملمس بشرتها غريب، لا يشبه ملمس اللحم. أقرب إلى المطَّاط، كملمس الباذنجان، لكنه دافئ. قبَّلت برفق قاعدة إبهامه. لقد فعلت أمه هذا آلاف المرَّات في حياتها.

ارتجف رجفة راحة وسعادة.

لم يعرف حتَّى حينها كم كان يفتقدها.

16

- چاك..

قالتها الأم الثانية بعدما أخرجها من التربة السوداء. ردَّدت الثالثة: «چاك».

وتوالى اسمه على ألسنة الأمهات وسط الليل وهو يزيح التراب عن رؤوسهن. كن ستًّا، مدفونات حتَّى الأعناق، نمت إحداهن بطريقة خاطئة، فانبعج جانب وجهها الأيمن، فلم تعد قادرة على فتح عينها. وجهها كله مدرَّن، ومئات النمل الصغير يخرج ويدخل من فتحة عند صدغها. ابتسمت ابتسامة بلا أسنان وحاولت النطق باسمه فخرج: «هاااك.. هاااك..!».

17

سألهن: «هل أنتن نباتات؟ حيوانات؟».

قالت الرأس الأولى التي أخرجها، والوحيدة التي تقوم بمهمَّة الحديث معه: «التصنيفات الكثيرة في رؤوس البشر لا لزوم لها يا چاك، لا يوجد سوى تصنيفين؛ ميت وحي».

حدَّقت الأخريات إليهما بأعين بيضاء.

- لم أكن أرغب في تركك يا چاك.
- ليس هذا خطأك.
- حقًّا؟

ابتسمت، ورمشت في حرج. نظر إلى منزله وبصق، فأضافت: «سوف يفعلون شيئًا خبيثًا يا چاك. والدك يدبِّر شيئًا».

- لقد ارتكب فعلًا خبيثًا بالفعل.

ردَّدت الأم المشوَّهة ذات الثقب في صدغها: «*نااااااامل... نااااامل... نمل في سروالي..*»..

قالت الأم رقم 2: «ليس في سروالك، بل في رأسك».

- كأسك؟ ك.. كأسك؟ ناااامل في كأسك!

زفرت بعض الأمهات، وقالت الأولى: «سيفعل ما هو أشد ممَّا فعل معي».

- أعرف.. أعرف ما سيفعل وكيف سيفعله. لقد جهَّز كل شيء في الحظيرة؛ السماد والنيترو. سيستخدمهم كونور ليفجر الناس.

وكاد يضيف أنه سيفجِّر نفسه في أثناء العملية، بعدها سيتزوَّج أبوه من... لكنه لم يسمح لنفسه حتَّى باستكمال الخاطر.

- يجب أن تحذر الناس.
- لماذا لم تحذِّريهم أنتِ؟

ابتسمت الأمُّ الأولى في حزن وقالت: «كنتَ معه، وقال إنه سيقتلك لو تكلَّمت. سيرميك بالرصاص ثمَّ ينتحر. ظننت أن ميماو قد تساعدنا، لكنها لم تصل إلى هنا إلا بعدما رحلتُ».

- هي لم تأتِ.

ابتسمت مرَّة أخرى في خبث وقالت: «بل أنت، وقابلتَها».

أومأت الرؤوس الأخرى موافقةً. سقطت دودة ضخمة من شعر الأم الثانية المختلط بالجذور، وزحفت فوق أنفها، فخرج لسان الأم بسرعة والتقمها. صدر صوت يثير الغثيان وضروسها تطحنها. قال چاك: «كنتن بذورًا. أنا زرعتكن بنفسي. لا يمكن أن تكونوا أمهات حقيقيات. لا بُدَّ أنكم تدَّعون. ما أنتم إلا مثل النباتات في ذلك الفيلم، تلك التي تلتهم الناس وهم نيام ثمَّ ينمو منها نسخٌ منهم».

- جذورنا في دمائك يا چاك مَكُّورت، وفي دمائها. نستمدُّ قوتنا منها حتَّى الآن. جذور قوية تنمو بسرعة لتبحث عمَّا نحتاج.

تذكَّر الخِنُّوص فارتجف.

- لا بُدَّ أنكن تشعرن بالعطش. لقد كانت الأمطار شحيحة. هل تحتجن إلى رشاش ماء؟

اعترفت الأم رقم واحد: «لسن عطِشات لهذا».

- حقًّا؟ هل تحتجن إلى خنوص آخر؟

- ربما حيوان آخر فيه سوائل أكثر. نحن قويات كفاية يا چاك لنمُدَّ جذورنا بعيدًا ونمرح. يمكننا أن نطلي منزل المزرعة بالأحمر الليلة!

- هو بالفعل أحمر.

قالت الأم الثالثة: «أكثر احمرارًا».

وضحكت ضحكة مُدخنين خشنة. قال لهن: «ماذا تحتجن؟».

أجابت الأم الأولى: «ماذا لو سُقت لنا تلك الخنزيرة؟».

ردَّدت ذات النمل والوجه الدرني: «خنزيرة! الآن!».

- حسنًا. أفهم. أمي؟ أنا لا أريد أن أبيت هنا ليلة أخرى.

- كلا. لست مضطرًّا. لكن، هلا أسديت لنا خدمة أخيرة؟ أحضِر لنا خنزيرة نقتات عليها، ثم..

قالت الخامسة والسادسة في الوقت نفسه: «سنساعدك فيما تبقَّى».

انطلق من المقبرة مع بزوغ أول علامات الفجر، وتوهَّج حافة العالم كجمرة.

18

كان چاك في المطبخ عندما دخلته بِث مهوَّشة الشعر من أثر النوم، حافية القدمين. دائمًا يتوقَّع أن تأتي من ناحية الشرفة الخارجية، عابرة الباب السلكي، لكن بدلًا عن ذلك تدخل المطبخ الآن من الصالة الأمامية وهي تزرر أعلى زرٍّ من قميصها. هل هو قميصها؟ يبدو قميصًا رجاليًّا.. واحدًا من قمصان أبيه.

عندما تراه عند الجهة الأخرى من منضدة المطبخ، يحمرُّ وجهها وتقبض أناملها على الزرِّ العلوي، فينفلت من يدها وينكشف صدرها الأبيض المرقط بالنمش.

- چاك.. أنا..

لم يكن لدى چاك وقت للتفسير، أو الأسوأ، للاعتراف. دار حول المنضدة رافعًا كفَّه في إشارة تعني «مرحبًا»، وقد تعني أيضًا «صمتًا»، والدماء تقطر من القطع العرضي في كفِّه.

- أوه بِث، تعالي معي. فعلت شيئًا أحمق. ارتكبت فعلًا شائنًا بحق.

اكتشف أنه يكاد يبكي بالفعل. عيناه توخزانه والعالم يغيم أمامه.

- چاك! أنت تنزف! يجب أن نعالج يدك..

- لا، لا.. رجاء، تعالي معي فقط. تعالي وانظري ما فعلت. بِث.. يجب أن تساعديني.. رجاء..

- بالطبع سأساعدك.

ضمَّته إلى صدرها. منذ أسبوع كان تصرُّفٌ كهذا سيسعده للغاية، لكنه الآن يتقزَّز منه، كأنها دودة تزحف على وجهه.

قادها ممسكًا كوعها بيده المجروحة إلى الباب الخلفي. قطرتان كبيرتان سقطتا على أرضية المطبخ.

- لقد تركتها تخرج من الحظيرة، ولن تعود. أعتقد أنني أخفتها.

- أوه يا چاك، واحدة من الخنازير؟

- !الخنزيرة الأم.

جذبها خارجًا إلى ضوء الفجر اللؤلؤي، وجرَّها عبر العشب الندي إلى بوابة المقابر المفتوحة.

- أنا أحمق. أعتقد أنها ستموت.

أبطأ عندما اقترب من شاهد قبر أمه، والنباتات من حوله. عادت الأمهات بمهارة إلى ما تحت سطح التربة. أطلق سراح بِث، فسارت بضع خطوات أخرى إلى الأمام تنظر حولها في حيرة. عندما عقدت حاجبيها، لمح چاك ذقنها المزدوج الصغير، وخطر بباله أنها ستصبح سمينة للغاية يومًا ما. ثمَّ فكَّر: *لا، لن تسمن أبدًا.*

قالت في شيء من الحذر: «چاك، أنا لا أرى أي شيء. هل هذه مزحة؟».

مدَّ يده خلف ظهره ليجذب مقبض المقص الذي دسَّه في حزام سرواله، قاصدًا طعن رِبلة ساقها بطرفه الحادِّ، لكنها استدارت في اللحظة الأخيرة، فرشق المقصَّ بقوة في فخذها، فوق ركبتها اليسرى. صرخت، وهوت بين الأمهات جالسةً. شهقت بِث وحبست شهيقها وهي تنظر إلى المقصِّ المغروز، ثمَّ استندت بظهرها إلى شاهد قبر بلوم مَكُّورت.

قال چاك للأمهات: «إليكن بها. اقضين عليها! هي لكُن!».

لكن النباتات لم تتحرَّك.

رفعت بِث ذقنها ونظرت إليه ذاهلة بعينين دامعتين.

- هل جُننت؟!

- أجهزنَ عليها! اقتلنَ الخنزيرة!

زادت النبرة الهستيرية في صوته والنباتات ساكنة. سألته بِث مجدَّدًا: «هل جننت؟».

حدَّق چاك إلى وجهها الشاحب، وعينيها الدامعتين وذقنها المرتجف الطفولي.

- أوه، بحق الله.. أظنني جُننت.

أمسك بمقبضي المقص، فانتزعه، ثمَّ غرزه في صدرها. حاولت أن تصرخ، لكن الطعنة الثالثة شقَّت فمها، والرابعة استقرَّت في حلقها.

لفترة طويلة، لم يكن من صوت إلا صوت الحَفر، رغم أن چاك لم يحفر شيئًا.

19

بمجرَّد أن انتهى، حاول إخراج أمهاته. خلع النبتة تلو الأخرى ولم يجد تحتها إلا جذورًا بيضاء صغيرة والتربة تتساقط منها. النبتة السادسة مريضة، أوراقها مثقبة، والنمل يزحف حول جذورها.

أمسك چاك رأسه شاعرًا بحيرة، ومسح وجهه فلطخه بالدماء، ولم يستطع التمييز بين دمائه ودماء بِث. تساءل إن كان هذا هو شعور الثِمل. ذراعه تؤلمه من كثرة طعنها؛ تمزيق امرأة بالغة عمل شاقٌّ.

فيمَ كان يفكر بالضبط حين استدرجها إلى هنا؟ صعب أن يتذكَّر. نادرًا ما يتذكَّر أيًّا من تفاصيل كوابيسه عندما يستيقظ. هي كالأزهار التي لا تتفتح إلا ليلًا.

النهار ينبلج، بِث بأوصالها الممزقة وفمها الفاغر تنظر إلى السماء.

20

مكث چاك حينًا في الحظيرة.

أجولة النيترات مستندة إلى الحائط، جوارها عبوات النيتروميثان. جلس إلى المنضدة الخشبية يعمل على تصنيع قنبلة بسيطة من ماسورتين نحاسيتين، وبارود، وعيدان تنظيف الأذن، وبعض الأشياء الأخرى. أغلق طرفي الماسورة ودسَّ فتيلًا في ثقب عند أحد الطرفين. ظل يعمل في حالة من غياب الإدراك لما حوله، من دون تفكير، من دون نقاش مع نفسه. لا تراجع، لا مخرج سوى التقدم إلى الأمام.

بعد تفكير سريع، وزع عبوَّات النيترو بين أجولة السماد، واستخدم شريطًا لاصقًا لتثبيت قنبلته إلى أحدها، تحت الصمام بالضبط، ثمَّ أدار العبوة ليُخفي الماسورة جهة الحائط.

انتهى من عمله والشمس تضيء شجرة البلوط في الباحة، كأنها يد مجدٍ[1] عظيمة. تمايل العشب وسط النسيم، عاكسًا على أوراقه آلافًا من شظايا النور الأخضر.

21

- أبي..

أزاح چاك ستار الحمَّام وهو يصيح: «أبي! لقد ارتكبت فعلة شنيعة! النجدة!».

وقف أبوه عريض الكتفين قوي البنية تحت الماء الساخن. وجهه يبدو عاريًا من دون نظارته. أدار رأسه نحو ابنه ونظر إليه مضيِّقًا عينيه من أثر قِصَر النظر. وجه هانك مَكُّورت بريء مصدوم.

- خرجت.. خرجت إلى قبر أمي.. أحيانًا أذهب، أذهب لأقضي معها وقتًا في الصباح.. فسمعت شيئًا يتحرَّك وسط حقل الذرة.

سالت الدموع على خدي چاك والكلمات تنساب من فمه.

- ذهبت لأتبيَّن الأمر، فحاول رجل جذبي. رجل يرتدي خوذة سوداء وسترة واقية من الرصاص، ومعه مسدس. حاول جذبي نحوه، فضربت عنقه.. أنا..

مدَّ چاك يده بمنشفة غارقة في الدماء، ثمَّ ألقاها على الأرض.

- أعتقد أنني قتلته يا أبي.

أغلق أبوه الصنبور وبحث عن منشفة وهو يسأله: «هل ذكَر ذو السترة الواقية شيئًا؟».

- لا أعرف.. لا أعرف.. لا أعرف.. أعتقد.. أعتقد أنه قال شيئًا عن مكتب مكافحة المخدرات والأسلحة؟ أبي، هناك المزيد منهم بالخارج. لمحت خوذتين سوداوين في الحقل.. أبي. أوه، أبي.. جاءت بِث بحثًا عني، وأعتقد أنهم أخذوها.

ثمَّ هتف بصوت متهدِّج: «سمعتها تصرخ».

---

(1) يد المجد، شمعدان سحري يصنع من كف ساحر مشنوق مجفَّفة، وتُستخدم للسيطرة على الآخرين. (المترجمة)

هرع والده إلى حجرة النوم وارتدى بنطاله الجينز، والمسدس معلق إلى حزامه كالعادة. أعاده چاك إلى غمده بعدما أفرغه من الرصاص.

- أبي. لا أعتقد أن الرجال الآخرين يعرفون بشأن الذي طعنته، أو أنهم وجدوا جثته بعد. لكن ماذا سيحدث عندما يعثرون عليها؟

ارتجف جسده، وعلا صوته مولولًا. لا عجب أنه حزين ملتاع وأمه تحت التراب ولم تتحوَّل إلى نبات حتَّى، بل طعام لنباتات أخرى. أمه لن تعود.

عقله ضبابي. كان يسأل نفسه منذ لحظات إن كان هناك نمل في رأسه. لقد شعر بحكَّة داخل مخِّه بعدما قتل بِث. سأله أبوه: «ما سيحدث أننا سنؤذيهم كما لم يتصوَّروا قط. لكن أولًا نحتاج إلى الأسلحة في الحظيرة».

لم يكترث لارتداء قميص أو حذاءين، وهرع خارجًا، مُخلِّفًا وراءه رائحة صابونية راقية، لا كرائحة الصابون الرخيص التي تشبه رائحة إبرة الراعي. ربما المرأة العجيبة -بائعة البيض والبذور- مجرَّد امرأة مسنَّة أخرى، وليست جدَّته الساحرة التي جاوز عمرها المائة عام، وأتت لتمنحه بذورًا تنمو لتصير أُمًّا جديدة له. ربما لا يوجد في الحقيقة شيء سوى التراب والنباتات والجذور، وجثة بِث، والخنوص الذي ذبحه چاك بنفسه وهو نائم.

لكن بلوم مَكُّورت لم تعد تشرب، وباب حجرتها الزجاجي لا ينغلق، وچاك يتذكَّر الرائحة التي شمَّها في حمام غرفتها وعلى يدي بِث. لم يحلم بكل هذا. أرسل والده بِث لزيارة بلوم بصفتها صديقة متعاطفة، لتعرف إن كانت أخبرت أحدًا بالمتفجرات في الحظيرة. بمجرَّد أن تأكدت بِث أن بلوم لم تخبر أي شخص، ضربت رأس أمه بالحائط وتركتها تغرق في المغطس، ثمَّ زرعت زجاجات الخمر الفارغة في أرجاء الغرفة. ربما يعاني چاك من الكوابيس، لكنه ليس أحمق، وهذه الحقائق متمثِّلة أمامه منذ فترة.

هرع چاك خلف أبيه. عبر هانك الشرفة الخارجية، ثمَّ جذب حبل الجرس العتيق المعلق هناك. مرَّة، مرَّتين، ثلاثًا: تنبيه الغارات.

ثمَّ انطلقا إلى الحظيرة. لم يلحظ أن چاك حرك الشاحنة من مكانها. وصل هانك إلى بابَي الحظيرة الضخمين، وكونور يأتي مهرولًا مترنِّحًا من آخر الطريق، عيناه فزعتان، وقميصه غير مُزرَّر، يحمل بندقية بين يديه.

- ماذا؟!

قال والد چاك: «هم هنا. هم يغيرون علينا. لقد أخذوا بِث، لذا هي خارج اللعبة الآن. لنتحرَّك بسرعة فنمُرُّ من خلالهم كالسكين في الزبد. نطلق الرصاص وسط خطوطهم حتَّى نخرج من الشرق إلى الحقل الطويل. سيارة

الدفع الرباعي القديمة واقفة في مخزن الذرة. سوف نصل إلى أيوا بحلول موعد الغداء حيث نقابل عددًا من رجال الحركة فيخبئوننا. نحتاج فقط إلى الأسلحة المدفونة تحت الجرار».

- سحقًا!

قالها كونور وترنَّح داخلًا إلى ظلام الحظيرة. ركب أبوه الجرار، وهرع كونور إلى مولِّد الهواء فأداره، ثمَّ أمسك بالحفَّار الكبير. يمكنهم استخراج أسلحتهم الأوتوماتيكية في خلال خمس دقائق لو أسرعوا. راقبهما چاك من عند الباب ليتأكد أنهما مشغولان، ثمَّ مشي نحو كومة نيترات الأمونيوم جوار الحائط. هناك علبة ثقاب على الطاولة جوار مصباح الزيت. أشعل چاك فتيل قنبلته المُرتجلة، متبعًا التعليمات التي علَّمها له كونور بالضبط.

عاد چاك إلى باب الحظيرة، فأغلقها من الخارج بقفل عملاق. لم يستطع الرجلان الخروج من الباب الجانبي أيضًا، فقد أوقف شاحنة أبيه خلفه.

جرى على الممرِّ الحصوي، طفل أمريكي في الثالثة عشرة، ينتعل حذائَيْ «كونڤرس» بنقش النجوم، وأنفه متسخ بالتراب، ويداه ملطختان بالدماء. ابن الأرض التي أنبتته حقًّا.

من خلفه، يصرخ أحدهم مدهوشًا. كونور؟ أحدهما يحاول فتح الباب الكبير الذي يهتزُّ ويئنُّ، لكن يظل مغلقًا. ينادي أبوه اسمه. الرجلان يدفعان الباب من الداخل، فتتساقط بعض شظايا الخشب، لكن القفل ثابت. استدار چاك في منتصف الطريق ليرى إن كانا سيفلحان في الخروج.. رأى نبات لبلاب ذا فروع خضراء مرعبة تخرج من الأرض، تتسلَّق جوانب الحظيرة، أُحكِم غلق الباب أكثر، فلا يتحرَّك إثر ضربات الرجلين التالية.

أحكمت الفروع والجذور قبضتها على الحظيرة، كأنها شبكة صيد تحيط بالأسماك. ابتسم چاك وحكَّ رأسه والنمل بداخلها. لقد وعدته أنها ستساعده.

اختفت الحظيرة في ومضة صامتة. موجة تضاغطية دفعت چاك، ورفعته كورقة شجر بلا وزن نحو السماء.

22

عندما أفاق چاك، وجد نفسه راقدًا على فراش من أزهار بنفسجية خارج منزل بِث وكونور. الأوراق الرقيقة تداعب خدَّيه، والأزهار المزغبة تقبِّل صدغه

الأيسر. لا يسمع شيئًا، ويشعر بخيط من دماء ينزف من أذنه، وبطعم الدم في فمه.

اختفت الحظيرة، بل من الصعب النظر إلى حيث كانت. من مكانها تتصاعد جذوعٌ من نار، تتراقص فوقها بتلات لهب. الشاحنة ملقاة على بعد مائة قدم شرقًا، متفحِّمة تمامًا. خيوط الدخان ترتفع من نصف المنزل إلى السماء.

لم يشأ چاك أن ينهض. لم يشعر بهذا السلام منذ الصباح الذي غادر فيه المنزل مع بلوم ليقابل عائلتها. وسط الأزهار يشعر بالسعادة، وبراحة طفل متكوِّر إلى جوار أمه تحت شمس الصباح الناعسة. لكنه أجبر نفسه على النهوض.

اتزانه غير سليم. سار قليلًا حتَّى ارتكن إلى سيارة كونور البرتقالية التي لطالما تمنَّاها. حسنًا، هي ملكه الآن. لن يحصل على ساق كونور الصناعية، ولم يعد يرغب في بِث من الأساس، لكن السيارة له بالكامل. ربما هو في الثالثة عشرة فقط، لكن طوله كافٍ لتبلغ قدمه إلى الدواسات، وهو بالفعل سائق بارع.

قاد چاك السيارة مبتعدًا عن المنزل المنهار وأطلال الحظيرة التي لم تعد حظيرة، بل مدفأة مملوءة بالأخشاب المشتعلة.

أنزل زجاج نافذته وانطلق إلى الطريق السريع. الهواء يحمل له عبق الصيف الدافئ. كل شجرة تضجُّ بالأخضر وبالحياة. أشعة الشمس تعانقه، دافئة رقيقة، حانية كلمسات أمه.

لم يجلس چاك مَكُّورت خلف المقود مطوَّلًا. رأى امرأة تعتمر قبعة خضراء من القشِّ تجلس بجوار منضدة العرض على جانب الطريق، وتحمل حقيبة. عندما رأته لوَّحت له وابتسمت ابتسامة واسعة، ابتسامة الچوكر. منظر وجهها الجانبي ذكَّره بمنظر الوجه على الدولار.

أبطأ سرعته حتَّى توقَّف على جانب الطريق. خطر له أنه لم يُفق بعد بالكامل من سقطته إثر الانفجار، وأنه يمُرُّ بواحد من كوابيس سيره في أثناء النوم، لا يختلف في شيء عن كوابيس النباتات المتكلمة. جدَّة جدَّته أكبر سنًّا من التلفاز، وأكبر من أن تسافر هذه المسافة كلها، لكنه بعد يظن أنها تنتظره طيلة الصباح حتَّى يُنهي مهمَّته في المزرعة ويمُرُّ بها فتركب معه.. سارت نحو السيارة بابتسامتها المعهودة. أيًّا كانت -بقايا جنون، أو من لحمه ودمه- فهو يرحب بصحبتها.

هي على أي حال أفضل من السفر وحيدًا.

وسط الحشائش العالية

(مع ستيفن كينج)

لقد رغب في الهدوء لبعض الوقت بدلًا عن المذياع، لذا يمكنك القول إن ما حدث غلطته. رغبتْ هي لبعض الوقت في الهواء النقي بدلًا عن مكيف الهواء، لذا يمكنك القول إنها السبب. لكن، بما أنهما لم يكونا ليسمعا الطفل دون هذين الاختبارين، يمكنك القول إن سبب المشكلة مشترك بينهما، وهو أمر معروف عن كال وبيكي؛ كانا يفعلان كل شيء جنبًا إلى جنب طيلة حياتهما.

وُلد كال وبيكي ديمُث بفارق تسعة أشهر، وأطلق عليهما والداها «التوأمين الأيرلنديين»[1].

---

(1) التوأمان الأيرلنديان، مصطلح يُطلق على الإخوة الذي يقل الفارق بين ميلادهما أقل من عام، وهو مصطلح نشأ في القرن التاسع عشر تندُّرًا على المهاجرين الأيرلنديين الكاثوليك الذين لا يستخدمون وسائل تنظيم الحمل، فيولد أبناؤهم متلاحقين. (المترجمة)

يحب السيد ديمُث مقولته: «بيكي ترفع سماعة الهاتف، وكال يقول مرحبًا».

وتحب السيدة ديمُث مقولتها: «يفكر كال في حفل، فتكون بيكي قد كتبت الدعوات بالفعل».

لم يخرج أي سِرٍّ بينهما، حتَّى عندما ذهبت بيكي -وكانت في أولى سنوات دراستها الجامعية- إلى شقة كال خارج الحرم الجامعي وأعلنت أنها حامل. تقبَّل كال الأمر. ماذا عن أهلهما؟ لم يتفاءلوا بالأمر كثيرًا.

الشقة خارج الحرم الجامعي في دُرهام لأن كال اختار جامعة نيو هامبشير. عندما اختارت بيكي (وكانت غير حبلى، وإن لم تكن عذراء بالضرورة) اختياره نفسه بعد عامين، لم يتفاجأ أحد.

قالت السيدة ديمُث: «على الأقل لن يضطر إلى العودة إلى البيت كل نهاية أسبوع لعينة كي يخرج معها».

قال السيد ديمُث: «ربما نحظى ببعض السلام هنا. بعد عشرين عامًا -صدِّق أو لا تصدِّق- أصبح أمر تقاربهما هذا متعبًا».

بالطبع لا يفعلان *كل شيء* معًا، لأن كال قطعًا ليس مسؤولًا عن الرغيف في فُرن أخته، وقد كانت فكرة الإقامة فترة عند العم چيم والعمة آن فكرة بيكي وحدها.. إقامة حتَّى تلِد.

بالنسبة للوالدين اللذين أذهلتهما وأربكتهما مستجدات الأحداث، وجدا هذه الفكرة معقولة كأي فكرة أخرى، وعندما اقترح كال ألا يحضر فصل الربيع الدراسي مثلها ليتمكَّن من مرافقتها في رحلتها عبر الولايات، لم يتذمَّرا كثيرًا، بل ووافقا على أن يقيم كال مع بيكي في سان دِيِّجو حتَّى يولد الطفل، حيث يمكن لكالڤِن أن يجد وظيفة هناك ويتولى مصاريفهما.

قالت السيدة ديمُث: «حامل في التاسعة عشرة».

قال السيد ديمُث: «كنتِ حاملًا في التاسعة عشرة».

أشارت السيدة ديمُث: «أجل، لكنني كنت متزوِّجة».

فشعر السيد ديمُث باستفزاز ليقول: «متزوِّجة من رجل لطيف حقًّا».

فزفرت السيدة ديمُث وقالت: «ستختار بيكي اسم المولود الأول، وسيختار كال اسمه الثاني».

فقال السيد ديمُث أيضًا بعد زفرة: «أو العكس».

(أحيانًا ما يتحوَّل المتزوِّجان إلى توأمين أيرلنديين بدورهما).

اصطحبت والدة بيكي ابنتها إلى الغداء في يوم قُبيل سفر الأخوين إلى الساحل الغربي. سألتها: «هل أنت واثقة من أنك ترغبين في عرض الطفل للتبني؟ أعرف أن ليس لي حق في السؤال -فأنا فقط أمك- لكن والدك يتساءل».

قالت بيكي: «لم أستقر بعد. سيساعدني كال في اتخاذ القرار».

- ماذا عن الأب يا حبيبتي؟

بدت بيكي متفاجئة، وهتفت: «أوه، ليس لديه رأي. اتضح لي أنه أحمق».

فتنهَّدت السيدة ديمُث.

⬆

وها هما في «كانساس»، في يوم ربيعي دافئ من شهر أبريل، يركبان سيارة «مازدا» عمرها ثمانية أعوام، تحمل لوحة أرقام نيوهامبشير، وشبح من ملح طُرق نيو إنجلند ملتصق على جانبيها. الهدوء بدلًا عن المذياع، ونافذة مفتوحة بدلًا عن مكيف الهواء. ونتيجة لهذا، سمع كلاهما الصوت، ضعيف لكن واضح.

- النجدة! النجدة! لينجدني أحد!

تبادل الأخوان نظرة فزِعة. توقَّف كال -الذي كان خلف الموقود- على الفور. الرمال تهتز وتتطاير أسفل السيارة.

قبل أن يغادرا «بورتسماوث»، قررا الابتعاد عن الطرق الرئيسية؛ رغب كال في رؤية تنين كاسكاسكيا[1] في «ڤانداليا»، بولاية «إلينوي»، ورغبت بيكي في زيارة أكبر كُرة خيط في العالم في مدينة «كوكر»، بولاية كانساس (وقد تمَّت المهمَّتان)، وكلاهما شعر بحاجة إلى المرور على «روزويل» وتجربة بعض الهراء الخاص بالتسويق للمدينة باعتبارها أول مزار للفضائيين.

---

(1) منحوتة عملاقة لتنين معدني يمكن رؤيتها من مسافات شاسعة. (المترجمة)

هما الآن جنوب كُرة الخيط -والتي كانت مشعرة، ذات رائحة غريبة، وأكثر إثارة للدهشة ممَّا توقَّعا- في اتجاه طريق 73 ذي الحارتين الذي سيعبر بهما كانساس إلى حدود كلورادو. أمامهما أميال من الطريق المقفر، والشيء نفسه خلفهما.

ثمَّة بعض البيوت عند جانبهما من الطريق، وكنيسة عالية تحمل لافتة «كنيسة صخرة المُخلِّص السوداء» -رأت بيكي أن هذا الاسم غريب بالنسبة لكنيسة، خصوصًا في كانساس- إضافة إلى ملعب بولينج يبدو أنه كان يعمل عندما كان فريق «ترامبس» يضرم في الولايات نيرانًا موسيقية بغنائهم أغنية «جحيم الديسكو».

على الجهة الأخرى من الطريق 73، ليس هناك شيء سوى حشائش خضراء عالية ممتدة عبر الأفق غير المحدود، غير محدَّد المعالم.

قالت بيكي: «ما هذا الـ...».

كانت ترتدي سترة خفيفة مفتوحة تكشف عن بطن بدأ يبرز؛ لقد بدأ شهر حملها السادس. رفع يده دون أن ينظر إليها، بل كان ينظر تجاه الحشائش.

- صمتًا.. أنصتي!

سمعا صوت موسيقى منخفضًا ينبعث من أحد المنازل. كلب ينبح نباحًا بلغميًّا -غوب غوب غوب- ثمَّ صمت. أحدهم يقرع خشبًا. صوت صفير الريح منتظمٌ. أدركتْ بيكي أنها تستطيع فعليًّا رؤية الريح إذ تُمشِّط الحشائش عند الجهة الأخرى من الطريق مُحدثة أمواجًا تهرب منهم حتَّى تختفي عبر المسافات.

عندما قرَّر كال التفكير في أنهما لم يسمعا شيئًا؛ ليس هذه المرَّة الأولى التي تخيَّلا فيها شيئًا معًا، صدح صوت الاستغاثة مرَّة أخرى.

- النجدة! أنجدوني! أنا تائه!

هذه المرَّة امتلأت النظرة التي تبادلاها بالفهم. الحشائش سامقة (تجاوُز ارتفاع هذه المساحة الشاسعة من الأعشاب طول ستة أقدام في هذا الوقت من العام حالة شاذَّة، لكن هذا لم يخطر ببباليهما إلا لاحقًا). طفل تاه وسطها على الأرجح بينما يستكشف المكان، وهو غالبًا ابن أحد سكان البيوت على الجانب الآخر. هلع، وتوغَّل أكثر وسط الحشائش. صوته يشي أنه في عمر الثامنة

تقريبًا، ممَّا يجعله أقصر طولًا بكثير ممَّا يُمكنه من القفز عاليًا لرؤية مكانه. قال كال: «يجب أن نُخرجه».

- توقَّف في ساحة انتظار الكنيسة.

استدار بالسيارة ناحية ساحة «المُخلِّص». طبقة غبار تغطِّي السيارات الواقفة هناك، وزجاج واجهتها في سواد وسطوع لون الخنافس تحت الشمس. بدا أن السيارات، فيما عدا واحدة، تقف هنا منذ أيام -أو حتَّى أسابيع- وهو وضع شاذٌّ آخر لم يلفت انتباههما إلا لاحقًا.

بينما يعتني بأمر السيارة، عبرت بيكي إلى الجهة الأخرى. وضعت كفيها على جانبي فمها ونادت: «أيها الطفل! هل تسمعني؟».

بعد لحظة أجابها: «أجل! ساعديني! أنا هنا منذ أيام!».

تذكَّرت بيكي كيف يحكم الأطفال على مرور الوقت، فخمَّنت أنه هناك منذ عشرين دقيقة. بحثت عن ممر بين الحشائش يمكن أن يكون الطفل قد دخل منه (وهو يتخيَّل لعبة ڤيديو أو فيلم غابات سخيف في عقله)، ولم تجد مدخلًا. لكن لا بأس. الصوت يأتي عن يسارها وعبر مسافة قريبة، وهذا منطقي. لو أنه توغَّل أكثر ما سمعاه، حتَّى لو كانت النافذة مفتوحة والمذياع مُطفأ.

كانت على وشك تسلُّق الحاجز الترابي على جانب الطريق عندما سمعت صوتًا آخر، صوت امرأة متحشرج مرتبك، صوت شخص استيقظ للتَّوِّ بحلق جاف ويبحث عن ماء.

صرخت المرأة: «لا تفعلي! أرجوكِ! ابتعدي! توبين، توقَّف عن النداء. توقَّف عن النداء يا حبيبي. سوف يسمعَك!».

صاحت بيكي: «مرحبًا؟ ماذا يحدث؟».

سمعت من خلفها بابًا يُغلق. كال يعبر الطريق نحوها. صرخ الطفل: «نحن تائهان! أرجوك! أرجوك! أمي مجروحة، أرجوك! ساعديني!».

قالت المرأة: «لا! لا يا توبين، لا!».

نظرت بيكي خلفها لترى سبب تأخُّر كال. كان قد قطع بضعة أقدام مبتعدًا عن ساحة الانتظار، لكن لفت نظره سيارة «بريوس» من الجيل الأول، مغطَّاة بطبقة من غبار الطريق يخفي زجاجها الأمامي تمامًا. انحنى كال على

السيارة مظلِّلًا عينيه بيد واحدة، ناظرًا عبر زجاج النافذة إلى شيء على مقعد الراكب. قطب جبينه للحظة، ثمَّ أجفل كأن حشرة قفزت نحوه.

قال الولد: «أرجوك! نحن تائهان! لا أعرف أين الطريق!».

- توبين!

حذَّرته المرأة مجدَّدًا، لكن صوتها اختنق كأنها ممنوعة من الكلام. ما لم تكن هذه خدعة ما، هناك شيء غير طبيعي هنا. لم تلحظ بيكي ديمُث أن يدها تحركت لا إراديًّا نحو انتفاخ بطنها، وتذكَّرت شعورها تجاه الأحلام المزعجة التي تراودها طيلة شهرين، أحلام لم تحكها لكال حتَّى.. حلم القيادة ليلًا. ثمَّة طفل ينادي في هذه الأحلام أيضًا.

نزلت عن قمة الحاجز في خطوتين طويلتين؛ كان مائلًا أكثر ممَّا بدا لها، وعندما وصلت إلى القاع تأكدت أن الحشائش أطول ممَّا ظنت. ربما يبلغ ارتفاعها سبعة أقدام لا ستة.

هبت الرياح، فتمايلت الحشائش كالموج.

صاحت المرأة: «لا تبحثي عنا!».

هتف الولد بصوت علا فوق صوتها: «النجدة!».

صوته أقرب، تستطيع بيكي سماعه عن يسارها، لكنه ليس قريبًا إلى الدرجة التي تُمكِّنها من مدِّ يدها وإخراجه، لكنه ليس على بعد أكبر من عشر ياردات أو اثنتي عشرة.

قالت له: «أنا هنا يا صاحبي. امشِ ناحية صوتي، أنت قريب من المخرج».

- النجدة! النجدة! لا أجدك!

صوته صار أقرب. تلت عبارته ضحكة هستيرية أرعدت بيكي. نزل كال المنحدر في قفزة واحدة، فانزلق على كعبيه وكان يسقط جالسًا. الأرض مبلَّلة. إن كانت بيكي قد تردَّدت في خوض حقل الحشائش، فالسبب أنها لا تريد أن تبتل. حشائش كهذه تحمل الكثير من المياه على هيئة قطرات معلقة على الأوراق. سأل كال: «ماذا تفعلين؟».

- هناك امرأة معه. تتصرَّف بغرابة.

صاح الطفل: «أين أنتِ؟».

يكاد يبكي، يأتي صوته من على بعد بضعة أقدام. بحثت بيكي عن لمحة من ملابسه لكنها لم تر شيئًا. يبدو أنه أبعد من أن تراه.

- هل ستأتين؟ أرجوك! لا أجد طريق الخروج!

صاحت الأم بصوت بعيد مُنهك: «توبين! كفى يا توبين!».

هتف كال وهو يخطو إلى داخل الحشائش: «تجلَّد. كابتِن كال قادم لإنقاذك!».

أخرجت بيكي هاتفها المحمول، وكادت تفتح فمها لتسأل كال إن كان من الأفضل أن يتصلوا بشرطة الطرق السريعة أو أيًّا كان.

خطا كال خطوة، ثمَّ أخرى، وفجأة لم تعد بيكي ترى منه سوى ظهر قميصه الأزرق، وبنطاله القصير الخاكي. دون أي سبب منطقي، تسارع نبضها إثر اختفائه عن نظرها.

ظلت تنظر إلى شاشة هاتفها المحمول السوداء الصغيرة، ورأت أن إشارة الهاتف ممتازة. كتبت رقم 911 ولمست أيقونة الاتصال، ثمَّ خطت خطوة واحدة واسعة داخل الحشائش وهي تضع الهاتف على أذنها.

رنَّ الهاتف مرة، ثمَّ سمعت صوت آلي يعلن أن مكالمتها ستُسجَّل. خطت بيكي خطوة واحدة كي لا تفقد رؤية القميص الأزرق. كال دائمًا مُتعجِّل. وبالطبع هي كذلك.

بدأت الحشائش المبتلة في لمس بلوزتها وبنطالها القصير وساقيها العاريتين. لا وعيها يبصق أجزاء من قصيدة فكاهية لإدوارد جوري.

«من آلة الاستحمام سُمِعَ صَخب..

كأن احتفالًا داخلها ويا للعجب..

سُمع الصوت بعيدًا كأنه شيء..

كأن الشيء، قد طرأ عليه شيءٌ».

كانت قد كتبت بحثًا عن القصائد الفكاهية في مادة الأدب، ظنت الأمر سيكون مسليًا، لكنا لم تنل سوى الصداع من الكلام الأبلة المُقفَّى، ولم تنسَ الدرجة المنخفضة التي حصلت عليها.

قاطع صوت بشري الرسالة الآلية.

- 911، من مقاطعة «كيوا». أين مكانك وما طبيعة المشكلة؟

- أنا على طريق 73. لا أعرف اسم البلدة، لكن هناك كنيسة؛ صخرة المخلِّص السوداء.. و.. أعتقد هناك صالة بولينج مهجورة.. وثمَّة طفل مفقود وسط الحشائش. وأمه أيضًا. سمعناهما يستغيثان. الطفل قريب، لكن الأم أبعد. يبدو الطفل مذعورًا، والأم..

غريبة. قصدت أن تنطق بالكلمة الأخيرة، لكن لم يكن هناك فرصة.

- أيها المتصل، تغطِّية الشبكة سيئة جدًّا عندك. رجاء، أعِد تشغيل...

ثمَّ لا شيء. توقَّفت بيكي لتنظر إلى الهاتف، فرأت خطَّ إشارة واحدًا اختفى على الفور، وظهرت بدلًا عنه كلمة «لا يوجد شبكة اتصال». عندما رفعت عينيها كان أخوها قد اختفى وابتلعه الأخضر.

رأت فوقها طائرة تترك أثرًا دخانيًّا أبيض على صفحة السماء على بعد خمس وثلاثين ألف قدم.

↗

- النجدة! النجدة!

الطفل قريب، لكنه لم يكن بالقرب الذي ظنه كال، بل جهة اليسار أكثر. صرخت المرأة وبدا صوتها أقرب: «عُد إلى الطريق! عُد بينما تستطيع!».

- ماما! ماما! هما يريدان المساعدة!

ثمَّ صرخ الطفل صرخة تثقب الآذان، تحوَّلت فجأة إلى ضحكة هستيرية. ثمَّة صوت تخبُّط، ربما ذعر، ربما صراع. اندفع كال إلى حيث الصوت، واثقًا أنه سيجد الطفل توبين وأمه يهدِّدهما مختل يحمل سكينًا، من مختلي أفلام كوينتِن تارانتينو. قطع عشر ياردات وأدرك أنه ابتعد كثيرًا عندما التفت الحشائش حول كاحله الأيسر. انحنى يقطع الحشائش اللزجة الخضراء، فتعثر فيها وسقط على الأرض الزلقة، ودخل الطين إلى منخريه. كيف لا تجد شجرة في الجوار حين تحتاج واحدة؟

قام على ركبتيه وصاح: «أيها الطفل؟ توبين؟ غنِّ...».

عطس طينًا. مسح وجهه، وشم رائحة عصارة الحشائش مع الشهيق. أكمل: «غنِّ! وأنتِ أيضًا أيتها الأم».

لم تغنِّ الأم، وصاح توبين مستغيثًا مرَّة أخرى.

صوت الطفل الآن عن يمين كال، وبدا بعيدًا في عُمق الحشائش أكثر من ذي قبل. كيف هذا؟ لقد بدا قريبًا حتَّى خُيل إليه أنه يستطيع الإمساك به.

استدار كال متوقِّعًا أن يرى أخته، لكنه لم يرَ سوى الحشائش. حشائش طويلة. المفترض أن تنكسر بمشيه فوقها، لكنها لم تفعل. لم يكن هناك سوى موضع سقطته الذي راحت الحشائش فيه تنتصب مجدَّدًا. يا لها من حشائش قوية تلك التي تنمو في تكساس. حشائش *طويلة* قوية.

- بيكي؟ بيكي؟

- اهدأ، أنا هنا.

لكنه لم يرها، والمفترض أن يراها في خلال ثوانٍ. هي قريبة للغاية منه.

- فقدت الاتصال بـ 911.

- لا بأس. المهم ألا تفقديني.

استدار نحو الجهة الأخرى وأحاط فمه بكفيه مناديًا: «توبين!».

لا شيء.

- توبين!

- ماذا؟

جاءته خافتة. يا يسوع المسيح، ماذا يفعل هذا الطفل؟ يهرع إلى «نِبراسكا»؟

- هل ستأتي؟ لا بُدَّ أن تتبعني! لا أراك!

صاح بأعلى صوت حتَّى آلمته حنجرته، كأنه في حفل فريق «ميتاليكا» لكن من دون موسيقى: «**اثبت مكانك! لا أهتم لذعرك، اثبت فقط! دعنا نعثر عليك!**».

استدار مرَّة أخرى متوقِّعًا أن يرى بيكي، لكنه لم ير سوى الحشائش. قفز، فرأى الطريق (أبعد ممَّا توقَّع، يبدو أنه جرى مسافة طويلة دون أن يدرك هذا) والكنيسة أيًّا كان اسمها، وصالة البولينج، لكن هذا كل شيء. لم يتوقَّع

أن يرى رأس بيكي -طولها خمسة أقدام وبوصتان فقط- لكنه توقَّع أن يرى أثر سيرها على الأرض. الريح تمشط الحشائش بقوة ممَّا أخفى أي أثر.

قفز مرَّة أخرى. الأرض المبلَّلة تنضغط في كل مرَّة يهبط فيها فوقها.

- بيكي؟ أين أنت بحق الجحيم؟

⟵

سمعت بيكي أخاها ينادي الطفل ويطالبه بالثبات مكانه مهما كان خائفًا. بدت هذه خطة جيدة لو أنه فقط يدعها تلحق به. هي مرهقة، مبلَّلة، تشعر لأول مرَّة أنها حامل بحق. الخبر الجيد أن كال قريب، على يمينها مباشرة.

حسنًا، لكن حذائي سيتلف. الحقيقة، هو تلف بالفعل.

- بيكي؟ أين أنت بحق الجحيم؟

هذا غريب. كان عن يمينها بعد، لكنه بدا في مكان مختلف، كأنه خلفها.

- أنا هنا. وسأمكث مكاني حتَّى تعثر عليَّ.

نظرت إلى هاتفها ثمَّ أضافت: «كال، هل لديك تغطِّية شبكة في هاتفك؟».

- لا فكرة لديَّ؛ الهاتف في السيارة. تكلَّمي حتَّى أعثر عليكِ.

- ماذا عن الطفل؟ والأم المختلَّة؟ لقد ذهب عقلها تمامًا.

- ليجتمع شملنا أولًا، ثمَّ لنقلق معًا عليهما.

بيكي تعرف أخاها جيدًا، ولا يعجبها طريقة حديثه أو صوته. كال قلق ويحاول ألا يُبدي قلقه.

- والآن، تحدَّثي إليَّ فقط.

فكرت بيكي، ثمَّ بدأت تغنِّي وهي تضرب الأرض بقدميها.

- كان هناك رجلٌ يُدعى مَكسويني، سكب بعض الخمر على عيني..

قال كال: «هذا ساحر».

صوته خلفها مباشرة، قريب كفاية ليلمسها. لماذا شعرت بهذه الراحة. ما هم إلا في حقل عادي بحق الله.

هتف الطفل بصوت خافت مرتعب: «يا شباب! هل تبحثون عني؟ أنا خائف!».

صاخ أخوها: «أجل! اصبر! بيكي، استمرِّي في الحديث».

تسلَّلت يدا بيكي إلى بطنها -ترفض أن تطلق على بطنها حملًا- ومسَّدتها برفق.

- هاك أغنية أخرى. كانت هناك امرأة تدعى چيل، في مرَّة ابتلعت..

- انتظري! لقد فوَّتك بشكل ما.

أجل، صوته الآن أمامها. استدارت مرَّة أخرى.

- كفى مزاحًا يا كال. هذا سخيف.

ريقها جاف. ابتلعت لعابها، فوجدت حلقها جافًّا أيضًا. هناك زجاجة ماء كبيرة في السيارة، وعلبتي مياه غازية.

- بيكي؟

- ماذا؟

- ثمَّة شيء غريب هنا.

- ماذا تعني؟

- اسمعي.. هل تستطيعين القفز؟

- بالطبع! ماذا تظن؟

- أظنك ستلدين هذا الصيف.

- لكنني.. كال، توقَّف عن الابتعاد!

- أنا لم أتحرَّك.

- بل تحرَّكت! لا بُدَّ أنك تحرَّكت! وما زلت تتحرَّك.

- اسكتي واسمعي. سأعد حتَّى ثلاثة ثمَّ ارفعي ذراعيك إلى أعلى ارتفاع واقفزي إلى أعلى مسافة ممكنة. سأفعل مثلك، وسأعثر عليكِ.

«صفِّر وسأعثر عليك يا رفيقي» لا تعرف من أين جاءتها العبارة. يبدو أنها عبارة أخرى ممَّا درسته في سنتها الأولى في الجامعة، لكنها تعرف شيئًا واحدًا؛ هو يقول إنه لا يتحرَّك، لكنه يتحرَّك ويبتعد طيلة الوقت.

- بيكي؟ بيك...

صاحت: «حسنًا.. لنفعل هذا».

- واحد.. اثنان.. ثلاثة!

في سن الخامسة عشرة، كان وزن بيكي ديمُث اثنين وثمانين رطلًا، نعتها أبوها بـ «العصا»، وتقفز الحواجز مع فريق الجامعة الرياضي. في الخامسة عشرة كانت تستطيع عبور ساحة المدرسة مشيًا على يديها. كان في حاجة إلى أن تؤمن أنها الشخص نفسه. جزء من نفسها كان يتوقَّع بصدق أنها ستظل الشخص نفسه لباقي حياتها.

لم يتأقلم عقلها بعد مع حقيقة أنها حامل في التاسعة عشرة، وأنا وزنها وصل إلى مائة وثلاثين رطلًا. رغبت في أن تمسك الهواء، لكن الأمر كان أشبه بمحاولة القفز وهي تحمل طفلًا على كتفيها (عندما فكرت فيها وجدت أن هذه هي الحقيقة).

وصل بصرها فقط إلى قمة الحشائش، ممَّا أمدَّها بلمحة من الطريق الذي جاءت منه. ما رأته رغم ذلك كان كافيًا لإثارة قلقها بشدَّة.

كال والطريق. كال... والطريق.

هبطت، وشعرت بثقل وزنها يضرب كعبها وصولًا إلى ركبتيها. ذابت الأرض الطرية تحت قدمها اليسرى فهوت جالسة في الوحل الأسود، وشعرت كأنما تلقت ركلة.

ظنت بيكي أنها سارت نحو عشرين خطوة وسط الحشائش، ربما ثلاثين. المفترض أن يكون الطريق على مرمى حجر منها. لكن ما رأته أكد لها أنه على بعد أقرب لطول ملعب كرة قدم، وأكثر. سيارة داتسون صدئة تعبر الطريق، حجمها بالنسبة لها لا يزيد على حجم علبة ثقاب. مائة وأربعين ياردة من الحشائش، محيط رقراق من مخمل أخضر، يحول وبينها وبين خط الأسفلت الرفيع.

خاطرها الأول كان: *لا يمكن أن تكوني قد رأيتِ ما رأيته.*

أما خاطرها الثاني فكان عن سبَّاح ضعيف، يجذبه الجزر بعيدًا على الشاطئ رويدًا رويدًا، ولا يفهم في أي مصيبة وقع حتَّى يصرخ، ولا يسمعه من على الشاطئ.

الشيء الآخر المزعج هو أنها لمحت كال قريبًا منها بحق، على بعد أقل من عشرة أقدام، لكنْ كلاهما كان يصرخ كي يسمعه الآخر.

الوحل دافئ، زلق. حشرات الحشائش تطنُّ بلا توقُّف.

صرخ الطفل: «احترسا أن تضلَّا مثلنا!».

تبع هذا ضحكة أخرى... انتحابة مرح مستهترة عصبية. لم تصدر من كال ولا الطفل، ليس هذه المرَّة. لم تصدر من المرأة أيضًا. صدحت الضحكة من مكان ما عن يسارها، ثمَّ صمتت، وابتلعها غناء الحشرات. هذه ضحكة رجل ثمل.

تذكَّرت بيكي فجأة شيئًا قالته المرأة الغريبة. «توقَّف عن *النداء يا حبيبي! سوف يسمعك!*».

ما الأمر؟!

صاح كال كأنه صدى صوتها: «ما الأمر؟».

لم تُدهَش. السيدة ديمُث كانت تقول دائمًا: «أحمق وتافهة، يفكران على نحو متشابه».

والسيد ديمُث يقول أحيانًا: «صامد وجامدة، لهما رأسان وظهر واحد».

ساد صمت لم يقطعه إلا صوت الريح وطنين الحشرات. ثمَّ بصوت جهوري:

- **ما هذا بحق الجحيم!**

↘

قفز كال ونظر نحو الطريق، ثمَّ هبط وانتظر، ثمَّ بعدما عدَّ إلى ثلاثين قفز وألقى نظرة أخرى.

إن أردت الدقَّة، فيمكن القول إنه بدأ يفقد عقله، ودليلٌ على هذا أنه حاول تكرار هذه التجربة من الأساس. لكن الواقع بدأ يبدو كأرض تحت قدميه.. أرض طرية زلقة. لا يستطيع حتَّى المشي باتجاه صوت أخته الذي يأتيه من اليمين عندما يتجه يسارًا، ومن اليسار عندما يقصد اليمين. أحيانًا من الخلف وأحيانًا من الأمام. مهما كان اتجاهه، فهو يسير مبتعدًا عن الطريق.

قفز وركَّز نظره على برج الكنيسة. رمح أبيض برَّاق على خلفية من سماء زرقاء بلا سحب تقريبًا. لا بُدَّ *أن الرعية قد دفعوا كثيرًا لبنائها*.

من مكانه، وعلى بعد ربع ميل -مهما بدا هذا جنونًا- أدرك أنه مشى أقل من مائة قدم، ورغم ذلك لا يستطيع تبيَّن طلاء الكنيسة المشقَّق أو دعائم النوافذ. لا يرى سيارته حتَّى في ساحتها. يستطيع أن يرى فقط السيارة الـ«بريوس» المترَّبة الواقفة في الصف الأول. حاول ألا يفكر فيما لمحه على المقعد الأمامي. تفاصيل من كابوس غير مستعدٍّ بعد لمواجهته.

في قفزته الأولى كان يواجه برج الكنيسة، وفي العالم الطبيعي يمكنه السير حتَّى يصل إليها عن طريق المشي في خط مستقيم عبر الحشائش، ويقفز من وقت إلى آخر ليتأكد من استقامة مساره.

ثمَّة لافتة صدئة مثقَّبة بين الكنيسة وصالة البولينج. اللافتة على هيئة معينة ذي إطار أصفر، مكتوب عليها: أبطئ- منطقة عبور أطفال. ربما كان هذا هو المكتوب فقد نسي نظارته في السيارة. بدأ العَدَّ مرَّة أخرى. أتاه صوت أخته تصيح:

- كال؟

- انتظري.

نادت مرَّة أخرى من مكان ما عن يساره: «كال. هل أستمر في الكلام؟».

وعندما لم يُجِبها، بدأت تغنِّي بطريقة عشوائية، ومن مكان ما أمامه سمع صوتها.

- كانت هناك فتاة اسمها چيل..

- اصمتي وأنصِتي!

حنجرته جافَّة متقلِّصة، وابتلاع ريقه جهد لا يُستهان به. رغم أن الوقت أقرب إلى الثانية ظهرًا، تبدو الشمس متعامدة فوقه. يستطيع الشعور بحرارتها على فروة رأسه وقمَّتَيْ أذنيه. لو أن معه ما يشرب.. شربة ماء بارد، أو واحدة من علبتي المياه الغازية.. لانتعش قليلًا وقل توتره.

قطرات الندى تحرق الحشائش كمئات العدسات المكبِّرة الدقيقة التي تكثِّف ضوء الشمس.

عشر ثوانٍ.

نادت بيكي من مكان ما عن يمينه (كلا.. هي لا تتحرَّك.. سيطِر على عقلك): «أيها الطفل؟ أما زلت تسمعنا؟».

صوتها متحشرج عطشًا، مثله.

- أجل. هل عثرتما على أمي؟

صاح كال: «ليس بعد».

لقد مرَّ وقت فعلًا منذ سمع صوتها، لكنها ليست أكبر همه الآن.

عشرون ثانية.

جاءه صوت بيكي من خلفه هذه المرَّة تنادي: «أيها الطفل؟ كل شيء سيكون على ما يرام».

- هل رأيتما أبي؟

فكر كال: *لاعب جديد. رائع. ربما ويليام شانتر هنا أيضًا.. ومايك ماكبي.. وكيم كارداشيان.. والرجل الذي يقوم بدور أوبي مسلسل أبناء الفوضى.. وكل ممثلي مسلسل الموتى السائرون.*

أغلق عينيه، لكن في اللحظة التي فعل فيها هذا شعر بالدوار كأنه يقف فوق قمة سلَّم خشبي يميد من تحته. تمنَّى لو أنه لم يفكر في مسلسل الموتى السائرون. يكفيه ذكر ويليام شاتنر ومايك مكبي. فتح عينيه فوجد نفسه يتمايل على عقبيه. استعاد توازنه ببعض الصعوبة. وجهه غارق بالعرق.

ثلاثين.

ظل ثابتًا في هذه النقطة لمدَّة ثلاثين ثانية. كان يظن أنه يستطيع الوقوف في المكان نفسه لمدَّة دقيقة، لكنه عجز عن ذلك، لذا قفز مرَّة أخرى ليلقي نظرة على الكنيسة.

جزء من عقله -الجزء الذي كان يبذل قصارى جهده في التجاهُل- عرف بالفعل ما سيراه. علَّق هذا الجزء على الأحداث قائلًا: «*كل شيء قد تحرَّك من مكانه يا كال يا صديقي. الحشائش تنجرف، وأنت تنجرف أيضًا. فكر في الأمر من مُنطلق التوحُّد مع الطبيعة*».

عندما دفعته ساقاه المتعبتان إلى الهواء مرَّة أخرى، رأى برج الكنيسة نحو اليسار أكثر. لم يتحرَّك كثيرًا، لكنه تحرَّك. لقد انجرف كفاية إلى يمينه حتَّى إنه لم يعد يرى واجهة اللافتة ذات الشكل المعيَّن، بل ظهرها المعدني.

فطن كذلك إلى أنه صار أبعد ممَّا كان، لكنه لم يكن متيقنًا من هكذا. كأنه رجع إلى الخلف بضع خطوات بينما يعد حتَّى ثلاثين.

من مكان ما نبح الكلب مرَّة أخرى: غوب غوب غوب. صوت المذياع يصل إليه من مكان ما، لكنه لا يميز الأغنية التي تنطلق منه. فقط إيقاعها. الحشرات تطنُّ طنينها الرتيب المثير للجنون.

همس كال لنفسه: «أوه، بربك».

لم يكن ممَّن يكلمون أنفسهم كثيرًا، وكان يفخر بالوقت الطويل الذي يستطيع البقاء فيه صامتًا، لكنه يتكلَّم الآن، وبالكاد يعي لذلك.

- أوه، بربك.. سحقًا لهذا.. هذا.. هذا جنون.

وكان يسير كذلك. يسير تجاه الطريق مرَّة أخرى دون أن يُدرك.

صاحت بيكي: «كال؟».

- هذا جنون...

تهدَّجت أنفاسه وهو يركل الحشائش بعيدًا عن ساقيه كي لا يتعثَّر فيها. ارتطمت قدمه بشيء، فركع على بعد بوصة من ماء قذر.. ساخن، وليس دافئًا فقط. طال الرذاذ حِجر بنطاله القصير، فشعر كأنما بال على نفسه.

زاد هذا من تخبُّطه شيئًا. قام واقفًا، ثمَّ انطلق يعدو، الحشائش تجلِد وجهه. أوراقها حادَّة الأطراف، قوية، وشعر بألم حارق عندما قطعت إحداها الجلد أسفل عينه. تسبَّب الألم في إرباكه أكثر، فزاد من سرعته إلى أقصى ما يستطيع.

صرخ الطفل: «انجدوني!».

ما المشكلة؟ المشكلة أن المقطع «انجدو» جاء من يسار كال، بينما المقطع «ني» جاء من ناحية اليمين. كأن هذا إصدار كانساس من الصوت «الدولبي» المُجسَّم.

صرخ كال مرَّة أخرى: «هذا جنون! هذا جنون، هذا جنون، هذا جنون!».

تلاصقت الكلمات ببعضها فخرجت منه: «هذاجنونهذاجنونهذاجنون»، ويا له من قول غبي وملاحظة تافهة، لكنه لم يستطع التوقُّف.

سقط مرَّة أخرى، بقوة هذه المرَّة، فتمدَّد على الأرض على صدره. ملابسه ملطخة بالطين اللزج الدافئ الذي له رائحة تشبه رائحة البراز.

قام كال وجرى خمس خطوات أخرى، بدت له كأنما يغرز قدميه في عش من الأسلاك المتشابكة، وليلعنه الله إن لم يسقط مرَّة ثالثة. أزَّ رأسه كأنه سحابة ذباب.

صرخت بيكي: «كال! توقَّف يا كال! توقَّف!».

أجل، توقَّف. إن لم تفعل تصرخ بعد قليل «النجدة» مع الطفل كثنائي غنائي لعين..

غبَّ الهواء، انتفخ قلبه. تنتظر توقُّف الطنين اللعين في رأسه، لكنه لم يكن فيها على أية حال؛ مصدرها ذباب بالفعل، يستطيع رؤيته يندفع بين الحشائش، حوِّم حول شيء خلف ستائر الأخضر المصفر أمامه.

مدَّ يديه بين الحشائش يزيحها إلى الجانبين.

كلب -يبدو أنه كان من نوع جولدن ريتريڤير- مستلقٍ على جانبه فوق الوحل. كتلة بُنِّيَّة محمرَّة من الفراء تحت سجادة من ذباب أزرق. لسانه المنتفخ متدلٍ من بين أسنانه، وعيناه البيضاوان الرخاميتان تحدِّقان إلى الفراغ، وطوقه المعدني الصدئ يلمع من بين طيَّات فراء عنقه. نظر كال إلى اللسان مجدَّدًا، فرآه مغطًّى بطبقة بيضاء مخضرَّة، ولم يرغب كال في التفكير في السبب. الكلب متسخ، مبلَّل، يبدو كبساط ذهبي قذر يغطِّي كومة عظام.

تماسَك. خطرت له العبارة الآمرة بصوت أبيه المُهدئ، ممَّا ساعده نوعًا. نظر إلى بطن الكلب النحيلة ولمح حركة؛ كتلة من الديدان كتلك التي رآها تغطِّي شطيرة البرجر على مقعد السيارة الـ«بريوس». لقد ظلت الشطيرة مكانها لعدَّة أيام. أحدهم تركها وترجَّل من السيارة، ولم يعد.. ولم..

تماسَك يا كالڤن. إن لم تفعل لمصلحتك، فلمصلحة أختك.

وعد أباه: «سأتماسك. أعدَك».

أزاح القيود الخضراء عن كاحليه شاعرًا بالجروح الدقيقة التي خلَّفتها.

- بيكي، أين أنتِ؟

لم يأته رد حتَّى هجر قلبه أضلعه صاعدًا إلى حلقه. ثمَّ من صوت بعيد سمع: «هنا! كال! ماذا سنفعل؟ هل ضللنا؟».

أغلق عينيه مرَّة أخرى هنيهة. *هذا ما يقوله الولد دائمًا.* تحرَّك إلى حيث مكان صوتها وهو يقول: «نكمل الحديث حتَّى نجتمع مرَّة أخرى».

- لكنني عطشى للغاية.

بدت أقرب الآن، لكن كال لن يثق بهذا. لا.. لا.. لا..

- وأنا أيضًا. لكننا سنخرج من هذه الورطة، كل ما علينا هو أن نحافظ على عقلينا.

لكنه بالفعل فقد عقله.. بعض الشيء، لكنه لن يخبرها بذلك. هي لم تخبره قط عن اسم الشاب الذي تسبَّب في حملها، ممَّا يجعلهما متساويين في إخفاء المعلومات الآن. سرٌّ لها، وسرٌّ عليها.

- ماذا عن الولد؟

آه، بحق المسيح، صوتها يخفت مجدَّدًا. كان مرتعبًا حتَّى إن الحقيقة ظهرت أمامه دون أي مجهود، وصرخت بأعلى صوتها.

- اللعنة على الولد! المصيبة مصيبتنا الآن!

⬇

ذابت الاتجاهات داخل الحشائش العالية. عالم من عوالم دالي[1]، بصوت مجسَّم. ظلا يطاردا صوتيهما كطفلين عنيدين يلعبان المسَّاكة ولا يريدان العودة إلى بيتهما لتناول العشاء. أحيانا يبدو صوت بيكي قريبًا، وأحيانًا بعيدًا، لكنه لم يرها مرَّة واحدة. من وقت إلى آخر ينادي الولد على مَن يغيثه، وفي مرَّة بدا صوته قريبًا حتَّى مدَّ كال يديه ليمسك به قبل أن يختفي مرَّة أخرى، لكنه لم يجد أي ولد. فقط غراب مقطوع الرأس والجناحين.

ليس هناك ليل أو نهار هنا. ظهيرة ممتدَّة إلى الأبد. حتَّى وهذا الخاطر في عقله، كان يرى زرقة السماء تزداد دُكنة، والأرض الزلقة تحت قدميه تزداد قتامة.

لو أن لنا ظلالًا لكنا استخدمناها في السير إلى الاتجاه نفسه على الأقل. لكن لم يكن لهما ظلال. ليس وسط الحشائش العالية. نظر إلى ساعته ليرى أنها توقَّفت. أوقفتها الحشائش. تردُّدات خبيثة وسط الحشائش.. شيء ما ورائي حقير.

---

(1) سالڤادور دالي، الرسام الذي اشتهر برسوماته السريالية غير المنطقية. (المترجمة)

كانت الساعة لا شيء ونصف حين بدأت بيكي تنتحب.

- بيكي؟ بيكي؟
- عليَّ أن أستريح يا كال. يجب أن أجلس. أنا عطشى وتنتابني التقلُّصات.
- انقباضات الولادة؟
- أظنها هي. إلهي. ماذا لو أنني أُجهَض هنا في هذا الحقل اللعين؟
- فقط امكثي حيث أنت. ستختفي.
- شكرًا أيها الطبيب.. أنا..

صمتت، ثمَّ صرخت: «ابتعد عني! ابتعد! لا تلمسني!».

فانطلق كال نحو صوتها.

↘

عندما خرج من وسط فرجة الحشائش ووقف أمامها، رأته يرتدي ملابس السائحين؛ حذاءين من علامة «وي چُنز» التجارية ملطخين بالطين، وبنطلونًا من ماركة «دوكَرز». أما القميص المتسخ ببقع بنية -دم على الأرجح- فاستطاعت أن ترى رسم كُرة خيوط عليه، وأسفلها عبارة «أكبر كُرة خيوط في العالم- كانساس». ألم تشترِ قميصًا كهذا ووضعته مطويًا في حقيبتها؟

والد توبين بشحمه ولحمه الملطخ بالدماء والوحل.

وقفت تضمُّ بطنها إليها وهي تصيح: «ابتعد عني! ابتعد! لا تلمسني!».

ابتسم الأب. خدَّاه خشنان، شفتاه حمراوان.

- اهدئي. هل تودِّين رؤية زوجتي؟ أو.. مهلًا! هل ترغبين في الخروج من هنا؟ هذا سهل.

حدَّقت إليه منفرجة الشفتين. كال يصرخ، لكنها لا تنتبه إليه الآن.

- لو كنت تستطيع الخروج ما مكثت!
- فكرة صحيحة، استنتاج خاطئ. سأجتمع بابني بعدما وجدت زوجتي بالفعل. هل تريدين لقاءها؟

لم تُجِب.

- حسنًا..

استدار مبتعدًا عنها، مخترقًا الحشائش. سرعان ما سيختفي كما اختفى أخوها، فشعرت بيكي بطعنة ذعر. واضح أنه مختل.. ما عليك سوى أن تنظر إلى عينيه وتنصت إلى صوته الآلي.. لكنه بشري.

توقَّف، واستدار مبتسمًا وقال: «نسيت أن أقدم لكِ نفسي. هذا خطئي. روس كَمبولت اسمي، والتسويق العقاري وظيفتي. من بوكيبسي. زوجتي تدعى ناتالي، وابني توبين. ولد لطيف! ذكي! أنت بيكي، وأخوكِ كال. هذه آخر فرصة يا بيكي، تعالي معي أو موتي».

لا تثقي به.

لم تفعل، لكنها تبعته رغم هذا إلى ما ظنته مسافة آمنة.

- ليس لديك أي فكرة عن المكان الذي نذهب إليه.

ظل كال ينادي من بعيد: «بيكي؟ بيكي!».

كأنه ينادي من مكان ما في داكوتا الشمالية أو ربما مانيتوبا. افترضت أنها ستُجِبه، لكن حنجرتها لم تطاوعها.

- كنت ضالًّا وسط الحشائش مثلكما. لكني لم أعد كذلك. لقد قبَّلت الحجر.

نظر إليها بعينيه المجنونتين مردفًا بعبارات مفككة: «بل ضممته أيضًا. كل أولئك الرفاق المتراقصين الصغار. سترين كل شيء بوضوح النهار. العودة إلى الطريق؟ ضربة موفقة! زوجتي هناك، يجب أن تقابليها. هي حبيبتي. تصنع أفضل خمر مارتيني في أمريكا. كان هناك رجل يُدعى مَكسويني، صبَّ.. إحم! أعتقد أنك تعرفين باقي القصيدة».

ثمَّ غمز.

حضرت بيكي في المدرسة الثانوية فصول تمارين الدفاع عن النفس للشابَّات. الآن تحاول تذكُّر الحركات، لكنها لا تستطيع. ما تتذكَّره فقط...

في جيب بنطالها القصير سلسلة مفاتيح. أطول المفاتيح وأكثر سماكة هو مفتاح باب البيت الذي تربَّت فيه وأخوها. دسَّت يدها في جيبها، وأحاطت المفتاح بإصبعيها الوسطى والسبابة.

هتف روس هَمبولت في جزل وهو يفرق الحشائش بكلتا يديه، كمستكشف في فيلم قديم: «ها هي ذي! حييها يا ناتالي! هذه الشابة ستلد مخلوقًا صغيرًا!».

هناك دماء متناثرة خلف الحشائش التي أبعدها، وأرادت بيكي أن تتوقَّف، لن تحملها قدماها إلى الأمام، فابتعد عن طريقها لتتقدَّمه. رأت على العشب القذر السيدة ناتالي هَمبلوت ممدَّدة بعينين جاحظتين، وفستان مقطوع يكشف عن الجروح الكبيرة الحمراء على فخذيها، وعرفت بيكي سبب احمرار شفتي روس هَمبولت من بوكيبسي. إحدى ذراعي ناتالي مفصولة عن كتفها وملقاة على بعد عشرة أقدام خلفها وسط الحشائش المهشمة، التي تعود إلى استقامتها تلقائيًّا وببطء. جروح جسدها مبللة طازجة لأنها...

لأنها لم تمُت منذ وقت طويل. لقد سمعناها تصرخ. سمعناها تموت.

قال روس بصوت واثق وأصابعه المتسخة بالحشائش حول حلق بيكي: «العائلة هنا منذ فترة. والناس تجوع. لا يوجد طعام هنا! كلا. يمكنك شرب الماء الذي ينضح من الأرض، لكنه مُرٌّ قذر ساخن، لكن بعد فترة لن تكترثي.. نحن هنا منذ أيام. أنا الآن ممتلئ كبقَّة!».

اقتربت شفتاه المخضَّبتان بالدماء من أذنها وأردف: «هل تريدين رؤية الصخرة؟ هل تريدين التمدُّد فوقها عارية وتشعرين بي بداخلك بينما تنشد الحشائش اسمينا؟ شاعري، أليس كذلك؟».

حاولت سحب بعض الهواء لتصرخ، لكن لم يدخل شيء إلى قصبتها الهوائية. رئتاها خاويتان فجأة. قبض على حنجرتها أكثر، سحق العضلات والأربطة والأنسجة. ابتسم روس هَمبلوت. أسنانه ملطَّخة بالأحمر، لكن لسانه أصفر مخضرٌّ، وتفوح أنافسه برائحة الدماء والعشب.

- لدى الحشائش ما تخبرك به. يجب أن تتعلَّمي فن الإصغاء. يجب أن تتعلَّمي لغة العشب الطيب يا حبيبتي. الصخرة تعرف. بعدما ترينها ستفهمين. لقد تعلَّمت من الصخرة في خلال يومين ما لم أتعلَّمه في خلال عشرين سنة من الدراسة.

دفع جذعها إلى الخلف، فانحنت كعود عشب أمام الريح.

- عشرون عامًا من الدراسة، ثمَّ يوظفونك في وردية نهارية.

ضحك مُضيفًا: «هذه صخرة قديمة، جيدة أليست كذلك؟ الصخرة في وسط الحقل صخرة رائعة، لكنها عَطشى. عاشت فترة رمادية تسبق قبل أن يبدأ الهنود الحمر الصيد في أوسيج كويستاس. كانت موجودة منذ نقلها انهيار جليدي هنا في خلال العصر الجليدي.. وآه يا فتاة، لكم هي عطشى!».

تمنَّت لو تضرب خصيتيه بركبتها، لكن هذا مجهود لا تقدر عليه. كل ما تستطيعه هو رفع قدمها بضع بوصات ثمَّ إنزالها مرَّة أخرى. رفع، ثمَّ إنزال. تضرب بقدميها ببطء كحصان يستعد للخروج من الإسطبل.

مجموعات نجمية من الأسود والفضي تبزغ عند جانبي رؤيتها. كم هو رائع مشاهدة كون جديد يتفجَّر ويذوى. يولد ويموت. يظهر ويختفي. سرعان ما ستختفي هي نفسها، هذا مفهوم. لم يبدُ لها هذا شيئًا مُقلقًا أو مريعًا. التصرُّف السريع غير ضروري.

كان يصرخ باسمها من بعيد. إن كان صوته من قبل يبدو كأنما يصل إليها من «مانيتوبا»، فهو الآن في أعماق أحد آبارها.

قبضت كفَّها أكثر على سلسلة المفاتيح في جيبها. أسنان أحد المفاتيح تنغرز فيها.. تعُضُّها.

- الدم جيد، والدموع أفضل بالنسبة لصخرة عتيقة عطشى مثلها. عندما أجامعكِ فوقها ستحصل على بعض من الاثنين. يجب أن ننتهي سريعًا أيضًا، فلا نريد أن يرانا الولد.

أنفاسه نتنة.

سحبت يدها من الجيب، طرف المفتاح الكبير يبرز من بين إصبعيها. لكمت وجه روس هَمبولت. أرادت فقط أن تبعد فمه عنها فلا تشم أنفاسه النتنة الخضراء بعدها. شعرت أن ذراعها ضعيفة، ولكمتها واهنة، لكن المفتاح انغرز أسفل عينه اليسرى ثمَّ مزق خده بجرح متعرِّج دامٍ.

أجفل وأبعد رأسه إلى الخلف. ارتخت قبضته حول عنقها، ولم يعد إبهامه يضغط على حلقها. لكن سرعان ما عاود الضغط بعدما تنفَّست مرَّة واحدة، وانجلت بصيرتها كأن أحدهم رمى ماء باردًا على وجهها. اللكمة التالية ضربت عينه فغاص المفتاح فيها وارتطمت مفاصل أصابعها بعظام وجهه. اخترق المفتاح العين وغاص في لُبِّها السائل.

لم يصرخ، بل صدر عنه صوت أقربَ للنباح (غوب!) ودفع يدها جانبًا وحاول إسقاطها أرضًا. جلد ساعده مصاب بحروق شمس، ولمحت جلد أنفه يتقشَّر أيضًا. كشَّر كاشفًا عن أسنان مضمخة بالدماء وبالعشب.

ابتعدت كفُّها فتخلَّت عن سلسلة المفاتيح التي تدلَّت من مِحجر عينه. أغرقت الدماء نصف وجهه الأيسر، وتحوَّلت عينه إلى فجوة حمراء.

تمايلت الحشائش حولهما وهبَّت الرياح، فتمايلت الحشائش تخدش ظهر بيكي وساقيها.

ضربها بركبته في بطنها، وشعرت كأنها ضُرِبت بحجر، فأحسَّت بألم ربما يفوق الألم أسفل حوضها. نوع من الانقباضات العضلية، التواء شديد كأن حبلًا ملفوفًا حول رحمها، وجذب طرفه أحدهم.. وظل يجذب.

صرخ ونبرة الجنون تتزايد في صوته: «أوه، بيكي! يا فتاة! ضاع مستقبلك الآن!».

ركل بطنها مرَّة أخرى، ثمَّ أخرى. كل ضربة تدفعها لإدراك أنه يحاول قتل طفلها. شيء ينزلق على فخذها، ربما بول أو دماء، لا تستطيع الجَزم.

رقصا معًا، الحامل والأعور المجنون. رقصا بين الحشائش، تداخلت أقدامهما، يداه حول عنقها. ظلا يدوران حول جثة ناتالي. كانت بكي واعية إلى الجثة تحت قدميها. شاحبة، دامية، ممزقة الفخذين، مقطَّعة الأوصال. (كيف انتزع ذراعها؟ هل مزقها من مكانها كما نمزق فخذ الدجاجة؟). أظفارها متسخة بالدماء.

رمت بيكي نفسها نحو روس بكامل قوتها. تراجع إلى الخلف، وضع قدمه على الذراع المبتورة، فدار حول نفسه تحت كعبه. صرخ صرخة غضب وهو يتعثَّر ويجذبها معه. لم يطلق سراح حنجرتها إلا عندما ارتطم بالأرض، واصطكَّت أسنانه.

امتصَّ عنها أغلب الصدمة بجسده الطري. ابتعدت عنه وبدت تهرع على أربعٍ عبر الحشائش.

لكنها لم تستطع العدو بسرعة؛ بطنها ينبض بثقل عظيم وتقلصات مريعة، وداهمها شعور بالغثيان. اخترق بطنها رمح من ألم وإحساس بانفجار داخلي. ارتطم ذقنها بالأرض الرطبة وغامت عيناها.

- أين أنتِ يا بيكي ديمُث؟

لم تخبره باسمها كاملًا. لا يمكن أن يعرفه.

- سأعثر عليكِ. ستفصح لي الحشائش عن مخبأك. سيأخذني الراقصون الصغار إليكِ. تعالي.. أنت لا تحتاجين إلى الذهاب إلى سان ديِّجو الآن.

لن يكون ضروريًّا أن تتخذي قرارًا بشأن الطفل. كل شيء سينتهي الآن.

انجلى بصرها الآن ورأت أمامها بين الحشائش حقيبة نسائية من القشِّ، ومحتوياتها مسكوبة جوارها. رأت من بين ما فيها مقص أظفار، شفرتاه مخضبات بالدماء. لم ترغب في التفكير في الطريقة التي استخدمه بها روس، أو الطريقة التي ربما تستخدمه بها.

- تعالي إلى هنا. اسمعي ما أقول أيتها العاهرة!

قبض على قدمها، فدارت حول نفسها ورمت جسدها فوقه وهي تحمل مقصَّ ناتالي. ضربته في وجهه مرَّة، مرَّتين، ثلاث مرَّات قبل أن يصرخ صرخة ألم حقيقي تحوَّلت إلى انتحاب ممتزج بالضحك قبل أن تُجهِز عليه. تذكَّرت أن الولد ضحك مثله، ثمَّ اختفت كل الأفكار من عقلها..

حتَّى حين.

→

جلس كال على العشب مع انطفاء آخر ضوء للنهار، يمسح الدموع عن خديه.

لم يبلغ هذا الحد من البكاء من قبل. هوى جالسًا بعدما تيقن من أن مناداة بيكي والبحث عنها غير مُجديين -كانت قد توقَّفت عن إجابة نداءاته منذ فترة طويلة- فلم يشعر إلا وحلقه مغلق من النحيب.

الغروب بَهي. زُرقة السماء عميقة تقترب من الأسود. يتوهَّج الأفق من خلف الكنيسة جهة الغرب بوهج جمرات ملتهبة. يرى الوهج من وقت إلى آخر حين يمتلك القوة للقفز، والإيمان بأن البحث عن الاتجاهات ذو جدوى.

ثقل حذاؤه بالماء، وشعر بألم في قدميه وحكَّة بين فخذيه. خلع فردة حذاء وأفرغها من الماء. لم يكن يرتدي جوربًا، فتحوَّلت قدماه إلى لون أبيض شمعي كأنها جزء من جثة غارقة.

خلع الفردة الأخرى، ثمَّ تردَّد في إفراغها. قربها من شفتيه وأرجع رأسه إلى الخلف فصبَّ ما فيها في حلقه. ماء بطعم الأقدام النتنة.

كان قد سمع صوتي بيكي والرجل بعيدًا عبر الحشائش. وكان الأخير يتحدَّث بطريقة مسرحية، لكنه لم يتبيَّن ما قيل بالضبط. شيء عن صخرة. شيء آخر عن راقصين. شيء عن العطش. جُملة من أغنية شعبية. بمَ كان يشدو؟ عشرين عامًا من الكتابة ويوظفونك في وردية ليلة؟ كلا.. لم يقل هذا بالضبط. الأغاني الشعبية ليست من اهتمامات كال.

ثمَّ سمعهما يتصارعان، وسمع صرخات بيكي المتحشرجة، ثمَّ جاءت صيحات وضحكات.. لم تصدر عن بيكي، بل عن الرجل.

عند هذه اللحظة، انتابت كال نوبة هستيرية فراح يصرخ وينادي ويقفز. صرخ وجرى مطولًا حتَّى استطاع أن يسيطر على نفسه أخيرًا. انحنى مستندًا إلى ركبتيه ولهث. حلقه جافٌّ من العطش.

ثمَّ انتبه إلى الصمت وسكون الحشائش. ناداها مرَّة أخرى: «بيكي؟ بيكي؟».

لم يتلقَّ ردًّا سوى من همسات الرياح.

سار مجدَّدًا ونادى مرَّة أخرى ثمَّ جلس. حاول أن يكتم بكاءه.

الغروب بهي..

بحث في جيوبه للمرَّة المائة اليائسة، على أمل أن يجد ولو حبة سكاكر واحدة. كان قد اشترى كيسًا منها وأجهزا عليه هو وبيكي قبل أن يصلا إلى حدود أوهيو. السكاكر مضيعة للمال، والطعم الحلو يزول بعد أربع...

شعر في جيبه بورقة، وتحسَّس دفتر أعواد ثقاب. كال لا يدخن، لكنهم يوزِّعون هذه الدفاتر بالمجَّان في متجر الكحوليات في ڤانداليا. الدفتر مطبوع عليه صور تنِّين معدني. دفع كال وبيكي إلى الحصول على الكثير من العملات الخاصَّة التي أمضيا النهار كله في إطعامها لمجسم التنين ليشاهدا النيران تخرج من منخريه. تخيَّل كال التنِّين جالسًا وسط الحقل، يحرق الحشائش في كل اتجاه.

أدار دفتر أعواد الثقاب بين أصابعه، وفكر: «*أحرِق الحقل. أحرِق الحقل اللعين*».

ستحترق الحشائش الطويلة كما يحترق القشُّ.

تخيَّل نهرًا من عشب مشتعل، يقذف الشرر في الهواء. صورة عقلية قوية حتَّى إنه شم رائحة الحريق وهو مغمض العينين.

لكن ماذا لو انقلب الحريق عليه؟ ماذا لو حاصر بيكي في مكان ما؟ ماذا لو فقدت الوعي ثمَّ أفاقت على رائحة شعرها يحترق؟

كلا. سيكون بعيدًا عن النار. ستكون بيكي بعيدة عنها. سيطرت عليه فكرة إحراق الحقل، فكرة إيذاء الحشائش وإهانتها، فتتركه وأخته لحال سبيليهما.

كل مرَّة يمس عود عشب خده يشعر كأنما يحاول إثارة غيظه والسخرية منه.

قام واقفًا على قدمين ملتهبتين. كان قد وجد حبلًا قديمًا نديًّا، فكوَّمه وركع جواره فأضرم فيه النار، لكن النار انطفأت بمجرَّد أن لمست الحشائش الرطبة بالندى الذي لا يجفُّ. ارتجفت يداه وهو يشعل عودًا آخر، ففعل مثلما فعل سابقه. حاول مرَّة تلو الأخرى، ولم تفعل الثقاب سوى الانطفاء بمجرَّد لمسها العشب الندي، بل إن أحدها انطفأ قبل أن تمسه إذ هبت رياح ذهبت باللهب.

بعد المحاولة السادسة، أضرم النار في الدفتر نفسه، ثمَّ أسقطه وسط العشب الكثيف. للحظات لم يحدث شيء، ثمَّ ارتفع لسان لهب برتقالي، فأحرق الدفتر فتحة وسط العشب وسقط بداخل كومته وانطفأ.

ركل كل ما حوله في حنق ويأس شنيع. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمنعه من الصراخ.

بعدها جلس مسندًا جبهته إلى ركبتيه. كان مرهقًا ويحتاج إلى راحة، يحتاج إلى أن يفترش الأرض ويرى النجوم تنبثق من العتمة. في الوقت نفسه، لم يحب أن يمسَّ بكامل جسده العشب الموحِل فيلوِّث به شعره وظهره. لقد أصابه الوسَخ أكثر ممَّا يحتمل. قدماه تؤلمانه فلا يستطيع تكرار محاولة السير نحو الطريق مرَّة أخرى قبل حلول الظلام.

ما أجبره على القيام بعدها صوت صافرة إنذار سيارة، لكن ليست أي سيارة. لم يكن صوت الصفارة معتادًا، بل أقرب إلى صوت خشن مُنغَّم لا يصدر إلا عن سيارات «مازدا» قديمة.. كتلك التي ركبها هو وأخته للسفر.

وييك- هونك وييك- هونك وييك- هونك.

قدماه مُتعبتان، لكنه قفز رغم ذلك. الطريق قريب مرَّة أخرى (وكأن هذا يشكِّل فارقًا)، ورأى كشَّافَي السيارة يومضان. لم يكن يحتاج إلى رؤية شيء آخر كي يعرف ما يحدث.

السكان على الجهة الأخرى من الطريق يعرفون بشأن الحقل اللعين ويمنعون أبناءهم عنه. لكن عندما يعبر السائحون ويسمعون صرخات الاستغاثة، يقوفون سياراتهم وينزلون لتبيُّن الأمر، يخرج المحليون لسرقة ما يشاؤون من سياراتهم.

ربما يحبون هذا الحقل القديم. ربما يعبدونه.. ربما..

حاول كبح الاستنتاجات...

ويقدِّمون إليه القرابين. هل يلقون إليه بما لا يحتاجون من محتويات السيارات؟

لا يريد سوى بيكي. إلهي، لكن يريدها.. ويا إلهي مرَّة أخرى، لكن يريد شيئًا يأكله. لا يستطيع أن يعرف أيهما يحتاج أكثر.

- بيكي؟ بيكي؟

لا شيء. النجوم تتسابق لتحتل صفحة السماء فوقه.

ركع كال على ركبتيه ووضع كفَّيه على الطين محاولًا استخراج المزيد من الماء. شرب حاجزًا الشوائب بأسنانه.

لو أن بيكي معي لفكَّرنا معًا. أعرف أننا نستطيع أن نجد حلًّا..

استخرج المزيد من الماء ولم يحاول تصفيته، فابتلع المزيد من الرمال والشوائب وشيئًا يتحرَّك. حشرة ربما، أو دودة صغيرة. حسنًا، ثم؟ أليس هذا نوعًا من البروتين؟

- لن أعثر عليها أبدًا..

حدَّق إلى الحشائش والظلام يغلِّفها.

-.. لأنكِ لن تسمحي لي بهذا، أليس كذلك؟ أنت تبعدين المتحابين عن بعضهم. سندور وندور وننادي حتَّى نُجَن.

إلا أن بيكي توقَّفت عن النداء. مثل الأم، بيكي..

- ليس ضروريًّا أن تنتهي إلى مصير الأم نفسه..

دار رأس كال بغتة إذ لمح صبيًّا ملابسه ملطخة بالوحل يقف هناك. وجهه متسخ، يمسك في يمناه غرابًا ميتًا بساق واحدة.

همس كال: «توبين؟».

- هذا أنا.

رفع الولد الغراب إلى فمه ودفن فمه في بطنه. أومأ الغراب برأسه الميت كأنما يقول: *لا بأس. كُل. انتزع اللحم من الشيء البائس.*

يمكن لكال القول إنه لن يستطيع الحركة بعد قفزته الأخيرة، لكن للرعب حسابات أخرى، فانطلق نحو الصبي ينتزع منه الغراب، وخيط أمعاء يصل بين بطنه وفم الصغير.

- لا يمكن أن تأكل هذا! إلهي! ماذا بك؟ هل جُننت؟

- لست مجنونًا، بل جائعًا. الغربان ليست سيئة. لم أستطع أكل أي شيء من فريدي. لقد أحببته. أبي أكل منه، لكني لم أستطع. بالطبع لم أمس الصخرة وقتها. عندما تمس الصخرة.. تعانقها.. هل تفهم؟ تعرف الكثير من الأمور. تجعلك أكثر جوعًا رغم هذا. كما يقول أبي: «الإنسان لحم، وعليه أن يقتات على لحم» بعدما ذهبنا إلى الصخرة افترقنا لكنه قال إننا سنعثر على بعضنا مرَّة أخرى في أي وقت نريد.

- فريدي؟

- كان كلبنا. كان ماهرًا مثل كلاب السينما. من السهل العثور على المخلوقات هنا بمجرَّد أن تموت. الحقل لا يحرِّك الموتى.

لمعت عيناه بآخر ضوء في النهار، ثمَّ نظر إلى الغراب الذي يحمله كال الآن.

- أعتقد أن أغلب الطيور تبتعد عن الحقل، لكن بعضها لا يُنصت. الغربان لا تنصت أبدًا لأنني وجدت عددًا منها هنا. يجولون في المكان فترة ثمَّ تعثر عليهم.

- توبين، هل استدرجتنا إلى هنا؟ أخبرني الحقيقة ولن أغضب. أراهن أن أباك أرغمك على ذلك.

- سمعنا مَن يصرخ. فتاة صغيرة تقول إنها تائهة. هكذا دخلنا إلى الحقل، وهكذا يستدرج الحقل الناس. أعتقد أن أبي قتل أختك.

- كيف عرفت أنها أختي؟

أجاب ببساطة: «الصخرة. الصخرة تعلمك كيفية فهم الحشائش، والحشائش العالية تعرف كل شيء».

مكتبة ياسمين

- إذَنْ لا بُدَّ أنك تعرف إن كانت ميتة أو لا.

- يمكنني معرفة ذلك. بل يمكنني فعل ما هو أفضل. سأريك. هل تريد أن ترى؟ هل تريد أن تطمئن عليها؟ تعالَ. اتبعني.

دون انتظار رد، استدار الصبي ومشى عبر الحشائش. ألقى كال الغراب الميت واندفع خلفه خشية أن يفقد أثره وسط الحشائش. إن فعل، ربما يجوب إلى الأبد دون أن يعثر عليه مرَّة أخرى. وعد توبين أنه لن يغضب، لكنه بالفعل غاضب.. غاضب حقًّا. ليس إلى الحد الكافي لقتل طفل بالطبع (غالبًا ليس كافيًا) لكنه لن يترك يهوذا الصغير الواشي يبتعد عن عينيه.

لكنه فقد أثره لأن القمر بزغ فوق الحشائش، برتقاليًّا منتفخًا. بدا كأنه حامل. وعنما أنزل عينيه عنه كان توبين قد اختفى. أجبر ساقيه المنهكتين على الجري، ورئتيه على اختزان الهواء لينادي، إلا أن الحشائش انتهت، ووجد نفسه وسط مُنبسَط عارٍ بحق، وسطه صخرة سوداء عملاقة تنبت من الأرض بحجم شاحنة، منقوش عليها رسوم لرجال صغار راقصين باللون الأبيض، كأنهم يطفون.. كأنهم يتحرَّكون..

وقف توبين جواره ثمَّ وضع يده عليه. ارتجف لا من خوف، بل من نشوة.

- كم أن هذا الشعور رائع. تعال يا كال وجربه.

فسار كال نحو الصخرة.

انطلقت صافرة إنذار سيارة ثمَّ توقَّفت. اخترق الصوت أُذنَيْ بيكي لكنه لم يعنِ لها شيئًا. زحفت، وفعلت ذلك من دون تفكير. مع كل حركة تباغتها تقلُّصات جديدة. توقَّفت عن الحركة مُسندة رأسها إلى الوحل وموجِّهة ردفيها إلى الهواء، مثلها كمثل الساجدين. بعدما خفَّت التقلُّصات، زحفت مجدَّدًا. شعرها الملطَّخ بالطين ملتصق إلى وجهها، ساقاها مبلَّلتان بما يخرج منها

ولا تفكر فيه، وتعاملت معه مثلما تعاملت مع إنذار السيارة. لعقت الماء عن الحشائش في أثناء تحرُّكها، تدير رأسها يمنة ويسرة محرِّكة لسانها كثعبان.

بزغ القمر برتقاليًّا ضخمًا. أدارت رأسها لتنظر إليه، فضربها تقلص هائل، ولم يسكن. انقلبت على ظهرها وأنزلت سرواليها الطويل والتحتي فرأتهما مضمخين بالدماء.

الجنين!

رقدت على ظهرها وملابسها حول كاحليها وركبتاها متباعدتان. سائل لزج يخرج من بين ساقيها ويغطِّي أناملها. ثمَّ تقلص رحمها مرَّة أخرى وخرج شيء صلب كروي. جمجمة. لاءمت استدارتها انحناء كفِّها تمامًا. چوستين (لو أنها أنثى) أو برادي (لو أنه ذكر). لقد كذبت عليهم جميعًا بشأن قرارها؛ لقد عرفت منذ يوم حملها الأول أنها ستحتفظ بالطفل.

حاولت أن تصرخ لكن لم يصدر منها إلا صوت واهن. القمر يطل عليها كعين تنين مُحمرَّة. دفعت أكثر.. شيء تمزق من جسدها.. شيء انزلق. شيء خرج.. فجأة أصبحت خاوية.. خاوية للغاية، لكن على الأقل كفَّيها ملآنتان.

تحت ضوء القمر البرتقالي رفعت المولود إلى جسدها وهي تفكر: *لا بأس.. نساء حول العالم يلدن وسط الحقول.*

لقد رُزِقت چوستين.

- مرحبًا يا صغيرتي.. أنت صغيرة جدًّا..

وصامتة جدًّا.

↑↓

واضح مع الاقتراب أكثر أن هذه الصخرة ليست من كانساس، بل لها مظهر الحجر البركاني الزجاجي. أضفى القمر لمعانًا فائقًا على زواياها الحادة، فتألَّقت بألوان اللؤلؤي والأخضر.

الرجال والنساء المنقوشين على الصخرة يرقصون يدًا بيد بين الحشائش. لا يستطيع أن يحدد إن كانت تلك الأشكال محفورة على الصخرة أم مرسومة عليها.

من على مسافة ثماني خطوات بدت النقوش كأنما تطفو فوق سطح ذلك الجلمود الذي قد لا يكون حجرًا بركانيًّا رغم كل شيء.

من على مسافة ست خطوات، بدت النقوش معلَّقة تحت سطح الحجر الزجاجي كأنها هولوجرام، لا يمكن التحديق إليها أو إشاحة البصر عنها.

من على مسافة أربع خطوات من الصخرة أمكنه سماعها. يطنُّ الحجر باستمرار كأنه موصول بكهرباء. لكنه لم يشعر أن جهة وجهه اليسرى صارت وردية كأنما مصابة بحرق شمس.

ابتعد عنها. أبعد خاطره وانتصر فضوله، وما عادت قدماه قادرتين على الحركة إلى الخلف.

- ظننتك ستأخذني إلى بيكي.
- قلت إننا سنطمئن عليها. وها نحن نفعل بصحبة الصخرة.
- أنا لا أهتم لهذا الشيء اللعين.. أنا فقط أريد بيكي.
- لو مسست الصخرة لن تضل مرَّة أخرى. سوف تُنقَذ. أليس هذا عظيمًا؟

قالها ثمَّ انتزع الريشة السوداء العالقة في ركن فمه.

- كلا. لا أراه عظيمًا. أفضِّل أن أظل تائهًا.

ربما يكون هذا وليد خياله، لكن الطنين يعلو باضطراد. قال الولد: «لم يفضِّل أحد الضلال. بيكي لا تريد أن تظل تائهة. لقد أُجهِضت. لو لم تجدها فستموت على الأرجح».

- أنت تكذب.

قالها غير مقتنع بها. اقترب رُبع خطوة، فلمح ضوءًا يسطع من قلب الصخرة خلف النقوش الطافية. قال الولد: «أنا لا أكذب. انظر وستراها».

داخل قلب الصخرة رأى خطوط وجه بشري. ظن لأول وهلة أنه ينظر إلى انعكاس وجهه، ورغم التشابه لكنه لم يكن وجهه، بل وجه بيكي المُتألِّم المُتسخ.

- بيكي؟

همس بها كأنها ستسمعه. اقترب خطوة أخرى -لم يتمالك نفسه- وانحنى ليرى. كفاه مرفوعتان أمامه كأنه يمنع نفسه من الاقتراب، ولم يشعر بهما تتقشَّران بفعل ما يشعُّ من الصخرة.

يكفي، *ابتعد*. لكنه لم يبتعد، بل على العكس، انزلق كعباه كأنه يقف فوق منحدر ناعم زلق. الأرض مسطحة لكنه ينزلق لأن الصخرة استحوذت عليه بجاذبيتها الخاصَّة، وجذبته إليها كما يجذب المغناطيس برادة الحديد.

داخل كُرة الحجر البلورية رأى بيكي تفتح عينيها وتنظر إليه في ذعر وتعجب.

تزايد الأزيز في عقله، وتزايد معه الريح، وراحت الحشائش تتمايل في تناغم من جهة إلى الأخرى.

في آخر لحظة أدرك أن جلده يحترق بفعل ما يشعُّ حول الصخرة. عرف ذلك عندما حاول لمس الصخرة وشعر كأنه يلمس قدر طهي حار.. فصرخ..

... ثمَّ صمت واختنق بصرخته.

الصخرة ليست ساخنة على الإطلاق، بل باردة.. باردة إلى حدٍّ منعش، فأسند وجهه عليها كحاجٍّ وصل أخيرًا إلى وجهته واستحق الراحة.

⟵ ⟶

عندما رفعت بيكي رأسها كانت الشمس تغرب أو تشرق، ومعدتها تؤلمها. مسحت العرق عن وجهها بظهر كفِّها، وحاولت النهوض وسارت على العشب في خط مستقيم نحو السيارة. ارتاحت عندما اكتشفت أن المفاتيح ما زالت معلقة داخل السيارة.

خرجت بيكي من ساحة الانتظار وانطلقت في الطريق بسرعة معتدلة.

في البداية لم تكن تعرف وجهتها. صعب التفكير في أي شيء مع ألم بطنها الذي يداهمها على هيئة موجات، أحيانًا قوية وأحيانًا ضعيفة. وجهها ساخن محموم، ولم تُهدئ من حرارته القيادة والنافذة مفتوحة.

الليل يحل، والنهار المُحتضر له رائحة العشب المجزوز حديثًا وحفلات الشواء وعطر الفتيات ولعب كرة القاعدة. قطعت طرق دُرهام وسط الضوء المحمر والشمس التي تحوَّلت إلى بقعة دم في الأفق. أبحرت عبر شارع ستراثام حيث كانت تتسكَّع مع فريق الجري في المدرسة الثانوية. استدارت عند ملعب كرة القاعدة. الأولاد يتصايحون. شخص يعدو قاطعًا الملعب.

قادت بيكي السيارة شاردة، تهمهم بإحدى أغنياتها الهزلية، نصف واعية لما تفعل. تنشد أغنية من أقدم ما تعلَّمت في أثناء فترة البحث في الجامعة. أغنية عن فتاة اختبأت وسط الحشائش العالية.

«في مرَّة اختبأت فتاة وسط الحشائش العالية.

واستدرجت ولدًا يمُرُّ من هناك، مثل أسد يترصَّد غزالًا.

تساقط رجال كثيرون، كل منهم طعمه أشهى من سابقه».

فتاة.. فتاتها. ثمَّ فكرت فيما تفعل. هي تدور بحثًا عن فتاتها التي من المفترض أن تراعها وترضعها الآن. أوه، يا يسوع.. يا لها من فوضى خبيثة. الفتاة تاهت منها وعليها أن تعثر عليها قبل أن يعود والداها، والظلام يحل سريعًا، وهي حتَّى لا تذكر اسم اللعينة الصغيرة.

جاهدت كي تتذكَّر كيف حدث هذا. للحظة بدا لها الماضي القريب خاويًا حد الجنون. ثمَّ تذكَّرت أن الفتاة أرادت ركوب الأرجوحة في الباحة الخلفية، وسمحت لها بيكي بهذا دون أن تلتفت إلى الأمر. كانت تراسل تراڤيس مَكِّين عبر هاتفها المحمول، ويتشاجران حتَّى إنها لم تسمع صوت الباب الخلفي يُغلَق.

ماذا سأخبر أمي؟ لا أعرف حتَّى إن كنت أريد استكمال الدراسة الجامعية ناهيكِ بتأسيس عائلة. لو تزوَّجنا، هل أنا مضطرٌّ إلى الزواج من أخيكِ أيضًا؟ هو دائمًا في الجوار، يجلس على فراشك ويقرأ مجلاتك. أتعجَّب كيف لم يحضر ليلة جعلتك تحملين. إن كنت تريدين عائلة فأسسيها معه.

ما كتبه لها دفعها لضرب هاتفها بالحائط، مُتسبِّبة في انبعاج الطلاء. تمنَّت أن يعود الأبوان ثملين فلا يلاحظان. (من هم الوالدان على أي حال؟ بيت مَن هذا؟) نظرت بيكي عبر النافذة المطلة على الباحة الخلفية، تبعد شعرها عن وجهها، تحاول تهدئة نفسها.. ورأت الأرجوحة خالية، تتأرجح وسط النسيم، والبوابة الخلفية مفتوحة.

خرجت إلى الليل المعطر برائحة الياسمين وصرخت منادية الفتاة في كل مكان. صرخت حتَّى آلمتها معدتها. وقفت وسط الطريق الخالي وهتفت: «مهلًا! أيتها الفتاة!».

عادت أدراجها تبحث عن الفتاة بين العشب، وعن مسؤوليتها المُهدرة. ركبت سيارتها وقادت بلا هدف، تبحث في ذعر حيواني وتفتش الشوارع والطرقات. لقد فقدت فتاتها. فتاتها ضاعت منها. تُرى ماذا يحدث لها الآن؟ الجهل بما يحدث أثار معدتها فآلمتها بشدة.

عاصفة من طيور صغيرة تطير فوق الطريق المظلم.

حلقها جافٌ وعطشى إلى درجة تفوق احتمالها.

الألم يطعنها مرارًا..

عندما عبرت بجوار ملعب كرة القاعدة للمرَّة الثانية، وجدت اللاعبين قد عادوا إلى منازلهم، وأوقِف اللعب بسبب الظلام.. وهنا سمعت صوت صياح طفل.

صاحت الطفلة: «بيكي! وقت الطعام!».

كأن بيكي هي التي ضلَّت طرقها. صاحت الأخيرة بدورها وهي توقف سيارتها جوار الرصيف: «ماذا تفعلين أيتها الفتاة الصغيرة؟ تعالي إلى هنا فورًا!».

هتفت الفتاة بصوت لعوب مرح: «تعالي واعثري عليَّ! اتبعي صوتي!».

بدا أن الصوت يأتي من الجهة البعيدة من الملعب. العشب عالٍ. ألم تبحث هناك بالفعل؟ ألم تضل وسط الحشائش؟

عبرت بيكي الملعب، سارت بضع خطوات ثمَّ شعرت بألم يمزِّق رحمها، فصرخت. الفتاة تغنِّي أغنية هزلية بصوت عالٍ، تكاد تسطر على ضحكاتها.

- كان من ليدز فلاح عجوز!

قل شعورها بالألم، فخطت مرَّة أخرى إلى الأمام، فعاد الألم فورًا أسوأ من ذي قبل، مع تمزق شيء بداخلها، أمعاؤها ربما.

- ابتلع كيسًا مليئًا ببذور الموز!

انتحبت بيكي ألمًا.. الحشائش بعيدة عنها جدًّا.

- فنبتت مباشرة من مؤخرته، أعواد الحشائش..

ضربة ألم أخرى أسقطتها أرضًا..

- وغطَّت خصيتيه شعيرات عشب جافٍّ هائش!

قبضت بيكي على بطنها الخاوي المترهِّل وأغلقت عينيها وانتظرت أن يختفي الألم، وحين شعرت بتحسُّن.. فتحت عينيها..

↑↓

ورأت كال هناك يقف وسط ضوء الفجر ينظر إليها، عيناه حادَّتان منتبهتان.

- لا تحاولي الحركة. ارتاحي قليلًا. أنا هنا.

ركع بجوارها، عاري الجذع. صدره النحيل بلون أبيض شاحب في هذه الإضاءة. بشرته مصابة بحروق شمس قوية، لكن فيما عدا هذا بدا مرتاحًا وفي حال جيد.

- الطفل..

ولم يخرج منها ما هو أكثر من صوت حشرجات.

- هل تشعرين بالعطش؟ أراهن على ذلك. خذي هذا، ضعيه في فمك.

دسَّ في فمها جزءًا مبتلًا من قميصه، فشربت في نهم رضيع يتوق إلى حليب أمه.

- كفى، لا مزيد من الماء الآن. ستمرضين.

أخذ منها القميص المبلَّل وتركها تشهق كسمكة خارج الماء.

همست: «المولود».

ابتسم لها كال وقال: «أليست رائعة؟ هي معي. لذيذة ككعكة خرجت لتوِّها من الفُرن!».

مدَّ ذراعيه إلى ما وراءها ثمَّ رفع شيئًا ملفوفًا في قميص شخص آخر. رأت لمحة من أنف مزرقٍّ تطل من بين الأكفان.. لا، ليست أكفانًا.. الأكفان للموتى. الصغيرة ملفوفة في قِماط. لقد ولدت هنا وسط الحشائش العالية، ولم تحتج حتَّى إلى مذوَد.

تحدَّث كال كعادته، كأنه يقرأ أفكارها.

- ألا تشبهين مريم العذراء؟ أتساءل متى سيظهر الحُكماء! أتساءل أي هدايا سيأتون لنا بها!

طفل مصاب بحروق الشمس يقف خلف كال، عاري الجذع مثله. يبدو أن الطفلة ملفوفة في قميصه. انحنى مستندًا إلى ركبتيه ونظر إلى مولودتها في قماطها.

سأله كال: «أليست رائعة؟».

- شهية.

وأغلقت بيكي عينيها.

→ ←

قادت السيارة والنافذة مفتوحة. الهواء يداعب شعرها ويبعده عن وجهها. الحشائش العالية على جانبي الطريق تمتدُّ أمامها بلا نهاية.

راحت تغنِّي لنفسها: «في مرَّة اختبأت فتاة وسط الحشائش العالية. وترصَّدت شابًّا يعبر في الجوار».

وتمايلت الحشائش تخدش السماء.

← ←

فتحت عينيها بعد لحظات.

أخوها يحمل ساق دمية في يد متسخة بالطين. نظر إليها نظرة حمقاء مُعجبة وهو يلوك ما في يده. الساق تبدو حية، مكتنزة، صغيرة لها لون مزرق غريب، لون الحليب المُتجمِّد. *كال، لا يمكنك أكل البلاستيك*. لم تقل ما فكَّرت فيه، فهذا يحتاج إلى طاقة لا تمتلكها.

الولد يجلس بجواره يلعق شيئًا عن كفيه. لا بُدَّ أنه هلام بالفراولة.

رائحة حادَّة تحيط بها، كأنها رائحة علبة سمك محفوظ مفتوحة حديثًا. هي جائعة، لكنها لا تستطيع الكلام. أغمضت عينيها وغاصت في النوم مرَّة أخرى.

← ← ←

هذه المرَّة بلا أحلام.

⟵ ⟵ ⟵ ⟵

من مكان ما نبح كلب (غوب غوب غوب) ثمَّ هوت مطرقة مرَّة تلوى الأخرى، فاستيقظت بيكي.

شفتاها جافَّتان مشقَّقتان، وقد عطشت مرَّة أخرى وجاعت إلى حدٍّ غير مسبوق. همست: «كال؟».

قال وهو يضع شيئًا مالحًا باردًا في فمها: «تحتاجين إلى طعام».

أصابعه ملطخة بالدماء. لو أنها في وضع عقلي طبيعي لتقيَّأت، لكن الطعم جيد.. شيء طري حلو ومالح أشبه بالسردين وله رائحته. بعدها امتصَّت ما استطاعت من قميص كال المبتل.

أصاب كال الفواق وهو يأكل الشيء الطري الطويل في فمها، والذي يشبه المكرونة الاسباجيتي. له طعم لاذع مُرٌّ بعد ابتلاعه، لكن بشكل ما شهي. بدا صوت فواق كال أقرب إلى انتحابة ضحك.

قال الولد وهو يميل على كتف كال: «أعطِها قطعة أخرى».

فأعطاها كال قطعة أخرى.

- يَم يَم.. ابتلعي هذه الصغيرة..

فابتعلت ثمَّ أغلقت عينيها.

⟵ ⟵ ⟵ ⟵ ⟶

عندما استيقظت في المرَّة التالية، وجدت نفسها مرتكنة إلى كتف كال، وتتحرَّك. يتأرجح رأسها وتؤلمها معدتها مع كل خطوة.

همست: «هل أكلنا؟».

- شيء شهي.

- كال، ماذا أكلنا؟

لم يُجبها. أزاح ساتر حشائش ملطخ بقطرات بنية، ثمَّ خرج إلى المساحة المنبسطة الخالية، والحجر الضخم يتوسَّطها وجواره طفل.

لكنها لم تكن صخرة. لا يمكنك أن تطارد صخرة. لقد كانت فتاة.

فتاة.. فتاتي.. مسؤوليتي..

ضربته بقبضتيها وهي تصرخ: «ماذا أكلنا؟! أوه، إلهي! إلهي!».

أنزلها على الأرض ثمَّ نظر إليها مدهوشًا في البداية ثمَّ مستمتعًا.

- ماذا تظنينا قد أكلنا؟

نظر إلى الولد الذي كان مبتسمًا يهز رأسه كمن سمع شيئًا مضحكًا حقًّا.

- بيكي، حبيبتي.. لقد أكلنا بعض الحشائش والبذور. البقر يأكل هذه الأشياء دائمًا.

غنَّى الطفل: «كان من ليدز فلاح عجوز».

ثمَّ غطَّى فمه بكفيه مخفيًا ضحكة. أصابعه حمراء.

- لا أصدِّقك.

صوتها واهن. نظرت إلى الصخرة المغطَّاة بنقوش راقصين، بل بدا كأنهم يرقصون بالفعل في هذه الإضاءة، يرقصون ويتحرَّكون ويدورون..

- حقًّا يا بيكي. المولودة.. رائعة! في أمان. المسي الصخرة وسترين. ستفهمين. المسي الصخرة وسوف..

نظر إلى الصبي، فصرخ: «ستُنقذين!».

ثمَّ ضحكا معًا.

سارت نحوه... مدت يدها... ثمَّ سحبتها. ما أكلته سابقًا لا يشبه طعم العشب، بل طعم السردين، مثل..

مثلي، *كأنني كنت ألعق العرق عن جسدي. أو.. أو..*

بدأت تصرخ. حاولت الهرب، لكن كال أمسك إحدى ذراعيها وتوبين أمسك الأخرى. المفترض أن تستطيع التملُّص من قبضة الطفل على الأقل، لكنها واهنة.. والصخرة.. الصخرة تجذبها..

همس كال: «المسيها. سيتوقَّف شعورك بالحزن وسترين أن الفتاة بخير. چوستين الصغيرة. هي في حال أفضل ممَّا تتصوَّرين. لقد صارت كيانًا لا يُصدَّق».

قال توبين: «أجل. المسي الصخرة ولن تضلِّي أبدًا. ستفهمين الحشائش وستصبحين جزءًا منها، كما أن چوستين جزء منها».

اصطحباها إلى الصخرة التي طنَّت في سعادة، وأشرق من داخلها أغرب ضوء يراه بشري. رقصت النقوش ورفع الرجال والنساء الصغار أيديهم إلى أعلى على خلفية موسيقية.

فكَّرت بيكي: «*كل لحم هو حشائش في الأصل*».

ثمَّ ضمَّت بيكي ديمُث الحجر إلى صدرها.

➞ ➞ ➞ ➞ ➞

هناك سبعة منهم داخل السيارة العتيقة التي تحملهم، تلتصق أجزاؤهم ببعضها بالسلك واللعاب و -ربما- نواتج المخدرات التي دُخِّنَت في الماضي داخل هذه الحوائط الصدئة. السيارة مزدانة برسوم الهيبيز من الخارج.

خاضت العائلة رحلة طويلة، زاروا فيها التنين المعدني وكُرة الخيوط العملاقة، وكلهم الآن جوعى.

تويستا -أصغرهم سنًّا- أول مَن لمح كنيسة صخرة المُخلِّص السوداء، ببرجها الشاهق وساحة انتظارها. صاح من مجلسه بجوار بابا كول الذي يقود السيارة: «نزهة في الكنيسة!» وظل يردِّدها وهو يتقافز جالسًا. ردَّد إخوته العبارة مثله، فنظر بابا إلى ماما عبر مرآة السيارة، فهزَّت كتفيها ثمَّ أومأت.

أوقف السيارة في ساحة الانتظار خلف السيارة الـ «مازدا» التي تحمل لوحات نيو هامبشير.

يرتدي آل برانكستر قمصانًا عليها رسم كرة الخيوط العملاقة. خرج الصغار ماري كات، وچيبستر، وإليانور رِجبي، وفرانكي، وتويستا، منتظرين تلقِّي الأوامر من رُبانَي السيارة؛ الأم والأب. كان هذا حين سمعوا صوتًا خافتًا..

- النجدة! النجدة! ليساعدني أحد!

قالت إليانور: «هذا صوت امرأة».

- النجدة! ليساعدني أحد! أنا تائهة!

قال تويستا: «ليس صوت امرأة، بل طفل صغير».

غمغمت ماري كيت: «بعيدًا».

نظر بابا إلى ماما، اللذان يقتربان من عمر الستين، وعاشا معًا طويلًا حتَّى نما بينهما تخاطرٌ عقليٌّ زوجيٌّ.

قالت ماما كول: «يبدو أن طفلًا تاه وسط الحشائش».

قال بابا كول: «والأم سمعته يستغيث فتبعته».

قالت ماما كول: «ربما هم قصار القامة فلا يستطيعون رؤية الطريق إلى الخارج.. والآن».

أنهى بابا كول عبارتها: «ضلَّا الطريق».

هتف چيبستر: «هذا سيئ. لقد ضللت طريقي مرَّة داخل المركز التجاري».

غمغمت ماري كيت: «بعيدًا».

صرخت المرأة: «النجدة!».

قال بابا: «لنذهب إليهم ونُخرجهم ونُطعمهم».

قال ويز: «فكرة جيدة. يا لطيبة البشر.. طيبة البشر اللعينة».

لم ترتدِ ماما كول ساعة يد منذ سنوات، لكنها تستطيع تحديد الوقت ببراعة. نظرت إلى الشمس مضيِّقة عينيها، وقاست المسافة بين القرص الأحمر وحقل الحشائش الممتدِّ نحو الأفق. فكَّرت: *يبدو أن كانساس كانت عبارة عن حقول ممتدَّة قبل أن يدخلها البشر ويفسدونها.*

قالت: «هذه فكرة جيدة. الساعة تقترب من الثالثة والنصف، وأراهن أنهم جوعى وعطشى. مَن سيبقى منكم ويُعِدُّ الشواء في ساحة الكنيسة حتَّى نعود؟».

لم يتطوَّع أحد. الكل جائع، لكنهم لا يريدون أن يفوِّتوا مهمَّة الإنقاذ. في النهاية، عبروا الطريق رقم 73، وولجوا إلى ما وراء الحشائش العالية.

←←←←

ملاحظات عن القصص

ذكرتُ في المقدِّمة عددًا من الفنانين الذين تأثَّرت بهم. نسيت واحدًا، وهو الروائي بيرنارد مالامود، كاتب روايتي «المُساعد» و«المُصلِح»، والذي طرح من قبل فكرة أن جثَّة في تابوت هي قطعة من الفن الرفيع بناء على المحتوى والسياق الذي ستستخدمها فيه.

أول قصَّة قصيرة جيدة كتبتها اسمها «فن شعبي»، تأثَّرت فيها بشدَّة بمجموعة القصص «الطائر البحري» لمالامود، وتطوَّرت رؤيتي للمجموعات القصصية بناء عليها. المجموعة القصصية ليست رواية، ولا يمكن أن تُصاغ بالسرد الروائي البسيط نفسه، ويجب أن تكون موصولة بشكل ما. الأمر أشبه برحلة طويلة تبيت فيها كل ليلة في فندق مختلف. تبيت ليلة في فندق مسكون من طراز ڤيكتوري، وليلة أخرى في نُزُل سقف حجراته مبقَّعة بالدماء. الأماكن التي تتوقَّف فيها للراحة فريدة ومميزة، كان الطريق واحدًا، ينتظرك لينقلك من مكان إلى آخر، وعندما ينتهي تجد نفسك قد وصلت إلى وجهة جديدة، ومنظر مميز. مكان تأخذ فيه شهيقًا عميقًا وتهضم كل ما مررت به ببطء.

أتمنَّى أن يكون الطريق ممتعًا، وأتمنَّى أن تكون قد قطعته بأقصى سرعة. احتاج الطريق إلى وقت أطول بالنسبة لي؛ كتبت أول رواية من هذه المجموعة عام 2004، وكتبت آخرها قبل أشهر قليلة من النشر. مر عِقد تقريبًا، وهو الوقت نفسه الذي احتجت إليه لكتابة مجموعتي القصصية الأخرى «أشباح القرن العشرين». بهذا المُعدَّل (وبعيدًا عن الطوارئ والحوادث القاتلة) يمكن القول إنني سأكتب من ثلاثين إلى خمسين قصَّة أخرى قبل أن أموت.

يمكن اعتبار هذا شكوى متأخِّرة.

بعض القرَّاء يتوقون إلى معرفة كواليس الكتابة، وما دار في عقل الكتاب وقتها، وتفاصيل القصص نفسها ومنطقها. ليس لديَّ الإجابات كلها، لكن لديَّ بعضها فقط.

يمكن للمهتمِّين بالإجابات متابعة القراءة، أما مَن اكتفوا بالرحلة عند هذا الحد، فشكرًا لهم.

المقدِّمة: مَن أبوك؟

أسمعكم تهتفون: «ماذا؟ للمقدمة قصَّة وكواليس؟» أجل، لكن يمكن القول إنها حديث عن بعض الأفكار التي كانت تراودني منذ سنوات. عناصر المقدِّمة ظهرت في مقالات سابقة لكن بشكل مختلف. منها مقالي «الشاحنة»، و«البلطجية»، وأعتقد أنني أيضًا تحدَّثت عن تأثير توم سافيني على كتاباتي في مكان ما. لديَّ قصص لا تنتهي عن نفسي، ويمكنني حكيها بطرق مختلفة عشرات المرَّات.

عاد ريتشارد ماثيسون من الحرب العالمية الثانية وجلس أمام آلة كتابته، فأبدع قصصًا شائقة مثل: «أنا الأسطورة»، و«الرجل المنكمش العجيب»، و«أسطورة منزل التل». رغم أن هذه تيمات مفضَّلة، كتب في أدب الجريمة وأدب الغرب، والخيال العلمي، وشارك في كتابة واحدة من أفضل حلقات مسلسل «رحلة النجوم»، وترك بصمة عظيمة على أدب الرعب. قصص ريتشارد ماثيسون تتحرَّك بقوة شاحنة ذات ثمانية عشر إطار، تنزل تلًّا، من دون مكابح. ليكن الله في عون أي من يعترض طريقها.

من أبرز قصص ماثيسون «ثنائي»، تتحدَّث عن شاحنة مجنونة كعدوٍّ للبطل، وكانت هي مصدر إلهام سبيلبرج وفيلمه الذي ذكرته في المقدِّمة.

في عام 2008، طُلِب منِّي كتابة قصَّة على شرف أعمال ماثيسون. الفكرة هي اختيار عدد من الكتاب لعدد من قصص ماثيسون وإعادة سردها في اتجاه مختلف غير مُتوقَّع. لم أحتج إلى إقناع، فقد عرفت ما سأكتب قبل أن أنهي حتَّى قراءة الرسالة الإلكترونية. على الفور تخيَّلت قصَّة عن سائق مجهول يطارد مجموعة درَّاجين خارجين عن القانون، وتتطوَّر المطادرة إلى حرب وسط الرمال.

فطنت سريعًا إلى أن أمامي مشكلة واحدة تعيق كتابتي هذه القصَّة؛ أنا لم أركب درَّاجة بخارية في حياتي، لكن أبي فعلها، وكان يركب الدرجات البخارية منذ كان في الثالثة عشرة. لذا، حكيت له فكرتي وسألته إن كان يرغب في كتابتها معي، فوافق، وها نحن نلعب لعبة الشاحنة مرَّة أخرى بعد ستة وعشرين عامًا من آخر مرَّة.

في الصيف الذي تلا كتابة هذه القصَّة، حصلت على ترخيص قيادة درَّاجة بخارية، واشتريت واحدة من طراز «تريَمف بونڤيل»، لكن أبي يحب درَّاجات «هارلي» أكثر. خرجنا في رحلة على ظهر الدرَّاجتين، وقضينا وقتًا رائعًا. عندما عدنا قال لي: «دراجتك محترمة، حتَّى وإن كان صوت محرِّكها يشبه صوت محرِّك ماكينات الحياكة».

دوَّارة الملاهي الخبيثة

كما ذكرت، المجموعة القصصية ليست رواية، لكنها سلسلة متصلة، قصَّة تؤدِّي إلى أخرى. لذا، اخترت أول قصَّة كتبتها مع أبي؛ «دوارة الملاهي الخبيثة»، واعتبرها أكثر الروايات المستوحاة من عوالم ستيفن كينج التي خططتها على الورق، ولا أخجل من ذلك. ربما أعتبرها معالجة مختلفة لروايتي «ركوب الرصاصة»، و«ڤيرس الطريق ينتقل شمالًا». لا أحاول الهرب من القصص التي ألهمتني، ترك الرواية تتكوَّن ممَّا تريد التكُّون منه، حتَّى إنني سمَّيت الأخوين المنكوبين في القصَّة «رينشو» على اسم قاتل أجير من قصة أبي «أرض المعركة»، وأرى منها أصداء في «دوَّارة الملاهي الخبيثة» أيضًا.

يعيد الموسيقيون توزيع أغانٍ لمطربيهم المفضَّلين، ويغنُّونها بأشكال مختلفة ولا يلومهم أحد، لكن ليست للكُتَّاب تلك المزية (عندما ينقل كاتب عبارة من كاتب آخر، يُعَدُّ هذا سرقة أدبية، وسيتواصل معك كاتبك المفضَّل من خلال محام)، فلا يكون أمامهم إلا المحاكاة الأدبية.. أقل تشابهًا مع النص الأصلي، وأقرب إلى تمثيل دور شخصية حقيقية (جاري أولدمان يمثل شخصية تشرشل، ورامي مالك في دور فريدي ميركوري).

أطلِقَت قصَّة «دوَّارة الملاهي الخبيثة» في البداية كتابًا صوتيًّا على أسطوانة، بقراءة نيت كوردري. كم أن هذا رائعًا! وبينما نتحدَّث عن إعادة تقديم الموسيقيين لأغانيهم المفضَّلة، أذكر أن غلاف الأسطوانة كان مستوحًى من غلاف أسطوانة «الخيول الجامحة» لفريق رولينج ستونز. الأمر يستحقّ البحث عن نسخة في سوق المستعمل وسماعها، فقارئ القصَّة استطاع دمج مشاعر قصتي وشجن أغاني رولينج ستونز بمهارة عظيمة.

محطَّة وُلفيرتون

كتبت هذه القصَّة في أثناء جولتي الترويجية في المملكة المتحدة لروايتي «قرنين». أمضيت هذه الأيام بصحبة چون وير، مدير علاقات عامة، ظريف، متواضع، انتشلني من طريق حافلة ذات طابقين كادت تدهمني في أول أيام جولتي. ارتعب بعدها وجلس على الرصيف حتَّى تمالك أعصابه.

أمضينا أغلب الأسبوع في القطارات التي توصلنا من مكان إلى آخر عبر البلاد. في إحدى الرحلات لمحت لافتة محطَّة تحمل اسم «ولڤيرهامبتُن»، وفجأة خطرت لي القصَّة.

زُرنا أنا وچون مكتبة في الظهيرة لتوقيع نُسخ كتابي، وبينما أنا هناك اشتريت دفترًا. أول مسوَّدة لقصَّة «محطَّة وُلڤيرتون» كُتبت في خلال الأيام الخمسة التالية في أثناء ارتحالنا بالقطار. لم أكن لألحظ مرورنا بمدرسة هوجورتس نفسها من شدَّة تركيزي في الكتابة.

وأين انتهت القصَّة؟ انتهت بالضبط حين زُرت حانة «مذؤوب أمريكي في لندن»!

المشروبات على حسابي يا شباب!

كما كُتبت «بأقصى سُرعة» على شرف ريتشارد ماثيسون، فقصَّة البحيرة مستوحاة من رواية «صافرة الضباب» للروائي راي برادبِري.

عشت طفولتي في ولاية مَين، لكن أول ذكرياتي عن المملكة المتحدة، بعد ولادة أخي الأصغر أوين. والداي كانا مهووسين بِفكر الهيبيز، وبعد تولِّي فورد الرئاسة رغبا في الرحيل عن الولايات المتحدة. أظن أبي أيضًا أعجبته فكرة الكاتب المُغترَب، اقتداءً بهيمنجواي أو دوس باسُّوس، لذا نقلنا جميعًا إلى منزل مظلم رطب خارج لندن.

كنت طفلًا وقتها مبهورًا باحتمالية وجود ديناصور تحت ماء بحيرة لوك نِس، ولم أخرس عن الثرثرة عن الفكرة. أخيرًا شحنتني أمي مع أخي وأختي وركبنا القطار إلى اسكتلندا، ومكث أبي مع الكاتب بيتر سترَوب يشربان البيرة.

هناك، واجهنا أمطارًا قوية والطريق إلى البحيرة غارق بالماء. قطعنا نصف المسافة إلى هنا ثمَّ اضطررنا إلى العودة. وكانت هذه هي أولى ذكريات طفولتي؛ المطر يهطل على نافذة السيارة الأمامية، السيول تغرق الأسفلت، أقماع المرور البرتقالية تغلق الطريق.

ثمَّ لاحقًا تذكَّرت رعدة الرهبة التي تملَّكتني حين لمحت بُرج نُصب والتر سكوت التذكاري القوطي المرعب يطعن بطن السحب الحُبلى بالأمطار.

بعد عقود، وفي أثناء جولتي مع چون وير الترويجية، لمحت النصب التذكاري فعادت لي فجأة ذكريات ذاك اليوم، وأدركت أنني أحببت الوحوش والرعب حتَّى وأنا في السادسة.

راودتني ذكرى تلك الرحلة لأيام، وفي نهاية الجولة الترويجية خطرت لي فكرة قصَّة لن أكتبها أبدًا، عن أطفال عثروا على جثة وحش لوك نِس. يمكنني الكتابة عن الأطفال والوحش، لكني لن أستطيع الكتابة عن اسكتلندا بشكل مُقنِع.

لأمريكا بعض وحوش بحيرات أيضًا أشهرها وحش بحيرة شامب، إذ شاع وجود ديناصور مائي يجوب أرجاءها. صادفني مقال من منتصف الثلاثينيات يذكر اصطدام قارب بجثة مخلوق مائي ضخم في البحيرة ممَّا تسبَّب في

ضرر هائل للقارب العملاق. في لحظة خطر لي تفسير لموت المخلوق، وطريقة لنقل القصَّة إلى داخل الولايات المتحدة حيث أستطيع الكتابة بشكل أفضل ووصف الأماكن بدقة. أضفت بعض التفاصيل المُهداة إلى راي برادبِري والمستوحاة من أدبه، ذلك الأديب العظيم الذي ساعدني على العثور على صوتي الخاص في الكتابة.

أحيانًا أرى الحياة روايةً، فصولها الأولى تلقي ظلالها على الفصول التالية. منذ زمن بعيد أمضيت أسبوعًا مع توم ساڤيني، فأوحى إليَّ بما أود أن أكونه حين أكبر، وهكذا تستمر الدائرة.

فَون

هذه القصَّة على سبيل المثال، مستوحاة بوعي كامل من قصة راي برادبِري «هزيم الرعد». في روايات «ساحر أوز»، و«نارنيا»، و«بلاد العجائب»، الباب السحري المفضي إلى عالم آخر لا يكتشفه إلا طفل في حاجة شديدة إلى شيء ما؛ تعلُّم قيمة البيت، أو خدمة هدف أسمى، أو تفادي المخاوف. لم أكُف عن التساؤل فيما قد يحدث لو أن شخصًا أكبر بقيم وأخلاق وماضي أكثر تعقيدًا وجد بابًا كهذا.

ثمَّة ما أدين به أيضًا في هذه القصَّة لكتابات ك. س. لويس، لكن الفضل الأكبر لكتابات لورانس بلوك الذي يميل دائمًا لتغيير مجرى الأحداث إلى آخر غير مُتوقَّع قرب النهاية.

أتمنَّى أن تعكس قصَّة «فَون» قيمته الروائية وطريقته في الكتابة.

العائدون

أكره أن أموت وأنا لم أُنهِ قراءة رواية جيدة بعد.

كل ما يُهمُّني: أنتِ

في يوم من الأيام سأتعلَّم كتبة قصة بنهاية سعيدة.

كتبت كثيرًا في هذه المجموعة عن الآباء الخلَّاقين وأهمية القدوة. على أي حالة، للفيلسوف نيتشه مقولة: «يخون المرء مجهود معلِّمه لو بقي دائمًا تلميذًا». قصَّة «كل ما يُهمُّني؛ أنتِ» هي قصَّتي وحدي، لها أفكارها وإيقاعها ونسيجها العاطفي. استوحيَت الرواية من رسومات ديڤ مَكِّين، وكانت لها مسوَّدة مختلفة قبل شكلها النهائي، وكأن الرسَّام قد عرف أنني سأكتبها يومًا، أو لعله عرف بالفعل.

أنا لا أمزح. أفضل القطع الفنية تتناسب مع سياق الزمن بشكل مختلف عن تناسُب البشر. القطعة الفنية الواحدة قد تعني أمورًا مختلفة لأشخاص مختلفين عبر الأزمنة، وكل هذه المعاني حقيقية ولو تناقضت مع بعضها بعضًا. لم يعرف مَكِّين ما سأكتبه، ولم يحتَج إلى ذلك. لقد عرف خياله ما قد يُكتب في المستقبل، وكان هذا كافيًا.

بصمة إبهام

«بصمة إبهام» هي أقدم قصص هذه المجموعة، كتبتها في عام 2006 بعد إصدار مجموعتي «أشباح القرن العشرين»، وقبل نشر روايتي «صندوق على شكل قلب». وقتها كنت بالكاد أدرك أنني في ورطة. على الصعيد العملي كنت في أوج نجاحي، لكن على الصعيد النفسي كنت أصارع اضطراب القلق ورغبة ضاغطة في كتابة رواية. كنت قد بدأت بالفعل روايتين لكنني لم أكمل بعد الصفحة العاشرة. تنتعش القصص وتحيا، ثمَّ سرعان ما تخفت وتموت مع أولى خطواتها. «بصمة إبهام» هي الوحيدة التي اكتملت، وهي قصَّة عن امرأة قوية قاسية تعود من العراق بلا وعي مخضَّب بالدماء، لتجد مَن يترصَّدها في الولايات المتحدة. نشرت القصَّة عام 2007 في جريدة «بوست سكربتس»، ثمَّ استوحى منها كاتب القصص المصورة چيسون تشاراميلًا والرسامة ڤيك مالوترا قصَّة قاسية تُركِّز على الحرب أكثر من السلام.

الشيطان في بئر السلم

أراهن

أن هذه

القصَّة الوحيدة

التي قرأتها مكتوبة

على سلالم بدلًا عن الأسطر.

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

كتبت أول مسوَّدة لهذا القصَّة بينما كنت في أجازة في «بوسيتانو»، ولأنها كانت عطلة طويلة لم أنوِ أن أكتب أي شيء، فتعريف العطلة هو: «فترة زمنية تقضيها بلا عمل». إلا أنني لا أشعر بالسلام وأنا ممتنع عن الكتابة. بعد يومين من بداية الأجازة، كنت أصعد سلالم «أمالفي» الشهيرة وخطرت لي هذه القصَّة، فبدأت كتابتها في اليوم التالي.

المسوَّدة الأولى بدت كأي قصَّة أخرى، ثمَّ بدأت أكتبها على آلة الكتابة، فبدا عنونها هكذا قبل أن أُعدِّله إلى منتصف الصفحة:

الشيطان

في بئر السلم

منظره بدا لي أشبه بدرجتي سلَّم، فبدأت أكتب قصَّتي صعودًا وهبوطًا على الدرجات.

تويتات من سيرك الموتى

ارتكبت خطأً واحدًا عندما كتبت هذه القصَّة. وقتها تخيَّلت أن مواقع التواصل الاجتماعي قد تنقذ شخصًا من مواجهة أسراب الموتى الأحياء. الحقيقة التي اكتشفتها الآن، في عام 2019، أن مواقع التواصل الاجتماعي لن تنقذنا من الموتى الأحياء، بل تحوِّلنا إلى قطيع منهم.

الأمهات

أحيانًا ما أظن أن المحصول القومي الأمريكي ليس قمحًا ولا ذرة، بل جنون الاضطهاد.

وسط الحشائش العالية

في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور، خلق المخرج ڤينشينزو ناتالي معالجة لفيلم مستوحًى من هذه القصَّة ليُعرض على نتفلكس، وبحلول الوقت الذي سينشر فيه هذا الكتاب، سيكون الفيلم متاحًا للمشاهدة في 190 دولة. هذا نجاح عجيب بالنسبة لقصَّة كُتِبت في.. ستة أيام!

في هذه القصَّة وفي قصَّة «بأقصى سرعة»، ما مررت به من خلال الكتابة مع أبي لم يتغيَّر. هل شاهدتم من قبل حلقة من حلقات الرسوم المتحرِّكة «رود رَنَر»؟ دائمًا ما أشعر أنني مثل شخصية القيُّوط المربوط إلى صاروخ، لكن الصاروخ هنا هو أبي. خطرت لنا الفكرة ونحن نأكل الفطائر المُحلَّاة في متجر «بيت الفطائر العالمي». بدأنا الكتابة في اليوم التالي، ونُشرت القصَّة على جزءين في جريدة «إسكواير».

كتب أخي أوين مع أبي أيضًا رواية «الجميلات النائمات»، وهي قصَّة تتدفَّق بالإثارة والأفكار الغريبة والعجائب. لم يُربط أخي إلى صاروخ في أثناء كتابتها، بل إلى قاعدة إطلاق صواريخ باليستية! اقرؤوها.

أجمل أيامي هي نتاج كدح أقرب الأشخاص إليَّ: أبواي، أختي، أخي وأسرته. أود أيضًا أن أشكر أبنائي إيثان وآيدان ورايان على صبرهم وخفَّة ظلِّهم ومراعاتهم انشغال أبيهم الدائم. وأخيرًا أشكر چيليان لقبولها الزواج منِّي وسماحها لي بالدخول إلى حياتها والبقاء إلى جوارها. أحبكم كثيرًا. عندما نكون معًا، أشعر أنني ملك.

چو هيل

إيكستر، نيو هامبشير

2018